٢٢

تاريخ أوربا الحديثة
وآثار حضارتها

الجزء الثاني

تأليف

عمر الاسكندرى و سليم حسن

وبه بعض فصول تُرجمت بتصرف
عن مذكرات للميجر سِفِدْج

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية
و بمدرسة دار العلوم

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر
١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م

تاريخ أوربا الحديثة
وآثار حضارتها

الجزء الثاني

تأليف

عمر الاسكندري و سليم حسن

وبه بعض فصول تُرجمت بتصرف
عن مذكرات الميجر سَفِدْج

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية
و بمدرسة دار العلوم

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر
١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م

قره تيودوري باشا (بيده ريشة)   شوالوف   بسمرك   اندراسي   بيكنزفيلد   جرتشا كوف

صفحة ١٥٢

مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله متم الآلاء ، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء ، وعلى آله السادة النبلاء

وبعد فهذا هو الجزء الثانى من « تاريخ أوربا الحديثة » والحلقة الأخيرة من سلسلة كتب التاريخ التى أقرت وزارة المعارف المصرية تدريسها بمدارسها الثانوية وغيرها من المدارس الأميرية ، والتى يستوجب اتمامُها على المؤلفين الشكرَ لله عزّ وجلّ ، ولوزارة المعارف السنية ، لمعاضدتها لهم بتقرير دراستها فى مدارسها ، بل لوضعها لمدارسها الثانوية ذلك المنهاج الذى كان أعظم مشجع لهم على الشروع فى وضع أول جزء من هذه المؤلفات

ويمتاز هذا الجزء الأخير بأنه يشتمل ، علاوة على موضوعى الثورة الفرنسية وأعمال نابليون (وكلاهما مكتوب فيه بالاختصار بصورة تمثّل للقارئ حقيقة أخبار تلك الأيام) ، على الحوادث العظيمة التى وقعت بين دول أوربا الحديثة ، والمظاهرات والمناهج السياسية التى سلكها سواسها فى حلّها ، مما لا يستغنى عنه امرؤ فى تفهّم أحوال أوربا الحاضرة ؛ فضلاً عن اشتماله على باب كامل فى وصف الحضارة الغربية ، وبعض فصول فى أهم الحوادث الأخيرة التى جرت فى الصين واليابان وفارس والولايات المتحدة الأمريكية ، وغير ذلك مما يهم كل شرقى الوقوف عليه

أما المصادر التى استقى منها هذا الكتاب فليس من الانصاف تخصيص بعضها هنا بالذكر ، لكثرة المؤلّفات الغربية النفيسة التى خاضت فى هذا الموضوع واختصاص كل منها بميزة . وإن كان لا بدَّ من ارشاد القارئ الى بعض الكتب المشبعة التى يجد فيها مباحث هذا الكتاب مبسوطة بسطاً ممتعاً ، فلنوصه بالرجوع الى المصادر التى ذكرناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب وإلى المؤلفات الانجليزية الآتية :

أور با فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون ، تأليف هُلَنْدروز. اعادة تكوين أور با الحديثة ، لمَرْيوت . تاريخ أور با الحديثة ، لفَيف . نابليون ، لهر برت فِشَر . قصة نابليون، لهَرُلْدهو يلَر . أور با فى القرن التاسع عشر، للِبْسون . أور با منذ سنة ١٨١٥ لهيزِن . أور با الحديثة ، لألِسُون فليب . تاريخ سياسى لأور با الحاضرة ، لسِنْيُو بوس (عن الفرنسية) . تاريخ الدنيا الحديثة ، لأُسْكَر برَوْننْج . تاريخ وقتنا الحاضر ، لجوخ . افتتاح افر يقية ، لجونستون

هذا ، وان المؤلفين ليغتبطون جدّ الاغتباط من إقبال كثير من القرّاء غير طلبة المدارس على كتبهم ، ويعدّون ذلك أقوى باعث على الأمل فى أن يُخرجوا فى المستقبل ، لهذا الفريق وللنابغين من الطلبة ، بعضَ مؤلفات تتناول بحثاً مشبعاً فى الموضوعات الهامة التى ضاقت هذه المجموعة عن توفيتها حقها . وهم يسألون الله التوفيق انه سميع مجيب

وحُرر بالقاهرة فى أول يناير سنة ١٩١٩

فهرست

الباب الأول — أوربا فى عهد الثورة الفرنسية وعصر نابليون

الباب الثانى — أوربا منذ سنة ١٨١٥

الباب الثالث — تقدم الصناعة والتجارة فى القرن التاسع عشر

﴿ الباب الرابع — التقدم السياسى فى بعض الممالك الاسيوية ﴾

﴿ الباب الخامس — الممالك الجديدة بأمريكا ﴾

﴿ الباب السادس — الاستعمار الأوربى ﴾

الباب الأول

أوربا فى عهد الثورة الفرنسية
وعصر نابليون

الفصل الأول

الثورة الفرنسية — سقوط الملكية فى فرنسا

١ — ✱ أهمية الثورة وأسبابها ✱

فى صيف عام ١٧٨٩ قامت فى فرنسا ثورة هائلة اهتزّت لها أركان أوربا وظهر أثرها فى مشارق الأرض ومغاربها . فلا غرو أن خُصّت باسم « الثورة الفرنسية » دون كل ثورة فرنسية غيرها واعتُبرت اكبر حادث فى تاريخ العصور الحديثة ، ولا يكاد يوجد مبحث من مباحث هذا الكتاب الآ وللثورة الفرنسية أثر فيه بالذات أو بالواسطة

أهمية الثورة

ويجدر بنا قبل أن نتتبع حوادث هذه الثورة المتشعّبة أن نتساءل عن الأسباب التى أفضت الى حدوثها فى ذلك التاريخ ، ولماذا لم يستطِر شررها من قبل ، وهل كانت تلك الأسباب بنات ساعتها ، أو هى راجعة الى علل مزمنة متأصلة فى جسم فرنسا . الثورات قلّ أن تقوم بعوامل فجائية ؛ ولئن رأينا أنّ شرارة قد تكفى لإضرام نارها ، فما ذلك الآ لسبق تهيئتها للاشتعال

أسبابها

وانّنا اذا رجعنا بتاريخ فرنسا الى ما قبل ذلك الحين ظهر لنا ان عوامل الثورة الفرنسية قديمة يرجع عهدها الى أيام لويس الرابع عشر، بل ربما رجع بعضها الى أيام ريشليو . وينحصر أهمها فيما يلى :

١ - نفوذ الملوك

أولاً – عظم نفوذ الملوك واستئثارهم بكل سلطة . ولقد كانت سيرة ملوك فرنسا قبلُ تُبَرِّر ذلك : فملوكها هم الذين أوجدوها من العـدم ، وكوّنوا مجدها الأثيل بمجهوداتهم العظيمة وحروبهم المظفَّرة ؛ وهم الذين قضوا على مطامع أشرافها التى كادت تذهب بوحدتها ، وهم الذين كبحوا جماح طائفة الهيجونوت التى كانت على الرغم من حسناتها تبذر بذور الفتنة والشقاق فى البلاد . لذلك كان الناس يرضون عن طيب خاطر باستبداد الملوك بالأمر فيها . ولكن لمّاً وهنت قوتهم فى القرن الثامن عشر ، وقلّ نفعهم للبلاد لم يعُد الناس يطيقون شرهم

لويس الرابع عشر

وقد أوضحنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ما كان للويس الرابع عشر من سموّ المنزلة بين ملوك أوربا وما كان لحاشيته من الفخامة والروعة وعظم التأثير فى سائر ممالكها ، وبيَّنا أنه كان المسيطر على فرنسا والقابض على كل أزمّة الأمور فيها . غير أننا اذا دققنا البحث فى تاريخ ذلك الرجل نجد أنه ، مع كثرة مطامعه الخارجية وضخامة ملكه الظاهرية ، لم يجرّ على فرنسا بحروبه الكثيرة الاّ الافلاس والخراب ، وانه لم يشيد فى داخل بلاده أمثال الصروح التى تقام فيها دعائم المُلْك الثابتة ، وأنه فى كل ذلك الحكم الطويل (١٦٤٢ – ١٧١٥) كان يهمل مصالح شعبه الحقيقية ايّما اهمال ، وإن نظر اليها فذلك انما يكون بعد ايثار مآربه الشخصية ومصالح اولى الحظوة لديه والطبقات الممتازة عنده ، اللهمَّ الاّ فى تلك الفترة التى كانت مقاليد الأمور فيها بيد « كُلْبير » ذلك المصلح المالى العظيم

لويس الخامس عشر

ولما مات لويس الرابع عشر خلفه حفيده « لويس الخامس عشر » على حداثة سنه ، فنشأ منكبًا على اللذات لاهيًا عن شؤون الملك ؛ وقد ساءت سيرته حتى دنّست معَرّتُها التاج الفرنسى وذهبت بمكانة فرنسا بين الدول الأوربية . وقد قضى

فى الملك ٥٩ سنة كانت تزداد فيها أحوال المملكة اضطراباً على اضطراب ، حتى عمَّ السخط ونبتت بذور ذلك الشقاء الذى آل الى « الثورة الفرنسية » عام ١٧٨٩

٢ – تأثير الفلاسفة

والسبب الثانى تأثير الفلاسفة فى الشعب . فقد ظهر فى فرنسا فى ذلك الحين زمرة من الفلاسفة العظام ، كان لكتاباتهم أكبر أثر فى قلب الحياة الفكرية بتلك البلاد . ولطالما بذل ابن لويس الخامس عشر جهده فى تنبيه أبيه الى سوء العقبى وارشاده الى أن أذهان الشعب آخذة فى التنبه والاستيقاظ بكتابات « فُلتير »[1] و « روسو »[2] و « مُنتِسكيو »[3] وغيرهم من فطاحل الكُتّاب ، وأن العلم الآخذ فى التقدم يفسح كل يوم للفكر الانسانى مجالاً جديداً ، فيرفع عنه تلك القيود التى كانت تجبره على إبقاء القديم على قدمه ، وانه يستحيل سكوت الرعية أو رضاهم بهذا

---

(١) فلتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) هو أعظم رجال الادب فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، تناولت كتاباته كل ضرب ومبحث : من الروايات والقصص والشعر الى التاريخ والفلسفة والسياسة ، وجميعها فى قالب حىّ فكه . وقد قضى حياته الطويلة فى الدعوة الى الاستنارة بضوء العلم والعرفان والتنديد بالعقائد الدينية السائدة في عصره ، فلم يكن للتسامح الدينى ناصر اكبر منه ، أما آراؤه السياسية فمع أنها لم تكن معينة جلية كانت تنبئ بشعوره بفساد الملكية الفرنسية وضعفها ، وقد عاشر فردريك الاكبر وسبره في أوائل حكمه ، والظاهر أنه كان يتمنى أن يحكم فرنسا ملك قوى الشكيمة مثله ينفرد بالسلطان فيحكم بما فيه خير الانسانية

(٢) روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) من أعظم فلاسفة فرنسا واكبرهم تأثيراً في الثورة الفرنسية . ومن أهم مبادئه نبذ التكلفات والزخارف الصناعية المشاهدة في عصره والرجوع الى الحالة الطبيعية ، وعلى هذا المبدأ نادى باصلاح نظام التربية من مبدئه (مع الطفل في المنزل) الى أعلى درجاته . وكان فى اعتقاده الدينى ينكر المسيحية ولكنه كان قوى الاعتقاد بالله جل وعلا وينادي بهذا الاعتقاد ما استطاع سبيلا . اما مبادؤه السياسية فمنبثة في كثير من مؤلفاته ولكنه أتى بصفوتها في كتابه الصغير « العقد الاجتماعى » الذى كان اكبر رائد لزعماء الثورة الفرنسية وفيه يقول ان الشعب هو اساس الحكومة وان الملوك ليس لهم عليه حقوق الهية ، وانما هم يستمدون نفوذهم منه ، فان هم اساءوا استعمال هذا النفوذ جاز للشعب ان يخلعهم . على انه في مقام آخر يقول ان الشعب متى الف حكومة تلائم رغباته اصبحت هذه الحكومة ولا حد لسلطانها ، وذلك ما اتخذه زعماء الثورة الفرنسية ذريعة لهم في كل ما ابدوه من اقصى درجات الاستبداد كما سيأتى مفصلا

(٣) منتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) صاحب كتاب « روح القوانين » الذى طبق فيه العظات التاريخيـة على مسائل الحكومة . ومن اهم مبادئه السياسية فصل القوات التشريعية والتنفيذية والقضائية بعضها عن بعض

النظام العليل لمجرد طول عهدهم به، أو لخضوع أسلافهم له . فكان لويس يسمع كل هذه النذُر ولا يقابلها الاّ بقوله : « ان الحال ستدوم بقية حياتى » . ولا غرابة أن يكون هذا جوابه؛ فقد كان كسِلاً رخواً بطبعه، وأخمد انغماسُه فى اللذات القليلَ من الآمال التى كانت تجول فى صدره . وقد انحطت فى ايامه منزلة فرنسا ، فلم تكن لتحرك ساكنًا عندما اغتصبت روسيا وبروسيا والنمسا بولندة صديقتها القديمة وقطعوا أوصالها . وتوالت على فرنسا الهزائم فى ميادين القتال ، فظفرت منها انجلترة بكندا والهند فى حرب السنين السبع

انحطاط منزلة فرنسا

٣ - الاشراف ورجال الكنيسة

والسبب الثالث تمتع الأشراف والنبلاء وكبار رجال الكنيسة بكثير من الميزات، كإعفائهم من معظم أنواع الضرائب وحبس الجرايات عليهم من القصر. وقد كان فى مكنة الأمة أن تصبر على ذلك أيام كان لهم النفوذ الأكبر فى العهد الاقطاعى، فأمّا وقد سلبهم ريشليو كل نفوذ سياسى فى أوئل القرن السابع عشر، فلم يعد الفلاّحون يرضون بما بقى لهم من الميزات الاجتماعية لذلك النظام*. وقد حُجب النبلاء عن أهم مناصب الحكومة؛ فاكتفوا بأن يعيشوا فى ترف وبذخ، وهم فى ذلك عيال على الفلاحين الذين كانت تزداد حالتهم تعساً وشقاء

٤ - نظام الجباية والتجارة

والسبب الرابع فساد نظام الجباية والتجارة. فقد كان الأشراف ورجال الكنيسة كما ذكرنا مُعفَين من معظم أنواع الضرائب مع أنهم هم الأثرياء الذين يجب أن يقوموا بأثقل اعبائها، فوقع جلّ هذا الحمل على رأس الفلاحين والفقراء. كما عُرقلت التجارة بكثرة المكوس الداخلية والقيود العقيمة التى كبّلت النظام التجارى فى القرون الوسطى؛ فشلّ ذلك نمو الثروة فى البلاد

تلك كانت أهم الأسباب التى هيّأت نار الثورة الفرنسية. أما الشرَر الذى أشعلها فنتبيّن حقيقته بتتبّع الحوادث الآتية :

---

* كان الاشراف لا يزالون يحظرون على الفلاحين ان يطحنوا حبوبهم فى غير طواحينهم وان يعصروا اعنابهم فى غير معاصرهم ويرغمونهم على دفع انواع شتى لهم من الهدايا والمغارم

٢ — ✱ حكم لويس السادس عشر ✱

مات لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤ بعد حياة لُوِّثت بأنواع الفضائح والمخازى ، وبلغت فيها فرنسا من الانحطاط والفساد ما يبيّن كيف تسوء العقبى عندما تلقى مقاليد الأُمور الى يد فرد واحد سفيه الرأى

اوائل حكم لويس السادس عشر

فتولى لويس السادس عشر حكم فرنسا وأحوالُها مضطربة ، وخزائنها خالية ، وأهلها فى حال يرثى لها : النبلاء منهم يتيهون فى بيداء الفساد ، والدهماء يئنون تحت نير البؤس والشقاء . وكان الجميع يشعرون بوجوب تغيير الحال ؛ وفى مقدمتهم الملك نفسه . ولكنهُ لم يكن بالرجل الذى يستطيع اصلاح سفينة المُلْك والسير بها فى تلك الأوقات العصيبة الى بر السلامـة . نعم انهُ لم يرِثْ عن أجداده « آل بربون » ما عُهد فيهم من الميل الى الخلاعة والأَثَرة ، ولكنه لم يكن عنده شيء من النبوغ أو علو الهمة والإقدام ، ونحوها من الصفات العظيمة التى امتاز بها كثير من ملوك هذا البيت . فقد كان لويس هذا طيب القلب أميناً محباً للعمل متمسكاً بدينه ؛ غير أنه كان عديم الجرأة ، قليل الحيلة ، يعوزه العزم والإقدام اللذان لا بد منهما لمن يريد انتشال البلاد من مثل هذا المأزق الحرج

صفاته

مارية انطوانت

ولقد كانت زوجته مارية انطُوانِت النمسوية مستجمعة لتلك الصفات التى تنقصه الاَّ أن تأثيرها فيه كان الى وجهة الشر أقرب منه الى وجهة الخير . وكان الشعب الفرنسى من بادئ الأمر يمقت قرانه بها ، للحروب الطويلة التى استعرت نارها بين فرنسا والنمسا . وقـد زاد كراهية الشعب لها ازدراؤها التقاليد الفرنسية وما فيها من الزخرفة المتكلفة والقيود المصطنعة ، فضلاً عن أنها كانت بحكم حداثة سنها تميل الى الملابس الفاخرة ونحوها من الأشياء الجالبة للسرور ؛ وتضاعفت نفقات ذلك لتفشى الغش وقلة الأمانة فى قهارمة القصر . فى حين أن غمار الفلاحين كانوا على شظف من العيش : ثيابهم أسمال ، ومساكنهم عارية عن النوافذ والمداخن كأنها كهوف

حالة الفلاحين

أو مغارات ؛ تجبى منهم الحكومة معظم ما يُرزقون[1] ثم هم اذا أظهروا ضجرهم وتبرمهم بهذه الحال ، قيل لهم : « ان ذلك لأجل الملك والملكة » ! فقلّ على مرّ الأيام ولاء الشعب للملك ، وزادت كراهيتهم للملكة واشتد حقدهم على كل ما نُسب اليها : فعلته أم لم تفعله . وقد كان يُظن أن تخفّ هذه الوطأة بالغاء الرواتب والجرايات الكثيرة الموقوفة على النبلاء بلا عمل نافع يفيدونه ؛ ولكن ذلك لم يكن فى مقدور الملك ، لتوقف حياة الكثير منهم عليها بعد أن حُجبوا عن جميع الحرف والمناصب سوى الحربية والدينية منها

الرغبة فى الاصلاح

عزم لويس على اصلاح هذه الحال ما استطاع ؛ فبدأ بابطال التعذيب (وقد كان فاشياً يتناول كل من لحقه سخط الحكومة[2]) ، واختار لمنصب مراقب المالية العام رجلاً من أحزم الناس وأعفهم يدعى « طُرجو » ، ولكن ذلك لم يلبث ان أثار حقد وزيره « الكُنت دِمورِبا » الذى كان يمقت كل جديد ، ولا يعمل الاّ لنصرة التقاليد القديمة واستدامتها بقية حياته . ولم يكن للويس غنى عنه لطول عهده بشؤون الادارة وكثرة خبرته بأنظمة الحكومة . فلما أخذ « موربا » يعيب الاصلاحات الجديدة ويقول ان رواتب الأشراف اشتراها أجدادهم بالمال لتكون وراثة فى بيوتهم ، وإن إبطالها ينذر بسوء العاقبة ، لم ير لويس بداً من اجابته ، وعزل « طرجو » ، مع شدة حبه له وثقته به ، اذ كان يقول عنه . « ان شعبى لا يحبه أحد غيرى أنا وطرجو »

طرجو وموربا

نكر

وخلف طرجو عام ١٧٧٧ رجل مالى من أهل جنبرة يدعى « نِكَر » قيل إنه كان أنبغ معاصريه بأوربا فى ادارة الشؤون المالية . وقد اشتهر بأمانته وعظمت ثقة

---

[1] قيل انه اكثر من اربعة اخماس دخلهم

[2] كانت الحكومة كثيراً ما تستعمل القسوة مع من تقبض عليهم . وقد تذيقهم الوان العذاب ابتغاء حملهم على الاعتراف بما نسب اليهم . فكان مثلها فى ذلك مثل محكمة التفتيش في ايام الاصلاح الكاثوليكى

القوم به حتى أقبل الناس على إقراض الحكومة المبالغ الطائلة، فكان يدفع أرباحها بانتظام . وقد بذل « نكر » جهده فى تخفيض خرج الحكومة ، ولكنّ عمله كان محدود التأثير ، ولم يأتِ بالاصلاح المنشود

تأثير حرب استقلال أمريكا

وقوّى رغبةَ الفرنسيين فى القضاء على هذه الحال ما شاهدوه من الحوادث فى أمريكا حيث ثار القوم حينما أرادت انجلترة أن ترغمهم على تأدية ضرائب ومكوس لم يروا من العدل جبايتها منهم . فأعجب ذلك الفرنسيين ، وفرّ منهم شاب متحمس يدعى « المركيس دِلاَفَيت » وانضم الى صفوف الأمريكيين الذين كانت سذاجتهم وبسالتهم تزيدان فى أعجاب الفرنسيين بهم ويرون فيهما رجوعًا الى مجد الإغريق والرومان القديم . ثم انضمت الحكومة الفرنسية نفسها بعد تردد الى الامريكيين ، وحذت حذوها اسبانيا وهولندة . فباء الفرنسيون بالفشل ، وزادت نكبتهم بانتزاع

نكبة فرنسا



لويس السادس عشر ومارية انطوانِت

الانجليز منهم « بُندشيرى » أعظم مرافئهم التجارية فى الهند . ومع أن ثبات الامريكيين أنفسهم على المقاومة اضطر انجلترة الى الاعتراف باستقلالهم، كانت الحرب آخر ضربة قاضية على خزائن فرنسا ، ولم تجن منها الحكومة الفرنسية سوى تطلع

الشعب لأن يحظى بما حظى به الامريكيون من الحرية*

نكر

أما ما كان من أمر « نكر » فانه فى اليوم الخامس من سنة ١٧٨١ قدم ميزانية الحكومة وفيها أن الدخل زاد على الخَرْج لأول مرة بقدر ١٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . ففرح الناس بذلك ايما فرح حتى حسده « موربا » وأغار صدر الملك عليه ، فاعتزل نكر منصبه مأسوفاً عليه من الأمة وكانت تترقب فيه رجاءها العظيم . وقد زادت نفقات الحرب فى دين الحكومة بعد أن كان نكر قد شرع فى سداده . فحاول الملك تدارك الأمر بالتقليل من خدمهِ وحشمهِ وحرّاسه ، فلم يغن ذلك فتيلاً . ومات موربا بعد قليل ؛ وكأنما زهقت معه روح النظام الإدارى والقدرة على جعل أوصال الحكومة متماسكة ، مما لا يظهر الاّ على يد السياسى القديم المحنك الذى تصبح الإدارة ملكة له أو مهنة

كالون

وخلف نكر « كالون » وكان وسيماً يحسن الحديث والاستقبال ، ذا نزعة تسيطُرية (ارستقراطية) لا يبالى بالشعب ومصالحه . وقد أحبّته الملكة لسرعة تلبيتهِ مطالبها من غير أن يدّخر وسعاً فى جمع الأموال لذلك الوجه مهما بهظ الأهلين . والحق أن نفقات الملكة كانت قد جاوزت حد المعقول . ويمكن تقريبها الى أذهاننا بأنها لما أرادت الاقتصاد فى حاشيـــة ابنتها الرضيعة ، لم تخفضها الى ٨٠ خادماً الاَّ بشق الأنفس . وازداد دين الحكومة فى أيام كالون زيادة فاحشة ، فعزا الأهلون كل ذلك الى تبذير الملكة ، فى حين كان كالون يعزوه الى سوء تصرف « نكر »

جمعية الاعيان

كل هذه الأحوال كانت تشير الى وجوب وضع نظام جديد للضرائب . وأمل القوم أن يعمد لويس الى استدعاء مجلس الأمة الذى لم يُعقد منـــذ أيام لويس الثالث عشر (١٦١٤) . ولكنهُ خشى عاقبة الأمر واكتفى باستدعاء جمعية الأعيان

* وحدث ان ارسلت امريكا سفيراً الى فرنسا يدعى « بنيامين فرنكلين » كانت مهنته الاصلية الطباعة ، ولكنه كان على جانب عظيم من العلم والحكمة مع سذاجة وسهولة في خلقه . وقد سئم الباريزيون حياتهم المتكلفة المحاطة بأنواع القيود ، فتاهوا اعجابا بسذاجة زيه ووقاره وسهولة اخلاقه

التى لم يعقد لها اجتماع منذ أيام هنرى الرابع؛ وكان الملك هو الذى يختار أعضاء هذه الجمعية، ومعظمهم من الأشراف ورجال الكنيسة وقليل منهم من عامة الشعب. فلما التأمت الجمعية لم يرض أعضاؤها بفرض الضرائب على أنفسهم وعادوا باللائمة على كالون، فاعتزل منصبه ونُفى. ثمّ تقلد الوزارة « برَين » رئيس أساقفة « طلّوشة » ففرض ضريبة دمغة لم يبد الأعيان رأيهم فيهـا وانصرفوا. فلما عُرض أمرها على « برلمان باريس » أصرّ على مطالبة الملك باستدعاء مجلس الأمة وامتنع عن تسجيل المرسوم الصادر بها. فقابل لويس ذلك بنفى أعضاء « البرلمان » الى «تروابة» فلم يزدادوا الاَّ ثباتاً*. ولما أراد أن يستعمل حقه المسمى « سرير العدل » قام فى وجهه ابن عمه « فليب دوق أُرليان » (وقد ألقى بنفسه فى أحضان الحركة الجديدة). فحتم عليه لويس الاقامة بأملاكه الخاصة؛ وهمّ بالقبض على أكبر مقاوم للملك، فلم يفز بغرضه وامتنع باقى الأعضاء عن تسليمه

مجلس الامة

ولما أعيت لويس الحيل استدعى « نكر » ثانية الى خدمة الحكومة، وأمر بعقد مجلس الأمة فى « فرساى » فى ٥ مايو سنة ١٧٨٩؛ فكان ذلك نذيراً بقيام الثورة فان الأمة الفرنسية لم ترَ له انعقاداً منذ سنة ١٦١٤، فأحدث خبرُ استدعائه حماسة عجيبة وضجة كبيرة فى طول البلاد وعرضها، وعده الناس بشيراً بالاصلاح الحقيقى وفاتحة لعصر جديد فى تاريخ فرنسا. وصاروا ولا حديث لهم الاَّ هو والخير المنتظر منه. وقد قيل انهُ عُقد بفرنسا فى شتاء ١٧٨٨ — ٨٩ نحو ٤٠,٠٠٠ اجتماع سياسى، وصدرت ألوف الرسائل السياسية، وطفحت الصحف بالموضوعات المتعلقـة بتلك الحالة. وكل ذلك فى بلاد لم ترَ انتخاباً عاماً منذ مائتى عام تقريباً

تأثيره في الثورة

وكان هذا المجلس مؤلفاً من ثلاث هيئات: الأشراف والقساوسة والعامة؛ ولـكن لم يُعرف نطاق نفوذ كل منها بالضبط، لطول العهد على فضّ المجلس. فكان

* قد يظهر من العجب ان يطالب الاعضاء (وجلهم من الطبقات الممتازة) باستدعاء مجلس الامة الذى افضى اجتماعه الى القضاء على ميزاتهم بل على مجلسهم. ولكن غرضهم لم يكن الا الهروب من الملك الذى كان يريد ارغامهم على اقرار ضرائب على طبقاتهم. (راجع معنى « برلمان باريس » الخ في الجزء الاول من هذا الكتاب)

طبقات المجلس

أول أمر يجب أن يفصل فيه البت فى هل يكون عدد طائفة العامة مماثلاً لكل من نظيرتيها على حدة أو معادلاً لهما معاً. فلو عمل بالرأى الأول لكان غبناً للعامة، لتشابه أغراض الطائفتين الأخريين ومناقضة جلها لمآرب السواد الأعظم من الأمة : فمال الملك الى جانب الشعب وجعل الطائفة الممثلة له مثل مجموع نظيرتيها . ثم نشأت

النزاع بينها

مشكلة أخرى وهى هل يجلس جميع الأعضاء فى غرفة واحدة فتسرى القرارات بمقتضى أغلبية أصوات جميع الأعضاء على اختلافهم ، أو يجلسون فى ثلاث غرف فتسرى القرارات بأغلبية آراء الغرف . ولما كانت الطريقة الأولى تجعل لطائفة الشعب نفوذاً كبيراً يخشى منه على نفوذ الطائفتين الأخريين والملك نفسه، لكثرة عددها ووجود مؤيدين لها من بين القساوسة والأشراف، وكانت الطريقة الثانية تجعل نفوذ تلك الطائفة فى حيز العدم : وقع نزاع شديد بين الجميع، واستعصى الفصل فى الأمر

ابتداء الثورة

وبعد أخذ وردّ اجتمع ممثلو الشعب فى ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ ، وسموا أنفسهم « الجمعية الأهليــة » وأخذوا على عاتقهم أن يضعوا نظاماً للحكومة سواء اشترك الأشراف ورجال الكنيسة معهم أم لم يشتركوا . وكان الملك يريد أن يحضرهم فأغلقت الغرفة الخاصة بهم ريثما يجرى الاستعداد اللازم لاستقباله . ولم يكن الأعضاء يعلمون بذلك ، فلما جاءوا ووجدوا الباب مغلقاً فى وجوههم الأمر وظنوا أن الملك يدبر لهم مكيدة . فاجتمعوا فى ردهة مجاورة وأقسمو ن يبعوا متضافرين حتى يضعوا قانوناً للحكومة . وقد أصرّ الملك على أن يكون اجتماع المجلس فى ثلاث غرف مستقلة ، فلم تصغ طائفة العامــة لذلك ، ولما أرسل اليهم الملك رسولاً يأمرهم بالانصراف أجابه زعيمهم « كُنت ميرابو »*: « قل لمولاك اننا حضرنا الى هنا برغبة الأمة ولن يصرفنا من اماكننا الا سيوفه». فلم يرَ الملك بداً من اجابة مطالبهم وأشار بانضمام بقية الأشراف ورجال الكنيسة الى الجمعيــة الأهلية ، فصار جميع الأعضاء يجتمعون فى غرفة واحدة

* من طبقة الاشراف ولكنه انضم الى العامة . وقد اشتهر بخطيب الثورة

٣ — * الجمعية الأهلية (أو الحكمية) : ١٧٨٩ *

غرض الجمعية

شرع أعضاء الجمعية الأهلية ينظرون على الفور فيما ينبغى لاصلاح شأن فرنسا . فقام بعض الأشراف ورجال الدين يعارضون فى احداث أى تغيير يزعزع مركزهم . فلقبهم باقى الأعضاء بالمتسيطرين (الارستقراطيين) وصاروا ينظرون اليهم شزراً . على أن الجمعية لم تعدم من بين أعضاء هاتين الطائفتين مَن آزروا الشعب وقالوا بوجوب نبذ الميزات التى يرون منها هضماً لحقوقه ؛ وكادت الجمعية تشرع فى عمل اصلاحات نافعة لولا ما حدث بسبب تسرع الغلاة من أعضائها . وكان أهم مبادئ هؤلاء الغلاة ان الناس متساوون بالفطرة ، وان الحقوق الوراثية ظلم واجحاف ، وان الملك والأشراف ورجال الكنيسة مستعبِدون للناس ومسيطرون على ارادتهم وضمائرهم وأشخاصهم . وقد عُرفت هذه الفئة فيما بعد « باليعقوبيين » نسبة الى ناد فى باريس يجتمعون فيه كان فى الأصل ديراً لطائفة الرهبان اليعقوبية . وبما كان لهم من النفوذ العظيم على غوغاء باريس أوغروا صدورهم وملئوها بغضاً لما هم فيه من الظلم والاجحاف حتى قاموا يطالبون باجراء الاصلاح المزمع على الفور ، اعتقاداً منهم ان ذلك يعود على الجميع بالحرية والخير العميم . فذُعر الملك وجمع الجيش قرب باريس (يوليه سنة ١٧٨٩) وعزل « نكر » من منصبه . فذاع فى الحال انه يريد القضاء على الجمعية الأهلية بالقوة . فثارت عواطف القوم وبادرت بلدية باريس الى تأليف فرقة حربية تسمى « الحرس الأهلى » انضم اليها كثير من وجهاء الناس ، واتخذوا ثلاثة الألوان الأحمر والأبيض والأزرق لهم شعاراً ، رمزاً للحرية والإخاء والمساواة ، واختاروا « المركيس لافيت » الذي كان من اكبر أنصار الحرية عليهم رئيساً

اليعقوبيون

ذعر الملك

الحرس الاهلى

سقوط البستيل

وذاع فى باريس أن الحكومة صوَّبت على المدينـة أفواه المدافع من سجن « البَسْتيل » ، فثار الغوغاء وهجموا يوم ١٤ يوليه سنة ١٧٨٩ على ذلك السجن القديم الذي طالما ضم بين جدرانه وفي أجحاره المظلمة الآلاف من الأبرياء الذين

زجوا فيه بلا تحقيق وبدون أن تثبت تهمتهم . وكانت أهميته الحربية والسياسية قد نقصت فى السنوات الأخيرة حتى لم يكد يبقى به أحد من المسجونين السياسيين ؛ وقلت حاميته ، فدخله الثوار وقتلوا رئيسه

هياج الشعب

فهال الأمر الملك وحاشيته ؛ فأسرع الى استرضائهم بصرف الوزراء المبغّضين من الشعب ، وأعاد « نكر » الى منصبه . ولكن بعد فوات الفرصة ؛ فان روح الثورة تفشت فى البلاد ، وأدرك الغوغاء مقدار قوتهم فصاروا يثورون لأقل شىء وينقضّون على كل من توهموا فيهم العداء لهم ، فتارة يصلبونهم فى الطرقات وطوراً يقطّعونهم إرباً ، وكانت سُفليات النساء فى الأسواق فى مقدمة أولئك الفتّاك وأكثرهم شرًّا . وفى كثير من أنحاء البلاد اقتحم الفلاحون وغيرهم منازل الأشراف ، تارة يسلبونها وينهبونها ، وتارة يذبحون أهلها ، وطوراً يسوقونهم على وجوههم الى السجون . ثم رغب أهل باريس فى أن ينزل الملك من فرساى ويقيم بينهم فى باريس خشية أن يعمل فى الخفاء على اخماد الثورة بالقوة . وقام النساء فى ٥ اكتوبر بمظاهرة احتجاجاً

الهجوم على قصر فرساى

على قلة الطعام فى باريس ، فحُولت المظاهرة الى هجوم على قصر فرساى ؛ فسار الناس أفواجاً نحو القصر ومعهم القليل من السلاح يريدون الفتك بالملكة المكروهة ، وارغام الملك على القدوم الى باريس . وهجم الغوغاء على غرف الملك والملكة وكادوا يفتكون بهما لولا قدوم « لافيت » يقود الحرس الأهلى الجديد الذى لم يكن قد نبذ بعدُ الولاء للعرش . على أن لافيت كان يحمل رجاء الى الملك من بلدية باريس بأن يحضر للاقامة بالمدينة . فلم يرَ لويس مفرًّا من قبول ذلك رغم علمه بأنهُ سيكون فى باريس أشبه بأسير فى يد شعبه . فنزلت الأسرة الملكية بأسرها الى باريس حيث أُسكنت قصر « التويلرى » (Tuileries) ووُضعت تحت المراقبة خشية أن تكيد المكايد لاحباط الثورة*

* قد يدهش القارئ كيف ان الثورة لم تنفجر فى أيام لويس الخامس عشر الفر الخليع وانفجرت فى عهد لويس السادس عشر الطيب القلب الذى لم يدخر وسعا فى السعى وراء اصلاح بلاده ولكن هذه تكاد تكون سنة الثورات : لا تنشب وقت اشتداد العسف بل عند ما يتولى مقاليد الامور رجل ضعيف يحاول الاصلاح

الحكومة الجديدة

عُرفت الجمعية الأهلية بالجمعية الحكمية لاشتغالها بوضع قانون للحكومة. فبدأت أعمالها بالغاء جميع ألقاب الأشراف وامتيازاتهم. ثم قررت: أولاً – أن جميع أملاك الكنيسة تصبح ملكاً للأمة. وثانياً – أن تستولى الحكومة على جميع أوقاف الكنائس والبيع والأديرة وأن توظف للقساوسة ورجال الكنيسة مرتبات محدودة. ولما لم يكن فى مقدور الحكومة بيع جميع أملاك الكنيسة الهائلة جملة واحدة، وكانت فى حاجة شديدة الى المال، أصدرت أوراقاً مالية بضمانة هذه الأملاك، مالبثت ان انحطت قيمتها انحطاطاً كبيراً لقلة النقود الحقيقية التى تضمن قيمتها. ثم طالبت الحكومة رجال الدين بأن يخضعوا لها خضوعاً مطلقاً فى كل ما تريد. ولما كان فى ذلك عصيان للبابا، امتنع الكثير منهم عن الامتثال للأمر، فطُردوا من مناصبهم. ثم الغيت مجالس المقاطعات العديدة التى كانت فى أنحاء البلاد المختلفة. كذلك محيت المديريات القديمة التى كانت تتكوّن منها فرنسا، وقسمت البلاد الى دوائر جديدة. وكان البابا يملك فى وسط الأراضى الفرنسية اقليمى افنيون وفنيسان، فضمتهما الحكومة اليها وأنكرت ما بقى لبعض أشراف الألمان من الحقوق على بعض أجزاء فى الألزاس وكان الملك فى كل ذلك يوافق موافقة اليائس الذى لا حول له ولا قوة

ميرابو

أما الملكة فكانت تأمل الاتفاق والتفاهم مع زعماء الثورة رجاء الاحتفاظ بما بقى لها ولزوجها من السلطان ما دامت مفاوضتها حسنة مع «ميرابو» وهو الذى، مع شدة بأسه ورباط جأشه، انفرد من بين اليعقوبيين بالاعتدال وقلة التطرف. فلما مات عام ١٧٩١ مات معهُ رجاء الملكة. وهمّ الملك وأسرته بالفرار من باريس (يونيه سنة ١٧٩١)؛ فكُشف أمره فى الطريق، وقبض عليهِ وأعيد الى باريس بين السباب واللعن. وكان الخطباء فى كل ذلك يثيرون الشعب ويفهمونهُ أن الملك انما كان يقصد بالفرار أن يستدعى الاشراف المهاجرين ويأتى بجيش من ألمانيا لينتقم من الشعب شرّ انتقام. لذلك اشتدت الرقابة عليهِ حتى عظمت آلامه وصارت حياته كلها تعساً وشقاء

القبض على الملك

النظام الجديد

أما النظام الذى كانت الجمعية قائمة بوضعه ، فما لبث ان تم وفحواه أن تكون حكومة البلاد بيد الملك « وغرفة تشريعية » واحدة ، وقد بقى للملك حق الامتناع عن الموافقة على مشروع أى قانون ، ولكن ذلك الحق أحيط بقيود تجعله مصدر خطر على الملك. فقد نُص فى نظام الحكومة على أن الملك اذا اعتدى على الأنظمة الجديدة أو جمع الجيش لمناوأة الأمة فانه يُخلع عن العرش . ومع ذلك رضى الملك بالأمر ، وأقسم فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩١ باحترام نظام الحكومة الجديد . وعلى إثر ذلك انحلت الجمعية الأهلية

٤ — ﴿ الجمعية التشريعية : ١٧٩١ — ٩٢ ﴾

الجيروندیون وحزب الجبل

اجتمعت الجمعية الجديدة المسماة « بالجمعية التشريعية » فى اليوم الأول من شهر اكتوبر سنة ١٧٩١. وكان بعض أعضائها يميلون الى ابقاء السلطة العظمى فى يد الملك ، وبعضهم ينزعون الى الحكم الجمهورى . وعرف المعتدلون من هؤلاء « بالجيرونديّين » نسبة الى دائرة « جيروند » موطن زعيمهم وهى الاقليم الذى على مصب نهر الجارون . على أنه كان بين أعضاء الجمعيــة التشريعية فئة متطرفة اتخذت مقاعدها فى أعلى الجمعية فصار يعرف مكانها « بالجبل » ، وكانت ترمى الى نبذ جميع الأنظمة الحالية ووضع غيرها من جديد . وكان زعيمها رجل يدعى « مكسمليان روبسبير » ليس من أعضاء الجمعيــة ولكنه كان يخطب كثيراً فى نادى اليعقوبيين

﴿ سقوط الملكية : ١٧٩٢ ﴾

سوء تصرف الاشراف المهاجرين

كل ذلك كان يجرى والملك ليس الاّ أسيراً مراقباً فى حاضرة بلاده . وقد عزّ ذلك على الأشراف والنبلاء الذين هاجروا من فرنسا ، فألّفوا جيشاً ابتغاء انقاذه ، والتمسوا المعونة من فردريك وليم الثانى ملك بروسيا ومن العاهل (الامبراطور)

« ليوبلد » أخى الملكة ؛ فعكس غرضهم وكان لعملهم من العواقب الوخيمة ما لم يكن فى الحسبان . فان الأمة عدته مسعى الى ارجاع الأمور الى الحالة القديمة السيئة التى كانت تئن تحتها . فأعلنت الحكومة الحرب على النمسا فى ابريل سنة ١٧٩٢ ، واشتدت حماسة الجيرونديين فطلبوا الى الملك أن يعلن أن جميع الذين هاجروا من فرنسا خائنون لبلادهم ، وأن يطرد من البلاد جميع من امتنعوا من رجال الدين عن حلف يمين الطاعة ، فرأى الملك أن هذا المطلب يفوق جميع المطالب التى أجابها الى ذلك الحين وامتنع عن اجابته

اعلان الحرب على النمسا

فعزم الثائرون على ارغامه على التوقيع عليه بالقوة ، وفى يوم ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢ اجتمع ٣٠٠٠٠ من رعاع الناس ، وساروا فى موكب يحملون أعلاماً كتبت عليها « حقوق الانسان » ومعهم عود فى قمته قلب خنزير كتبوا عليه « قلب المتسيطر (الارستقراطى) » . ثم دخلوا قصر الملك ، فلم يحاول لويس منعهم ، ولم يظهر شيئاً من الاكتراث بهم . فلما طلبوا اليهِ أن يوقّع على المرسوم المزمع ؛ أجاب بكل هدو : « ليس هذا هو الوقت لعرض الطلب ولا الكيفية التى يعرض بها » . وقد دهش الناس لسكينة الملكة وهدوها وتوقرها هى وأختها ، فانصرفوا بعد ثلاث ساعات من غير أن يسفكوا دماء

هجوم على الملك

على أن نشوب الحرب كان قد ذهب بكل أمل فى التأليف بين الملك والأمة ، فقد انضمت بروسيا الى النمسا ، وفى نحو أسبوع أو أسبوعين ذاعت الأخبار بأن جيش المهاجرين والألمان على الحدود الفرنسية ، يقوده دوق برنزويك وينادى بالرعايا المخلصين أن يقوموا لانقاذ ملكهم . فازداد هياج الأمة واشتدّت حماستها . وأراد «لافيت» أن يوفق بين الطرفين فاتُّهم بالخيانة ، وهمّ بالفرار الى هولندا ، فقبض عليهِ النمسويون ، فبقى سجيناً عندهم عدة سنوات . وقد تشبعت الأمة بأن الملك حينما وافق على اعلان الحرب انما كان يخادعها وأنه ينوى جمع الجيوش للفتك بها ؛ فزاد حنقها عليه ، ونُزعت من قلوب القوم كل رحمة . وقد بقي على الولاء للملك نفر من

الحرب

السادة المخلصين المحيطين بهِ في القصر ، والحرس السويسري . وكانت مارية أنطوانت تريد الاستعانة بهؤلاء لإخماد الثورة ، ولكن الملك لم ينصرف عن شعوره بأن الثوار من الغوغاء انما هم رعيته الذين لم يحملهم على الثورة الاّ سوء حالهم ، وأنهُ لا يطيق رفع سيف في وجوههم

هجوم آخر على الملك

فلما عادوا الى الهجوم على القصر في اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٧٩٢ يرافقهم نحو خمسمائة من فُتّاك مرسيليا ، أوجس في نفسه خيفة ، لا ضناً بحياته ، بل اشفاقاً عليهم وحسرة على ما يؤول اليـهِ أمرهم . ولما بدأ القوم هجومهم أرسلت الجمعية التشريعية الى الملك تعرض عليهِ ملجأ يحتمي فيه ، فعارضت الملكة في ذلك كل المعارضة وقالت انها تفضل أن تُصلب على أبواب القصر على الفرار . ولكن الملك قبل ما عرضته الجمعية وسار الى دارها محروساً هو وزوجته وبعض أقربائه فأخفوا في أحد أركانهـا . وقد نسي أنهُ أسلم بذلك حرسه السويسري الأمين فريسة في يد الثوار وانه كان يجب عليهِ أن يصرفه من القصر وقت مغادرته له . وقد حمي وطيس القتال بينهم وبين الثوار ، فأرسل اليهم الملك أخيراً يأمرهم باخلاء القصر . فبينما هم في طريقهم أحاط بهم الغوغاء في حديقـة القصر وأتوا عليهم . ثم هجموا على دار الجمعية التشريعية منادين أن الملك شنّ الحرب على الأمة وأنه يجب عزله . فقر رأى القوم بأغلبية الأصوات على أن يوقّف الملك عن تنفيذ سلطته ، وأن تقوم الجمعية بتشكيل وزارة ، وأن تُستدعى جمعية جديدة تسمى « جمعية الوفاق الأهلي » (Convention Nationale) وعنـد ذلك نُقل الملك وأسرته يخفرهم الحرس الأهلي الى قلعة الهيكل القديم وهي قلعة الفرسان الهيكليين

عزم الثوار

وقد اشتدت بذلك حماسة الجيش الذي على الحدود وقوي عزمه على انقاذ الملك فعظم فزع الثوار وهولهم ، وظنوا أنهم يفقدون ضالّتهم المنشودة ويذهب كل مجهودهم أدراج الرياح اذا قام المتسيطرون (الأرستقراطيون) الذين في فرنسا بمساعدة الأعداء على الحدود ، فأطلقوا على جميع من كانت نزعتهم تسيطُرية

مذبحة شائنة

« أعداء الحكومة » وقبضوا على كل من عثروا عليه منهم فى باريس ، ولا سيما رجال الدين الذين امتنعوا عن حلف يمين الطاعة للحكومة الجديدة ، وزجّوا بهم فى أعماق السجون . ثم أعدّوا لاعدامهم نحو مئة رجل أو يزيدون يتولون قتلهم بعد تحقيق صورى ، فبقى هؤلاء الجلاّدون يزاولون عملهم الفظيع، وكلما تعبوا قُدمت اليهم المرطبات ، حتى اذا استعادوا قوتهم عادوا الى عملهم الذى كان يسميه الثوار « تحرير فرنسا » . وقد قُتل بهذه الصورة اكثر من ألف شخص. حدث كل ذلك ونساء باريس الشريرات يشاهدن الأمر بالتهال ويحملن الطعام الى أولئك الجزارين، واستمرت هذه المذبحة الشنيعة أربعة أيام سرى أثناءها فى غوغاء باريس روح سفك وظمأ للدماء تقشعر منهُ الأبدان

٥ ✱ الوفاق الاهلى : ١٧٩٢ — ٩٥ ✱

اعلان الجمهورية

حلّت الجمعية التشريعية نفسها فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ فخلفتها هيئة تسمى « الوفاق الأهلى ». وكانت فاتحة أعمالها إلغاء حكومة الملكية واعلان الحكم الجمهورى فى فرنسا . ثم أُبطل استعمال لفظى « مسيو » و « مدام » وسائر التعبيرات المعتادة التى تستعمل فى مقام الاحترام ، وصار الرجل يلقب بلفظ « مواطن » والسيدة بلفظ « مواطنة » ، وتَسَمّى دوق أُرليان باسم « المواطن مساواة » . وسبب هذا الانفعال الشديد أن نفوذ الملك وامتيازات النبلاء ورجال الكنيسة كانت قد جلبت على الناس من التعس والظلم مالا يمكن القضاء عليه أو نسيانه الاّ بانقلاب عظيم فى كل أحوال المعيشة . وقد كان لجهاد القوم فى سبيل الحرية ونيلهم اياها ، بعد ان كانوا لا يعرفونها، اكبر أثر فى نفوسهم، فثارت عواطفهم لدرجة تقرب من الجنون، وامتلئوا غيظاً وحقداً على كل أثر من آثار العبودية القديمة ، فصاروا ينظرون الى كل من ينتمى الى النبلاء كأنه جرثومة شر وفساد لا تَصْلُح حال الأمة الاّ بإبادتها. وأخذت التهم تُوَجَّه الى الكثير بأنهم يأتمرون على الجمهورية ؛ فكان نصيب بعضهم الموت

على المِقْصَلة « الجِلوتين » ، وإن كان لم يكثر الحكم بالاعدام الآ فيما بعد . وفى بعض المدن كانت العامة تأتى من الفظائع بما تقشعر منه الأبدان ؛ وإن حاولت الحكومة المحافظة على النظام وإزهاق روح ذلك الفتك

فوز الجيوش الفرنسية

ولم يكد الوفاق الأهلى يلتئم حتى تمكن «دوموريه» من صد جيوش المهاجرين والألمان عند « فَلْمى » (سبتمبر سنة ١٧٩٢) مع أنه لم يقع بين الجيشين قتال حقيقى؛ الآ أن من حسن طالع الثوار أن فتك المرض بالجنود البروسية ودب النزاع بينهم وبين النمسويين، فذهبت ريح المتحالفين وعزموا على التقهقر، وانسحب دوق برنزويك بجيشه من فرنسا. فنهض دوموريه الى غزو أرض البلجيك ، وهزم النمسويين فى موقعة فاصلة عند قرية «جِماب» ، واكتسح البلاد كلها حتى حدود هولندة . وبمثل ذلك اكتسح القائد « كَستين » أراضى العاهلية (الامبراطورية) التى على نهر الرين ، واستولى على « مينز » التى تعد من أَمنع المدن الألمانية

أوربا والثورة

وقد كان لهذا الفتح المبين أعظم أثر فى تأييد الثورة : فامتلأت جنودها حماسة، وزادت ثقة زعمائها بأنفسهم، حتى لم يعُد يُظن أنها سحابة صيف عن قريب تقشع، بل أخذت أوربا تنظر اليها كأنها حركة كبيرة ذات بأس يخشى منهُ على قلب النظام الأوربى . وحقاً كان هذا النصر البذرة الأولى التى نبتت منها تلك القوة الحربية العظيمة التى بلغت بعدُ بنابليون بونابرت أكبر مبلغ من السطوة وبعد الصيت* . وكانت الجيوش فى خلال ذلك كلما حلّت بأرض أعلنت قلب نظام حكومتها وإلغاء جميع امتيازات الأشراف ورجال الكنيسة فيها . وأعلنت الحكومة الفرنسية أنها مستعدة لمعاونة كل الأمم التى تريد أن تخلع عنها نير الملوك والأشراف ، وتسترد ما سُلب منها من « حقوق الانسان الطبيعية »

مقتل لويس السادس عشر

كان الوفاق الأهلى كالجمعية التشريعية يشتمل على حزبين : حزب الجيرُنديين

---

* كان جوتى الشاعر الالمانى الكبير حاضراً فى موقعة فلمى فقال لاصدقائه فى ذلك المساء : « فى هذا اليوم وهذا المكان ولد عصر جديد فى تاريخ العالم »

وحزب الجبل (اليعقوبيين) . وكان هذا الأخير يرى وجوب اعدام الملك ، إذ كان يرأسه ثلاثة بلغ بهم النزق فى حماية حقوق الانسان ، وما يسمونه « خدمة الانسانية » مبلغاً جعلهم ينسفون فى طريقهم كل قديم بلا رحمة ولا شفقة ، زاعمين أن ذلك يسهّل عليهم بناء كل شيء من جديد . وهؤلاء هم «روبسْبيير» (زعيم حزب الجبل فى الجمعية التشريعية القديمة) و « مَرا » الطبيب و «دَنْتون» المحامى . وكان روبسبيير يرى اعدام الملك بلا محاكمة ، ولكن أغلبية الآراء أقرت محاكمته أمام هيئة الوفاق ، فأُحضر أمامه باسم « لويس كَبيه » ، فأثبتت الهيئة مؤاخذته وحُكم عليه بالاعدام* . واستقبل لويس الموت على المِقْصَلة (الجلوتين) فى ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ بثبات تام وقلب مطمئن . وكانت آخر وَصاته لذويه ألّا يثأروا لدمه من شعبه

سخط اوربا

وقد أثار هذا العمل الفظيع سخط أوربا بأجمعها ، وهاج حنق سكان برطنية (برتَنى) و « لافَنديه » (جزء من أنجو) ، إذ كان هؤلاء شديدى التمسك بالمسيحية ، وكان أشرافهم لينى الجانب فى الجملة محبوبين عند الناس ، فضاعف قتلُ الملك ما كان فى صدروهم من الحقد على عزل القساوسة الذين أبوا حلف يمين الطاعة ، وبلغ سخطهم أشده عند ما شرعت الحكومة تجنّد شبانهم بالقوة . فثار الفلاحون منهم بزعامة الأشراف ، وانتشرت فى البلاد روح الرجوع الى القديم . وزاد الطين بلة ان القائد دوموريه أخذ يفاوض النمسويين سراً فى الصلح ، وكانوا قد استردوا البلجيك ثم كشف أمره ففر الى معسكرهم . وكانت فرنسا قد أعلنت الحرب على انجلترة إثر قتل الملك ، فباءت جيوشها بالفشل

الفتنة فى لافنديه

انجلترة والثورة

وذلك ان انجلترة كانت فى أول الأمر تعطف على الثورة ولكنها انصرفت عنها لِمَا رأته من مخازيها الدموية ، واضطر الوزير الانجليزى « بِت » الى اصدار القوانين الشديدة لمنع سريان المبادئ الثورية الفاسدة الى انجلترة ، وإن بقى يميل الى التزام

---

* تقررت مؤاخذته بأغلبية عظمى من الآراء ، ولكن الحكم باعدامه كان بأغلبية ضئيلة وكان بين هؤلاء « فليب المساواة » أحد أقربائه ، فهال ذلك الناس حتى الدستوريين الدمقراطيين منهم

الحيدة الى أن اشتدت مجاهرة زعماء الثورة بتهديد الحكومات الملكية ، وغزت فرنسا الأراضى المنخفضة ، وقد كانت انجلترة أصرت منذ حروب لويس الرابع عشر على أن لا تسمح لها بذلك . فلما أيقنت فرنسا أن انجلترة لا محالة تقف فى سبيلها فى هذه الجهة عقدت النية على منازلتها ، وأخذت تدس الدسائس فى انجلترة لاشعال نار الفتنة فيها . واتسع الخرق بينهما بمقتل لويس السادس عشر . فتذرعت فرنسا برفض جورج الثالث الاعتراف بحكومة الجمهورية فيها ، وأعلنت الحرب عليها وعلى هولندة (فبراير سنة ١٧٩٣)

الهياج فى فرنسا

وساء غلاة اليعقوبيين اعتدال الجيرنديين فى هذه الأوقات العصيبة ؛ فاشتد حنقهم عليهم ، فقبضوا عليهم جميعاً الا ستة لاذوا بالفرار . وأنشئوا لذلك محكمة تُدعى «لجنة الأمن العام» تفصل على وجه السرعة فى أمر من نُسبت اليهم الدسائس . وقد تُرك أمر القبض على الجيرنديين الى غوغاء باريس ، فقبضوا على كثير من مندوبى أعظم المدن الفرنسية وأشهر رجال فرنسا . ونشبت بذلك حروب أهلية ، وقامت مرسيليا وليون وبردو وطولون فى وجه حزب الجبل يريدون القضاء على ظلمهم وعسفهم . واشتدت كراهية الناس لِمرَا زعيم غوغاء باريس حتى أن فتاة تدعى « شرلوت كُرداى » لم تُطِق صبراً على أمره فطعنته طعنة نجلاء فى قلبه رجاء انقاذ البلاد من المظالم التى تئن تحتها

هزيمة الجيوش الفرنسية

على أن مقتل مرا لم يزد شر الذين يريدون القضاء على القديم الا شدة ، وظلمهم الا هولاً . ثم ان انهزام الجيوش ودخول الأعداء أرض فرنسا جعل من المحتم تكوين حكومة قوية مستبدة لحماية الجمهورية من الفناء . وتحالفت عليها انجلترة والنمسا وبروسيا واسبانيا ونابلى ، وكاد الخطر يحدق بفرنسا من كل جانب ؛ اذ قد ساقت الجيوش النمسوية والانجليزية جيش دوموريبه أمامها واستولت على مدينتى « كنديه » و « فلنسين » ، ولم يمنعها من الزحف على باريس الا وقوعها فى أغلاط حربية . وغزا البروسيون الألزاس ، وسلمت « طولون » نفسها للانجليز واعترفت للويس السابع عشر بالملك

لجنة الامن العام

كل هذه النكبات مكّنت « لجنة الأمن العام » المؤلفة من نحو عشرة أو اثنى عشر رجلاً من أعضاء الوفاق الأهلى من القبض على السلطة ، حتى صار لها من القوة ما لم تره حكومة من حكومات فرنسا فى جميع أطوارها ، وبدأت ذلك العصرَ المسمى « بحكم الارهاب » الذى كانت فاتحته استئصال شأفة الجيرُنديين والملكة مارية انطوانت . وقد كانت الملكة الى ذلك الحين فى غياهب السجن ، فأُحضرت أمام المحكمة فحُكم عليها بالاعدام وضُربت عنقها يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٧٩٣ . ومن ذلك اليوم الى شهر يوليه من سنة ١٧٩٤ كانت الناس تُقتل أفواجاً من جميع الطبقات ، لا فرق بين الغنى والفقير ، والصالح والطالح . وتناول ذلك « فليب المساواة » نفسه فانه قُتل غير مأسوف عليه . وغُصت السجون بالنساء اللاتى لا ذنب لهن ، الاَّ انهن من سلائل النبلاء ، فكان يؤتى كل يوم بفريق منهن للمحاكمة الصورية ثم يُعدَمْنَ

حكم الارهاب

مقتل مارية انطوانت

تحسن الاحوال

على أن الخطر الذى كان يتهدد فرنسا من الخارج أخذ يزول بفضل عزم لجنة الأمن العام وانقيادهـا لآراء « كرنو » الذى كان من أعظم قواد زمانه . وعزّز جانبها بأن سنّت الحكومة قانوناً يبيح تجنيد كل فرنسى ، وأمرت اللجنـة باعدام القواد غير الأكفاء وأقامت مكانهم النابغين من الضباط مهما كانت حداثة عهدهم بالارتقاء عن مرتبة الجنود المعتادة . فلم يمضِ طويل حتى صد القائدان « هوش » و « بِشْجرو » جيوش الحلفاء الى نهر الرين ؛ وشتت « كليبَر » شمل جيش الفنديه ؛ واستولى « كارِمان » على مدينة ليون بعـد أن ضربها بالمدافع . وتلا ذلك انتقام فظيع من أهل المدينة ؛ فجاء اليها « كُلودِرْبُوَا » أحـد أعضاء لجنة الأمن العام ليتولى بنفسه حركة المذبحة . ورأى أن المِقْصَلة (الجلّوتين) بطيئة فى اعدام القوم فأمطرهم وابلاً من القذائف الدقيقة فكانت تحصدهم حصداً . وعزم على ألاّ يُبقى من ليون سوى نُصُب يكتب عليه : « ليون قاومت الحرية فزالت من الوجود » . وكان يشفع ذلك بقوله : « دعوا الجثث تسبح حتى تبلغ « طولون » فتنذر أهلها بما سينالون »

تأديب اهل ليون

اخضاع طولون

على أن طولون قاومت مقاومة طويلة ولم تستطع الحكومة اخضاعها الاّ بعد أن عملت بمشورة « نابليون بونابرت » ، وكان حينئذٍ (يوزباشيًا) فى المدفعية الفرنسية ، فصوبت أفواه المدافع على الميناء . عند ذلك اضطر الأسطول الانجليزى الى الجلاء عنها آخذاً معه من استطاع حملهم من أهلها ، وترك الباقين ليلقوا ما لقيه أهل ليون من قبل ، وما لحق أهل بردو ومرسيليا بعد . وسيق الأسرى من أهل فنديه الى « ننت » حيث أُعدم بعضهم رميًا بالرصاص وأغرق الباقون فى نهر اللوار . وزعمت الحكومة ان أهل أُرليان يعطفون على المهاجرين ، فضربت أعناق عظمائهم على المِقْصَلة . أما فى باريس فكان أعظم من فتكت به يد لجنة الأمن العام القاسية « إليصابات » أخت الملك ، وكانت على جانب عظيم من التقوى وطهارة القلب : قتلت فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ١٧٩٤

التقويم الجديد

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الفظائع شرعت الحكومة فى إقامة ما هُدم من جديد . من ذلك أنها وضعت تاريخًا جديداً تُحسب منهُ السنون والأعوام وهو يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ الذى ابتدأت فيه الجهورية . وقسمت السنة الى أشهر سميت بأسماء تنبئ عن حالة الجو كل منها ثلاثون يومًا ، وجُعلت خمسة الأيام الباقية أيام عطلة عامة . وأُبطل حساب الأسابيع ، فصار يوم الراحة هو عاشر الأيام بعد ان كان سابعها

عبادة العقل

ثم نبذ « جوبل » رئيس أساقفة باريس الديانة المسيحية ، وتبعه الكثيرون من القساوسة ، واحتفلت مدينة باريس بعيد جديد يسمى « عيد العقل » أجلس المحتفلون فيه امرأة على مذبح كنيسة نُتردام تمثّل الهة العقل . وفى كثير من أنحاء فرنسا وقف عمال الحكومة الصلوات فى الكنائس وسجنوا القسيسين ، واستولت الحكومة على ما فى تلك الكنائس من أوانى الذهب والفضة ، ونزعت منها أجراسها بتلهف ، مقدّرةً أنها تكفى لصنع نحو ١٥٠٠٠ مدفع ، لشغف القوم بالاستكثار من آلات الدفاع . فقد كان يصنع فى ذلك الحين فى باريس وحدها مائة مدفع كل

شهر ونحو ١١٠٠ بندقة كل يوم . كذلك استكثروا من انشاء الطرق والترع ، ورسمت الخطة العلمية لوضع مقاييس للطول والوزن والكيل منسوبة الى حجم الكرة الأرضية ، فكان ذلك أساس المقاييس الفرنسية (العشرية) الشائعة الاستعمال فى أنحاء المعمورة

النزاع بين اليعقوبيين

ثم دب النزاع بين اليعقوبيين أنفسهم . فكان « دنتون » يرى أن قدم الاصلاح قد رسخت وأن لا داعى بعدُ لسفك الدماء ، وأشار باخلاء سبيل المسجونين، فلما أنكر عليه « روبسبيير » ذلك ، قال : « لا يؤخذ البرىء بجرم المذنب»، فأجابه



دنتون روبسبيير مرا

زعماء حكم الإرهاب

روبسبيير : « اننا لم نعاقب بريئاً » . فسخر منه دنتون ، فاشتد اللجاج بينهما ؛ وأخذ روبسبيير يعمل على الإيقاع بنظيره حتى ألصق به التهمة المألوفة وهى التآمر على الأمة ، ومنعه من الدفاع عن نفسه ، فأرسل به هو وأتباعه الى المِقْصَلة فى ٥ ابريل سنة ١٧٩٤ ؛ وكان هؤلاء يقولون : « ان روبسبيير سيلحق بنا »

مقتل دنتون

روبسبيير

صفا الجو بعد ذلك فترة لروبسبيير ؛ وكان يُظن أنه يهدّئ الأحوال ويؤسس حكومة منظمة ثابتة . وبالفعل شرع يستعمل نفوذه فى ازالة الهواجس الدينية وهداية

الأمة الى الإقرار بإله واحد عظيم (من غير اعتراف بالنصرانية) . فانقادت الحكومة له ، وأعلن الوفاق الأهلى اعترافه بالإله الأعظم ، وأنّ فرنسا لا تعبد من دونه شيئاً . وعُقد احتفال لذلك فى ٣ يونية سنة ١٧٩٤ . على أن المذابح كانت طول هذه المدة قائمة على قدم وساق ، ولم يحاول روبسبيير تخفيف وطأتها ، اعتقاداً أنه انما يطهّر فرنسا من أعداء الانسانية . ولكن الشعب الفرنسى بعد أن رأى انتصار جيوش الجمهورية ورسوخ قدم حكومة الثورة ، أخذ يتنبه الى قسوة هذه الفظائع ويرى أنه لم يعد لها داع ، وصار يقشعر من هول منظر المِقْصَلة والأرواح التى تُعدم فوقها كل يوم . فكان روبسبيير أول من وقع عليه سخطهم . وانضم ذلك الى حسد بعض أعضاء لجنة الأمن العام له وخوفهم من أن يفتك بهم ، فعزموا على سبقه الى ذلك . فلما شعر بدسائسهم طعن على اللجنة أمام هيئة الوفاق ، فلم يقابل كلامه الاَّ بالسكوت . وفى اليوم التالى (٢٧ يوليه سنة ١٧٩٤) طعن عليه « تَلْيان » علناً أمام الهيئة وقال إنه « كرُمول عصره » . فقامت فى إثر ذلك ضجة من الأعضاء يصيحون : « فليسقط الطاغية » فأرغى روبسبيير وأزبد ، وحاول الدفاع عن نفسه ، فلم يُسمع صوته وسط الضجة والصياح . فقُبض عليه وسيق هو وبعض أصحابه الى المقصلة فى اليوم التالى ، وبهلاكه انقضى حكم الارهاب الذي لم يكد التاريخ يسمع بأشد منه هولاً . فقد بلغ مجموع من أُعدموا على المقصلة فى ثلاث السنوات التى بين ١٧٩١ و ١٧٩٤ نحو ١٨٫٦٠٠ عدا من قُتلوا رمياً بالقنابل والرصاص فى ليون وطولون وبرطنية ومن أُغرقوا فى ننت *

مقتله

انتهاء حكم الارهاب

٦ — * حكومة الإدارة : ١٧٩٥ — ٩٩ *

بعد ان مات روبسبيير قبض على زمام حكومة الوفاق بقيةُ الجيرُنديين . فأخلوا

* وقد كان لكل هذه الفظائع أسوأ أثر فى قلب شعور الشعوب الاخرى عن الثورة الفرنسية فقد كان بين تلك الشعوب من الفلاسفة والشعراء من يعطف على هذه الحركة ويعدونها خطوة عظمى نحو تحرير الجنس الانسانى . فذهبت هذه الفظائع بكل تلك العاطفة

بقيـة الاسرة الملكية

السجون من ساكنيها ، وأخذوا يعملون على تهدئة الأمور وارجاع السكينة . وساعد على تأييد مركز الحكومة عدم وجود أحــد يناضلها من بيت الملك ، فان لويس السادس عشر لم يعقب الاّ ولداً صغيراً لم يتجاوز العاشرة وابنة فى الخامسة عشرة من عمرها . وقد كان مضى على الولد زمن طويل وهو يقاسى أصناف العذاب . فلما سئم أمره «سيمون» القائم على حراسته زجّ به فى غرفة قذرة لم يسمح بتنظيفها ولا بتغيير ثيابه نحو سنتين ، حتى صار ذلك الطفل البائس فى حالة تشمئز منها النفوس ، ولما تحركت الشفقة نحوه فى نفوس القوم كان قد نفذ القضاء ، فخر الغلام تحت عبء هذا الشقاء ، ومات يوم ٨ يونيه سنة ١٧٩٥ . وبعد وفاته بقليل أُطلق سراح أخته مارية تريزا وأرسلت الى عمها « كنت بروفانس » المنفى من فرنسا والمكروه من الشعب الفرنسى . وهو الذى اعترف به حزب الملكيين ملكاً على فرنسا بعد موت ابن أخيه ، ولقبوه لويس الثامن عشر ، فكان اعترافهم صرخة فى واد

النظام الجديد

ورأى زعماء الوفاق الأهلى تأييــد الثقة بالحكومة بادخال اصلاح فى نظامها . فقرروا وضع السلطــة التشريعية فى يد مجلسين : مجلس يضع مشروعات القوانين ويتألف من ٥٠٠ عضو لا تقل سن كل منهم عن الثلاثين ، ويسمى « مجلس الخمسمائة » وآخر ينظر فى تلك المشروعات لاعتمادها أو رفضها ، ويتألف من ٢٠٠ عضو لا تقل سن كل منهم عن الأربعين ، ويسمى « مجلس الشيوخ » . واشترط فى تكوين المجلسين أن يكون ثلثا أعضائهما من أعضاء هيئة الوفاق . أما القوة التنفيذية فتعهد الى هيئة تسمى « الادارة » (Directoire) تؤلف من خمسة أعضاء ينتخبهم المجلسان ويرأسهم واحد منهم بالتناوب كل ثلاثة أشهر ، ويسقط واحد منهم كل عام بالاقتراع

الثورة على الادارة

وقد أغضب الملكيين الشرطُ القاضى بانتخاب ثلثى أعضاء المجلسين من أعضاء الوفاق القديم ، فثاروا على الحكومة ، وانضم اليهم غوغاء باريس . فأعدت الحكومة جيشاً لاطفاء الثورة ؛ الاّ أنها خشيت عاقبة ارسال الجند الى باريس وما عسى أن

يحدث فى المدينـة من الهرج والفتن ؛ فعوّلت على أن تعهد بالأمر الى رجل يمتاز بالحكمة والشجاعة ، فاختارت لذلك القائد « برّا » فأجاب على الفور بقوله : « عندى الرجل الذى يعرف كيف تُخمد ثورات الغوغاء » . ذلك هو ضابط فى المدفعية يدعى « نابليون بونابرت »

ظهور بونابرت

وُلد نابليون بمدينة أجَكسيو من أعمال جزيرة قُرْشقة فى ١٥ أغسطس سنة١٧٦٩ وكان أبوه محامياً ؛ ولما شبّ درس الفنون الحربية بمدرسة «برِين»، وعرفه « برّا» لأول مرة عند ما أبلى بلاء حسناً فى حصار طولون . وقد صدق ظن برّا فيه هذه المرة أيضاً ؛ فان نابليون هبّ فى الحال ونصب المدافع تجاه جميع الطرقات المؤدية الى مكان الادارة وحشاها بالشظايا الدقيقة . فلما هجمت جموع الغوغاء على الادارة أمطرهم وابلاً منها ، فعادوا مذعورين وأُخمدت الثورة (٥ اكتوبر سنة ١٧٩٥) . وفى ٢٥ اكتوبر حُلّت حكومة الوفاق الأهلى فخلفتها حكومة الادارة والمجلسان

الفصل الثانى

حروب نابليون

١ — * الحرب فى ايطاليا : ١٧٩٥ — ١٧٩٧ *

فوز الجيوش الفرنسية

بينما كانت الانقلابات الداخلية الآنفة تجرى مجراها فى فرنسا كانت لظى الحرب لا تزال مستعرة بينها وبين الأحلاف من أعدائها . وكان لواء النصر فيها معقوداً للفرنسيين : فأعادوا فتح البلجيك بانتصارهم على النمسويين والانجليز فى واقعة « فلورى » * سنة ١٧٩٤ ، وواصل القائد « بِشْجِرو » الزحف من تلك الجهة حتى دخل هولندة واكتسح الجيش الانجليزى أمامه . ثم استولى على الأسطول الهولندى

* فى بلجيكا على مقربة من « شرلروا »

بطريقة لا تزال من أعجب ما وعاه التاريخ ؛ وذلك أنه عبر المياه المتجمدة بفرقة من الفرسان ودهم بهم ذلك الأسطول الراسى على شواطئ جزيرة « تِكْسِل » ؛ وفى إثر هذا النصر حُوّلت هولندة الى « الجمهورية البتاوية » وأصبحت حليفة خاضعة لفرنسا . كذلك هزم الفرنسيون الاسبان فى جبال البرانس وغزوهم فى عقر دارهم ، على حين أن جيشاً فرنسياً آخر زحف على ايطاليا من الطريق الساحلى الممتد بين نيس وجنوة . وفى عام ١٧٩٥ أبْرَمَتْ بروسيا صلح « بال » مع فرنسا ، فقفت أثرها اسبانيا وتُسكانية

صلح بال

الخطة العامة لقهر النمسا

تلك كانت الحال فى أوربا فى أوائل عام ١٧٩٦ وقت أن عزمت حكومة « الادارة » على تسيير ثلاثة جيوش على النمسا : الأول يغزوها من جهة وادى المين بقيادة « جوردان » ، والثانى ينقضّ عليها من طريق الطونة بقيادة « مورو » ، والثالث يزحف عليها من سهل لمبردية . وعُهد بقيادة الجيش فى ايطاليا* الى نابليون بونابرت ، فكان اختياره لذلك من اكبر سعود فرنسا فى ذلك الزمان ؛ فان هذه الغزوة كانت فاتحة لتلك الأعمال الحربية العظيمة التى جعلته فى طليعة أعاظم القواد الذين ظهروا فى عصور التاريخ الحديث . وكان الجيش الذى عُهد اليه بقيادته يتألف من أقل من ٤٠٠٠٠ مقاتل ، هم أشبه بعصابات الغوغاء منهم بالجنود النظامية ، وكلهم فى حال يُرثى لها من قلة المأكل والملبس ؛ وقد عانوا أصناف الآلام بلا جدوى مدة عامين قضوهما بين صخور جبال الألب يحاولون عبثاً ولوج شمالى ايطاليا ، حتى استولى عليهم اليأس ودبّ فيهم روح التمرد ؛ ولم يبقَ فيهم من صفات الجند الاَّ الشجاعة والاستبسال ، وهما لا يجديان نفعاً مع هذه الفوضى التى كانوا فيها . ولكن نبوغ نابليون النادر أبى إلاَّ أنْ يوجد من هذه الشراذم جيشاً متماسكاً قوياً ، أتى فى ايطاليا من الأعمال ما نكّل بأعداء فرنسا وألبسها حلل المجد

نابليون والجند

* كان بونابرت قد وضع خطة لغزو ايطاليا بأمر الحربية الفرنسية ، فأدرك كرنو (احد اعضاء حكومة الاداره) بعد نظره واصالة رأيه فناط تنفيذها به

والفخار*. بدأ نابليون أعماله باستنهاض أولئك الجند ، فوجّه اليهم بلاغه الحماسى الشهير ، وفيــه يقول : « أيها الجند ، أنتم جياع ، أنتم عراة . الحكومة مدينة لكم ولكنها لا تقدر على معونتكم . فهأنذا أقودكم الى أخصب سهول الدنيا : أقاليم يانعة ومدن عظيمة ، كلها ستكون فى أيديكم ، وهنالك تغنمون الشرف والفخر والمال »

خطة العدو فى ايطاليا

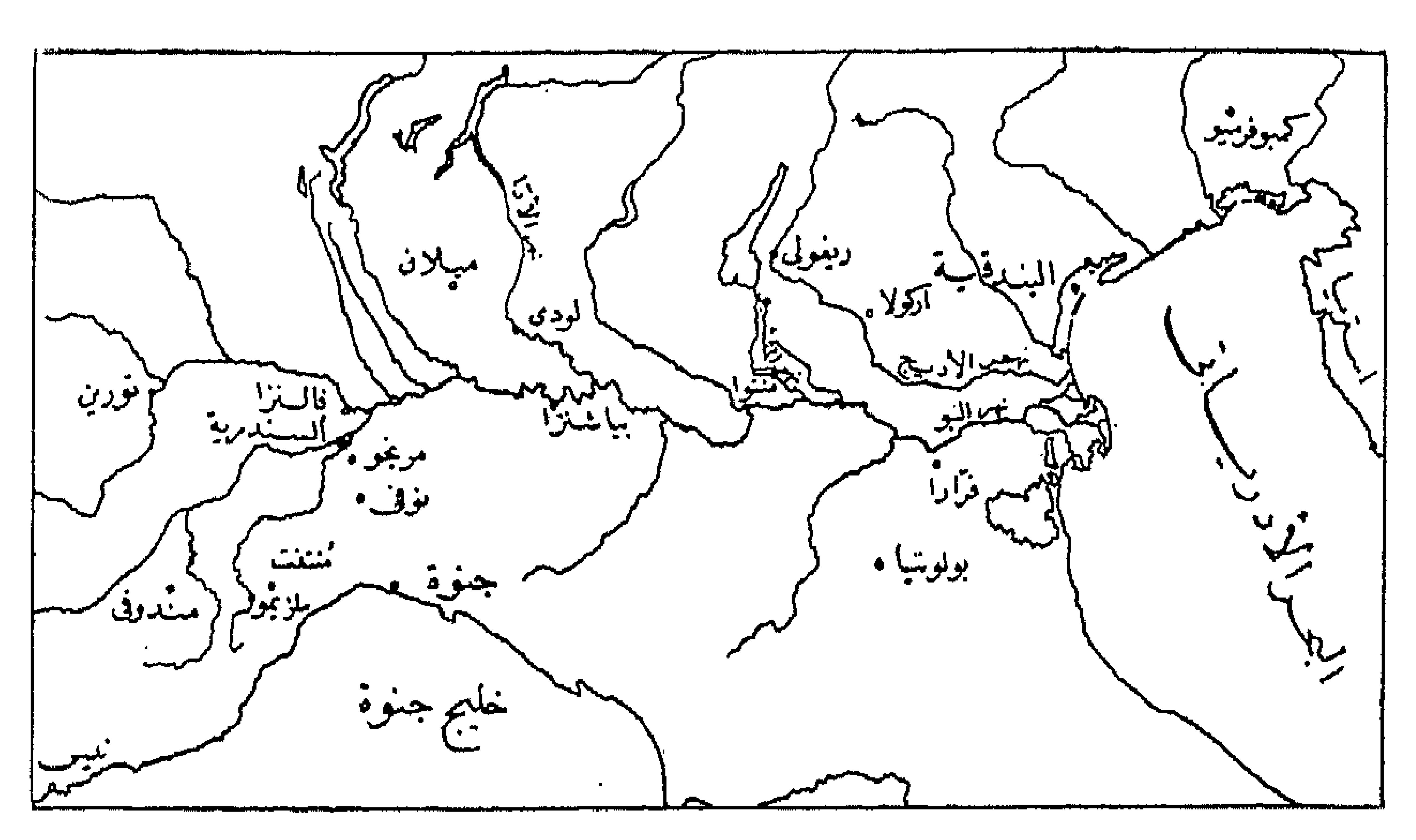
وصل نابليون الى نيس يوم ٢٦ مارس سنة ١٧٩٦ لتسلّم قيادة ذلك الجيش ، وبعد ان بث روح الحماسة فى جنوده أخذ ينعم النظر فى مركز العدو وخطته . فاتخذ طريق الساحل الذى بين نيس وجنوة قاعدة لأعماله الحربية . وكانت جيوش النمسا وحليفتها سردانيا منتشرة على الجبال الممتدة شمالى هذه الطريق : لتسد أمامه أبواب الزحف على سهل لمبردية ؛ ولكنها لحسن الحظ لم يكن بعضها متصلاً بالآخر تمام الاتصال ؛ لقلة ثقة كل فريق بحليفه ، ولتعويلهما على أن يرجع كل منهما الى قاعدة أعماله وقت الخطر : النمسوى الى ميلان ، والسردانى الى تورين . فرأى بونابرت أن لا سبيل الى النصر الاَّ بالتفرقة بينهما والانقضاض على كل منهما منفرداً . وقد نجح فى إنفاذ هذه الخطة ؛ ففصل بين الجيشين بهجومه عند « مُنْتِنُت » فى ١١ ابريل حيث قضى على قلب الجيش النمسوى قضاء مبرمًا بأن أحاط به من جميع الجهات . وأتبع هذا النصر فى اليوم التالى بقهر النمسويين ثانيةً عند « مِلزيمو » . وعند ذلك ترك جزءًا من جيشه يرقب النمسويين وخفّ بالبقية للقاء السردانيين ؛ فهزمهم فى « مُنْدُوفى » (٢٠ – ٢٢ ابريل) واضطرهم الى التقهقر نحو تورين ، ثم جدّ فى اقتفاء أثرهم . ولما رأى ملك سردانيا ان الفرنسيين صاروا على عشرة أميال من حاضرة بلاده ، أخذه الهلع وأسرع الى مهادنتهم : فنزل لبونابرت عن المعاقل العظيمة التى تُعتبر مفتاحًا لايطاليا من هذه الناحية ، فأصبح فى مقدور نابليون أن يوجّه كل قوته الى النمسويين بلا خوف ولا وجل

خطة نابليون

منتنت وملزيمو

مندوفي

* والحقيقة ان الخطط التى اتبعها نابليون فى تلك الغزوة كانت من اعظم ما أتى به فى جميع حروبه واعتبرت بعده نماذج تدرس فى الفنون الحربية



بيان حروب نابليون فى ايطاليا

فأول ماقام بهِ أن تظاهر بالشروع فى الانقضاض عليهم من جهة « فالِنْزا » على نهر البو. فانخدع بذلك القائد النمسوى « بوليبيــه » وعسكر بجيشه على هذا المكان. فطار نابليون فى الحال بجيشه حذاء شاطئ البو الجنوبى الى « بياشِنْزا » ؛ وهنالك عبر النهر وظهر فُجاءةً وراء الجيش النمسوى . عند ذلك رأى بوليبيه أن يُخلى ميلان ويتراجع الى نهر « الأدّا » حتى لاينقطع خط الرجعــة جملةً بينه وبين بلاد النمسا . فالتقى بهِ نابليون على هذا النهر وهزمه عند جِسْر (كبرى) « لودى » فى ١٠ مايو سنة ١٧٩٦ . وتُعدّ موقعة « جسر لودى » هذه من أعظم الوقائع التى ظهرت فيها قوة ارادة نابليون ومضاء عزيمته . فقد وقف له العدو فى آخر الجسر بثلاثين مدفعًا و١٠٠٠٠ مقاتل، وأخذ يصوّب على الفرنسيين النيران الحامية. ورأى نابليون وجوب العبور؛ فبيّن له قواده عاقبة هذه المخاطرة، فلم يعبأ بقولهم وسار بنفسه على رأس فرقة ليعبر الجسر تحت وابل من النيران . فقويت بذلك عزيمة جنوده وتغلبوا على هول المقام ، فعبروا النهر . وفى ١٥ مايو دخل نابليون مدينة ميلان .

جسر لودى

فتقهقر بوليبيه الى نهر المِنْشيو ، فهُزم ثانيةً واضطر الى الاحتماء ببلدة « مَنْتُوا » فألقى نابليون عليها الحصار

حصار منتوا

نابليون وامراء ايطاليا

وبعد أن تم له تشتيت شمل الجيش النمسوى، ولّى وجهه شطر الولايات الايطالية فاصطلح مع أميرى « مودينا » و« بَرما » والبابا، بعد أن ضرب عليهم مغارم حربية عظيمة وأخذ من بلادهم أحسن مافيها من التحف والآثار الجميلة وحملها الى بلاده ليزين بها اللوفر، دارَ التحف والعاديات التى ما برحت تفعم أزمان فتوحه بأثمن الصور والتماثيل التى كان يغتصبها من الممالك المقهورة . أما ملك نابلى وصقلية فانهُ لما رأى ذلك نقض حِلفه مع النمسا وانضم الى فرنسا

ولما رأى عاهلُ النمسا أن الفشل ملازم جيوشه فى ايطاليا، وأن منتوا التى هى مفتاح بلاده ما زالت تحت الحصار*، سيّر على نابليون عدة جيوش جديدة. فالتقى

اركولا ورفولى

نابليون بالنمسويين أولاً فى موقعة « أرْكولا » الدموية التى استمرت ثلاثة ايام (١٥ – ١٧ نوفمبر) فهزمهم شر هزيمة، ثم فى « رِفولى » (١٤ يناير سنة ١٧٩٧)

سقوط منتوا

حيث بدد شملهم؛ وكلّل هذا النصر المبين بالاستيلاء على « مَنْتُوَا »، فصارت ايطاليا بأسرها موطئًا لأقدام جيوشه

جيشا جوردان ومورو

أما ما كان من شأن «جوردان» و« مورو » فانهما أخفقا فى مهمتهما فى الزحف على ويانة من الأراضى الألمانية، واضطرهم الأرشدوق شارل القائد النمسوى العظيم الى الارتداد على أعقابهم

فلما فرغ نابليون من أمر ايطاليا عمد الى الزحف بنفسه على ويانة. فاخترق اقليم « كَرِنْثِيَا » والتقى بالارشدوق شارل فهزمه فى عـدة وقائع، وتوغّل فى الأراضى النمسوية حتى بلغ مدينة « ليُوبِن » على مسيرة ستة أيام من ويانة . فخشيت النمسا

هدنة ليوبن

سوء المغبّة وعقدت معهُ « هدنة ليوبِن » فى ابريل سنة ١٧٩٧

غزو البندقية

وفى خلال هذه المدة حدثت بعض فتن وقلاقل فى جمهورية البندقية . فاتخذ نابليون من ذلك ذريعة للتدخل فى شؤونها . فاحتل حاضرتها وقلب نظام حكومتها وقضى على مجدها واغتصب الكثير من نفائسها

---

* كان بوليبه قد اعتزل قيادة الجيش النمسوى وخلفه « رومسر » فاضطره نابليون الى الالتجاء أيضا الى منتوا (وكان قد فك الحصار عنها مؤقتا) وحصره فيها

صلح كمبو فرميو

ولما رأت النمسا أن ايطاليا أصبحت فى قبضة نابليون ، وأن سطوته تعظم كل يوم اضطرت الى قبول الصلح بالشروط التى أملاها . فأُبرم بينهما « صلح كَمْبو فُرْمِيُو » فى ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٧ . وأهم شروطه هى :

(١) أن تضم فرنسا اليها الأراضى المنخفضة النمسوية

(٢) أن تعترف النمسا بجمهورية « سِسَلْبين » التى كوّنها نابليون فى ايطاليا من إمارات (دوقيات) ميلان ومنْتُوا ومودينا وما أُخذ من أملاك البابا ، وأن تعوّض النمسا أمير مودينا عن أملاكه مقاطعة « بِرِسْجاو » شرقى الرين

(٣) أن تُمحَى جمهورية البندقية من الوجود وتقسم أملاكها على الوجه الآتى :

(ا) تستولى النمسا على الجزء القارّى من البندقية شرقى نهر الاديج مضافًا اليه إسْتريا ودَلماسيا

(ب) يضم الى جمهورية سِسَلْبين الجديدة أملاك البندقية التى فى غربى نهر الأديج

(ح) تستولى فرنسا على الجزائر الأيونيّة

ولايات الرين

وقبلت النمسا سرًّا أن تستولى فرنسا على الولايات الألمانية التى على شاطئ الرين الأيسر . وكانت بروسيا كذلك قد اتفقت سرًّا على النزول عما لها فى هذه الجهة . فلم يبق لتنفيذ ذلك الاَّ موافقة المجمع الألمانى ، ولم يكن هذا ليعارض فى أمر أقرّته النمسا وبروسيا أعظمُ ولايتين فى ألمانيا . ومن ذلك الحين الى عام ١٨١٤ بقيت فى يد فرنسا هذه الولايات العظيمة الشأن وفيها مدينة آخِن عاصمة شرلمان ومدن مينز وكلونيا وتريفز . وجميعها من أعرق المدن الألمانية وأمجدها فى التاريخ

٢ — * حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ *

نابليون والادارة

لما عاد نابليون من فتوحه ابتهجت به الأمة الفرنسية وحيته تحية الظافر ، وأصبح بطلها العظيم وقائدها الفذّ . ولم يلبث ان طمحت نفسه الى قيادة جيش جديد الى

ساحة الوغى ، فلم يلق مقاومة فى ذلك ، لا سيما أن الحكومة كانت وقتئذٍ تود أن تتملص منهُ ، إذ كان الخوف قد أخذ يدب فى نفوس أفرادها منهُ وخشوا أن يستأثر بالسلطة فى البلاد

قيام الحملة

ولم يقم وقتئذٍ على البغضاء لفرنسا سوى انجلترا . فاستمال نابليون الحكومة أن تعهد له بالقيام بحملة على مصر ، ومنّاها بانتزاع الهند من أيدى الانجليز وأنه سيسير الى و يانة من طريق القسطنطينية . فأُعدت له الحملة بكل تستّر وتكتم وأقلع من ثغر طولون فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ومعه ٤٠،٠٠٠ مقاتل وأسطول عظيم من بين سفنه « لوريان » المسلحة بعشرين ومائة مدفع . ولما علم خبر اقلاعه جدّ فى البحث عنه أسطول انجليزى لا يقل عنه فى العدد بقيادة نلسن أمير البحر الانجليزى . وقد

الاستيلاء على مالطة

استولى بونابرت فى طريقه على جزيرة مالطة مأوى فرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد دب فيهم الضعف حتى أصبحوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم فى معاقلهم المنيعة . ثم ترك نابليون حاميةً فى فَلِتَّا عاصمة مالطة واستمر فى سيره الى أن أرسى على

قهر المماليك

الاسكندرية ومنها زحف على القاهرة . فالتقى فى طريقه بجموع المماليك قرب قرية انبابة من أعمال الجيزة . وهنالك وقفت الجنود الفرنسية على شكل مربعات ، فاندفعت عليها فرسان المماليك كما يندفع البحر الهائج على الصخور ، ولكن صفوفهم كانت تذوب أمام نيران الفرنسيين ، حتى اضطُروا الى التراجع الى النيل حيث هلك معظمهم غرقًا فيه . وقد أطلق بونابرت على هذه الملحمة « واقعة الاهرام* » . ولما دخل القاهرة عمل كل ما فى وسعه لاستجلاب محبة الأهلين ؛ فادَّعى أن عقيدة الفرنسيين الجديدة مطابقة للدين الاسلامى ، وتظاهر بالميل الى اعتناق الاسلام . وفى هذه الآونة كان يرسل الى الصحف الفرنسية التقارير الطافحة

تحطيم الاسطول الفرنسى

بوصف أعماله فى وادى النيل . ثم حَطّم نلسن أسطوله عند بوقير ، فكان ذلك ضربة أصابت كبد خطته ، إذ قُتل فيها « برُوِى » أمير البحر الفرنسى ، وأغرقت لوريان ، ولم

* تجد ذكر غارة نابليون على مصر مفصلا فى كتاب « تاريخ مصر من الفتح العثمانى »

يبق من كل الأسطول الفرنسى الضخم الاَّ سفينتان ؛ وبذلك أصبح جيش نابليون محصوراً فى مصر ، إذ قُطعت كل المواصلات بينه وبين فرنسا ، ولم يعد فى استطاعته أن يعرف أخبار بلاده . أما نِلْسُن فانه أصبح صاحب السيادة البحرية على البحر الأبيض المتوسط ؛ وحاصر مالطة ، فدافعت عنها الحامية الفرنسية مدة عام بأكمله ؛ ولكنها اضطرت بعدُ الى التسليم له بعد أن يئست من وصول المدد اليها

نابليون فى سورية

هذا الى أن السلطان سليماً الثالث تحالف مع انجلترة وأخذ يعد جيشاً فى سوريا لطرد نابليون . فخفّ لذلك بونابرت بجيش أغار به على فلسطين ، فحاصر يافا واستولى عليها عنوة ، وتلت ذلك مذبحة شنيعة قُتل فيها ٢٠٠٠ من العثمانيين كان قد أمَّنهم على حياتهم « يوجين بوهرْنيه » ابن زوجته ، ولَمَّا لم يكن فى استطاعة نابليون على ما يُقال أن يحرس هؤلاء الأجناد الأسرى أو يرسلهم الى القاهرة ، أمر باعدامهم رمياً بالرصاص على ساحل البحر . فأثار هذا العمل الحمية فى نفوس حامية عكاء واستماتوا فى المحافظة على حصنهم والدفاع عنه بهمة والى المدينة احمد باشا الجزار ، وكان يدير أمر الدفاع « المهندس فِلِبّو » أحد المهاجرين الفرنسيين ، والسير سدنى سمث وهو ضابط بحرى انجليزى كان قد دخل ميناء عكاء بسفينتين حربيتين . فأخذ الفرنسيون يهاجمون الحامية مدة ستة أيام على غير جدوى ؛ ولكنهم بعد ذلك اشتبكوا مع الجيش التركى فى موقعة عظيمة كان النصر فيها حليفهم . ثم أعادوا الكرة على عكاء وأخذوا فى حصارها وبخاصة بعد أن علموا أنّ فِلِبّو حُمّ فمات ، ولكنهم ردوا على أعقابهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة وأخذ الطاعون يفتك بهم ، فاضطر نابليون الى فك الحصار عنها ، فكانت هذه أول صدمة لاقاها فى حياته ، وبها قُضى على جميع مقاصده فى الشرق

فشله

واقعة بوقير البرية

رجع نابليون بجيشه الى مصر من طريق الصحراء حيث لاقى الجيش أهوالاً وانقطع منه الكثير فهلكوا بالطاعون . وفى هذه المدة حملت السفن الانجليزية الى المياه المصرية جيشاً مؤلفاً من ٩٠٠٠ انكشارى ومثلهم من الجنود التركية الأخرى

بقيادة مصطفى باشا . فالتحم بهم نابليون عند بوقير فى ملحمة عظيمة وانتصر عليهم فيها نصراً مبيناً بالرغم من حرج مركزه

عودة نابليون الى فرنسا

وفى هذه المدة أرسل السير سدنى سمث مجموعة من الصحف الأوربية الى نابليون فكانت أول أخبار بلغته عن أوربا منذ واقعة النيل (بوقير البحرية) . فلما قرأها علم باضطراب الأمور فى فرنسا ، فعزم على العودة اليهـا فى الحال . فتسلّل من مراقبة الأسطول الانجليزى فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ وأقلع الى فرنسا تاركاً الجيش الفرنسى فى مصر لقيادة كليبر

جلاء الفرنسيين عن مصر

وأرسل الانجليز عام ١٨٠١ حملة الى مصر بقيادة السير رَلْف أبِرْ كرُمبى ، فهزم الفرنسيين على مقربة من الاسكندرية هزيمة منكرة . ثم حاصر الانجليز المدينة ؛ فلم يرَ الجيش الفرنسى بدًّا من التسليم ، على أن يُنقل الى فرنسا على سفن انجليزية

٣ — ✱ عودة أوربا الى التحالف على فرنسا ✱

وفى هذه الأثناء حدث بأوربا أمران عظيمان :

غزو سوسرة

الأول غزو الجيوش الفرنسية لسوسرة . وذلك أن مبادئ الثورة الفرنسية سرت فى بعض أجزاء سوسرة ، وأخذ أهلها يتألبون على الحكومة ويظهرون ميلهم الى فرنسا بعد أن كانت بلادهم فى حَيْدة تامة . فانتهزت الجمهورية الفرنسية فرصة نشوب الفتنة فيها وعزمت فى أواخر سنة ١٧٩٧ على غزوها ؛ لتكوّن منها جمهورية شبيهة بالجمهوريات التى أوجدتها على بعض حدودها الأخرى ، ولتستولى على ما فى « بِرْن » وغيرها من مدن سوسرة من الكنوز العظيمة التى كانت فرنسا فى شدة الحاجة اليهـا للقيام برغائبها الهجومية على انجلترة . فلم تلبث الجيوش الفرنسية ان أخضعتها وقلبت نظام الاتحاد السوسرى ؛ فحوّلت سوسرة الى جمهورية أطلق عليها « الجمهورية الهِلْفِية ✱ » ، ووُضع لها فى سنة ١٨٠٠ القانون النظامى الذى لايزال جوهره متبعاً فى سوسرة الى الآن

✱ ولم تدخل فيها جنيرة فانها ضمت الى فرنسا

مطامع فرنسا في ايطاليا

الأمر الثانى اشتطاط الفرنسيين فى مطامعهم فى ايطاليا . وذلك أنه فى عام ١٧٩٨ أرسل يوسف بونابرت أخو نابليون الأكبر من قبل الحكومة الفرنسية الى رومية لتحريض أهلها على البابا . وعلى إثر ذلك سار جيش فرنسى الى رومية وأعلن الحكم الجمهورى فيها وقبض على البابا « بيُوس السادس » ، وكان فى الثمانين من عمره . وحُمل أسيراً الى فرنسا حيث قضى نحبه سنة ١٧٩٩ . ثم قامت ثورة فى تورين واضطر الملك شارل إمنويل من جرائها الى الانزواء فى سردانية بعد أن خُلع عن ملك بيدمنت لاتهامه بالمفاوضة مع حكومة ويانة

التحالف الثانى على فرنسا

كل ذلك مضافًا الى فوز الانجليز فى موقعة بوقير البحرية ، كان له تأثير عظيم فى أوربا ، وبعث فى ممالكها روحًا جديداً لمقاومة فرنسا : فتحالف العاهل (الامبراطور) فرنسيس مع « بولس » قيصر روسيا ، وأعدّا الجيوش لاسترجاع ايطاليا . وشجع ذلك ملك نابلى على نكث حِلفه مع فرنسا ، وانضمت اليهم انجلترة والبرتقال وتركيا (التحالف الثانى)

الحرب فى ايطاليا

وتسلم جيشَ نابلى القائد النمسوى « ماك » وساقه على الفرنسيين فى رومية . فتراجعوا لقلة عددهم نحو الشمال ، ولكنهم لما رأوا إلحاح ماك فى مطاردتهم تحمسوا وثبتوا للقائه ، فهزموا جيشه شر هزيمة وساقوه الى نابلى ثانية ، ففر الملك والملكة الى صقلية بحماية الأسطول الانجليزى . وأعلن الفرنسيون الحكومة الجمهورية فى نابلى بمساعدة علِية القوم فيها على الرغم من معارضة دهمائهم

موقعة نوفى

الاَّ أن جيوش النمسا والروسيا التى كانت تزحف على الفرنسيين فى شمالى ايطاليا التحمت بهم وأخذت تهزمهم فى كل الملاحم ، واضطرتهم الى الانسحاب من نابلى ورومية . ثم كانت الطامة العظمى عند « نوفى » على مقربة من ألِسَّنْدرية حيث كسر القائد الروسى « سُوَاروف » الفرنسيين فى موقعة فاصلة (أغسطس سنة ١٧٩٩) ، ولا شك أن هذه الغزوة كانت اكبر مصيبة لحقت الجمهورية الفرنسية منذ نشأتها ، ولم يبق لفرنسا بعدها فى ايطاليا سوى ساحل جنوة . ولا يبعد أن سواروف لو تُرك

وشأنه فى إكمال نصره ، لغزا فرنسا نفسها ، لكنهُ أُمر بالسير الى سوسرة لشدّ أزر القائد كُرسا كوف بالقرب من زوريخ . على أن كرسا كوف هذا هزمه القائد الفرنسى مسينا هزيمة منكرة عند هـذا المكان قبل أن يصل اليه المدد ، فنجت الجمهورية الفرنسية من الخطر الذى كان يحدق بها . وساعد على ذلك أيضاً خيبة الانجليز والروس فى هجومهم على هولندة

نجاة الجمهورية

﴿ ٤ — انقلاب الحكومة سنة ١٧٩٩ ﴾

وفى أثناء هذه الحروب حدث تغيير وتبديل بين أفراد حكومة الادارة ، و برهنت كل طائفة منهم أخذت مقاليد الأمور بيدها على عدم كفاءتها لادارة دولاب هذه الحروب العديدة . وكان أقدر انسان فيهم جميعاً هو « الأبى سييّس » الذى امتاز بطول باعه فى السياسة التشريعية ، وان لم يكن قوى الشكيمة حتى ينهض وحده بهذا العبء الثقيل . فلما عاد نابليون من مصر فى اكتوبر سنة ١٧٩٩ أخذ يعمل سرًّا مع سييّس وآخر من أعضاء الادارة يُدعى « ديكو » على قلب نظام الحكومة . وأجمع الثلاثة على أنه ليس من الحزم ولا من المستطاع فى أوقات الحرب العصيبة أن تُلقَى مقاليد الأمور الى يد المجلسين ؛ فأوعزوا الى أعضاء الادارة ، تارة بالاستمالة ، وطوراً بالقوة ، أن يعتزلوا مناصبهم ، وأوهموا أعضاء المجلسين بوجود مؤامرة عليهم فى باريس ، فرضوا بالاجتماع فى سان كلو احدى ضواحى المدينة

سييس وديكو

واتفاقهما مع بونابرت

وكان نابليون قد تسلّم قيادة الجيوش فى باريس وضواحيها . ففى ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ (١٨ بروميير سنة ٦) ظهر أمام مجلس الشيوخ ومعه ثلة من جنوده وخطب فى الأعضاء قائلاً : ان نظام حكومتهم أصبح عديم الفائدة ، وان فرنسا التى تركها نامية زاهرة ، قد أصابها الفشل والخذلان فى كل ساحات القتال ، وانه هو الذى لاحظته العناية ولا تزال ترقبه فى حظه وحروبه . فهتف له المجلس

بونابرت فى مجلس الشيوخ

على انه لما دخل على مجلس الخمسمائة الذى كان برياسة أخيه لُوسيان بونابرت

وتكلم بهذه النغمة، صاح الأعضاء فى وجهه قائلين «كرُمْوِل ! فليسقط المستبدون»* وهددوه بالنفى، وأخذوا بخناقه، ودفعوه الى خارج المجلس . ولكن سرعان ما حضر جنوده لانقاذه ، فانه حينما كان أخوه يدافع عنه أمام المجلس بلسانه ، كان نابليون يُرِى أجناده آثار مشاحنته معهم قائلاً لهم: «انه ساق فرنسا الى طريق الفخار فكان جزاؤه أن قوبل بالخناجر» ؛ فدخل أحد الحراس لإحضار لوسيان بونابرت ، وعلى إثر خروجه دُقت الطبول وهجم « مورا » (أحد قواد نابليون) على المجلس ونادى بأعلى صوته « انفضّوا » . فأسرع الأعضاء الى الخروج من الأبواب والنوافذ مهرولين ، تاركين بقايا ملابسهم مبعثرةً فى قاعة المجلس . وفى المساء عاد منهم نحو ٥٠ عضواً واتفقوا مع مجلس الشيوخ على أن ينصّبوا كلاًّ من بونابرت وسييس وديكو بلقب «نقيب» (قنصل) ليضعوا نظاماً لحكومة جديدة . وبعد فحص عدة اقتراحات من بنات أفكار سييس ، وُضع نظام جديد جعل السلطة التنفيذية لمدة عشرة أعوام فى يد ثلاثة نقباء (قناصل) ، وهم : بونابرت وكَمْباسيريه ولبْران ، بشرط أن يكون بونابرت النقيب (القنصل) الأول وفى يده جميع السلطة الحقيقية . كذلك يُشكَّل مجلس من الشيوخ يبقى فيه الأعضاء طول حياتهم، وجمعية تشريعية، ومجلس مكوَّن من مائة عضو، يدعى مجلس التريبون. ومع ان طريقة انتخاب كل هؤلاء الأعضاء كانت غاية فى التعقيد ، وليس للأمة فيها صوت بالذات ، فانه لما عُرض هذا النظام الجديد على الأمة الفرنسية ، وافقت عليه بأغلبية عظمى . ومن ذلك الحين اتخذ نابليون مسكنه فى « التويلرى » هو وزوجته جوزفين ، وأصبح لفرنسا ثانيةً بطانةٌ وعجلات فخمة وحلل رسمية وملابس فاخرة وحشم وحراس

بونابرت فى مجلس الخمسمائة

ثلاثة القناصل

النظام الجديد

٥ — الحرب الايطالية الثانية

بدأ النمسويون الحرب عام ١٨٠٠ بشطر الجيوش الفرنسية التى على ساحل جنوة

* يقصدون أنه يريد أن يستبد بالحكم كما استبد به كرمول فى انجلترة

هزيمة الفرنسيين

فاضطروا الشطر الأول الذى يقوده مسينا الى الاحتماء بمدينة جنوة وحاصروه فيها ، وأخذوا يطاردون الشطر الثانى نحو نيس وجهات نهر فار. فسار نابليون فى ربيع سنة ١٨٠٠ على رأس جيش لينتشل الجنود الفرنسية من الوهدة التى سقطت فيها فى ايطاليا ، ولانتزاع هذه البلاد من يد النمسا مرة أخرى

نابليون فى ايطاليا

وكان نابليون قد وعد مسينا بأنهُ سيسير لانجاده ، لكنه غيّر عزمه وزحف بجيوشه مخترقاً ممر سان برنار الى شمالى بيدمنت . ثم ولّى وجهه شطر الشرق الى ميلان ، فكانت عاقبة ذلك أنه فصل بين الجيش النمسوى وبين جميع الطرق المؤدية الى بلاد النمسا ، فأصبح مصير النمسويين موقوفاً على اختراقهم الجيش الفرنسى ، والاَّ فالفناء المحتَّم. عند ذلك جمع القائد النمسوى « مِلاس » كل ما وصلت اليه يده من الجند فى ألسندرية ، وولى وجهه نحو الشرق ليقابل نابليون الذى كان ينزل بجيشه

واقعة مرنجو

على قرية « مَرِنجو » فى ظاهر ألسندرية . وهنالك التحم الجيشان فى موقعة فاصلة، كان النصر المبين فيها باديء ذى بدء من النمسويين قاب قوسين أو أدنى ، الاّ أن الدائرة دارت عليهم ورُدّوا الى ألسندرية (١٤ يونيه سنة ١٨٠٠). ولا شك ان لمجيء القائد « ديزيه » بفرقته وانضمامه الى نابليون فى ذلك الوقت الحرج فضلاً كبيراً فى احراز هذا الفوز ، وإن كان قد خر هو صريعاً فى ساعة النصر

الزحف على ويانة

بذلك أصبح الجيش النمسوى منقطعاً عن بلاده ، فلما رأى قائده ذلك خشى الوقوع بجيشه فى الأسر ، ورضى بالتراجع عن لمبردية، على أن يتخلى لفرنسا عن كل الأراضى التى فتحها القائد سواروف فى السنة الماضية. فأخذ العاهل فرنسيس يفاوض فرنسا فى أمر الصلح ؛ ومع خسائره الفادحة لم يقبل الشروط المجحفة التى عرضها عليه بونابرت ، وداوم الحرب . أما نابليون فانه أقام فى باريس، وأرسل أوامره الى القائد « مورو » (وقد دخل بافاريا) بأن يزحف بجيشه على ويانة

هوهنلندن

وفى مساء ٣ ديسمبر جرت موقعة عنيفة عند «هوهِنلِنْدِن» على نهر الأيزر بين مورو هذا وبين النمسويين بقيادة « الأرشدوق يوحنا » . وكان الثلج يتساقط أثناء

المعركة بكثرة حتى حجب الجيشين عن أن يرى أحدهما الآخر ، وليس لكل منهما دليل يرشده الى موضع عدوّه الاّ بريق نيران البنادق ووميض المدافع . فحمل الفرنسيون وشطروا الجيش النمسوى ، ثم انقضوا عليه فمزقوه كل ممزق ، وذلك بعد أن قُتل من كلا الفريقين نحو ٧٠٠٠ جندى ، فأصبحت الطريق الى ويانة مفتوحة.

وكانت الروسيا قد انسحبت من ميادين القتال لمّا رأت أن النمسا انما تريد فتح ايطاليا لتلتهمها لقمة سائغة لنفسها ؛ فلم يرَ العاهل فرنسيس الثانى وقتئذٍ بداًّ من قبول شروط صلح « لونيفيل » (فبراير سنة ١٨٠١) ، وبه نزل لفرنسا عن كل ما نزل عنه فى معاهدة « كَمْبو فُرمِيُو » وأقرَّ علناً ما رضى به سرًّا فى تلك المعاهدة من حيث ضم ولايات الرين الى فرنسا . وتلا ذلك الصلحُ بين فرنسا وانجلترة ، فأُبرمت بينهما معاهدة « أميان » فى ٢٥ مارس سنة ١٨٠٢

صلح لونيفيل

معاهدة اميان

وكان من شروط هذه المعاهدة أن تردّ جزيرة مالطة الى فُرسان القديس يوحنا ولكن لما رأى الانجليز أن بونابرت لم يكتف بما ناله فى صلح اميان ، وأنه عازم على ضم بيدمنْت ، أبَوْا أن ينزلوا عن مالطة . كذلك طلب نابليون الى الحكومة الانجليزية أن تعاقب كل كتّاب الصحف الذين يهجونه ، وأن تطرد الأسرة الملكية الفرنسية من انجلترة ومعها جميع المهاجرين ، وأهان السفير الانجليزى اللورد « وِتْوِرْث » عند ما رفض هذه المطالب . فاضطرت انجلترة الى اعلان الحرب عليه ثانيةً . فقبض نابليون على السياح الانجليز بدون انذار منه وبقوا أسرى عنده ، وبادر الى غزو « هنوفَر » (إمارة جورج الثالث فى ألمانيا) ، فدخلتها جيوشه بلا عناء ، ثم أخذ يعدّ الجيوش والأساطيل للقيام بغارة عظيمة على انجلترة

تجدد العداء بين فرنسا وانجلترة

٦ — النقابة (القنصلية) : ١٧٩٩ — ١٨٠٤

لم يكن انقلاب « ١٨ برومير » إلاَّ فاتحةً لاستئثار نابليون بجميع السلطة فى فرنسا . ففى عام ١٨٠٢ تغيّر نظام الحكومة بأغلبية أصوات الأمة ، وانتُخب بُونابرت

عظم نفوذ نابليون

نقيبا (قنصلاً) مدة حياته . فعمل كثيراً على ارجاع الأمن والنظام الى نصابه ، وأبرم اتفاقًا مع البابا « بيوس السابع » (الذى انتُخِبَ فى البندقية بعد موت سلفه) لإعادة رابطة الوحدة بين الكنيسة الفرنسية والبابوية . وذلك أن حكومة الوفاق الأهلى كانت قد مَحَت نظام الأسقفيات القديم ، وجعلت سلطة تنصيب القساوسة والأساقفة فى يد الأمة ، فأصبحت بذلك الكنيسة الفرنسية ذات صبغة وطنية مستقلة عن رومية غير أن البابا وجماً غفيراً من القساوسة الفرنسيين لم يقرّوا هذا التغيير ؛ فأراد نابليون أن يحبب اليه البابا والقساوسة (وكانوا من أشد الناس عداء لحكومة الجمهورية) ، فأبرم مايُدعى « الاتفاقية » (Concordat) بينه وبين البابا ، وبها محا كل حقوق الشعب الفرنسى على الكنيسة الفرنسية ، وقسم كل السلطة الدينية بين البابا والنقيب (القنصل) الأول ، وطرد كل أسقف لم يرض بهذا النظام الجديد من أسقفيته . وبقيت اتفاقية سنة ١٨٠٢ هذه مرعية الى سنة ١٩٠٥ ، ففُصلت الكنيسة عن الحكومة

الاتفاقية سنة ١٨٠٢

وفى هذا العهد أيضاً تمَّ سَنّ القوانين التى بدأ وضعُها فى عهد حكومة الجمهورية: اشتغل فيها نخبة من مقننى فرنسا بإشراف نابليون وصدرت باسم « قانون نابليون » وبه وُحّدت القوانين الفرنسية فى جميع أنحاء البلاد ، من الخليج الانجليزى الى جبال البرانس فى كل المدن والقرى على السواء ؛ فمُحيت بذلك كل الأنظمة المتوارثة من عهد الاستعمار الرومانى والقرون الوسطى ، وأصبح الكل يتبع قانونًا واحداً . ومن أهم ما يُلاحَظ فيه عدالة القانون الجنائى ودقة نظام الضرائب ، فقد رُوعى فيه العدل والمساواة بين طبقات الأمة على السواء ، وبمقتضاه أيضًا صار من الصعب أن يجمع الفرد الواحد ثروة طائلة ، إذ حظر على كل والد أن يوصى لأحد أولاده دون الآخرين بشىء من متاعه إلاَّ جزءًا يسيراً . ولا يزال قانون نابليون متبعًا الى يومنا هذا فى فرنسا وغيرها من البلدان

قانون نابليون

أما فى نظام حكومته فانه وضع كل السلطان فى الحكومة المركزية ، ولم يترك شيئًا لحكَّام الأقاليم . وقد بقى هذا النظام مرعيًا فى جملته فى كل حكومات فرنسا التى

قوة حكومة نابليون



نابليون بونابرت

تلت ، وبه أصبحت كل فروع الإدارة تعتبر باريس الينبوع الذى يُستقى منه . ومع أنهُ لم يمنح البلاد ما كان يصبو اليه دُعاة الثورة من جعل الكلمة العليا للشعب لا شك انه ضمن لها حكومة عادلة قوية

المكايد لنابليون

وفي هذه المدة دُبّرت لنابليون عدة مكايد فى باريس تغلّب عليها بمهارة عيونه

وجواسيسه ، وقبض بسببها على القائدين العظيمين مورو و بِشْجرو ، لانضمامهما الى الكائدين له. وأُعدِم أمير (دوق) انجيان بعد ان اختُطف من معزله فى الأراضى الألمانية

٧ — ﴿ العاهلية (الامبراطورية) ﴾

مكانة نابليون فى فرنسا

لما وجد نابليون ان كل شيء فى فرنسا أصبح فى قبضته رأى أن الوقت قد حان لأن يلقَّب بألقاب الملوك . فأوعز الى مجالس الشيوخ أن يطلبوا اليه أن يحكم البلاد بالوراثة ، وأن يلقب بالعاهل (الامبراطور) . ولم يكن له معارض فى ذلك إلاَّ « كَرْنو » الذى كان متمسكاً بمبادئه الجمهورية القديمة ويعزّ عليه هدمها جملة . غير انه لم يجد معيناً ينصره ، إذ كان بعض القوم قد استولى عليهم الخوف والرعب ، وبعضهم بُهِر بما أُوتيه نابليون من العزة والفخار ، وجم غفير منهم كان يعتقد أن عظم سلطان نابليون وقوة شكيمته ، يبث فى البلاد روح الأمن والسلام بعد كل ما قاستهُ من الفظائع والشقاء والبؤس أيام الثورة

بعض المعارضين

ولقد كان من بين الأفراد القليلة الذين لم ترضَ ضمائرهم عن هذا العمل أخوه « لوسيان » الذى انزوى فى ايطاليا ، ولم يقبل من اخيه بعدها أى انعام أو منحة . ولذلك أوصى نابليون بوراثة العرش لأحد اخوته الآخرين يوسف ولويس وجيروم اذا لم يعقب هوَ ولداً . أما النقيبان (القنصلان) الآخران اللذان كانا يقاسمانه حكم البلاد فانه منحهما ألقاباً اسمية . ورفع كلاًّ من أكابر ضباطه الى رتبة مرشال ومنحهم ألقاب شرف . وكان يعتقد أن مهمّته لم تكن إعادة مملكة فرنسا القديمة فقط ، بل تجديد دولة شرلمان الغربية . وقد فكر مرة فى تلقيب نفسه بعاهل (امبراطور) الغاليين ، ولكن قرّ رأيه أخيراً على تسمية نفسه « عاهل (امبراطور) الفرنسيين »

مطامع نابليون

تتويجه

وعند تتويجه فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ حتّم على البابا أن يحضر الى باريس . ولم يرض أن يتوّجه البابا بيده ، بل أخذ تاج المُلْك من يده ووضعه بنفسه على رأسه ، ثم توّج زوجته جوزفين والمنادون أثناء ذلك يهنئون البلاد بتتويجه عاهلاً ،

نابليون في ايطاليا

وزوجته عاهلة على فرنسا . كذلك حوّل الجمهورية الايطالية الى مملكة ، وجعل نفسه ملكاً عليها . فذهب الى ميلان وتوّج نفسه بتاج لُمبردية الحديدى (٢٦ مايو سنة ١٨٠٥) وولى على هذه البلاد ابن زوجته « يوجين بوهَرنيه » نائبًا عنهُ . وفى هذه المدة أيضًا ضُمت الجمهورية الليجورية (جنوة) الى فرنسا

٨ — ﴿ التحالف الثالث على فرنسا وتدمير قوتها البحرية ﴾

بت يؤلف التحالف الثالث

كان اعتداء نابليون على انجلترة وغيرها من الدول وضمّهِ بعض الأصقاع التى كانت تُعتبر مستقلة بنص معاهدة «لونيفيل» اكبرَ عون للوزير الانجليزى «بت» على تأليف تحالف ثالث على فرنسا ، انضم اليه فرنسيس الثانى عاهل النمسا ، والاسكندر الأول قيصر الروسيا ، وجُستاف ملك السويد . ولزمت بروسيا الحياد على الرغم من تذمّرها من فعال نابليون . وانضم الى جانب فرنسا بافاريا وبادن عداءً للعاهلية .

استعداد نابليون لغزو انجلترة

فلم يُظهر نابليون اكتراثًا بذلك ، وجعل شغله الشاغل الاستعداد لغزو انجلترة . وتحالف مع اسبانيا على أن تمدّه ببعض سفنها الفاخرة ، ليعزز بها أسطوله الذى شرع فى بنائه بعد واقعة بوقير البحرية . وقد أعدّ لهذه الغارة عند ميناء بولونية جيشًا كامل العدد والعدد سمّاه « الجيش الأعظم » ، ومعه ما يلزم لنقله من القوارب . ولم يكن أمامهُ عائق يمنعه من انفاذ عزمه إلاَّ مراقبة الأسطول الانجليزى له . فأراد أن يغرّر بهِ ، فأرسل عدداً من السفن الفرنسية لتهديد جزائر الهند الغربية ، على أمل أن يتبعها جزء عظيم من الأسطول الانجليزى ، فيكون للأسطول الفرنسى السيادة فى بحر المنش بضعة أيام . وقد حدث فعلاً أن نلسن تبع الأسطول الفرنسى الى جزائر الهند الغربية ؛ غير انه عاد بسرعة ، فلم تتمكن الأساطيل التى كانت عازمة على غزو انجلترة أثناء غيابه من انضمام بعضها الى بعض . وعاكست الأنواء والعواصف الأساطيل الفرنسية والاسبانية ، فاضطرت الى الانزواء فى جون قادس . فكمن لها نلسن بأسطول البحر الأبيض المتوسط عند رأس « الطرف الأغر » ، حيث انتصر عليها

فشل خطته البحرية

موقعة الطرف الاغر

أكبر انتصار أحرزه فى حياته ، وذلك فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ ، ولكنه مات أثناء الموقعة بطلقة من ملاّح فرنسى . وكان من نتائج هذه الواقعة ان خسرت فرنسا واسبانيا ٢٦ سفينة من الأربعين التى كانت تتألف منها أساطيلهما ، وبذلك ضاع الأسطول الفرنسى ، وذهب كل أمل فى الهجوم على ساحل انجلترة

ولم يكد نابليون يسمع بفشل خطته البحرية ، حتى فض معسكره ببولونية (قبل موقعة الطرف الأغر) ، وخفّ بجيشه الأعظم ليدرأ الخطر عن بافاريا (وقد زحفت عليها الجيوش النمسوية) . وبعد عدة ملاحم صغيرة كان النصر فيها للفرنسيين أحاط نابليون بالجيش النمسوى بقيادة ماك عند « أُلْم » على حدود وُرتمبرج ، واضطره الى التسليم بنحو ٣٠٠٠٠ مقاتل (٢٠ اكتوبر) . وكان فرنسيس قد ولى وجهه نحو الشمال لينضم الى القيصر الاسكندر (الزاحف بجيشه من روسيا) ، فترك «ويانة» من غير تحصين ، فدخلها الفرنسيون فى اليوم الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٨٠٥

واقعة ألم

واقعة اوسترلتز

وفى ٢ ديسمبر تقابلت جيوش النمسا والروسيا مع جيش نابليون عند « أوستَرْلِتْز » * . وهنالك جرت موقعة فاصلة كانت من أعظم المواطن التى ظهرت فيها مهارة نابليون وفضل الأنظمة العسكرية التى ابتكرها . رأى نابليون جيش الأعداء وقد انبسطت صفوفه على مدى طويل جداً جعلها رقيقة . فأدرك ضعف هذه الخطة وانقضّ على وسط الجيش ، ففصل بينه وبين الجناحين . ثم هاجم أقسامه المتفرقة كلاً على حدة ، فبدد شملها وأخذت الجنود تلوذ بالفرار . وإذ ذاك جاءت الطامة الكبرى ، فان معظم الجنود الروسية اضطُرت فى فرارها الى المسير فوق بحيرة متجمدة ، فأطلق عليها نابليون مدافعه ، فكان الجليد يتفتت فتهوى وراءه الجنود بخيولهم ومدافعهم فى أعماق تلك البحيرة . وكانت جيوش كل من الفريقين فى تلك

نكبة الروس

---

* وتسمى هذه الواقعة بواقعة الثلاثة العواهل لحضور امبراطور النمسا وقيصر الروسيا ونابليون فيها

الموقعة نحو ٨٠٫٠٠٠ مقاتل ، فخسر الأحلاف أكثر من ٣٠٫٠٠٠ ولم يفقد نابليون سوى ١٢٫٠٠٠ من رجاله

بلاء الجنود الفرنسية

وقد أبلت الجنود الفرنسية فى هذه الموقعة بلاء حسناً كان اكبر عون لنابليون على احراز النصر ، فانهم وَعَدُوه قبيل الموقعة بأن يأتوه بكل ألوية الجيش الروسى ومدفعيته ويقدّموها له على شكل طاقة زهر اذا هو أبعد نفسه عن مواطن الخطر . ولقد بروا بوعدهم بفوزهم الذى لم يحرزوا مثله قط ؛ فقد اضطر الاسكندر بعد هذه النكبة الى التقهقر الى بلاده ، وأُرغم العاهل فرنسيس على ابرام معاهدة «برِسْبُرج» التى كانت أشد وطأة عليه من سالفتيها : وبها نزل عن أملاكه فى البندقية ودلماسيا الى مملكة ايطاليا ، واعترف بلقب ملك لكل من أميرى بافاريا وورتمبرج ، ونزل عن أجزاء من أملاكه الوراثية لهما ولنائب بادن . ومن أهم ما نزل عنهُ من ذلك مقاطعة التيرول ، فضُمت الى بافاريا

معاهدة برسبرج

نتائج هذا النصر

ولقد سكر نابليون بهذا النصر*، وصار منذ ذلك الحين يرمى الى بسط نفوذه على جميع أوربا من طريق تكوين عدة ممالك وإمارات مستقلة يولى رياستها أفراداً من أسرته. وبدأ فى انفاذ خطته بمملكة نابلى ؛ فأعلن فى اليوم التالى لمعاهدة برسبرج خلع أسرتها عن العرش، وأرسل بجيش لانفاذ هذا القرار، فاضطر فردنند الرابع وزوجته الى الفرار ، وأُعلن أخو نابليون «يوسف بونابرت» ملكاً على نابلى وصقلية (أول ابريل سنة ١٨٠٦) ، وان بقيت جزيرة صقلية فى حوذة فردنند بفضل معونة الأسطول الانجليزى . وفى إثر ذلك حوّل نابليون هولندة الى مملكة ، وولّى عرشها أخاه لويس . ونصّب صهره « مورا » على دوقية « برْج »

اتحاد الرين

وأهمُّ من ذلك كله أنه ألّف فى ألمانيا اتحاداً تحت حمايته يسمى « اتحاد الرين » : ألّفه فى يوليه سنة ١٨٠٦ من ملِكى بافاريا وورتمبرج وأسقف مينز وأمير بادِن وغيرهم،

---

* وقع خبر هذه الكارثة كالصاعقة على الاحلاف ، ولم يتحمل صدمته الوزير الانجليزى بت مؤلف التحالف ، فمات كمداً عند سماعه بنكبة أوسترلتز

على أن يعلنوا انفصالهم عن العاهلية، ويكوّنوا منهم اتحاداً تحت حماية فرنسا . وانضم الى هذا الاتحاد فيما بعد بعض الولايات الألمانية الأخرى . فلما نبذ هؤلاء الأمراء ولاءهم للعاهلية نزل العاهل فرنسيس فى أغسطس عن عرش الدولة الرومانية المقدسة واكتفى بلقب عاهل (امبراطور) النمسا . وبذلك خُتمت أيام الدولة الألمانية القديمة، وأخذ نابليون ما كان لها من المكانة والسلطان

انتهاء الدولة الرومانية المقدسة

٩ — ﴿ غزوة يينا ومرسومات برلين ﴾

تهاون بروسيا فيما مضى

كانت بروسيا أول من أغرى أوربا بخوض غمار هذه الحروب الشعواء فى مبدأ الثورة الفرنسية . ومع ذلك مضى عليها نحو عشر سنين وهى على الحيدة ، لا لسبب ظاهر سوى مراعاة مصلحتها الشخصية وقصْرهما على بولندة* . وقد تحملت فى سبيل هذه الحيدة ضحايا واهانات كثيرة من نابليون ، ولم يكن مِلكها فردريك وليم الثالث ليحرّك ساكناً . وحدث فى سنة ١٨٠٥ أن الجيوش الفرنسية بقيادة «بِرْنادوت» اجتازت فى طريقها اقليم « أنسباخ » من الأملاك البروسية ؛ فعدّ الشعب البروسى ذلك اهانة كبرى، وهاج الرأى العام فى برلين لدرجة لم يستطع معها فردريك وليم السكوت . فأوفد « هُجْوِتْز » من قبَله ليطلب من نابليون عدة مطالب . فراوغه نابليون ومناهُ بالوعود الى أن انتهت موقعة أُوسترلتز ، وإذ ذاك أرغمه على إبرام معاهدة حاطّة بكرامة بروسيا لم تتضمن شيئاً فى مصلحتها سوى منحها إمارة «هنوفَر»؛ وهو أمر تعمّده نابليون ليحرج مركز بروسيا أمام انجلترة فتصبح من أعدائها

بروسيا وامارة هنوفر

وقد زاد ذلك من هياج الأحزاب الوطنية فى بروسيا، وتضاعف سخطها لما أخذ نابليون منذ ذلك الحين يعامل بروسيا معاملة الولاية الخاضعة لسيادته . وتفاقم الخطب عندما سمع القوم ان فرنسا تسعى لمهادنة انجلترة ، وانها تريد خطب ودّها

بروسيا تعلن الحرب

---

* راجع تقسيم بولندة الثالث فى الجزء الاول من هذا الكتاب

بأن تعيد اليها هنوفر التى كانت سلوة بروسيا الوحيدة على ما لحقها من ضروب المذلة والهوان . فلم يعدْ فى مقدور الملِك اجتناب القتال ، وأعلن الحرب على فرنسا فى اكتوبر سنة ١٨٠٦ . ولا شك أن بروسيا أساءت اختيار الساعة التى تُنازِل فيها نابليون . فانها بعد أن أضاعت فيما مضى فرصة الاشتراك مع الأحلاف فى مقاتلته وهو مهدد بالأخطار ، أقدمت فريدة على محاربته وجيشه واقف فى الأراضى الألمانية على تمام الأهبة والاستعداد . ولقد كان للأحلاف أن يغفروا لهـا زلّاتها ويمدّوها بالمساعدة ؛ لولا كارثة أوسترلتز التى غلت أيديهم

قهرها فى واقعة يينا

فكانت النتيجة بالطبع ان حمل نابليون بكل قواه على بروسيا ، وحدث ما كان يُنتظر . اذ لما فصَل أمير برنزويك بنحو ١٥٠٫٠٠٠ مقاتل الى سكسونيا لملاقاة الجيوش الفرنسية التقى به نابليون فى ١٤ اكتوبر عند « يينا » وهزمه هزيمة شنعاء ذهبت بعشرين ألف مقاتل من جيشه ، وجُرح هو جرحًا مميتًا

نابليون فى ألمانيا

بهذه النكبة ذابت قوة بروسيا ؛ فأخذت حصونها تسقط فى يد نابليون واحد بعد آخر ، ولم يمضِ اكثر من أسبوعين حتى صارت برندنبرج بأسرها فى حوزته ، ودخل برلين دخول الظافر فى ٢٧ اكتوبر . ثم حوّل سكسونيا الى مملكة وضمها الى اتحاد الرين ، وتبعتها « ويمَر » وأربع أمارات صغيرة ؛ وألف من «برونزويك» و « هِسْ كاسِل » مملكة سُميت « وستفاليا » وجُعل « جيروم بونابرت » ملكاً عليها

مرسومات برلين والنظام القارى

وعند ذلك وجّه نابليون همّه الى محاربة انجلترة بالوسائل الاقتصادية ؛ فأصدر «مرسومات برلين» الشهيرة ، وبها أعلن أن الجزائر البرطانية أصبحت فى حالة حصر وحرّم على جميع الدول الموالية لفرنسا الاتّجار معها فى شىء ما . وذلك ما يُعرف فى التاريخ « بالنظام القارّى » . وقد أجابته انجلترة بمثل ما فعل ؛ وسنعود الى الكلام على هذه الحرب الاقتصادية فى باب « تقدم الصناعة والتجارة »

وقد صار كل شمالى ألمانيا تحت رحمة نابليون ، ولاذ ملك بروسيا بعد تلك الهزيمة بالفرار الى كونجزبرج ، وامتهكت حرمة بلاده بحالة لم تُنسخ قط من أذهان البروسيين

وأخذ نابليون يمدّ نفوذه شرقًا ؛ فالتقى به الاسكندر قيصر الروس (وقد أعاد تنظيم جيشه) عند « إيلو » فى ٨ فبراير سنة ١٨٠٧ ، فدارت بينهما موقعة دموية كثر فيها عدد القتلى من الجانبين من غير أن يفوز أحدهما بطائل

واقعة ايلو

ثم عزز نابليون جيشه بقوى جديدة وأعاد الكرة على الروس ، فانتصر عليهم فى شهر يونيه انتصاراً مبيناً عند « فريدلَنْد » واضطرهم الى التقهقر الى ما وراء نهر النيامِن

واقعة فريدلند

وعند ذلك رأى نابليون ان الفرصة حانت لاستمالة روسيا اليه ، وهى خصم عنيد ، فتهادن معها وأخذ يفاوض القيصر بنفسه سرًّا فى التوفيق بين مصالحهما ؛ فتقابلا مقابلتهما المشهورة فى وسط نهر النيامن (٢٥ يونيه سنة ١٨٠٧) ، وهنالك دار بينهما من المفاوضات والاتفاقات السرية ما لم يُعلم بعدُ باليقين . وغاية ما هو مستيقَن من ذلك أن نابليون لم يثْقِل على الاسكندر بالمطالب ، رغبةً فى اكتساب مودة خصم لا يمكنه غزو بلاده ، وأن الاسكندر ضعُفَ أمام سِحْر نابليون فرضى بالتخلّى عن بروسيا وانجلترة ؛ وربما هوَّن عليه ذلك ما رآه من تقاعد انجلترة عن مساعدته مساعدة جدّية فى الملاحم الأخيرة . ولم يعبأ نابليون بمصادقة البولنديين الظانين أنه سيعيد اليهم استقلال بلادهم ، ولا بوعوده لتركيا وكان قد حرضها على محاربة روسيا فاتفق العاهلان على ان يقتسما اوربا فيما بينهما ، وأفضت مفاوضتهما الى ابرام معاهدة « تِلْسِت » الشهيرة (بين فرنسا وروسيا فى ٧ يوليه) ، وبها اعترفت روسيا بالممالك التى كوَّنها نابليون وهى : نابلى وهولندة ووستفاليا ، كما أقرت « اتحاد الرين » وإمارة وَرسو (تابعةً لسكسونيا) وجعْل دنزيك مدينة حرة ، واعتبار نهر الفستولا الحد الغربى لبلاد روسيا ، وتكفلت روسيا بأن تصلح بين فرنسا وانجلترة

تصافى نابليون والاسكندر

معاهدة تلست

وبعد ذلك بيومين أى فى ٩ يوليه أبرم نابليون معاهدة أخرى بهذا الاسم مع بروسيا ، وبها نُزع من آل هوهنْزُلِرْن جميع أملاكهم غربى نهر الإلب وما أخذوه من الأراضى البولندية منذ عام ١٧٧٢ ، وأرغمهم على دفع غرامة ثقيلة ، واعترفوا بالممالك التى أنشأها نابليون ، ورضوا باغلاق موانيهم فى وجه سفن التجارة الانجليزية

المعاهدة السرية

تلك هى المعاهدة العلنية . وقد أبرم العاهلان فوقها اتفاقاً سرياً فحواه أن تنزل روسيا لفرنسا عن الجزائر الأيونية[١] وتنضم الى جانبها اذا لم يتمّ الصلح بينها و بين انجلترة قبل أول نوفمبر ، على أن يكون جزاءها اغتصابُها « فنلندة » من السويد ، وملدافيا وولاخيا (الأفلاق) من الترك . وتُرغَم السويد والدانمرقة والبرتقال على خوض غمار الحرب على انجلترة

الانجليز فى كوبنهاغ

وأحست انجلترة بهذا الاتفاق ، فبادرت الى ارسال أسطول الى كوبنهاغ ليستولى على الأسطول الدانمرقى ، فيكون وديعةً عند الانجليز ريثما تنتهى الحرب . فأنفذ الأسطول الانجليزى هذا الغرض بالقوة ، مخافة أن يسبقهُ نابليون الى هذا العمل

ورجع نابليون بعد هذه الحروب الى فرنسا حيث محا مجلس التربيون الذى كان آخر عقبة فى سبيل سلطانه المطلق[٢]

١٠ — ✱ مبدأ الحرب فى شبه جزيرة ايبيريا ✱

سبب الحرب

كانت اسبانيا طول هذه الحروب حليفة لفرنسا . أما البرتقال فانها كانت حليفة لانجلترة : شأنها منذ زمن بعيد . وكان على عرشها وقتئذٍ « مارية الأولى » التى كان ينوب عنها فى تدبير شؤون الملك ابنها « يوحنا » لاختلال قواها العقلية . ولما أصدر نابليون مرسومات برلين ، أبت البرتقال أن تعمل بها ، فعرض نابليون من أجل ذلك على « جُودُوِى » وزير شارل الرابع ملك اسبانيا مشروعاً لتقسيم بلاد البرتقال وسارت جنوده من بلاد الاسبان لتنفيذ هذا الغرض . فلما صار الجيش الفرنسى بقيادة « جونو » على مقربة من « لِشْبونة » ، أقلعت الأسرة المالكة فى سفينة الى

غزو البرتقال

(١) كانت روسيا وتركيا قد أخذتا هذه الجزائر من فرنسا عام ١٧٩٨ وجعلتاها ولاية مستقلة تحت وصايتهما

(٢) يعدّ بعض المؤرخين ان اقصى درجة بلغها نابليون فى اوربا كانت وقت معاهدة تلست وبعضهم يضعونها بعد ذلك التاريخ . فليكوّن القارئ رأيه بنفسه من الحوادث

غدر نابليون باسبانيا

البرازيل ، مستعمرة البرتقال العظيمة ، وتركوا ملكهم بأوربا فى يد المقادير (نوفمبر سنة ١٨٠٧) . أما نابليون فانه ، بدل أن يقسم البرتقال بينه و بين اسبانيا، أخذ يستولى على المعاقل الأسبانية واحداً بعد الآخر ، حتى أحفظ أهل مجريط[1] ، فثاروا بجودوى وحملوا الملك على النزول عن العرش لابنه « فردنند السابع » . بيد أن القائد الفرنسى « مورا » دخل العاصمة وأبى أن يعترف بشارل أو فردنند ، بل استمال كليهما أن يذهبا الى « بايون » ويجتمعا بنابليون فيقرروا الأمر فيما بينهم ، فلما وقعا فى هذه الأحبولة استمال نابليون كلاً منهما على حدة فتخلّى عن العرش بدون علم الآخر ؛ وأمسكهما سجينين عنده وملأ اسبانيا بجنوده . ثم توّج أخاه يوسف ملكاً عليها بعد أن أبى أخوه لوسيان كل الإباء أن يتولّى مُلكاً أتى بهذه الطريقة ؛

شعور الاسبان

ومُنح مورا ملك نابلى بعد أن تركها يوسف . على أن الاسبان لم يصبروا على هذه المعاملة ؛ فهبوا جميعاً ومعهم البرتقال شاهرين السلاح ، وبذلك ابتدأت حرب طويلة كانت من اكبر المحن على نابليون ، وبقت تفتّ فى عضده نحو ستة أعوام . فغُصّت الروابى والبطاح برجال الكرّ والفرّ ، وغلّقت المدن أبوابها ، وشُكلت حكومة مؤقتة لتولى تحرير البلاد

الانجليز فى شبه الجزيرة

ثم طلب كل من الأمتين النجدة من انجلترة ، وكانت وقتئذٍ الدولة الأوربية الوحيدة التى لم تزل فى حرب مع فرنسا . فلبّت انجلترة نداءهما وأرسلت حملة الى لشبونة فى أغسطس سنة ١٨٠٨ بقيادة « السير أرْثَر وِلزْلى »[2] . فهزم القائد الفرنسى جونو هزيمة منكرة عند « فِمْيِيرا » . غير ان خلَفَ « وِلزلى » لم يستمر فى موالاة هذا الانتصار ، بل سمح للقائد جونو بمقتضى اتفاق « سِنْترا » أن يجلوَ

---

(١) قبل أن يذهب نابليون الى اسبانيا عقد فى ارفورت مؤتمراً حافلا جمع فيه كثيراً من العظماء والملوك والامراء الموالين له ووثق فيه عرا معاهدة تلست بينه وبين الاسكندر ، فتكفل هذا مقابل شروعه فى ضم فنلندة اليه ان يحتفظ بشروط النظام القارى ويلزم النمسا السكينة اثناء غياب نابليون فى اسبانيا

(٢) هو الذى صار دوق ولنجتون فيما بعد

عن البرتقال بدون أن يُمَسَّ بأذى . فحنقت الحكومة الانجليزية عليه ، اذ كانت تعدّ جيشاً آخر لتعزيز حملتها فى تلك البلاد . فلما نزل به « السير جون مور » فى لشبونة تولّى القيادة ، ودخل اسبانيا على عزم أن ينجد مجريط وينضم الى الجنود الاسبانية على نهر « الإبرو » . ولكن خاب فأله ، فان نابليون كان قد فتك بالجيوش الاسبانية ، ودخل مجريط قبل أن يصل «مور» الى جنود الاسبان . ولما سمع مور بسقوط مجريط سار بجيشه الى ملاقاة «سُولت» فى شمالى اسبانيا ، لكي يضطر نابليون الى تحويل جيوشه نحو الشمال فيكفّ عن الزحف على قادس . وما كاد نابليون يسمع بهجوم مور على سولت حتى ترك مجريط وطار بجيشه لملاقاته . ولو أن نابليون لحق بجيش مور الصغير لأفناه عن آخره . وكان مور يعلم ذلك فتراجع الى « كورونَة » ، وبذلك أتاح لأهل جنوبى اسبانيا فرصة يستعدون فيها للدفاع عن أنفسهم ، اذ جعل نابليون يقفو أثره الى شمالى اسبانيا . على أن مور لقى منيّته فى يناير سنة ١٨٠٩ وقت انتصاره على الجيش الفرنسى عند كورونة ، حينما حاول الفرنسيون الانقضاض على جيشه ليحولوا بينه و بين النزول فى السفن الانجليزية

حملة السير جون مور

مماته عند كورونة

أما الاسبان فلم تكلّ عزيمتهم ، بل استمروا فى المقاومة والدفاع عن مدنهم بشجاعة نادرة ، رغم تتويج يوسف بونابرت فى مجريط وتعزيزه بقوة عظيمة من الجنود الفرنسية . وكانت الانجليز لا تزال تحمى البرتقــال ، وفى عام ١٨٠٩ سار « ولزلى » الى مجريط ليخلع الملك يوسف عن عرشها . فتلاقى بالفرنسيين عند « تَلاَفيرا » ودحرهم فيها فى ٢٨ يوليه ، الاّ أنهُ اضطر بعد ذلك الى الرجوع الى البرتقال لتكاثر الجيوش الفرنسية عليه

تلافيرا

١١ — ✱ غزوة وَجرام سنة ١٨٠٩ ✱

وجدت النمسا من غياب نابليون فى اسبانيا ومن إباء أهالى التيرول وعدم قبولهم حكم بافاريا لهم ، مشجعاً لمنازلة الفرنسيين مرة رابعة ، فأخذت نابليون على غرة ؛ ولكنه

اكمهل

طار على جناحى نسر الى نهر الطونة وكسر الأمير شارل النمسوى عند « إكمهل » فى ٢٢ ابريل سنة ١٨٠٩ ؛ وسار بجيشه الى ويانة فدخلها لثانى مرة ، ولكن شارل عسكر بجيشه بعد هزيمته وراء نهر الطونة أمام ويانة . فلما أراد نابليون أن يعبر النهر ليقضى على جيشه ، صده شارل وهزمه هزيمة منكرة عند « أسْبِرْن »

أسبرن

فلم يطق نابليون صبراً على هذا الاندحار وأخذ يعدّ عدته من جديد ، وبعد سبعة أسابيع كان على تمام الأهبة . فعبر النهر فى ٧ يونيه وفتك بجيش شارل فى موقعة « وَجْرام » على مقربة من ساحة أسبرن ، وتسنى له بعدها أن يملى على فرنسيس جميع الشروط التى أرادها ، فأبرم معه فى اكتوبر سنة ١٨٠٩ « معاهدة ويانة » أو «شون برون» ، وبها ضم الى فرنسا جميع الأصقاع النمسوية التى على حدود ايطاليا ودلماسيا ، وسماها «القطائع الإلّيريّة» . ثم طلب نابليون الى فرنسيس أن يزوّجه من ابنته « مارية لويزة » . وكان قد عقد النية على طلاق جوزفين والاقتران بأميرة أوربية ، آملاً أن يعقب ولداً يرثه فى الملك من بعده . ولا شك أن رغبته فى ايجاد مثل تلك العلاقة المتينة بينه وبين أسر أوربا العريقة فى المجد ولا سيما بيت آل هبسبرج مما يدل على تبصره وبعد نظر . ولم يرَ فرنسيس بدًّا من الخضوع لهذه التضحية ، وزوّج ابنته من هذا القائد الميمون النقيبة . فوضعت له غلاماً فى سنة ١٨١١ لُقب بملك رومية

وجرام

معاهدة شون برون

زواج نابليون بابنة فرنسيس

عودة الى الحرب فى اسبانيا

لم يكن أمام نابليون من الحروب ما يشغل باله بعد موقعة وَجْرام الاّ حرب اسبانيا اذ كان لايزال للانجليز فيها جيش يبلغ ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة ولنجتون يشد أزرهم ٣٠٠٠٠ برتقالى ؛ فارسل عليهم نابليون ٨٠٠٠٠ مقاتل تحت إمرة مسّينا « ليزجّوا بهم فى البحر » . ولكن النصر فات مَسينا عند «بُوساكو» ، ولم يستطع الاستيلاء على خنادق الانجليز عند «تُورِس فِدْراس» ، واضطره الجوع الى الجلاء عن بلاد البرتقال

ولما سعى ثانية فى الاغارة على البرتقال دُحر فى موقعة « فونِتّيس دونورو » القريبة من « الميدا » . وقد ارتكب الفرنسيون والاسبان فى خلال هذه الحروب

فظائع تقشعر لذكرها الأبدان ، لما كان بين الأمتين من الكراهية الشديدة ، حتى أن يوسف بونابرت ، ذلك الرجل الضعيف الشفيق ، لم يُطق على ذلك صبراً ، ورجا أخاه أن يعفيه من ملْك هذه البلاد ، وإن كان رجاؤه لم يُجْد فتيلاً

اتساع رقعة فرنسا

وفي هذه الآونة لم يستطع لويس بونابرت ملكُ هولندة تنفيذ رغبات أخيه فى استعمال الوحشية والعسف فى إخضاع الأهالى الذين لم يطيقوا الخسائر التى نجمت من قطع العلائق التجارية بينهم وبين الانجليز ، ففرّ من هولندة ، فضُمت الى الامبراطورية الفرنسية . كذلك ضم نابليون الى فرنسا كل سواحل ألمانيا التى على المحيط وفيها مدن « برِمِن » و« هَمْبُرج » و« لوبِك » ، فصارت فرنسا تطلّ على البحر البلطى

وهذه هى الآونة (١٨١٠ – ١٨١١) التى بلغت فيها أملاك فرنسا أقصى غاياتها . وقد كان الفرنسيون فى أول شبوب الثورة يضمّون الى بلادهم الأراضى التى يرون لهم حق التملك عليها (على حسب اعتقادهم) ، كالأراضى التى كانت تتكوَّن منها «غالة» الرومانية ؛ فصار نابليون الآن يضم الى فرنسا ما أراد ، من غير حجة أو داع سوى أعذارهِ المنتحلة ، كقوله ان فرنسا فى حاجة الى تملك كل مصابّ الأنهار الألمانية لتدرأ بها عن نفسها شر الانجليز . ومن أفعاله التى من هذا القبيل أنه أثناء وجوده فى ويانة ضم رومية الى أملاكه ، بدعوى أنها الحاضرة الثانية للدولة الفرنسية . وعند ذلك أعلن البابا بيوس السابع حرمانه من الكنيسة ، فأمر نابليون بالقبض عليه ، فحُمل أسيراً الى فرنسا ، وبقى فيها طول أيام سطوة نابليون

١٢ — ✻ الغارة على روسيا : ١٨١٢ — ١٨١٣ ✻

اسباب الغارة

أخذت المصافاة التى كانت بين نابليون والاسكندر قيصر الروس تنحلّ عراها على ممر الأيام . فان القيصر من جهة لم يرْع مرسومات برلين ، ففتح ثغور بلاده للمتاجر الانجليزية ؛ ومن جهة أخرى كانت جميع أفعال نابليون تدل على أنه عقد النية على فتح أوربا جمعاء من غير أن يُنيل الاسكندر ما منّاه به . وزاد فى حنقه عليه

وعَدَ نابليون البولنديين باعادة بلادهم كلها اليهم ، وبدأ يمنحهم جزءًا منها هو امارة ورسو التي سبقت الاشارة اليها*. ولما اتسع الخرق بينهما على الراتق ، عزم نابليون على شن الغارة على الروسيا ، وأخذ يحاول عبثًا أن يؤلب الدول عليها. وكان الحاكم على السويد وقتئذٍ « بِرْنادوت » أحد قواد نابليون سابقًا : انتخبه أهلها ملكًا عليهم بعد موت ملكهم شارل الثالث عشر الذى لم يعقب ولدًا. فلما أثقل عليه نابليون بالمطالب التي تضر بمصلحة السويد ، اضطر الى الوقوف في وجهه والتحالف مع روسيا .

السويد تنضم الى الروسيا

خرج نابليون صيف عام ١٨١٢ لغزو الروسيا «بجيشه الأعظم» ، وكان يبلغ نحو ٥٠٠،٠٠٠ مقاتل جمعهم من فرنسا وهولندة وبولندة وايطاليا وولايات اتحاد الرين . وأمدته النمسا وبروسيا ببعض الرجال ؛ ولكن ذلك لم يكن عن طيب خاطر منهما ، بل كانتا تنتظران فرصة قهر الروس له فتقلبان له ظهر المِجَنّ

الجيش الاعظم

ولم يترك وراءه من قواده العظام سوى سولت ومَرْمُنت اللذين بقيا يديران أمور الحرب في اسبانيا . أما الباقون فساروا بامرة نابليون الى مسقو بتلك الجيوش الجرَّارة ، وكلهم ثقة بفتح روسيا وقهرها

خروج الجيش

ولما بدأ نابليون هذه الغارة المشئومة لم يقف له الروس الاّ وقفة واحدة عند « سمولِنِسْك » ؛ ثم أخذوا يتقهقرون الى الداخل ، مخرّبين وراءهم كل شئ في طريق العدو. ومع ما تكبّدته جيوش نابليون من الخسائر الفادحة من جراء مشاق الطريق ووعثائه وقلة الطعام ، بقيت تتوغل في قلب الروسيا ، الى أن كانت أول ملحمة عظيمة ، فاشتبكت بالعدو في ٥ سبتمبر سنة ١٨١٢ على ضفاف « نهر مُسْكاوَا » عند « بُرُودِينو » حيث دارت معركة عنيفة كان نابليون أثناءها موعوك الصحة ، وزاده وعكًا أن بلغه خبر هزيمة مَرْمُنت في اسبانيا على يد ولنجتون عند « سَلَمَنْكا » ؛ فلم يظهر في المعركة بما فطر عليه من النشاط وخفة الحركة ؛ غير أن الموقعة مع ثبات

سمولنسك

تقهقر الروس

* هذا الى انه منح امارة الدنبرج (التى كان صاحبها احد اقرباء الاسكندر) لاحد قواده

واقعة بروديتو

القائدين الروسيين « كوتوسوف » و « برَكلاى دى تُلّى » أسفرت عن انتصار الفرنسيين ، فزحفوا على مسقو . فدخلوها ، وقد فني الشطر الأعظم منهم ، فوجدوها خاوية على عروشها قد هجرها أهلها . ولم يكد الفرنسيون يعسكرون داخلها حتى شبت النار بها من جميع الأرجاء ، اذ كان حاكم المدينة قد أشعل فيها النار ، حتى لا يجد الفرنسيون لهم مأوى . ونضبت مواد الطعام بهجرة الأهلين منها ، فأصبح الجيش الفرنسى يقاسى مرارة الجوع . ولما تحقق نابليون أن القيصر لا يريد الصلح ، لم ير بداً من التقهقر والمسير ثانية فى تلك الأصقاع التى خربتها جيوشه أثناء زحفها ، فخرج منها يوم ١٩ اكتوبر مبتدئاً ذلك التقهقر الذى لاقت فيه جيوشه من النكبات ما لم يدوّن التاريخ مثله

الفرنسيون فى مسقو

التقهقر المشئوم

وكان الجو ملائماً فى أول المسير ، ولكن لم يمض طويل حتى هجم شتاء روسيا ببرده القارس ، ففتك كلب البرد والنصب بالجيوش حتى كاد يفنيها عن آخرها . وكانت فرسان القوزاق يتخطفون ساقة الجيش الفرنسى فى تقهقره ويقتلون ويأسرون كل من تخلف منه . وبغتهم على هذه الحال جيشان جديدان من الروس : أحدهما من طريق فنلندة والآخر من جهة الطونة ؛ يريدان منعهم من الإفلات من روسيا فالتقى الجمعان على نهر « بِرِزينا » حيث جرت مذبحة شنيعة ، ولكن الفرنسيين تغلبوا على أعدائهم فاخترقوا صفوفهم واستمروا فى تقهقرهم . وقد اشتد بهم الكرب وقتئذٍ فكانوا يعيشون على لحوم الخيل ، ويقاسون مرارة السير فى الطرق المغطاة بالثلوج ، ويمضون ليلة بعد ليلة فى العراء ، مما زاد عدد الموتى الذين كانت تُرى جثثهم مكدّسة كل صباح حول نار الحراس

ناى اشجع الشجعان

وقد أظهر كل من المرشال « ناى » و « يوجين بوهرنيه » شجاعة وثباتاً نادرين فى هذا التقهقر . أما نابليون فانه لما رأى ان ليس أمام جيشه الا البؤس ، تركه والمقادير وأسرع بحرسه بحجة أن الحاجة ماسة الى وجوده فى باريس . وقد قاتل « ناي » الى آخر لحظة ليحمى البقية الباقية من فلول الجيش . حتى صار يُعرف منذ

ذلك العهد « بأشجع الشجعان » . ولم يبلغ الحدود الألمانية من « الجيش الأعظم » الاَّ بضعة آلاف جندى كلهم فى حالة يرثى لها من التعب والنصب

١٣ — ✱ تحالف أوربا على نابليون سنة ١٨١٣ ✱

تأهب البروسيين

أخذت بروسيا وكل شمالى ألمانيا بعد انخذال نابليون وفشله هذا تتأهب لخلع نير ظلمه وعسفه . وكان الشعب البروسى منذ اندحار جيوشه عند « يينا » لم يفتر عن التدرب على حمل السلاح وخوض غمار الحروب . فلما سنحت هذه الفرصة ذهب ملك بروسيا لمقابلة القيصر الاسكندر مكرهاً من شعبه وأبرم معه معاهدة « كَليش » على أن تكون الروسيا وبروسيا يداً واحدة على فرنسا ؛ وانضمت السويد الى جانبهما

معاهدة كليش

أما نابليون فانه بعد عودته من الروسيا شرع فى تجنيد جيش من شبان فرنسا وسار به الى ألمانيا ، فالتقى بالروس عند « لُتْزِن » ذلك الميدان التاريخى الذى خرّ فيه جُستاف أدُلْف صريعاً . فجرت هنالك موقعة عظيمة اضطر فيهـا الروس الى التقهقر ، وإن لم يتركوا لواءً واحداً أو مدفعاً فى يد الفرنسيين . وما لبث أن التقى بالأحلاف ثانية عند « بوتْزِن » فهزمهم . وجعل نابليون مركزه فى « دِرِزْدِن » من أعمال سكسونيا احدى حليفاته . فعرضت النمسا عليه فيها أن تتوسط فى الصلح ، على أن ينزل نابليون عن كل مقاطعات ساحل شمالى ألمانيـا التى استولى عليها فى سنة ١٨١١ ، وأن يعيد الى النمسا قطائع إلّيريا ، والى بروسيا الجزء الذى أخذه منها سنة ١٨٠٧ . فرفض نابليون هذه الشروط ؛ وعلى إثر ذلك انضم فرنسيس صهره الى الحلفاء على نابليون ، وبذلك دخلت الحرب فى طور آخر . وقد قال نابليون فى ذلك ان زواجه بمارية لويزة ظهر أنه هلكة متوجة بالأزهار ، اذ به اغتر فى اعتماده على النمسا لتشد أزره وتأخذ بناصره

لتزن

بوتزن

انضمام فرنسيس الى الأعداء

وقد امتدت بين الفريقين سلسلة مواقع فى شهر أغسطس على مقربة من درزدن كان النصر فيها حليف بونابرت نفسه ، ولكن النصر تخطَّى قواده فى مواطن

أخرى . واعتزلت جانبه بافاريا وأبرمت صلحاً مع النمسا ، وأخذ أحلافه من الألمان ينفضون من حوله . ثم كانت موقعة « ليبزيج » الفاصلة فى ١٦ و ١٨ اكتوبر سنة ١٨١٣ ، وهى تعتبر أعظم موقعة دموية وعاها التاريخ الى ذلك الوقت : فيها اصطف الروس والبروسيون والنمسويون والسويد لملاقاة عدوهم ؛ وفى أثناء اشتباك الفريقين خذل السكسون نابليون وفروا . ولكن على الرغم من ذلك استمات الفرنسيون فى دفع أعدائهم ، حتى أعياهم النصب أيّما اعياء ، وأفرغوا آخر طلقة من ذخيرتهم . فاضطروا الى التقهقر بخسائر فادحة ، اذ نسف العدوُّ الجسر الحجرى الوحيد المقام على نهر الإلستر ، ففصل من ساقة الجيش بذلك ١٥٠٠٠ جندى مات كثير منهم غرقاً عند محاولتهم عبور النهر سَبْحاً ، وسلّم الباقون أسلحتهم . وبلغ عدد القتلى والجرحى من الحلفاء ٥٤٠٠٠ . أما فلول الجيش الفرنسى فانهم انسحبوا الى ماوراء الرين . ومع كثرة خسائر نابليون أبى الصلح مرة أخرى عندما عرضت عليه النمسا أن تجعل حدود فرنسا نهر الرين والألب والبرانس

واقعة ليبزيج

نابليون يرفض الصلح

١٤ — ✱ دخول الحلفاء فرنسا سنة ١٨١٤ ✱

تكبات فرنسا

ولِعَ الحظ فى هذه الآونة بمعاكسة فرنسا فى كل مكان . ففى اسبانيا هزم ولنجتون يوسفَ بونابرت والمرشال جوردان هزيمة منكرة عند « فِتُّوريا » اضطر فيها الملك يوسف الى الفرار الى الحدود تاركاً كل امتعته . وما لبثت نار القتال أن شبت حول « سنت سِبَستيان » و « بَمبيلُونا » . كذلك اتحد الروس والانجليز والجبليون على فرنسا عند ساحل دلماسيا ، حيث انتزع الجبليون منها ثغر « كتارو » . وفى ألمانيا ثارت كل البلاد فى وجه فرنسا ؛ وخلعت هولندة عنها نير حكمها . ورجع مورا الى نابلى (وكان قد انضم الى نابليون فى هذه الحملة) آملاً أن يخلّص نفسه من غائلة هذا الانقلاب بصلح منفرد

فلم يبق أمام نابليون بعد ذلك الاّ أن يجمع كل مالديه من القوة لحماية أرض

حرج مركز نابليون

فرنسا نفسها ، فأعاد أولاً البابا الى رومية ، وأرجع فردنند السابع ملك اسبانيا الى بلاده، لكي لا يكون له شاغل من هاتين الجهتين. وكان مجلس فرنسا التشريعي قد أخذ يُظهر استياءه منه جهاراً ، وتأهب أهالى برطنية وفنديه للقيام بثورة عليه، هذا الى أن أمراء اسرة بربون كانوا على أبواب فرنسا؛ اذ كان « شارل كُنْت أرْتُوا » شقيق لويس السادس عشر فى فلندرة ، وابنه أمير انجوليم مع جيش الحلفاء فى شبه جزيرة ايبيريا، وابنه الثانى أمير برى فى جزيرة جِرْسى. ومع ذلك لما عرض الحلفاء الصلح على نابليون على أن تعود حدود فرنسا الى ما كانت عليه قبل عام ١٧٩٢ رفضه مرة أخرى

رفضه الصلح ثانية

زحف الاحلاف على فرنسا

عند ذلك زحف الحلفاء على فرنسا؛ فعبر الروس والبروسيون نهر الرين فى أول يناير سنة ١٨١٤، وزحف النمسويون عليها من جهة سوسرة ، وبلغ السويد فلندرة؛ واجتاز الانجليز جبال البرانس . بيد أن نابليون لم يستول عليه اليأس ، وحمل حملته الأخيرة على الحلفاء ، فكانت لا تقلّ عن حملاته السالفة فى عظمها وحسن تدبيرها؛ فانه بعد أن كُسر عند « لارُتْيِير» على نهر السين طار بجيشه نحو الشمال لملاقاة القائد البروسى «بلوخَر» الذى أُمر بالزحف على باريس من جهة المارن ، فالتقى بهِ نابليون وصدمه فى ثلاث مواقع بالقرب من «منتميراى» فى مدة ثمانية أيام . ثم طار بجيشه ثانية الى السين حيث دحر النمسويين عند « مُنْترو » . ومع ان هذه الانتصارات لم تكن الاّ كصحوات الموت، فانها ضاعفت آمال نابليون فى الفوز النهائى، حتى أنه لما هزمه بعدُ بلوخر هزيمة بينة عند « لاوُن » وتدفقت جيوش أوربا على فرنسا من كل حدب وصوب، لم تهن عزيمته وأسرع الى الالتفاف عليهم بدل مواجهتهم،وكان يأمل بذلك أن يخشوا قطع خط الرجعة عليهم وفناءهم المحتم بقيام الشعب الفرنسى عليهم من ورائهم ، فيسرعون الى التقهقر الى المانيا . إلاّ أن الحلفاء لم يعبئوا بذلك وساروا نحو باريس؛ وبعد قليل سُمع قصف المدافع فى المدينة، ومن ثم نقلت مارية لويزة وابنها الى «بْلوَا» ليكونا فى مأمن. وقد نهض مَرْمُنْت ليدافع عن المدينة لآخر

فوز نابليون

زحف الاحلاف على باريس

سقوط باريس

مرة على روابى « مُنْتِمارْتَرْ » مستخدمًا تلاميذ المدرسة الحربية فى اطلاق المدافع ، على غير جدوى ؛ فاضطر الى الانسحاب الى باريس حيث اصطلح مع الحلفاء . أما نابليون فانه رجع على ساقى نعامة ليحمى باريس ، ولكن بعد أن اجتاز فى سيره فُنْتِنبلو مساء ٣٠ مارس فوجئ بخبر تسليم المدينة للأعداء

١٥ — ﴿ صلح باريس سنة ١٨١٤ ﴾

الاحلاف فى باريس

دخل الحلفاء باريس فى ٣١ مارس سنة ١٨١٤ وعسكروا فى خمائلها وحدائقها . وكانت طائفة العمال على تمام الأهبة لمقاتلة الحلفاء لو قُيِّض لهم من يقودهم . أما علية القوم الذين كان هوى معظمهم مع آل بربون فانهم رحبوا بالحلفاء وهللوا للقواد الذين قهروا حماة فرنسا . وأكّد الحلفاء انهم لا يعارضون فى اختيار الأمة الفرنسية أى حكومة ترضيهم الاَّ حكومة نابليون المهدد لسلام أوربا ، وأعلنوا أنهم لا يقبلون مناقشته فى شروط الصلح

نزول نابليون عن العرش

فأعلن مجلس شيوخ فرنسا عزله . ورضى بونابرت نفسه بأن يعتزل المُلك على أن يرثه ابنه من بعده ، فلم يقبل الحلفاء ذلك ، ولم يرَ مرمنت بدًا من التسليم للحلفاء بفلول الجيش . فأمضى نابليون شروط نزوله هو وورثته عن المُلك فى ٥ ابريل سنة ١٨١٤ . وفى ١١ منه أُبرمت معاهدة على أن يكون لنابليون مُلك جزيرة إلبا الصغيرة مع احتفاظه بلقب « امبراطور » . أما زوجته مارية لويزة فانها أُعطيت امارتى بَرما وبياشنزا لها ولابنها

وذهابه الى إلبا

تليران

ثم أُلفت فى فرنسا حكومة مؤقتة على رأسها الأمير « تَليران » . وكان تليران هذا قد انخرط فى صباه فى سلك رجال الدين على كره منه ، وما زال يرتقى فى الكنيسة حتى أصبح أسقف « أُوتان » . ولكنه تخلص من قيود طائفته فى خلال اندلاع نار الثورة وخبّ فيها ووضع ، حتى صار من اكبر وزراء نابليون مكانة وأحذقهم سياسة ولما قبض هذه المرة على خيزرانة الأمور فى فرنسا استمال مجلس الشيوخ فى اعادة

لويس ١٨ يعود الى الملك

بيت آل بربون ؛ وما لبث أن دخـل لويس الثامن عشر باريس فى ٣ مايو سنة ١٨١٤ ومعه كل أفراد أسرته ، وأبرم عندئذٍ معاهدة مع الحلفاء اتفق فيها على أن تكون حدود فرنسا على التقريب كما كانت قبل انفجار الثورة . ومع ذلك بقى فى يد فرنسا كل الأماكن التى فى داخل حدودها ، وإن لم تكن فى الأصل ملْـكاً لها ، مثل افنيون وبعض أجزاء الألزاس . كذلك بقى فى حوزتها بعض أماكن على حدود البلجيك ، وجزء من سفواى

معاهدة باريس

مؤتمر ويانة

عند ذلك عقد سوّاس أوربا مؤتمراً فى « ويانة » لينظموا أحوال أوربا بعد ما حدث فى حدودها القديمة من التغيير وما طرأ على انظمتها من التبديل . وسيأتى ذكر مفاوضتهم فى ذلك مفصّلاً فى فصل خاص

حكم لويس ١٨

أما لويس الثامن عشر فمع أنه لم يتوّج قط أطلق على نفسه لقب « ملك فرنسا ونافار » . ولما بدأ حكم البلاد كان كهلاً ، عظيم الجسم فاتر الهمة ، نهماً ، مصاباً بالنقرس . ومع أنه كان أريباً حاذقاً لم يوفّق الى استرضاء الشعب الفرنسى . ففى أوائل حكمه عرض عليه مجلس الشيوخ نظاماً للحكومة سنّهُ الأعضاء ، فلم يقبله ومنح الأمة نظاماً من عنده سماه « المنحة » ؛ وكان فى الحقيقة أوسع نطاقاً واكثر حرية من الذى رفضه ، غير انه ساء الشيوخ ان يُطلَق عليه لفظ « منحة » وانهم ليسوا هم مصدره . كذلك تذمّر رجال جيش نابليون المنحلّ ، فكانت زهرة البنفسج تُتبادل بينهم وهم يقولون همْساً : « سيرجع فى الربيع » *

١٦ — * فترة المائة اليوم سنة ١٨١٥ *

فرار نابليون من البا

وجد نابليون من الأمة الفرنسية مشجعاً له على الفرار من جزيرة إلبا ليبذل آخر سهم فى كنانته فى نحر أعدائه . فوطئت قدماه أرض فرنسا ثانيةً فى أول مارس سنة ١٨١٥ على مقربة من « أنتيب » ، فقابله أجناده بوجوه تتهلّل بالبشر وقلوب

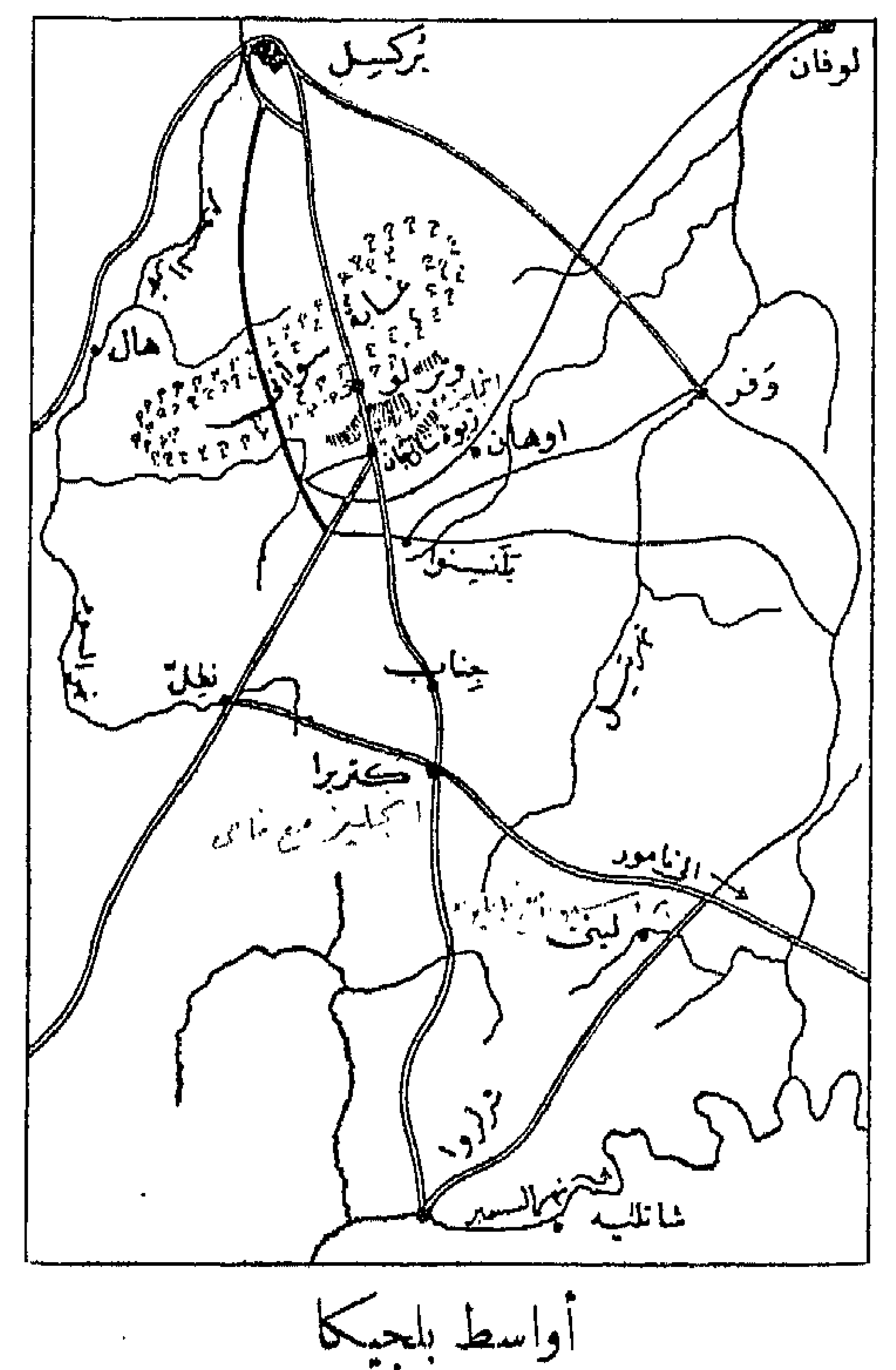
* أى أن نابليون سيعود الى فرنسا فى الربيع ويقبض على ازمة أمورها

ترحيب الفرنسيين به

طافحة بالفرح والسرور ، حتى أن القائد « ناى » مع مقاسمتـه الحكومة الجديدة الايمان على أن يخاص للويس الثامن عشر ، ضرب بذلك عرض الحائط وانضم الى جانب نابليون عند ما سمع بعودته الى فرنسا ، وكانت كل فرقة تسير لمقاومته لا تكاد تراه حتى تضع سلاحها وتحييه تحية الابن لأبيه ؛ ولم يرَ لويس الثامن عشر ازاء ذلك بدًّا من الهرب الى غنت . ودخل نابليون باريس بين تهليل رجال الجيش ودهماء الأمة . غير أنه ظهر له استحالة العودة الى نظام حكمه الاستبدادى ، فأعلن نظاماً جديداً للحكومة سماه « القانون الاضافى » يقضى بتأليف جمعية تشريعية مكوَّنة من مجلسين . وفى أول يونيه عقد اجتماعاً تمثلت فيه جميع طبقات الأمة الفرنسية ، فعرض على الأعضاء نظام الحكومة الجديدة ، فوافقوا عليه بأغلبية عظيمة . وقد رأى تليران ازاء ذلك الانقلاب أن لا حيلة له الاَّ الهرب مع الملك

اوربا تعود الى محاربته

أما أمراء أوربا فانهم أصروا جميعًا على أن لا يدعوا عـدوهم المشترك يرجع الى سلطانه؛ فأعدت كل مملكة جيشها . وكان نابليون يأمل أن يقهر أعداءه الواحد تلو الآخر بما أُوتيه من سرعة الحركة والنشاط . لذلك طار بجيوشه الى الأراضى المنخفضة ليدهم كلاًّ من الجيشين الانجليزى والبروسى قبل أن ينضم أحدهمـا الى الآخر . فانقضّ على البروسيين فى ١٦ يونيه سنة ١٨١٥ عند قرية « ليني » ،



أواسط بلجيكا

فتقهقروا الى قرية « وَفْر » . ولكن قائده ناى كان أقل منه حظًا عند ما التقى بفرقة من الانجليز عند « كَتْربرا »

واقعة وترلو

وفى ١٨ يونيه التقى نابليون لأول مرة بالانجليز وجهًا لوجه بقيادة ولنجتون عند « وُتَرْلُو » ؛ فرأى أنّ من المحال ثلم مربّعات الرجّالة الانجليزية ، فبعد أن انقضت سحابة اليوم فى حرب طاحنة هجم نابليون بآخر قوّة مدّخرة عنده وهى الحرس الملكى، الاّ أنهم دُحروا على ربوة سان جان ، وزاد فى نحس نابليون ورود الجيش البروسى بقيادة « بلوخر» مدداً للانجليز فى أشد أوقات الحاجة . فاشترك الجيشان فى تشتيت شمل الفرنسيين وتمزيقهم كل ممزّق ، حتى أن نابليون لم يرَ لنفسه سبيلاً إلاّ الالتجاء الى باريس على وجه السرعة ، فحضر اليه أخوه لوسيان ليأخذ بناصره فى هذه الشدة

ذهول نابليون

وحاول أن يستحثه ان يحزم أمره ويستنهضه لمقاومة أعدائه . ولكنه كان قد استولى عليه الذهول وخارت عزيمته . ولما علم أن الحلفاء زاحفون على باريس ترك مع أخيه عهداً آخر بنزوله عن الملك لابنه

نابليون فى سنت هيلانة

وفى هذه الآونة أُلّفت بفرنسا حكومة مؤقتة طلبت اليه أن يترك البلاد ويذهب الى أمريكا . وفى ٧ يوليه دخلت جنود الحلفاء باريس للمرة الثانية واعادت لويس الثامن عشر الى عرشه. أما نابليون فانه لمّا حاول السفر الى أمريكا من ثغر «رُشْفور» وجده محروساً بالسفن الانجليزية ، فأسلم نفسه فيه الى ربّان السفينة « بِلروفون » فنقله الى ثغر بِلِمَث . ثم اتفق الحلفاء على ارساله الى جزيرة « سنت هيلانة » حيث يكون تحت رقابة «السير هَدْسُن لُو » ، وقد أُمر بأن يشدد عليه الرقابة ، كى لا يفلت مرة أخرى . وهنالك قضى نابليون ستة أعوام فى سخط ونكد ومشاغبات مع حارسه . وكان فى بعض الأحيان يملى على اخدانه ممن تبعوه الى منفاه خواطر مدهشة بين الحقيقة والكذب ، وكانت قواه قد أخذت فى الانحطاط من سرطان ورائى ما زال يفطر احشاءه حتى اودى بحياته فى ٥ مايو سنة ١٨٢١

معاهدة باريس الثانية

وبعد موقعة « وترلو » صفا الجو للويس الثامن عشر ، فعاد الى تربع عرش فرنسا

وأبرم الأحلاف معها معاهدة باريس الثانية، على أن تدفع لهم غرامة حربية قدرها ٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وأن ينقص من أطرافها بعض جهات صغيرة على حدود بلجيكا وبروسيا وما أخذته من سفوای

مصير مورا

وكان القائد « مورا » قد أعلن الحرب على النمسا حينما علم برجوع نابليون من إلبا ، فحاول أن يسترجع ملك نابلى بعد أن طُرد منها ، فنزل لذلك بعد موقعة وترلو على ساحل كلابْرِيا ، فقبض عليه النمسويون وقتلوه

جيش الاحتلال

وما لبث الحلفاء أن أعادوا الأمن الى نصابه فى فرنسا ، ولم يألوا جهداً فى اقناع الأمة الفرنسية بفساد مآرب نابليون، وأفهموهم الفرق بين حرب الحق والاعتداء على الأمم بدون مسوّغ . ولكى يضمن الحلفاء عدم اعتداء فرنسا على أوربا مرة أخرى احتلوا بلادها بجيش عظيم ثلاثة أعوام

تأثير الحرب فى فرنسا

ولقد كان لهذه الحروب الطويلة أسوأ أثر فى حالة فرنسا، فاضمحلت قواها حتى لقد قيل انها لم تبرأ قط من الخسائر التى حلت بها بين عامى ١٧٨٩ و ١٨١٥*

الفصل الثالث

موئتمر ويانة

لم تُحدث فترة مائة اليوم عطلاً فى أعمال المؤتمر الذى كان منعقداً فى ويانة، فانهُ فرغ من مهمته فى يونيه سنة ١٨١٥ وأعلن قراراته الشهيرة التى تلخص فيما يلى :

روسيا

١ – احتفظت روسيا بفنلندة وبسارابيا؛ واستولت على الجزء الأكبر من امارة (غرندوقية) ورسو؛ وأُطلق على الأراضى البولندية التى أصبحت فى حوزة روسيا

* ان هذا الكتاب ليضيق عن البحث فى اخلاق نابليون ، فليستنبطها القارئ من الحوادث الآنفة . اما نتائج حروبه فى اوربا فتظهر فى الفصول التالية

« مملكة بولندة » ، وجُعل القيصر ملكاً عليها ، وأُفهم الشعب البولندى وجوب الإقلاع عن كل أمل فى عودة استقلالهم

بروسيا

٢ – استولت بروسيا على امارة بوزن فى بولندة ومعها ثورن ودنزيك ، وعلى النصف الشمالى من سكسونيا ، ثم بوميرانيا السويدية ، وأصقاع شاسعة على جانبى الرين تشمل ولايات وستفاليا وكليف وبرج وكولن (كلونيا) وترير (تريفز) وآخِن ومُنْستر وأجزاء من لمبرج ولكسمبرج . وقد فقدت بروسيا بعض أملاكها الشرقية، لكن ما استعاضتهُ بها فى الغرب وبخاصة على الرين كان أنفس منها، ومهّد لبروسيا السبيل فى تولى زعامة المانيا ووقوفها فى وجه فرنسا

النمسا

٣ – نزلت النمسا عن الأراضى المنخفضة (بلجيكا) لهولندة ، لتتكوّن منهما مملكة قوية تكون حاجزاً فى سبيل فرنسا، واستولت النمسا جزاء ذلك على البندقية ولمبرديا ، واستردت مقاطعات إلّيريا وغاليسيا الشرقية والتيرول وسَلزبُرْج وغير ذلك من الأراضى التى تهمّ الأسرة المالكة من الوجهة الوراثية ، غير مكترثة بمركزها السياسى فى المانيا

المانيا

٤ – جُعلت المانيا ٣٩ ولاية بعد ان كانت ٤٢ ولاية فى عهد نابليون، وكُوّن منها اتحاد يسمى « الاتحاد الألمانى » يدير شؤونه مجمع تُمَثّل فيه كل الولايات بمدينة فرنكفورت على نهر المين برياسة النمسا . غير أنهُ قُصد فى هذا الاتحاد أن يكون منحلّ العرا ، ليس فى يد مجمعه شئ يذكر من السلطان . وقد اشتد النزاع فى مؤتمر ويانة قبل الوصول الى هذا الحل، لتنافس النمسا وبروسيا على سيادة المانيا، ولمعارضة صغار الأمراء فى حرمانهم من النفوذ الذى منحهم اياه نابليون

ايطاليا

٥ – حُلّت فى ايطاليا عرا الرابطة التى أوجدها نابليون ؛ فعاد فردنند البربونى الى حكم نابلى وصقلية ، واسترجع البابا أملاك الكنيسة ، واستولت النمسا كما أسلفنا على لمبرديا والبندقية ، وأُعيد امنويل الأول الى حكم بيدمنت وسفواى ، وضمت اليه جنوة

سويسرة

٦ ـ أضيف الى سويسرة مقاطعات فاليه ونيوشتل وجنيرة ، وضمنت لها الدول استقلالها

السويد

٧ ـ تمّ انفصال النرويج عن الدانمرقة ، وضُمت الى السويد ؛ ونزع من السويد فنلندة (التى استولت عليها الروسيا) وبوميرانيا الغربية (التى استولت عليها بروسيا)

انجلترة

٨ ـ استولت انجلترة فى أوربا على جزيرة هليجولند وجزيرة مالطة ، ووضعت الجزائر الأيونية تحت حمايتها . أما ما نالته خارج أوربا فسنبينه عند الكلام على الاستعمار

سياسة المؤتمر

وقد كان الرائد الأعظم لسواس هذا المؤتمر (وفى مقدمتهم الأمير « مترنيخ » الوزير النمسوى الشهير) اعادة كل شيء الى ما كان عليه قبل الثورة بقدر الامكان، غير مراعين ما أحدثته الثورة الفرنسية وحروب نابليون من العواطف القومية والميل الى الحكومات النيابية . ولذلك كان همهم الأكبر خلع كل من أحدثهم نابليون من الملوك والأمراء ، وإعادة الحكام الأصليين الى عروشهم على ميلهم الى الاستبداد ونفورهم من كل روح ولّدتها الثورة الفرنسية . هذا الى أن الاعتبار الأول فى تقسيم الأراضى الأوربية، كان مقصوراً على رغبات الدول العظمى ومآربها السياسية ومطامعها الوراثية ، من غير أن يراعَى فى تأليف الممالك اختلافُ شعوبها ومطامعها القومية . لذلك لم يمضِ زمن طويل حتى ظهرت علامات السخط فى كثير من تلك الممالك، ثم انفجرت فيها نيران الثورات ؛ وما زالت الشعوب فى مكافحة مع حكّامها ، حتى رجحت كفة الشعب ، وصارت الكلمة العليا للعصبية القومية . وسيأتى ذكر كل ذلك مفصلاً فى الفصول التالية

نتائجها

الباب الثانى

أوربا منذ سنة ١٨١٥

الفصل الأول

النزاع بين الروح الرجعية والعصبية القومية في أوربا

﴿ الحلف المقدس والتحالف الرباعى ﴾

القيصر والحلف المقدس

كان أعضاء مؤتمر ويانة على تمام الرضى بما أقرّوه ، حتى ان قيصر الروسيا بذل جهده فى الدعوة الى تأليف « حِلف مقدس » من الدول العظام ، ليكفل بقاء هذا النظام ويضمن سيادة السلام فى العالم، بأن يتعهد كل من أمضى شروطه بأن يساعد بعضهم بعضًا اذا دعت الحاجة «حفظًا للأمن واقامة للعدل على المبادىء المسيحية».
غير أن ساسة الدول الأخرى سخروا مما كان يرمى اليه القيصر ، ولم يشاركه أحد منهم فى عواطفه، وخشوا ما عسى أن يُحدِثهُ مثل هذا الحلف من الخطر؛ ولذلك لم تحز فكرته بشكلها هذا قبول كل الدول. على أنه لم يمضِ طويل زمن حتى أُبرم تحالف رباعى شبيه بذلك فى باريس سنة ١٨١٥ بين الروسيا والنمسا وبروسيا وانجلترة ، اتفق فيه الحلفاء على عقد اجتماعات فى أوقات معينة للنظر فى مهامّ الأمور واتخاذ ما يلزم من التدابير لحفظ نظام العالم

التحالف الرباعى

ولم تسلك الدول هذا السبيل عبثًا أو من غير داع . إذ كانت كل الأحوال

ظهور العصبية القومية فى الامم

تدعو الى القلق : فقد أنعش نابليون باعتدائه على الأمم روح العاطفة الوطنية فيهم للدفاع عن حقوقهم عندما كان يسعى فى بسط نفوذه وسلطانه عليهم . على أنه هو نفسه قد أبرز تلك الروح الى عالم الوجود فى بعض الأمم التى كانت تئن تحت نير حكومات طاغية بمنحه إياها أنظمة عادلة ، كما حدث فى ايطاليا . فى حين أن حمق الأمراء الذين أعيدوا الى أملاكهم أو رجعوا من منفاهم ، وحُبّ الانتقام يغلى فى صدورهم، أذكى نيران تلك العاطفة ، وأثارت مقاومتهم لها سخط الشعوب عليهم ؛ فان البابا فى رومية عزل كل من لم يكن قسيساً عن عمله، وحرّم اضاءة الشوارع لأنها بدعة أُخذت عن الفرنسيين ؛ كذلك ألغى فكتور إمنو يل فى سفواى كل القوانين التى سُنت منذ سنة ١٧٨٧، وأمر عماله باقتلاع كل الحدائق التى غرسها الفرنسيون ؛ وفى فرنسا نفسها ذُبح خلق كثير من البروتستنت والمشايعين لبونابرت ، وأُعـدم المارشال ناى وغيره رمياً بالرصاص على كراهة من الملك ووزرائه الذين كانوا يميلون الى الاعتدال وسعوا فعلاً فى خلاصهم ، كذلك كان « مترنيخ » فى ألمانيا يرقب مثل هذه الفظائع فى بعض الولايات بعين السخط ، كما أنه كان يتشاءم من الأنظمة الحكمية الجديدة التى كانت تجرَّب فى بعض الولايات الأخرى . وفى اسبانيا ألغى « فردنند السابع » الدستور الذى كان قد أُعلن فى البلاد على إثر طرد نابليون منها، وهو الذى فقد به رجال الدين والأشراف نصيبهم فى الحكومة ؛ ولم يكتف بذلك، مع احتجاج الدول، بل أعاد محكمة التفتيش وأخذ يضطهد بفظاظة وغلاظة كل شىء يُشتَمّ منه رائحة الحرية

الروح الرجعية فى الامراء

قلق الدول العظمى

ولا شك أن مثل هذه الأعمال زادت الصعوبات التى كانت تعترض الدول العظمى، لأنها كانت فى الحقيقة انما تريد منح حكومة عادلة لجميع الأمم بقدر ما يسمح به الحذر الشديد من انفجار نار ثورة كالتى اشتعلت فى فرنسا من قبل، وجرّت كلّ مصائب الثلاثين سنة الأخيرة . والآن نتتبّع مجرى هذا النزاع فى أعظم الممالك الأوربية فنقول :

١ — ✱ فرنسا ✱

آراء الدول في معاملة فرنسا

لما كانت فرنسا فى رأى الدول هى منبع الأفكار الثورية ، كانت هى الشغل الشاغل للدول فى ثلاث السنوات التى تلت معاهدة ويانة . وانقسم ساسة الدول من أجلها الى قسمين : فريق رأى سلامة أوربا فى تمزيق أوصال فرنسا، وفى مقدمتهم سواس بروسيا ، التى كانت تريد أن تثأر لنفسها وتشفى غليلها من كل ما حاق بها من الآلام والمصائب فى عهد نابليون؛ وفريق آخر رأى العكس، وعلى رأسه انجلترة والروسيا ، فانهما على ميلهما الى اتخاذ الخطط والتدابير التى بها يمكن درء الخطر من ناحية فرنسا ، كانتا ترغبان فى مساعدتها على أن تأخذ ثانيةً المكانة اللائقة بها بين الدول الأوروبية ، فلما وافقت النمسا على رغباتهما وانضمت اليهما ، لم تر بروسيا بداً من النزول عن عزمها . ولمنع أى فرصة لثوران الفرنسيين بقى جيش الحلفاء ببلادهم بقيادة ولنجتون

وكان لويس الثامن عشر ومستشاروه يميلون بادئ بدء الى السير فى حكم البلاد حسب ارادة الدول العظمى ، وأن يظهروا الرحمة لأعدائهم ويعدلوا فى حكومتهم . غير أن ما كان للملك ومستشاريه من النفوذ والسلطان قد ضاع حينما عاد نابليون من منفاه فى إلبا وطردهم من البلاد، فضلاً عن أنهم عيقوا عن السير فى هذه السبيل برجوع جمّ غفير من المهاجرين الفرنسيين من منفاهم ونار الانتقام تتقّد فى صدورهم، فلم يكن لهم رادع يردعهم إلاّ جيش الاحتلال الذى كان يتدخل لمنع الفرنسيين من قتل بعضهم بعضاً

التغلب على المصاعب

ولم يمض طويل على هذه الحال حتى أُلّف مجلس نيابى جديد، كانت الأغلبية فيه من المعتدلين، وبذلك أخذت فرنسا فى سبيل التقدم؛ فتناقص عدد جيش الاحتلال ولم يلبث أن انسحب من البلاد جملةً . وأخذت فرنسا مكانتها بين دول أوربا العظمى

انسحاب جيش الاحتلال

بعد عام أو يزيد ، عند اجتماع مؤتمر اكسلاشبل* سنة ١٨١٨ ، اذ انضمت الى التحالف الرباعى بحسن سياسة وزيرها العظيم «الدوق دِ ريشليو» . وكان أهم غرض يرمى اليه هذا المؤتمر هو اخماد أنفاس كل الاضطرابات وحفظ النظام والسلام فى كل انحاء أوربا ، وكان فى مقدمة ما أقرّه جلاء جيش الحلفاء عن فرنسا

مؤتمر اكسلاشبل

٢ — ألمانيا

أما فى ألمانيا فكانت الأحوال أشدّ إشكالاً . فان النمسا بنزولها عن أملاكها التى على نهر الرين ، وتخلّيها عن حماية ألمانيا ، وعن استرداد لقب عاهل الدولة الرومانية المقدسة ، بذرت البذرة الأولى لأخذ بروسيا بخطام هذه البلاد وجنيها ثمرة ذلك نهائياً بعد خمسين عاماً . وكانت النمسا وقتئذٍ لا تود أن ترى ألمانيا أمة قوية متحدة الكلمة فى يد غيرها ؛ لذلك كان غرضها أن تربط الولايات الألمانية بعضها ببعض ، بتأليف اتحاد منها مفكك العرا تكون لها فيه السيادة . وساعدها على ذلك ما كان لمترنيخ من طول الباع فى السياسة ؛ فانه بدسّ الدسائس وتوليد التنافس بين أمراء ألمانيا ، وتحذيرهم من تلاشى سلطانهم اذا ضمّهم اتحاد متين ، أفلح فى جعل معظمهم يميل معه ؛ فتم له الأمر وأُلف الاتحاد على الوجه الذى يبغى . فكان المجمع الذى ينظر فى شئون الاتحاد مؤلفاً من مندوبين عن الولايات الألمانية ليس لهم شىء من القوة أو الرغبة فى القيام بعمل اصلاح ناجع

مركز النمسا وبروسيا فى ألمانيا

المجمع الالمانى

وكانت بروسيا قد أخذت تتطلع الى تولى زعامة ألمانيا ، وصار أمراء الولايات الأخرى يخشون بأسها ، اكثر من خوفهم من فناء نفوذهم فى الاتحاد ، فلم يروا بدًّا ازاء هذا الموقف الحرج من استرضاء رعاياهم بمنحهم حكومات نيابية

الاصلاح فى الولايات الاخرى

أما بروسيا فانها أخذت تعمل بتؤدة على تحقيق أمانيها العظيمة . وكان ملكها

---

* هذا هو الاول من أربعة مجتمعات كان انعقادها نتيجة التحالف الرباعى (الخماسى بعد) وهى : اكسلاشبل (١٨١٨) ، ترو باو (١٨٢٠) ، ليباخ (١٨٢١) ، فيرونا (١٨٢٢)

سياسة بروسيا الداخلية

« فردريك ولیم الثالث » قد وعد رعيته ، أثناء استفزاز حماستهم لخلع نير نابليون ، بمنح البلاد حكماً نيابياً ؛ ولكنه رأى هذه المرّة أن الحكمة تقضى بالتمهل فى ذلك ، لعلمه أن الحكم النيابى (وما يتبعه من وجود طائفة تعارض الحكومة فى مقاصدها) لا يوافق البلاد وهى على باب طور جديد فى تنظيم شؤونها وتوطيد مكانتها . فان بروسيا كانت لا تزال مكوّنة من أمم مختلفة المذاهب والعناصر ، لم تولد فيهم روح العصبية البروسية بعد . فان أهالى بوميرانيا و برندنبرج وسيليسيا والسلاف ، على

التراخى فى منح الحكم النيابى

ولائهم لعرش بروسيا ، كان كل منهم يقول إنهُ أمة قائمة بنفسها ذات دين وتاريخ مختلف عن غيرها ، ولا تربطهم إلاّ روابط واهية جداً . ولم يكن لهؤلاء القوم رغبة حقيقية فى الحكم النيابى الشامل أو استعداد سياسى ليعيشوا فى ظلاله ، بل كان كل فرد منهم لا تتعدّى آراؤه وأطماعه القطيعة التى يعيش فيها ، ولم تتولد فيهم فكرة الحكم النيابى إلاّ بعد أن اندمج بعضهم فى بعض بمضى الزمان . ولئن رأينا بروسيا فيما مضى دولة قوية ، فما ذلك إلاَّ لشدة بأس ملوكها ، وحسن نظامها الحربى والإدارى . هذا الى أن ما حدث فى بعض الولايات الألمانية الأخرى من التخبط والفتنة من جرَّاء منح الحكم النيابى ، لم يكن مشجعاً لملك بروسيا على منح بلاده حكومة نيابية ، وكفى دليلاً أن مجمع بادِن الأهلى لبث يتناقش ثلاثة أشهر من غير أن يسنّ قانوناً واحداً . لذلك لما قام أحرار الألمان فى بروسيا بمطالبة الملك بالوفاء بوعده أخذ يسوّف فى الأمر ، ووجّه عنايته الى الإصلاحات الداخلية الأخرى

الاصلاحات الداخلية

وقد رأى ملك بروسيا أن أول خطوة فى سبيل بسط سيادة بلاده لا تكون إلاَّ بوضع نظام ملائم للمكوس ، به تقل العقبات والأخطار الناتجة من تشتت أملاكها والتواء حدودها . فوضعت بروسيا نظاماً خاصاً بمكوسها ، اضطُرت به الولايات الألمانية الصغيرة التى فى قلب بلادها ، أو التى كانت تفصلها الأملاك البروسية عن الطرق التجارية ، الى الانضمام اليه ، لأنه كان يقضى عليها بدفع مكوس فادحة اذا

الزلفرين

هي لم ترتبط مع بروسيا بهـذه الجامعة الاقتصادية . فأخذت تنضم الي هذا

الاتحاد وصار يُعرف باسم « زلفرَين » (١٨١٩) . وقد كانت هذه الحركة التى يرجع الفضل فيها الي وزير المالية البروسية « فون ماسِن » ، والتى جعلت مصالح الولايات الصغيرة المادية تتساوى بمصالح بروسيا ، الخطوةَ الأولى فى تأسيس مجد دولة بروسيا فى المستقبل . وقد عميت بصيرة مترنيخ عما ستؤول اليه عواقب هذا الاتحاد ، حتى انهُ كان يستعمل نفوذه فى مساعدة بروسيا على اجتياز العقبات فى تأليفه

تأثيره فى مستقبل بروسيا

وبينما كانت بروسيا تجدّ فى اصلاح شؤونها الإدارية ، كانت روح الفتنة تجرى فى عروق شعوب سائر الولايات الألمانية ؛ فان حروب نابليون وغيرها من الحوادث الأخيرة قد أوجدت فى القوم ، ولا سيما الشبان منهم ، ميلاً الى توحيد المانيا وجعلها دولة متماسكة ، واحلالها المحل اللائق بها بين الأمم . وكانوا يتطلعون فى القيام بعبء مهمتهم هذه الى المجمع وإلى بروسيا ؛ فلما خيّب كل منهما آمالهم سخطوا ودب فيهم روح الفتنة . وكان فى مقدمة القائمين بهذه الحركة طلبة المدارس والجامعات ؛ فكانوا يلجئون فى اظهار عواطفهم ، كما هى العادة، الى المظاهرات السلمية والأعمال الصبيانية التى لا تضرم ناراً ولا تهدم نظاماً ؛ إلاّ أن الأمراء والسواس كانوا ينظرون الى هذه الأعمال شزراً ، وعادوا باللائمة على دوق « ويمَر » الذى ترك روح الحرية تنمو فى بلاده عن طيب خاطر

الفتن فى الولايات الاخرى

الحرية فى ويمر

ورأى « مترنيخ » فى هذه القلاقل فرصة لاقناع قيصر الروسيا (وكان يخشى أن يمنعه القيصر من استعمال الشدة فى المانيا) بوجوب الضرب على هذه الروح بيد من حديد ؛ وكان على وشك مقابلته فى مؤتمر اكسلاشبل ؛ وهنالك جسّم له الفتنة فى المانيا ، وهوّل له النتائج التى تنجم من التهاون فيها ؛ وما زال به حتى سحره ، فانضم اليه فى مشربه ، ووافقهما ملك بروسيا كل الموافقة

الروح الرجعية فى المانيا

فلما سمع القوم فى ألمانيا بهذا العزم زاد سخطهم وكثر هياجهم ، ولم يكد ينصرم عام على نشر معاهدة « اكسلاشبل » حتى اغتال أحد الطلبة الألمان صحافياً روسياً يُدعي « كُتْزِبو » ، وقد كان أثار حقد الأحرار من الألمان بما جاء فى كتاباته من

مقتل كتزبو

تأييد الروح الاستبدادية ، وكان قاتله يعتقد أنه جاسوس القيصر . وقد امتدح هذا الجرم جم غفير من الأحرار ، وقالوا انه عمل شاب وطنى كريم المحتد

فاتخذ مترنيخ من هذا العمل وغيره ذريعة لتنفيذ سياسته ، اذ استطاع أن يظهر للدول الخطر الكامن فى نشر الآراء الدستورية ، وأسرع الى عقد مؤتمر فى كرلسباد دعا اليه ممثلى الولايات الألمانية لينظروا فى الأمر ؛ فانفق رأيهم على نشر « مراسيم كرلسباد » الشهيرة (١٨١٩) وفحواها تقييد الصحافة ، ووضع الجامعات العلمية تحت مراقبة الحكومة ، ومنع تأليف الجمعيات وعقد الاجتماعات السياسية ، وانشاء لجنة مركزية فى مدينة مينز للبحث عن مثيرى العواطف ، والتنكيل بهم

مراسيم كرلسباد

الروح الرجعية فى بروسيا

وعلى إثر ذلك طرح ملك بروسيا فكرة منح الدستور ظهريًا والذعر ملء فؤاده ، وأخذ يستبدّ فى طول البلاد وعرضها الى حد الإفراط : فاضطهد الأحرار اضطهاداً شديداً ، وزجّ بالألوف منهم فى السجن ، ونفى خلقاً كثيراً لأسباب واهية ، وشدد الأوامر فى تنفيـذ مراسيم كرلسباد ؛ وقد زاد ذعرَه وأقلق باله هياج الأهالى فى اسبانيا وايطاليا . على انه استمر فى السعى فى اصلاح شؤون بلاده الداخلية ، وأخذ يضم ولايةً بعد أُخرى من ولايات ألمانيا الى « الزُلْفَرين »

٤ — ﴿ اسبانيا والبرتقال ونابلى ﴾

سياسة فردنند السابع

أما فى اسبانيا حيث كان على عرش الملك « فردنند السابع » الذى أعاد محكمة التفتيش وما كان للقساوسة من النفوذ والثراء ، فان الثورات كانت لاتخمد لها نار ، حتى اضطر فردنند الى أن يوثق الايمان بالتسليم ببعض مطالب الثوار . غير أنهم تمادوا فى غيهم ، حتى أصبح الاستياء منهم لايقلّ عن الاستياء من حزب أنصار الاستبداد

وساد الهياج والاضطراب فى البلاد لدرجة أفضت الى عزم فرنسا على ارسال جيش لحفظ عرش اسبانيا ، إذ كان يعتليه أحد أخلاف هنرى الرابع ، فكانت هذه

فرنسا تخمد الفتنة فى اسبانيا

أوّل مرة بعد انقضاء أربعة وثلاثين عاماً سار فيهـا جيش فرنسى يخفق عليه العلم البربونى . زحف الجيش بسرعة الى مجريط ، ففرّت الحكومة الدستورية الى اشبيلية، وبعدها الى قادس ، وأخذت معها الملك أسيراً . وهنالك غلبوا على أمرهم وأُجبروا على قبول الشروط المعتدلة التى عرضها عليهم الفرنسيون سنة ١٨٢٣ . ولكن لم يكد يُطلَق سراح فردنند ، حتى ألغى كل مرسوم أمضاه منذ عام ١٨٢٠ ، وقد أدى به غلوّه الى أن ألغى عفواً لم يمضِ على اصداره اكثر من يوم واحد ، مستعزاً فى كل ذلك بنفوذ فرنسا . وقد بقى يتمتع بهذا السلطان حتى قضى سنة ١٨٣٣

اليصابات ودون كرلوس

وقبل مماته نبذ ظهرياً القانون القائل بعدم وراثة البنت العرش ، وأعلن ابنته « اليصابات » وريثةً له فى عرش اسبانيا . وكان عمها « دون كرلوس » يدّعى حق وراثة الملك ، فعززت الملكة الفتية جانبها بمنح البلاد بعض الحقوق الدستورية . ومنذ تولت اليصابات عرش الملك ابتدأت تلك المشاحّات الطويلة بين الكرلوسيين (المعاضدين للحكم المطلق القائلين بأن الملك حق إلهى) وبين الحزب الذى يأخذ بناصر الحكومة الدستورية . فتُركت اسبانيا وشأنها لتفصل فى الأمر بنفسها ، ولم تعرها باقى أمم أوربا نصيباً يذكر من الالتفات

سياسة انجلترة فى المسألة الاسبانية

وكان جورج كانج (وزير الخارجية الانجليزية) قد احتج على غزو الفرنسيين لإسبانيا ، وأعلن الحكومة الفرنسية فوق ذلك ان انجلترة لا تسمح لها باخضاع المستعمرات الاسبانية الى حكومة اسبانيا بالقوة* ، لما فى ذلك من مخالفة المبادئ الانجليزية التى تنافى التدخّل فى شؤون الشعوب ما لم تؤدّ أفعالهم الى اقلاق غيرهم، ولأن مصالح انجلترة لها ارتباط عظيم بهذه المستعمرات . وفى عام ١٨٢٣ قوى مركز كانج بانضمام الولايات المتحدة له فى هذا الأمر . ففى ذلك العام أرسل الرئيس « منْرو » الى مؤتمر فيرونا رسالته الشهيرة ، التى احتج فيها على ادّعاء حق دول أوربا العظام التدخل فى شؤون جنوبى امريكا ، وأعلن ان مثل هذا التدخل يُعدّ

* انظر تاريخ امريكا الجنوبية فى الباب الخامس من هذا الكتاب

مذهب منرو

عملاً عدائياً . وكان هـذا أولَ تصريح بمذهب مُنْرو الشهير : وهو القائل بأن « أمريكا للأمريكيين » . ولم يلبث كاننج ان اعترف باستقلال المستعمرات الاسبانية فى السنة التالية

البرتقال والبرازيل

كذلك كانت الحالة حرجة فى البرتقال . فان ملكها « يوحنا السادس » كان قد فرّ منها مدة حروب نابليون الى البرازيل ، وكانت وقتئذٍ مستعمرة برتقالية . فأراد أن يحكم البرتقال وهو فى البرازيل ؛ فأعلن اتحاد الأملاك البرتقالية جميعاً ، ونصَّب على البرتقال والياً من قبله . فأغضب ذلك البرتقاليين الذين رأوا بلادهم قد أصبحت تابعة لمستعمرتهم السابقة بعد ان كانت دولة عظيمة ، ولم يسعهم الاَّ أن أعلنوا الملك انه اذا لم يعدْ تواً الى البلاد فانه يفقد عرشه فيها . فرجع مكرهاً بالرغم من المعارضة الشديدة التى أبدتها الملكة . وبعد زمن من رجوعه أعلنت البرازيل استقلالها وانتُخب ابنه « بِدْرو » عاهلاً عليها . ثم انتقل عرش البرتقال الى بدرو هذا على إثر موت والده عام ١٨٢٥ ، غير أن حبه للاقامة فى البرازيل جعله ينزل عن العرش البرتقالى لابنته الصغيرة « مارية » ووصى عليها أخاه « دُم مِجْوِلْ » . فغدر بها دم مجول واغتصب منها الملك سنة ١٨٢٨ ، وطردها فى العام التالى من البلاد جملةً . ثم أخذ يهدم الأنظمة الدستورية ويستبد بالناس ، فكثرت المشاحّات ، وساد الاضطراب فى البلاد ، الى ان عزرت انجلترة وفرنسا جانب مارية ، فنُفى دم مجول من البرتقال ، وعادت مارية الى عرشها عام ١٨٣٤

تنازع مارية ودم مجول على العرش

ملك نابلى وشعبه

أما أحوال نابلى ، فان فردنند البربونى لما عاد الى عرشها . لم يغيّر من أنظمتها كثيراً ؛ الاَّ ان اضطهاده للأحرار أدى الى نشوب ثورة أظهر فيها الثوار ما أظهره الإسبان من عدم البصيرة ؛ فلم يقبلوا أن يطفئوا نار الفتنة الاَّ اذا منحهم الملك دستوراً كالذى نالته اسبانيا ، ولم يسمحوا له بمغادرة البلاد لحضور مؤتمر عقدته الدول العظام سنة ١٨٢١ (مؤتمر ليباخ) الاَّ بعد أن وافق على هذا الدستور والعمل به ، ولكن بعد أن غادر فردنند البلاد سالمًا ، ورأى أن لا طاقة له بحفظ الأمن فيها

استنجاده النمسا

اتفق عن طيب خاطر مع النمسا ، التى كانت تخاف من تسرّب الفتن الى أملاكها في ايطاليا ، على أن تسيّر جيشاً الى نابلى لمعاضدته . وكان الجيش النمسوى الزاحف على نابلى غاية فى سوء النظام وقلة العدة ؛ فلو صبر له الثائرون قليلاً لكان النصر حليفهم ، ولكنهم كانوا أتعس حالاً من أعدائهم ، فانهم وقفوا أمام الغزاة متخاذلين ، ثم خضعوا وابتدأ من وقتئذٍ عصر ارهاب تحت حكم فردنند

ومنذ ذلك الحين أخذت النمسا تسعى فى صبغ البندقية ولمبردية بالصبغة الألمانية.

خطأ النمسا

وهى غلطة سياسية عظيمة ، اذ قام من جرائها كل أهالى تلك الجهات فى وجهها ، واعتقدوا منذ ذلك العهد أن لا خلاص لهم من ربق العبودية الاّ بوحدة ايطاليا. ورأوا ان مقاومة أمة عظيمة كهذه علناً من المستحيل . فأُسست الجمعيات الثورية السرية ؛ فحاربتها النمسا بنظام الشرطة السرية، حتى أصبحت البلاد مكتظة بالمتآمرين والجواسيس ، وقد سيق كل زعماء الأحرار ، ومن بينهم نخبة من أمهر وأنبل رجال



مترنيخ

العصر ، الى أعماق السجون، فبقوا فيها عدة أعوام ذاقوا خلالها من العذاب ألوانًا

سرور مترنيخ

وقد سَرّ « مترنيخ » القضاء على الأفكار الدستورية فى ايطاليا حتى انه قال :
« يظهر أن فجر يوم بهيج أخذ ينبثق نوره »

الفصل الثانى

المسألة الشرقية

﴿ حرب استقلال اليونان : ١٨٢١ — ١٨٣٣ ﴾

رأينا كيف كانت سياسة أوربا كأنما تجرى بمشيئة مترنيخ الذى انحصرت أغراضه فى حفظ السلام فى أوربا والقضاء على كل ما يدعو الى انفجار الثورات فيها . ولكن حدث ما روّعه وأقلق باله عام ١٨٢١ ، وذلك عند ما فوجئ باندلاع لسان الثورة فى ولايات الطونة على الدولة العلية ؛ فكان ذلك فاتحة الاضطرابات والقلاقل التى توقّف عليها مصير الدولة التركية ، والتى تُعرف فى التاريخ بالمسألة الشرقية . وكان بعض سوّاس الافرنج يعزو معظم القلاقل فى أوربا الى وجود الدولة العلية في جوفها ، لأنها تخالفها فى الدين والعادات والأخلاق ؛ ولكن لحسن حظ الترك ، لم توفّق دول

أوربا والترك

أوربا قط الى حل هذه المسألة ؛ فان خوف النمسا وانجلترة من اتساع نطاق الروسيا كان يفوق بكثير كراهيتهما للأتراك

حالة اليونان

على أنه لم يكن فى ظاهر الأمر داع حقيقى لقيام اليونان على الترك ؛ إذ أن رعايا السلطان المسيحيين الأرثوذكس كانوا وقتئذٍ أحسن حالاً من فلاّحى كثير من الدول الأوربية الأخرى ؛ ولكن دياناتهم كانت دائمًا تجعلهم يشعرون بأنهم عضو غريب في جسم الدولة العثمانية ، وأن نبوغهم فى الملاحة وذكرهم مجد الاغريق الأقدمين ولّد

فيهم آمالاً وأحلاماً، حتى صاروا يُمنّون أنفسهم باسترجاع دولة الاغريق البوزنطية، واستعانوا على تحقيق أمانيهم بتأسيس الجمعيات السرية التى أهمها « جمعية هيتاريا فيليكى » (جمعية الاخوان) : أُسست عام ١٨١٤ بعد أن علم اليونان أن مؤتمر ويانة لم يعمل شيئاً فى صالح رعايا السلطان المسيحيين. وكان غرض هذه الجمعية طرد الترك من أوربا واعادة دولة الروم الشرقية. وقد سنحت لهم الفرصة للقيام على الترك عندما رأوا أحد ولاة الأتراك خارجاً على الدولة (على باشا والى يانينا)، فشقوا عليها عصا الطاعة فى ملدافيا والأفلاق في مارس سنة ١٨٢١ بإمرة « الاسكندر هِبْسِلَنْتى » أحد نبلاء اليونان. ولم يكن هبسلنتى هذا بالقائد الكفء، وكان كل اعتماده فى هذه الحركة على معونة الروسيا له. وقد فاته ان قيصر الروسيا هو المبتدع لتحالف الدول، وأن مترنيخ (عدو كل حركة ثورية) كان المسيطر على جميع سواس أوربا. فلم تلبث الفتنة ان نامت لعدم مؤازرة الروسيا لها

جمعية هيتاريا فيليكى

ثورة هبسلنتى

على أن هذه الحركة لم تكن إلاَّ نذيراً بثورة أخرى أشد منها هولاً وأعظم شأناً نشبت فى المورة بقيادة « كولوكُتْرونى » وغيره؛ وفيها أُخذ الترك على غرة، فهزمهم الثوار فى كل مكان حتى استولوا على حصن « تريبولِتْزا »، وفتكوا بالمسلمين فتكاً ذريعاً. فثأرت الدولة لنفسها بأن قتلت بطريق القسطنطينية، اذ كان له دخل فى الثورة، وذبحت كثيراً من مسيحيى آسيا الصغرى. ولما غلب الترك على باشا على أمره وقتلوه فى فبراير سنة ١٨٢٢ صفا لهم الجو، وحولوا كل قواهم لاخماد أنفاس الثوار. فاستولى الأسطول العثمانى على جزيرة « خيوس »، وفتك بكثير من أهلها، وأسر معظم الباقين. ومن ذلك الحين انقلبت الحرب الى مذابح دموية بين الفريقين قُضى فيها على معظم المسلمين ببلاد المورة؛ واشتد الخطب حتى أصبح من المحتم تدخل الدول فى أحوال اليونان

ثورة المورة

ولا شك أن اليونانيين وقتئذٍ لم تكن لديهم الوسائل والأسباب الكافية لنيلهم استقلالهم بأنفسهم؛ فإن معظم زعمائهم كانوا قطّاع طرق متوحشين، وقوادهم

استعداد اليونان للاستقلال

البحريون (إلاَّ قليلاً) لم يمتازوا كثيراً عن لصوص البحر . فلو تُرك اليونان وشأنهم في هذه الحروب لباءوا بالفشل ، وخضعوا لحكم العثمانيين . ولكنّ هناك أسباباً دعت الى مؤازراتهم والأخذ بناصرهم ؛ فان الأوربيين كانوا جميعاً يميلون مع اليونان ، لما أتته الأتراك من الفظائع انتقاماً لمذابح المورة ؛ ولعطفهم على اليونان ورغبتهم في الصفح عنهم لمجرد كونهم يونانيين . لذلك ظل النصر حليفهم مدة ، بمعاضدة الشعوب الأوربية ، وتطوع الكثير من أبنائها في جيش الثوار

أوربا واليونان

السلطان يستنجد بمحمد على

ولما ضاق الحال بالسلطان ، ورأى أن اليونان ستفلت من يده ، استنجد بمحمد على باشا والى الديار المصرية . فأرسل محمد على جيشاً كامل العدد والعدة بإمرة ابنه ابراهيم باشا ؛ ولم تكن إلاَّ مدة وجيزة حتى تغير مجرى الحرب ، وأصبح النصر في جانب الترك بفضل بسالة الجيش المصرى

الانجليز واليونان

وفي أثناء ذلك كان تحمس الشعب الانجليزى لليونان شديداً ، لاعتقادهم أنهم مدينون لسكان هذه البلاد الأقدمين بكل علومهم ومعارفهم وكل ما ينمّ عن الجمال والشهامة والمروءة . فان « جورج كانِنْج » وزير الخارجية الانجليزية ، على تمسكه بسياسة التزام انجلترة الحيدة ، كان يعطف على اليونان عطفاً شديداً ، وطالما انكبّ على مطالعة آدابهم القديمة التى كان يحبها حباً جماً . كذلك كان هوى الشاعر الانجليزى «اللورد بَيْرُن» معهم ؛ فكان يذكى بأشعاره نار الحماسة في قلوب مواطنيه للأخذ بناصر اليونان ، وذهب بنفسه متطوعاً في الجيش ، فمات هناك وهو يدافع عن القضية اليونانية . ولا شك أن الأمة الانجليزية لم تنظر وقتئذٍ الى اليونان من وجهتهم الحقيقية ؛ فانها تناست ما كانوا عليه من الخسة والقسوة والهمجية ، وتأثرت بما كان اليونان يدعونه من أنهم مضطهدون في دينهم وعواطفهم ، في وقت كانت فيه العصبية القومية شديدة وكل أمة تشعر بوجوب استقلالها

تأثير محمد على في مجرى الحرب

أما نجاح محمد علي وانتصاره على اليونان ، فكان فاتحة طور جديد في هذه الحرب*؛ فان نقولا الأول قيصر الروسيا الجديد الذى تولى العرش في أواخر عام

* يراجع ذلك مفصلا في كتاب تاريخ مصر من الفتح العثمانى

١٨٢٥ عاد الى سياسة بطرس الأكبر وكترين الثانية ، القاضيــة بتقويض أركان الدولة العثمانية ، فمال الى مساعدة اليونان ، وأراد أن يسيّر جيشاً لمقاتلة الترك . وكانت انجلترة، بزعامة جورج كاننج ، لا تريد أن ترى روسيا تمزّق أوصال الدولة العثمانية أو أن تنفرد بحلّ هذا المشكل حسب اهوائها . لذلك اضطُرت الى نبذ سياسة الحيدة التي اتبعتها فى أول الحرب ، ورأت وجوب التدخّل فى الأمر لحماية تركيا من غائلة الروسيا . وانضمت فرنسا الى ذلك الرأى . أما النمسا وبروسيا فكانتا تعارضان فى كل تدخّل فى أمر اليونان . وبعد مفاوضات طويلة أبرمت انجلترة وفرنسا وروسيا « معاهدة لندن » (يوليه سنة ١٨٢٧) وفيها قررت وجوب تدخل أوربا ، واتفقت على الشروط التى لا بد أن تمنح لليونان ، وأعلنت فيها أنه لا يجوز لدولة من الدول التى أمضت هــذه المعاهدة أن تبغى من ورائها أى توسيع فى أملاكها أو فوائدها التجارية . ثم عُرضت هذه الشروط على الدولة العلية ، وفحواها أن تستقلّ اليونان فى ادارة شؤونها ، مع اعترافها بسيادة الدولة ، وأمهلتها مدة شهر إن لم تقبلها فيه كان الخطب أعظم

خروج انجلترة عن الحيدة

وكان كاننج لا يزال يسعى فى حل المشكل بالطرق السلمية ، ولكن عاجلته المنية فى خلال ذلك . فلما لم تُجِب الدولة العلية جواباً مرضياً سيّرت انجلترة وفرنسا والروسيا أساطيلها الى المياه التركية ؛ وأُعطيت الأوامر الى كل من أمير البحر الانجليزى والفرنسى بأن يفصل بين الترك واليونان بالطرق السلمية ما استطاع الى ذلك سبيلاً، واذا أخفق فى ذلك ، حكّم السيف

الاساطيل الاوربية فى المياه التركية

وفى هذه الآونة كان الأسطول التركى المصرى راسياً فى مياه خليج «نَوَارين» وابراهيم باشا يعبث بكل البلاد والقرى ، غير مكترث باحتجاجات الحلفاء ، فدخلت أساطيلهم هذا الخليج ، لترغم الدولة على الإذعان لمطالبهم من غير حرب . وعند ذلك حدث خلاف بشأن موضع بعض الحراقات التركية ؛ فتبادل الفريقان بعض طلقات نارية أدت الى الاشتباك فى موقعة عظيمة ، أسفرت عن تحطيم الأسطول

واقعة نوارين

التركى المصرى فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ . فأثارت تلك النكبة غضب السلطان وحنقه ، حتى أنهُ أعلن الجهاد على كل الممالك المسيحية ، وبخاصةٍ على الروسيا عدو الدولة القديم ، فعرضت الروسيا على الحلفاء أن يوالوا فوزهم ؛ فأبت انجلترة ان تأتى بأى عمل يكون من شأنه اضعاف تركيا ، وقفا أثرها فى ذلك فرنسا ، فانسحبتا من الحرب . فخلا الجو لروسيا لمنازلة تركيا على انفراد

روسيا تنفرد بمحاربة تركيا

عودة انجلترة الى التدخل

ثم عادت انجلترة فرأت أن وقوفها على الحياد يمنعها من الاشتراك فى حلّ المشكل بين روسيا وتركيا عند انتهاء الحرب ؛ فقرر وزيرها « ولِنجتون » ارسال قوة لاجلاء جيوش محمد على عن المورة ، وقد تمّ ذلك بمظاهرة بحرية قام بها كُدْرِنجتون أمام الاسكندرية* . وفى هذه الأثناء قهر الروس الأتراك واضطروهم الى عقد « معاهدة أدرنة » فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ ؛ وبهـا أصبحت ولايتا الأفلاق والبغدان (رومانيا الآن) مستقلتين تقريباً تحت حماية روسيا ، وصارت اليونان ولاية قائمة بذاتها ، ليس للدولة عليها غير السيادة الاسمية . وبعد قليل عُرضت المسألة اليونانية على الدول فى لندن ؛ فاتفقت جميعاً فى سبتمبر سنة ١٨٣٢ على أن تصير اليونان دولة مستقلة

استقلال اليونان

سياسة الدول

هكذا انتهت المسألة اليونانية . ولقد كانت روسيا ترضى بجعل بلاد اليونان ولاية مستقلة بشؤونها الداخلية ، خاضعةً لسيادة السلطان ؛ ولكن ولنجتون ومترنيخ خشيا أن يكون ذلك وسيلة لتدخل روسيا فى شؤون البلقان بعد ، ففضلا استقلال اليونان استقلالاً تاماً ، مع أنهما كانا فى مبدأ الأمر فى مقدمة المتمسكين بالمحافظة على أملاك الدولة العثمانية . وهكذا شأن السياسة تتحوّل من مجرى الى آخر حسبما تقتضيه الأحوال

اختيار ملك لليونان

وقد لاقت الدول صعوبة فى انتخاب ملك لهذه المملكة الجديدة ، اذ رفض عرشها الأمير يوحنا السكسونى ، والأمير «ليو بلدكوبُرج» الذى صار فيما بعد ملكاً على البلجيك ، الى أن قبله الأمير البافارى «أُتو» سنة ١٨٣٣ وهو فى الثامنة عشرة

* ولتحقيق الغرض عينه تركت فرنسا فى المورة قوة تبلغ ١٥٠٠٠ مقاتل

من عمره . ولا شك أن تولى هذا المركز كان من أصعب الأمور ، ولم يُبْدِ « أُتو » حذقًا فى ادارة شؤونه . وكثرت فى أيامه الفتن والقلاقل ، حتى اضطر الى النزول عن العرش سنة ١٨٦٢، فتولاه «جورج الأول» ثانى أولاد « كرِسْتيان التاسع » ملك الدانمرقة بوساطة انجلترة، ونزلت له هذه عن الجزائر الايونية . ولا يزال الملك فى بيته الى الآن

أتو

جورج الاول

الفصل الثالث

ثورة يوليه فى فرنسا ونتائجها

١ — ﴿ الثورة فى فرنسا ﴾

بينما كان لويس الثامن عشر ناهجاً منهج الاعتدال فى حكم فرنسا بمساعدة وزيره « ديكاز » ، الذى كان يرى خير فرنسا فى تقريبها من الملك وتقريب الملك منها ، اذ حدث حادث مشئوم وهو قتل « دوق دِبرى » سنة ١٨٢٠، ثانى ولدى كُنت أرْتُوَا ولى العهد . ولم يكن لابن أرتوا الآخر خلف . فكان أمل بقاء آل بُرْبون على العرش محصوراً فى حياة أمير دِبرى . فلما قُتِل ثارت خواطر المشايعين للملك ، واُسندت رياسة الوزارة الى «فليل» زعيم المتطرفين في تأييد الحكم الاستبدادى، وقد نهج منهج التؤدة فى تنفيذ هذه السياسة ، فلم تشعر الأمة بما أخذت تفقده من الحقوق الى أن مات لويس الثامن عشر

مقتل دبرى

فليل والحكم الاستبدادى

فخلفه على عرش فرنسا أخوه شارل العاشر سنة ١٨٢٤، وكان عنيداً متعصبًا ، شديد الميل الى هدم كل ما شيدته الثورة الفرنسية ؛ فكانت توليتــه انذاراً بتمهيد السبيل لانفجار ثورة جديدة فى البلاد . فقد كان ينظر الى سياسة الاعتدال التى اتبعها أخوه فى حكم فرنسا بعين السخط الشديد، ولقد صرح فى حديث له عن رأيه

شارل العاشر

السياسى فقال : « لأن أكون ناشر خشب خير من أن أكون ملكاً بمثل الشروط

اخلاقه

المقيد بها ملك انجلترة » ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كان متمسكاً بآراء آل بُرْبون الاستبدادية، ولم يوفّق مطلقًا الى فهم أخلاق شعبه وشعورهم السياسى. فاتخذ الأمير

دبولنياك

« دِبولِنْياك » وزيره الأول ، وكان مشهوراً بآرائه الاستبدادية وميله الى تسويد الأشراف ورجال الدين فى البلاد. ورأى أنْ يذرّ الرماد فى أعين الشعب ويصرفهم عن مناوأة هذه السياسة بارسال حملة الى بلاد الجزائر . فكانت تلك أول خطوة فى سبيل تأسيس المستعمرات الفرنسية الإفريقية الشاسعة . لكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً ، وبقيت روح السخط ومقاومة الحكومة تنتشر فى البلاد

العبث بامتيازات الامة

ولما رأى الملك أن النصر حليف الجيوش الفرنسية فى افريقية ، حيث استولت على بلاد الجزائر ، تشجع على المغالاة فى حكمه الاستبدادى ، وأصدر من تلقاء نفسه فى ٢٥ يوليه سنة ١٨٣٠ أربعة مراسيم بدون أن ينتظر موافقة مجلس الأمة عليها ؛ وبها حَلّ البرلمان ، وطلب تشكيل آخر غيره ، وعبث بامتيازات الأمة فى انتخاب أعضاء الحكومة، وقيّد حرية الصحافة. فأغضب الشعبَ كلٌّ هذه القوانين الصارمة ولا سيما الأخير منها، فان الأمة لم تطقه لِما لحرية الصحافة فى فرنسا من الشأن العظيم

الثورة

ولم تكد هذه المراسيم تنتشر حتى ثار أهل باريس على الحكومة بتحريض رجال الصحافة ، وأخذوا يحاربون الجند فى الطرقات ، ولكن لم تلبث الأجناد أن تآخت مع الثوار ، ورفعوا العلم القديم الثلاثى الألوان. وانقض الغوغاء على قصر التويلرى، وعبثوا به ، وألقوا بأثاثه فى نهر السين . كل ذلك كان يجرى والملك غافل لا يعلم حقيقة الخطر الذى كان يحدق بعرشه ، حتى أنه لما أتى اليه الخبر وهو فى قصره أن قد « قُضى الأمر » ظن أن ذلك اعلان بالانتصار على الثوار . ولما علم حقيقة الأمر همّ بإلغاء تلك القوانين، ولكن بعد ضياع الفرصة؛ وبذلك أصبحت حياته فى فرنسا

الحكومة المؤقتة

محفوفة بالمخاطر، ففرّ الى انجلترة . وفى خلال ذلك أُسست حكومة مؤقتة من أنصار الجمهورية برياسة « لافَيِت » الزعيم الثورى الشهير

ميولها

ولا شك أن رجال هذه الحكومة كانوا يميلون الى القضاء على الملكية والرجوع الى الحكومة الجمهورية ، ولكنهم أدركوا صعوبة ذلك بل استحالته ، لمَا يعلمونه من تمسك الدول الأوربية بقرارات مؤتمر ويانة ، وتصدّيها لفرنسا إن هى حاولت ذلك. لذلك عوّلوا على نهج طريقٍ وسط بين الطرفين، بأن يولوا على فرنسا ملكاً دستورى المبدأ ، يعمل بارادة الشعب

دعوة تيير

وقد ضمَّن « تيير » أحد صحافيى باريس ومن اكبر زعماء هذه الحركة ، موقف البلاد حينئذٍ فيما يأتى : ان رجوع شارل الى العرش أصبح من المستحيل. كذلك لايمكن اعلان الجمهورية فى البلاد ، اذ تكون لا محالة ذريعةً لتدخّل ممالك أوربا فى شؤون فرنسا. وها هو ذا لويس فايب الذى حارب لأجل الثورة الفرنسية يرضى أن يحكم البلاد بإرادة الشعب

اختيار لويس فليب

وقد وقع الاختيار بالفعل على « لويس فليب » دوق أورليان المنتسب من بعيد الى أسرة بُرْبون . وتولى عرش فرنسا بلقب « ملك الفرنسيين »

تأثير ثورة يوليه

وتعرف هذه الثورة « بثورة يوليه » أو « ثورة سنة ١٨٣٠ » . وقد كان لها أثر عاجل فعّال فى سائر أنحاء أوربا ؛ فرنّ صداها فى بولندة وألمانيا وايطاليا وسوسرة وانجلترة والأراضى المنخفضة ، حتى صار القضاء على النظام الذى وضعهُ مؤتمر ويانة قاب قوسين أو أدنى

الثورة وأوربا

وكان سواس الدول من بادىء الأمر وبخاصة « مترنيخ » يحبذون التدخل فى شأن فرنسا، وهدْم ما أحدثته هذه الثورة الجديدة فيها، وإعادة ملكها الشرعى الى عرشه، ولكن عند ماتمت عزيمتهم، وأرادوا أن يهمُّوا بانفاذ مقصدهم ، لم يجدوا ذلك فى مقدورهم؛ اذ كانت الروسيا مشغولة بثورة بولندة ، والنمسا مغلولة اليدين باخماد ثورة فى ايطاليا ، وبروسيا قلقة البال من جراء انتشار روح الفتنة فى ألمانيا ؛ وانجلترة منهمكة فى درس مشاكل داخلية عدة ذات بال ، فضلاً عن أن مبادئها السياسية فى ذلك الوقت كانت تنافى مقاومة أمثال تلك الثورة . لذلك اعترفت الدول بلويس

فليب طوعاً أو كرهاً . وتلكأ فى ذلك نقولا الأول قيصر الروسيا، ثم قبله مضطراً

حكم لويس فليب

تولى « لويس فليب » عرش فرنسا ، فكان مضطراً بطبيعة الحال الى أن يحكم البلاد حسب رغبات الشعب الذى رفعه الى العرش، فكان ذلك من أشق الأمور عليه؛ إذ لم يكن يعرف بعدُ رغباتِ الأهلين الذين لم يكد يكون لهم مبدأ محدود يمكن السير على مقتضاه . على أنه بذل جهده فى استرضائهم واستجلاب محبتهم ، فوضع نفسه فى موضع سائر أفراد باريس؛ فكان يمشى فى طرقاتها لابساً كأحد أوساط القوم ، وأرسل أولاده الى المدارس العمومية ، ثم خرطهم فى زمرة الجيش فى الحرس الوطنى؛ فنال بتواضعه ورقة أخلاقه أصدقاء كثيرين . بيد أنه من جهة أخرى لم يوهَب تلك الصفات التى تؤهّلهُ لأن يسوّد السلام فى البلاد وينهض بها، أو يسيطر على أُمة كانت لاتزال روح نابليون تجرى فى عروقها؛ وإن أمكنه أن يضم حوله مستشارين معتدلى الآراء؛ فسارت البلاد فى طريقها بطمأنينة وسلام مدة من الزمان

٢ — ﴿ الثورة فى بلجيكا ﴾

بلجيكا ومؤتمر ويانة

هذا ما كان من شأن الثورة فى فرنسا . أما فى خارجها فكان أهم أثر لها بيناً فى بلاد البلجيك . وذلك أن مؤتمر ويانة قرر سنة ١٨١٥ ضم هذه البلاد الى هولندة وتكوين مملكة واحدة منهما تحت أسرة أورنج (حكام هولندة) لتكون بمثابة حاجز قوى لصد غارات فرنسا من الشمال الشرقى. ولم يراع المؤتمر ما بين الأمتين من البون الشاسع فى شؤونهما الاجتماعية والدينية والسياسية وغيرها : ففى حين أن هولندة صارت جمهورية مستقلة منذ مائتى عام تقريباً، بقيت البلجيك ولاية اسبانية ثم نمسوية ثم فرنسية، الى أن انتزعها الحلفاء من فرنسا أثناء حروب نابليون ، فبقيت وديعةً فى أيديهم الى أن فصلوا فى أمرها فى مؤتمر ويانة . وفى حين أن الهولنديين كانوا على المذهب البروتستنتى ، كان البلجيكيون شديدى التمسك بالكاثوليكية . كذلك هم

الفرق بين بلجيكا وهولندة

الحكومة

المذهب

المبادئ الاقتصادية

مختلفون فى الشؤون الاقتصادية ، فبينما الهولنديون أمة زراعية تجارية يميلون الى حرية التجارة اذا بالبلجيكيين أمَّة صناعيَّة يميلون الى حماية التجارة . ذلك الى

اللغـة

اختلافهم فى اللغة التى هى من أعظم الروابط القومية

كل ذلك كان يُشعِر بعدم بقاء هذا الاتحاد أمداً طويلاً . فما كاد يتم هذا الاتحاد

مظالم البلجيكيين

حتى أخذ البلجيكيون يحسّون بغضاضته ، لأنه فضلاً عن الاعتبارات السابقة قضى عليهم بالخضوع لأمة أقل منهم عدداً . وزاد سخطهم بجعل اللغة الهولندية اللغة الرسمية فى البلاد ، ذلك الى إسناد معظم المناصب الكبيرة فى الحكومة والجيش الى الهولنديين ، وإسناد تفتيش المدارس الكاتوليكية الى مفتشين من البروتستنت ، والتغيير فى الضرائب والمكوس بحالة تضر بمصلحة البلجيكيين دون الهولنديين ، وغير ذلك من سوء الادارة : مما نفّر البلجيكيين وجعلهم يتحدون قَلْبًا وقالبًا على الوقوف فى وجه الحكومة . وقد قام الأهلون بالفعل قبل ثورة يوليه ببعض مظاهرات احتجاجًا

تأثير ثورة يوليه الفرنسية

على هذا النظام العليل ؛ فلما قامت الثورة فى فرنسا كان الرأى البلجيكى العام متهيئًا للفتنة ، فلم تكن إلاَّ فترة حتى اندلعت نار الثورة فى البلاد ؛ وقام البلجيكيون فى أغسطس سنة ١٨٣٠ يريدون الانفصال عن هولندة ، معتمدين فى ذلك على نُصْرة فرنسا لهم

الثورة فى بلجيكا

اختار البلجيكيون لقيامهم يوم عيد ميلاد الملك (٥ أغسطس) وكان يُحتفل به فى بروكسل ، فمثَّلوا رواية ثورية فى ملهى المدينة أشعلت حقد المتفرجين ، ومنهم انتقلت العدوى الى سائر الأهلين فى أقل من لمح البصر . ولما انتشرت الثورة فى البلاد ، تولى قيادتها نفر من أولى الحزم وقدَّموا الى الحكومة مطالبهم . واذ ذاك زحف أمير اورنج بجيش على المدينة ، وقد نُصبت المتاريس فى شوارعها ، فاضطر الى الرجوع عنها بعد قتال سالت فيه الدماء . وبعد ان أعيت الحكومة الحيلة أحالت الأمر على مجلس النواب الممثل للأمتين ، فأقرّ فصلَهما فى ادارة الشؤون الداخلية مع بقائهما فى يد ملك واحد . وقد كان ذلك أمنية البلجيكيين من قبل ، الآ انهم لم يقتنعوا به بعد ما أحرزوا من الفوز ، فأعلنت حكومتهم المؤقتة انفصال بلادهم عن

هولندة (٤ اكتوبر) ، وشُكلت لجنة قومية لوضع نظام للحكومة الجديدة

اوربا والثورة

بذلك نجحت ثورة البلجيك ، ونُقض أول حجر من البناء الذى شيده مؤتمر ويانة . وانقسمت الدول ازاء ذلك قسمين : فكانت الروسيا والنمسا و بروسيا تميل الى اخماد هذه الثورة وارجاع البلاد الى حالها الأولى ؛ واتفقت فرنسا وانجلترة على الاعتراف باستقلال البلجيك . وقد شُغلت الروسيا والنمسا عن تنفيذ آرائهما بالثورة المتأجّجة فى بولندة وايطاليا ، وخشيت بروسيا انتشار الثورة اليها من بولندة فشُغلت بحماية حدودها الشرقية ؛ ولذلك تمّ رأى الدول جميعًا على الاعتراف بالاستقلال .

استقلال بلجيكا

وقد بقى الجدال على شروط الانفصال محتدمًا مدة من الزمان ؛ اذ أرادت فرنسا اعادة بعض ما فقدته من الأرض فى هذه الجهة سنة ١٨١٥، لكن اللورد «بَلْمَرستون» وزير الخارجية الانجليزية وقف فى وجهها فلم يسمح لها بضم قيد شبر الى أملاكها . وبعد برهة ابرم مؤتمر لندن اتفاق فصل الدولتين سنة ١٨٣١ ، وأخذت الدول

ملك البلجيك

تبحث عن ملك يعتلى أريكة البلجيك ؛ فقبل هذا المنصب «ليُو بُلْد أمير كوبِرْج» الذى كان قد رفض مُلْك اليونان من قبل . وكانت الأحوال تساعده على تأييد عرشه ، اذ كانت علاقته مع انجلترة متينة ، لأن زوجته الأولى كانت بنت جورج الرابع ؛ ومكّن علائقه بفرنسا بإسراعه الى العقد على الأميرة «لويزه اورليان» ، وقبل أن يعتلى العرش عزم بما أوتيه من العقل والحكمة على الوقوف موقف المدافع عن حقوق البلجيك ، وحضّ الدول على منحها حقوقًا جديدة لم تنلها فى مؤتمر لندن ، وفى مقدمة ذلك بقاء لكسمبرج مع البلجيك بعد ان كان المؤتمر قرر ضمها الى هولندة ،

الفصل فى المشاكل

وان تتحمل هولندة وحدها الديون التى اقترضتها قبل ضم البلجيك اليها . وقد أدى ذلك الى نزاع طويل بين هولندة والبلجيك ، وبينهما وبين الدول ، افضى الى القتال اكثر من مرة ، وانتهى سنة ١٨٣٩ بضم لكسمبرج الى هولندة ، وإثقال عاتق البلجيك بجزء من دين هولندة

٣ — ✱ الثورة فى بولندة ✱

بولندة الى سنة ١٨١٥

ما كانت الروسيا وبروسيا والنمسا لتوافق على هذه التغييرات لو لم تشغلها الثورة التى كانت وقتئذٍ متأججة على أبواب بلادها ، فان بولندة التى لم يفتر أشرافها عن إحداث الفتن والاضطرابات ، وظل فلاحوهـا يئنون تحت نير الظلم والاستعباد ، كانت منبع قلاقل لأوربا منذ سنين عدة ، قبل أن تمزّق أوصالها فى التقسيم الأول بين بروسيا والروسيا والنمسا سنة ١٧٧٢ ، وتلا ذلك تقسيم عام ١٧٩٣ ثم تقسيم عام ١٧٩٥ ، وبه قسمت هذه الأمة بين تلك الدول الثلاث . وبعد معاهدة تلست حوّل نابليون بولندة البروسية الى « امارة (غرَنْدوقية) ورسو » ، ولكن الروسيين غزوا تلك الامارة سنة ١٨١٣ وأصبحت ملكاً لهم . وفى مؤتمر ويانة سنة ١٨١٥ اعترفت الدول بضم هذا الاقليم الى الروسيا باسم « مملكة بولندة » ، بحيث يكون القيصر ملكاً عليها وتكون مستقلةً عن الروسيا فى شؤونها الداخلية

الاسكندر واشراف بولندة

فسار الاسكندر الأول فى حكم الأصقاع البولندية سيرة حسنة ، محافظاً على حقوقها النيابية ؛ لكنه كان مكروهاً لتدخله فى امتيازات الأشراف المجحفة ، وكانت هذه الطائفة بمعزل عن طبقة الفلاحين : شأنها أيضاً مع فلاحى روسيا . فارادوا أن يثأروا لأنفسهم بدس الدسائس ونشر روح الفتنة فى البلاد ، حتى جعلوا حكم الروسيا فيها ضرباً من المستحيل . فأثار ذلك حنق القيصر ، وحمله على أن يسلب البولنديين تدريجاً ما منحهم من الامتيازات الدستورية ؛ فابتدأت المؤامرات على الحكومة

غضبه على البولنديين

وكان نجاح ثورة يوليه فى فرنسا مشجعاً عظيماً لانتشار الثورة فى بولندة ، فقامت الفتنة فى ورسو فى نوفمبر سنة ١٨٣٠ ، ولكن الضعف وتفرق الكلمة والخيانة رافقت الثورة من بادئ الأمر ؛ وزاد الطين بلة ان الثوار لم يكتفوا بقتل الضباط الروس بل قاموا بمذبحة عظيمـة فى اليهود العزّل من السلاح . وأعلن البولنديون استقلالهم ، متطلعين الي النجدة من أوربا . ومع عطف الأوربيين عليهم لِمَا لاقوه من الذلة

الثورة فى بولندة

اخمادها — والهوان ، احجمت الدول عن خوض غمار الحرب للأخذ بناصرهم . فدخل الجيش الروسى بلادهم ، واخمد الفتنة بعد أن لاقى مقاومة عنيفة . ومن ذلك الحين أصبحت بولندة جزءًا من الأراضى الروسية ، لاتمتاز عن غيرها فى شىء

وفوق ما تقدم ظهر صدى ثورة يوليه فى ايطاليا وألمانيا ، وسيأتى ذكر ذلك بعد

الفصل الرابع

عودة الى المسألة الشرقية

محمد على والدولة — فى خلال عام ١٨٣٢ تحولت أنظار أوربا نحو الشرق ، حيث أراد محمد على باشا والى مصر أن يحقق تلك الآمال التى قضت عليها واقعة « نَوارين » . وذلك أن سلطان الترك كان وقتئذٍ مبغَّضًا فى أعين رعاياه ، لما قام به من الاصلاح فى داخل البلاد على النمط الأوربى ، ولاسيما الجيش . فكان لذلك أثر سيىء فى نفوس المتورّعين من المسلمين ، ولقبوه بالسلطان الكافر . فاتخذ محمد على باشا هذه فرصة وطلب الى السلطان أن يمنح ابنه ابراهيم باشا إمارة دمشق ، مكافأة له على مساعدته للدولة فى حرب اليونان . ولما رفض السلطان محمود ذلك ، سار ابراهيم باشا الى سورية وغزاها وانتصر على جيوش الدولة فى زمن يسير ، فلجأ السلطان محمود الى الدول ، فلم تلبّ طلبه الاّ الروسيا . ومع تخوفه من تلك الدولة قَبِلَ مساعدتها قائلاً : « ان الغريق يتعلّق بالثعبان »

السلطان يستنجد الدول

روسيا والدول — فأنزلت الروسيا قوة عظيمة على شاطئ البسفور ، وجمعت جموعًا أعظم منها عددًا كانت على تمام الأهبة لعبور نهر الطونة . فأثار ذلك خوف انجلترة وفرنسا ، حتى أنهما اضطرتا الباب العالى الى قبول مطالب محمد على ومنحه حكومة بلاد سورية

ارغام السلطان — فكانت نتيجة هذا التدخل إغضاب السلطان ، فاندفع ، وهو فى ثورة غضبه من

الدول التى تدّعى مصادقته ، الى عقد معاهدة هجومية دفاعية بينه وبين الروسيا تُدعى معاهدة «هُنكار اسكِلَه سى» (أنكيار سكِلسّى) فى ٨ يوليه سنة ١٨٣٣ . وفى فقرة سرّية من هذه المعاهدة ، اتفق السلطان على أن لا يسمح لأى سفينة حربية عدا السفن الروسية باجتياز الدردنيل . وكان السلطان محمود لا تزال نفسه تتوق الى الانتقام من عامله الخارج عليه ، فبعد مضى ستة أعوام من خروج محمد على عليه ، نظّم فى خلالها جيوشه ، سيَّر جيشاً لغزو سورية . فكانت هذه الحملة نكبة عليه اكبر من سالفتها ، وأصبحت الطريق أمام ابراهيم باشا مفتوحة الى القسطنطينية . وفى غضون تلك الأزمة الشديدة قضى السلطان محمود ، فخلفه ابنه عبد المجيد وهو فى السابعة عشرة من عمره

معاهدة هنكار اسكله سى

الخوف على الدولة

عند ذلك رأت الدول الأوربية أن الوقت قد حان لتدخلها فى الأمر . وكانت فرنسا ترغب كثيراً فى معاضدة محمد على؛ ولكن أربع الدول العظام الأخرى انحازت الى جانب السلطان ، وأخذت تنصره على محمد على ، فأبرمت بينها «معاهدة لندن» عام ١٨٤٠ بغير علم السفير الفرنسى . فأثار ذلك الخواطر فى باريس ، ولكن اللورد بلمرستون بطل هذه الحركة لم يبال بصخب فرنسا ، وقال : « ان فرنسا فى عهد لويس فليب غيرها فى عهد نابليون » . ولقد أصاب فى قوله ؛ فان الفرنسيين رغم جعجعتهم باعلان الحرب ، خمدت حماستهم حينما قُهر جيش محمد على أمام الحلفاء وقام فى وجهه السوريون أنفسهم بعد أن كانوا قد رحّبوا بابراهيم باشا منذ ستة أعوام لتحريرهم من ربق العبودية العثمانية . فتنزل محمد على عن كل حق له فى سورية ، وأخذت الدول على عاتقها أن تتوسط لدى الباب العالى فى جعل ولاية مصر طعمة لمحمد على وخلفه من بعده سنة ١٨٤٠ . وبعد ذلك بعامين أُبرم اتفاق آخر بين الدول فى لندن يمنع مرور أى سفن حربية من الدردنيل والبسفور على السواء . (راجع كتاب تاريخ مصر من الفتح العثمانى)

اوربا تنصرها

معاهدة لندن

الفصل الخامس

القلاقل الجديدة فى اوربا

١٨٤٨ — ١٨٥١

١ — ﴿ ثورة سنة ١٨٤٨ ﴾

تأثير السلام

بعد مؤتمر ويانة ساد السلام فى الجملة على ربوع أوربا مدة ثلاثين عاماً كان لها أحسن أثر فى ازدياد ثروة الأمم الأوربية على اختلافها ، وفى تقدم العلم وإشراق نور العرفان عليها . وأحدث ذلك فيها رغبة شديدة فى الحرية ، وسخطاً عاماً على ما هى عليه من سوء الحكومة والنظام ، وإن كانت لم توفق بعدُ الى الطريق التى يتسنى بها تغيير هذه الحالة . وقد شجع سخط الناس وتذمرهم تأليف الجمعيات السرّية التى أهمها جمعيــة « الكربونارى »* التى ظهرت أولاً فى نابلى ثم انتشرت فى جميع ايطاليا ، ومنها الى كثير من الممالك الأوربية الأخرى ؛ وقد ظهر صداها فى اثارة قلاقل وفتن أسفرت عن الخيبة ، ولم يكن من ورائها الاَّ اشتداد ضغط الحكومات التى قامت فيها تلك الفتن ، مما سيأتى مفصلاً عند الكلام على الوحدة الايطالية

الجمعيات السرية

الفتنة فى المجر

كذلك انبثت روح الفتن فى أملاك النمسا الأخرى ولا سيما فى المجر، حيث قام «لويس كشوط» يطالب بحقوق مواطنيه الدستورية . وقد امتاز بقوة بيانه وحسن فصاحته : تلك الميزة التى كان يتّصف بها كل مجرى، والتى ضرب فيها كشوط بسهم وافر حتى أصبح منقطع القرين ؛ فكانت له قدرة مدهشة فى استمالة القلوب ، ووهب له الله صوتاً حسناً رنّاناً وطلعة جليلة ؛ فمالت اليهِ قلوب الناس ميلاً شديداً حتى ملكها

كشوط

* لم تكن أغراض هذه الجمعية محدودة أو معينة بل كانت ترمى بوجه عام الى مناوأة الملوك الرجعيين . وكانت معظم الوسائل التى اتخذوها لذلك صبيانية مشتطة لا تصلح الا فى الحوادث الثورية الوقتية ولا تدوم لها حركة عظيمة ثابتة

وزاد تعلقهم به أنه قاسى مرارة السجن فى سبيل تحرير بلاده ، وأنه وقت ان كان الهواء الأصفر يفتك بالمجريين فتكاً ذريعاً ، كان يزور المحال التى اشتدت فيها وطأة المرض ويمدّ يد المساعدة الى المصابين . ولقد سُحر الأشراف بشدة تأثيره وبلاغته حتى نزلوا من تلقاء أنفسهم عن مزاياهم ، وأخذوا ينظرون فى حقوق الشعب

وفى انجلترة قامت ثورة من جراء قانون الاصلاح الصادر فى سنة ١٨٣٢ ، الذى به نالت الطبقة الوسطى وطائفة التجار قسطاً فى سياسة البلاد ؛ وأُهملت طائفة الصنّاع ، فحنقوا لذلك وقاموا يطالبون بمنح الحقوق الدستورية للشعب عامة

اسباب الثورة فى فرنسا

وكذلك فى فرنسا كانت الأمة تتأهب للقيام بالثورة ؛ وذلك لأن حكومة لويس فليب أخذت تزداد يوماً فيوماً فى الاستبداد ، ونتج عن ذلك أن تألّفَ حزب من الاشتراكيين يناهض الحكومة . وقد زاد سخط الشعب من جراء السياسة التى نهجها الملك فى المسألة المعروفة « بالزواج الاسبانى » . وذلك أن لويس فليب شرع فى تزويج الفتاة « ايزَبلاّ » ملكة اسبانيا وأختها من أميرين فرنسيين من آل بربون ، وكان فى ذلك خطر يتهدد توازن أوربا الدولى ، لِما عساه أن يحدث من ضم العرشين الفرنسى والاسبانى ، وجعلهما تحت حكم فرد واحد . فاحتجت انجلتره بشدة على هذا المقصد ، ولكن فرنسا لم تعر الأمر جانباً من العناية ، على سخط من ايزبلا على هذا القران الذى سيقت اليه كرهاً ، ومشاركتها انجلترة فى الاحتجاج عليه . وعقد « جيزو » رئيس وزراء فرنسا النية على زف الأميرتين الى زوجيهما فى يوم واحد . فعدت الأمة الفرنسية هذا التصرف تضحية لمصالحها الدولية ، وإيثاراً لأغراض آل بربون ؛ فابتدأت القلاقل وهبّ القوم يطالبون بالاصلاح ، فلم تتنبّه الحكومة لخطورة الأمر ، وأخذت تستعمل الضغط والشدة على الأهالى . فانتشر الهياج وذُعر الملك ؛ فعزل جيزو ، ولكن بعد أن سبق السيف العذَل ؛ فتحوّلت الحركة من مجرّد مطالبة بالاصلاح الى ثورة يراد بها قلب نظام الحكومة ، ونادى الشعب : « فلتحيَ الجمهورية ! » وعند ذلك نزل الملك عن عرشه لابنه « كُنت باريس » ، ولكنّ الشعب أعلن أن

الزواج الاسبانى

استياء الفرنسيين

الثورة

ذلك لا يكفيه ، وطلب نزول تلك الأسرة بأسرها عن حكم البلاد . فعمد لويس فليب هو وزوجه الطاعنة فى السن الى الساحل ، حيث أقلعا الى انجلترة ، فقضى على الملكية الفرنسية ؛ ونودى بالجمهورية على إثر ذلك (٢٥ فبراير سنة ١٨٤٨)

الحكومة المؤقتة

وعهد مجلس النواب بادارة شؤون البلاد الى حكومة مؤقتة كان أعظم عضو فيها الشاعر الخطيب الفرنسى الشهير « لامَرْتين » . وكان معظم الأعضاء من أنصار الجمهورية المعتدلين فى الرأى ، ولكن كان من بينهم « لِدْرو رولان » زعيم الطبقة الدنيا « ولويس بلانك » صاحب الآراء الاشتراكية التى كان لها أكبر أثر فى قيام هذه الثورة . رأى هذا الفيلسوف ان أى تغيير فى شكل الحكومة لا تكون له الثمرة المطلوبة الَّا اذا قامت الحكومة بتنظيم حركة الأعمال المنتجة للثروة ، بحيث تضمن تحرير العمال وتُوجد أبواباً دائمة للرزق يكتسبون منها معاشهم ، وأنّ أنجع وسيلة لذلك أن تنشئ الحكومة بنفسها مصانع للعاطلين

لامرتين ولدرو رولان

لويس بلانك

وقد عظم نفوذ «لويس بلانك» فى البلاد حتى صُبغت الحكومة المؤقتة بصبغته ؛ فكانت فاتحة أعمالها أن أصدرت قراراً يضمن لكل فرد باباً يرتزق منه ، ثم أتبعت ذلك بفتح مصانع الحكومة المنشودة . وذلك إقدامٌ عجيب فى مثل هذه الأحوال الثورية ؛ بل فى الأحوال المعتادة ؛ اذ لا يخفى ما يستدعيه هذا المشروع الهائل من شغل بال الحكومة والتورط فيما لا طاقة لها به . وقد ظهر سوء تدبير ذلك من بادى الأمر ؛ فأخذ العمال العاطلون وغير العاطلين ينهالون على تلك المصانع ، حتى زاد عددهم فى أربعة أسابيع من ١٤,٠٠٠ الى ٦٥,٠٠٠ ، منهم كثيرون أضربوا عن العمل فى المصانع التى كانوا بها ، مفضّلين عليها هذا المورد الثابت . وقد عجزت الحكومة عن ايجاد عمل نافع لهذا العدد الهائل من العمال ، فصاروا عيالاً عليها ، فضلاً عن حدوث اضطراب من جراء ذلك فى سير الأعمال المعتادة فى أنحاء البلاد . وبينا الحال كذلك اذا برجال الحكومة المؤقتة رأوا أن « لدرو رولان » يعمل منفرداً على نشر الروح الثورية فى البلاد ، ليسفر الانتخاب القادم عن اختيار أعضاء مجلس الأمة من المتطرفين ؛

مصانع الحكومة

وانضم اليه الغوغاء وحزب الصناع والاشتراكيون ، وقاموا فى وجه الحكومة . ولكن لامرتين وزملاءه أخمدوا هذه الفتنة ، وأسفرت نتيجة الانتخاب عن اختيار الأعضاء من الجمهوريين المعتدلين . فثار لذلك الغوغاء وهاجموا مجلس الأمة ، وأهانوا أعضاءه بدعوى أنهم لا يمثلون الأمة تمثيلاً حقيقياً ، وبأنهم هم الذين لهم الحق فى حل المجلس . فقابلت الحكومة ذلك بالغاء المصانع التى فتحتها ، فزادت الطين بلة ، إذ انضم اليهم الصناع أيضاً، فعهدت الحكومة المؤقتة باخماد الثورة الى القائد «كافنياك» وزير الحربية، فبقى يكافحهم أربعة أيام حتى اضطرهم الى التسليم . وتعرف هذه الأيام « بأيام يوليه الأربعة » . وبقى كافنياك يحكم باريس بنفوذه المستمد من الحكومة المؤقتة الى أن فرغت من وضع نظام الجمهورية المرادة، فظهر بذلك حزب المعتدلين على الاشتراكيين، وأسسوا جمهورية عليها رئيس منتخب لمدة أربع سنين (الجمهورية الثانية)

الثورة على الحكومة المؤقتة

كافنياك

الجمهورية الثانية

وكان لويس نابليون (ابن أخى نابليون بونابرت) أحدَ الأعضاء المنتخبين فى مجلس الأمة . فلما جاء دور انتخاب رئيس الجمهورية فى ديسمبر سنة ١٨٤٨ ، نال لويس نابليون أغلبية الأصوات، فانتُخِب رئيساً . وربما كان أكبر سبب فى انتخابه لهذا المنصب السامى اسمه الرنّان ، لرجوع الشعب الفرنسى وقتئذٍ الى التحدث بمفاخر نابليون بونابرت ونسيانهم ويلات عصره ، وساعد على ذلك أن الجمهورية لم تقم الا على يد حزب واحد ، ولم يعترف بها الشعب الفرنسى بأكمله*. وكان نابليون هذا قد أخفق من قبل عدة مرات فى السعى وراء رسوخ قدمه فى أرض فرنسا ، فقُبِض عليه فى احداها وزُج فى أعماق السجن فى معقل « هام » بجبال الفوج . ولكنه فر متخفياً فى زى عامل بمساعدة طبيبه ، ثم عاش فى انجلترة عيشة هادئة ، وان كان لم يترك فرصة يتخذ فيها لنفسه أعواناً وأخداناً فى فرنسا الا سعى اليها بكل ما يستطيع ، حتى كان يبذل جهده فى استمالة بعض القواد الفرنسيين بالمال

لويس نابليون

---

* فكان منهم فريق ينزعون الى الملكية ، وربما ساعد ذلك على اسناد رياسة الجمهورية الى رجل يعد لا محالة من الامراء

٢ — ✱ انقلاب الحكومة فى فرنسا ✱

عام ١٨٥١

أوائل حكمه

لما انتُخب لويس نابليون رئيساً للجمهورية الفرنسية عام ١٨٤٨ أخذ على نفسه المواثيق والعهود أن يحافظ على مبادئ الجمهورية الديمُقراطية . وقد وعد على رءوس الملأ فى الخطاب الذى ألقاه على المجلس أن يقوم بحكومة البلاد خير قيام بمؤازرة الرجال « المخلصين فى أعمالهم » المحبين لبلادهم . ولقد قامت الحكومة فى الأيام الأولى من عهد الجمهورية بأعمال عامة نافعة للبلاد ، كاصلاح الترع والطرق والأنهار ، واستعملت الآلات الزراعية فتقدمت الزراعة، وشجعت الحرف والصناعات ، وأصلحت من شأن باريس بحفر مجار جديدة وانشاء شوارع أنيقة ، ونحو ذلك

نكثه العهود

ولكن رئيس الجمهورية نكث ما وعد به من منح البلاد حكومة راضية ، إذ لم يمض زمن طويل حتى أخذ يُظهر للرجال « المخلصين فى عملهم » أنه لا يعبأ بنصائحهم ، وطلب الى وزرائه أن يقوموا بأعمال لا يرضى بها كل من دبّ فى نفسه روح الاخلاص والشرف . لذلك كان يغيّر ويبدل فى وزرائه من آن الى آخر حتى أنه ولّى حوالى تسعين وزيراً فى مدة لا تزيد على ثلاث سنوات، وعبث بعقول أعضاء مجلس الأمة حتى جعلهم يسنّون قانوناً جديداً للانتخاب أفضى الى حرمان نحو ثلاثة آلاف ألف من التصويت . وفى الوقت الذى يتشدق فيه بتمدح الحكم النيابى كان يأبى إلاَّ أن يكون هو صاحب الكلمة الوحيدة فى حكم البلاد . وكان القانون يحرم إعادة انتخاب الرئيس بعد مضى الأربع السنوات المحدودة لتربعه فى دست الرياسة ؛ ولما لم يكن من رغبته أن يتقاعد عن العمل بعد هذه المدة ، وكان يعتقد أن الشعب الفرنسى يعيد انتخابه لو سمح القانون بذلك، عرض على المجلس أن يُحدث هذا التغيير فى القانون، فلم يقبل. لذلك أخذ نابليون يعدّ عدته بكل تكتم ورويّة لإعداد الأمة الفرنسية لقبول حكم العاهلية (الامبراطورية) ؛ فأحاط نفسه ببطانة يعتمد عليهم ويثق بهم عند الحاجة

سعيه فى اعادة انتخابه

سعيه للنكاية بالمجلس

اخذه العدة لقلب نظام الحكومة

وأخذ يعزل من الوزراء كل من لا يرى رأيه ، حتى عثر على من يكون طوع إرادته . ثم شرع ثانيةً فى محو القانون الذى أقرَّه المجلس أخيراً للانتخاب . وعزم على إعادة التصويت العام . وكان قصده من ذلك أنه لو صح مقصده انضم الى جانبه نحو ثلاثة آلاف ألف من الأمة؛ أما اذا لم يوافق المجلس عليه، فحينئذٍ يمكنه أن يستعمل العنف والشدة معه ، بحجة الدفاع عن حقوق الأمة . فرفض المجلس طلبه هذا ، فهاج بذلك غضب الأحرار المتطرفين ، وانضموا الى أنصار نابليون

لويس نابليون والجيش

وبعـد ذلك أخمد نابليون أنفاس الصحف ، وحرَّم الاجتماعات على اختلاف أنواعها . وضم الى جانبه أجناد باريس ، ويقال انه أولم الولائم لفرق منهم بأجمعها ، فقابلوا ذلك بالنداء له : «فليحيَ نابليون! ليعِش الامبراطور!» . وهو وإن لم يتجاوز فى العسكرية رتبة « كبتن » التى نالها فى مدفعية الجيش السوسرى ، فانه تزيا بزى القواد الفرنسيين، واستعرض الجيوش، ووزع الرتب والأوسمة، وظهر فى كل المواقف بمظهر القائد العام للجيش الفرنسى . وكان فى هذه الأثناء يسعى فى تحويل الانظار عن نياته بتنمية ثروة البلاد وترقية أهلها . ثم خدع قائد الحرس الوطنى ، وكان من أكبر أنصار الجمهورية ، حتى حبب اليه النزول عن منصبه ، فاعتزله . وفى النهاية أخذ نابليون ينفذ عزمه الذى طالما جعله نصب عينيه، وهو « قلب نظام الحكومة »

قلب نظام الحكومة

وكان ذلك ينحصر فى القبض سراً على كل الزعماء الذين كان يعتقد أنهم معارضون له ولأحكامه الاستبدادية ؛ فقبض فى غلس الظلام على ثمانية وسبعين من أكبر زعماء النواب وزج بهم فى ظلمات السجن ، وأرسل الجند للإحاطة بمكان المجلس وتشتيت شمل أعضائه . وفى الحال أرسل الرسائل البرقية الى كل المقاطعات الفرنسية معلناً فيها أن باريس قابلت تغيير الحكومة بالبشر والسرور . وأجبر عمال مطبعة الحكومة والسيف على رقابهم على جمع حروف المنشور الذى قرر اصداره فى اليوم التالى

وفى صبيحة ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ (عيد تتويج نابليون بونابرت ويوم الاحتفال السنوى بموقعة اوسترلتز) استيقظ أهل باريس وقد قضى الأمر . وقد حاول بعض

المتحمسين من أنصار الجمهورية مثل « فيكتور هيجو » و « جيل فَفْر » وغيرهما أن يهيجوا غوغاء باريس ، فأفلحوا بعض الشيء ونصبت المتاريس فى شوارع المدينة ، وحدث بعض المناوشات بين الجنود والأهلين . الاَّ أن الجنود ما لبثوا أن أخمدوا الفتنة ، ولم يمضِ اكثر من يومين حتى عاد الأمن الى نصابه

منشوره للامة الفرنسية

أما المنشور فكان موجهاً الى الأمة : تظاهر فيه نابليون بالدفاع عن حقوقها، فقال ان أعضاء المجلس يريدون القضاء على تلك الحقوق ، وانه لا يرى حَكَماً يفصل بينه وبينهم أعدل من الأمة نفسها ، فاليها يترك الحرية فى تأييد مقصده الجديد أو نبذه وفحوى هذا المشروع أن يكون رئيس الجمهورية منتخباً لمدة عشرة أعوام ، وأن يساعده على ادارة الحكومة نخبة من الوزراء مؤاخذون أمامه فقط ، وأن يؤلف فى الحكومة مجلس لإعداد القوانين وعرضها على الهيئة التشريعية ، وأن يشكل مجلس من وجهاء الأمة يكون قيماً على القوانين وضامناً لحفظ حرية الشعب وان باريس وما جاورها من المقاطعات الفرنسية أصبحت فى حالة حصر . وانه قد أعيد حق اشتراك جميع أفراد الأمة فى الانتخاب

تحويل الجمهورية الى امبراطورية

وقد أقرت الأمة مقصدهُ بعد أربعة عشر يوماً بأغلبية عظمى ؛ وبذلك أصبح نابليون عاهلاً (امبراطوراً) فى كل مظاهره ، ولا ينقصه الاَّ هذا اللقب فقط . فاتخذ قصر التويلرى مقراً له ، ومنه أصدر فى ١٤ يناير سنة ١٨٥٢ (عن لسان الأمة) القانون الشامل لنظام الحكومة الجديد . وقد كان فى الحقيقة نظاماً استبدادياً مُمَوّهاً بعبارات الأخذ بناصر الأمة والدفاع عن الجمهورية . ولما لم يلق انفاذه معارضة تذكر ، لم يمض اكثر من عام حتى قابلت الأمة تحويل الجمهورية الى عاهلية (امبراطورية) فى ديسمبر سنة ١٨٥٢ بأغلبية سبعة آلاف ألف ، يقابلها أقلية لم تتجاوز ٢٥٠ ألف . وأقرت الدول ذلك فى بضعة أشهر ، فكان هذا دليلاً قاطعاً على انحلال عرا الحلف الرباعى . أما من عارض من الفرنسيين فى قلب نظام الحكومة أو اتُهم بالميل الى ذلك فانهم نالوا عقاباً صارماً بعد محاكمة صورية ، فحكم على ما ينيف على ١٥،٠٠٠ نفس بعضهم بالسجن وبعضهم بالنفى



نابليون الثالث

تأثر الفرنسيين

وبذلك نجح لويس نابليون فى تحقيق أمانيه واعتلى عرش عاهلية (امبراطورية) فرنسا باسم نابليون الثالث . ولا شك انه فى السعى وراء اطماعه الدنيئة ، هضم أعظم حق للشعب الفرنسى ، ولذلك لم تبرح هذه الجريمة اذهان الفرنسيين ، ولم يغفروها له قط

الفصل السادس

نمو روح الوحدة والاستقلال فى ايطاليا

ثورات ايطاليا

طالما كان الايطاليون يتوقون الى خلع النير النمسوى عن عاتقهم ، والى تأليف أمة قوية من ولاياتهم المتشعبة . واستمر شغبهم وهيجهم ردحاً من الزمن ؛ فانه فضلاً عن الثورات التى فشت فى شمالى ايطاليا وجنوبيها فى عامى ١٨٢٠ و ١٨٢١ ، شبت

ثورة ١٨٣١

فى سنة ١٨٣١ فى الولايات الوسطى نار فتنـة كانت أعظم شأنًا وأدوم أثراً من سابقتيها . وذلك ان صدى ثورة يوليه ما لبث ان سُمع فى ايطاليا ، حيث طرد الأهلون أمير مودينا ودوقة بَرما (مارية لويزة زوج نابليون بونابرت) من بلادهما ، وتلت ذلك فتنة فى ولايات البابا ، هاج بها الشعب فى بولونة وأعلن انتهاء سلطة البابا الدنيوية ، وانضم اليهم أهل سائر ولايات الكنيسة ما عدا رومية

اخمادها

وكان الثوّار ينتظرون المعونة من فرنسا لتنصرهم على النمسا إذا هى قامت باخماد أنفاسهم ؛ فخشى لويس فليب العاقبة ، وامتنع عن مساعدتهم . فأسرعت النمسا الى ارسال جيوشها لاخماد الثورة ، فأطفأت نارها وأعادت الأمراء المخلوعين الى عروشهم ، واستردّ البابا ولاياته بعد أن اشترطت عليه الدول العظمى الخمس إجراء اصلاحات عديدة ، أهمها جعل مناصب الحكومة فى يد غير رجال الدين . وعند ذلك أجْلت النمسا جيوشها من ايطاليا الوسطى

ثورة ١٨٣٢

ولما لم يفِ البابا بما وعد به استيقظت الفتنة ثانيةً فى ولاياته سنة ١٨٣٢ ، واضطر البابا الى استصراخ النمسا ؛ فسيَّرت جيوشها لمعونته ، وتدخلت فرنسا فى الأمر هذه المرة ، لا لمعونة الايطاليين ، بل بحجة حفظ التوازن الدولى . وقد بقى الدولتان فى أملاك البابا الى سنة ١٨٣٨ ، إذ انجلتا بعد نوم الفتنة ورجوع السلطة الاستبدادية فى ولايات البابا

فشل الثورات

وتمتاز ثورتا سنة ١٨٣١ وسنة ١٨٣٢ عن سابقتيهما بأن الأخيرتين كانتا قاصرتين على رجال الجيش ، فى حين ان ثورتى ٣١ و ٣٢ انضم اليهما الكثير من العمال والصناع ، وتجلّى فيهما عزم الشعب الايطالى على طرد النمسا من البلاد . على ان كل هذه الثورات لم تكن مبنية على أساس متين ، وكانت تعاليمها ومبادئها مستمدة من رجال طائفة الكربونارى وأمثالهم ممن لم يكن فى مقدورهم القيام بحركة عظيمة ، أساسها الاتحاد والمثابرة والارتكان على وسائل ناجعة أو مبدأ سياسى معيّن . الى أن قيّض الله لايطاليا نفراً من الكتّاب والخطباء ، بثّوا فى قلوب الشعب المبادئ السياسية

تأثير الفلاسفة

والاجتماعية والاخلاقية الصحيحة ، ونبهوهم الى وجوب اتحاد جميع الولايات الايطالية قلباً وقالباً ، حتى يحظوا بغايتهم المنشودة . وفى مقدمة هؤلاء « يوسف مزّينى » الذى يُعتبر المكوِّن الأول للوحدة الايطالية

مزينى

وُلد هذا البطل فى مدينة جنوة من أعمال بيدمنت سنة ١٨٠٥ ، فشب مشرباً فى قلبه حب بلاده ، طويل التفكير فى أحوالها . ولما بلغ أشده انضم الى جمعية الكربونارى لا لأنه يميل الى مبادئها ، بل لأنها تعمل على تحرير البلاد . وفى سنة ١٨٣٠ ظهر لحاكم جنوة أنه عضو فيها وخشى بأسه ، فقُبض عليه وسجن فى قلعة سافونا . ثمّ أُخلى سبيله بعد ستة أشهر على أن يغادر البلاد ، فبقى جلّ الأربعين سنة التالية يقاسى مرارة النفى فى فرنسا وسوسرة وانجلترة . إلاَّ أنه لم يفتر طول هذه المدة عن التفكير فى أحوال بلاده ، والعمل على توحيدها وتحريرها . ففى سنة ١٨٣١ أنشأ جمعية « ايطاليا الفتاة » التى كان لها أعظم شأن فى تكوين مجد ايطاليا الحديثة . أنشأها لتقوم بالعبء الذى لم تقدر جمعية الكربونارى بمبادئها العقيمة أن تقوم به . ومن كلام مزينى فى ذلك : ان الجمعية التى تأخذ على عاتقها مثل هذا العمل الجليل لا ينبغى أن تكون مؤلفة من مجرد سفاكين ، بل يجب أن يكون أساسها نشر التعليم والأخلاق الصحيحة ، وبث روح الواجب فى نفوس الشعب . ولما كان يعتقد فى قوة الشباب ومقدورهم على القيام بمهامّ الأمور اذا تولتهم قيادة حازمة ، جعل جمعيته قاصرة على من لم يتجاوز الأربعين ربيعاً ، وجعل من واجبات كل من انخرط فى سلكها أن يقوم بالدعوة اليها فى طول البلاد وعرضها ناشراً مبادئ الحرية الصحيحة ، وأن يندس فى وسط العمال والصناع ، ويأكل من مأكلهم ، ويعلمهم حقوقهم وواجباتهم ، ويذكّرهم بمجد بلادهم القديم ، وبالظلم الذى يئنون الآن تحته ، وأن يقابلوا بجأش رابط وقلب مطمئن ماعسى أن يصيبهم من ويلات السجن والتعذيب فى سبيل هذا الغرض المقدس . وكان مزينى شجاع القلب ، طاهر الذيل ، شديد العواطف ، سحاراً بكلامه للعقول ، خلاّباً للأفئدة . فكان لكل هذه المواهب أثر

جمعية ايطاليا الفتاة

مبادئ مزينى

صفاته

عجيب فى نمو جمعيته ؛ اذ لم يأتِ عام ١٨٣٣ الاّ وقد بلغ عدد أعضائها ٦٠٠٠٠ عضو، منهم البطل العظيم « غَريبَلْدى » الذى كان له فيما بعد اكبر شأن فعّال فى توحيد ايطاليا

وكان منهج جمعية «ايطاليا الفتاة» محدوداً معيناً، ينحصر لنيل الفوز فى التعويل على القتال عند سنوح الفرصة ، وطرد النمسويين من البلاد ، وعدم الاعتماد فى ذلك على معونة أحد من الأجانب بل على قوة الايطاليين أنفسهم

الاحزاب الايطالية

وكان مزينى يرى أنه لا يتمّ توحيد ايطاليا إلاَّ بوضع حكومتها فى يد جمهورية، مستنداً فى ذلك على أن الشعب هو الذى يُرجى منه القيام بهذه الحركة ، وأنه الى ممثليه وحدهم يجب أن يعهد بحكومة البلاد ، وعزّز ذلك الرأىَ بذكر ماضى ايطاليا ، وأن أبطالها العظام الذين أحرزوا لها المجد والفخار لم يكونوا من بيت واحد . وقد خالفه فى ذلك كثير من المفكرين ؛ فرأى « جُيوبِرْتى » (١٨٠١ – ١٨٥٢) أن الأولى بايطاليا أن تؤلف منها اتحاداً رئيسهُ البابا يضم ولاياتها مع بقاء كل منها مستقلة فى ادارتها الداخلية، ورأى « دازِجْلِيُو » (١٧٩٨ – ١٨٦٦) أن لانجاح لايطاليا إلاّ بحكومة ملكية ، ووضَعَ آماله فى ملك بيدمنت . وقد ظهر لكل من هذه الآراء حزب يؤيده . ومع تشعّب مبادئ القوم اطمأنت نفوسهم جميعاً لمبدإٍ واحد، وهو وجوب توحيد ايطاليا بشكلٍ ما وطرد النمسويين منها . وكان ملك بيدمنت « شارل ألبرْت » قد رضى عن مبادئ مزينى ، بل تشبّع بهـا ، حتى أنه لما سئل كيف يتمّ القيام بهذا العمل العظيم ، قال : ايطاليا تقوم به وحدها

بوادر الاصلاح

وقد ساعدت الحوادث على ابراز هذه الآمال الى حيز العمل . ففى عام ١٨٤٧ اعتلى عرش البابوية بابا دستورى (بيوس التاسع) ، فأدخل عدة اصلاحات فى ولايات الكنيسة ، وحذا حذوه حاكما تسكانية وسردانيا . وفى نابلى طالب الشعب الى الملك فردنند أن يمنح البلاد حكومة دستورية ؛ فرفض مطالبهم ، وأدى ذلك الى انفجار الثورة فى بلاده ، واضطر الى منحها حكومة دستورية . وقد تسرب

الهياج منهـا الى بعض الولايات الايطالية الأخرى ، فلم يترعرع عام ١٨٤٨ حتى أصبحت كل حكومات ولايات ايطاليا المختلفة دستورية ، اللهم الآ البندقية ولمبردية اللتين كانتا تئنان تحت النير النمسوى

تأثير ثورة ١٨٤٨ الفرنسية

هذه كانت حال ايطاليا فى أوائل سنة ١٨٤٨ عند ما سمع الأهلون أن الملكية الفرنسية قد سقطت وحلت محلها « الجمهورية الثانية » ، وأن ألمانيا فى فتنة ، وأن أهل ويانة نفسها شغبوا على الحكومة ، وأن « مترنيخ » شيخ المستبدين اضطر الى الفرار . فبعث كل ذلك روح الأمل والحمية فى نفوس أهل ميلان والبندقية ، فأشعلوا نار الفتنة وخرجوا على النمسا . عند ذلك أخذ الوطنيون فى طول البـلاد وعرضها يعتقدون أن ساعة استقلال بلادهم قد حانت ، فأسرع « مزينى » من منفاه الى ايطاليا لينخرط في سلك المتطوعين بقيادة « غريبلدى » الذى لم يلبث أن اشتهر اسمه وذاع صيته . وأعلن «شارل البرت» ملك سردانيا وبيدمنت رغبته فى تضحية حياته وحياة أولاده وجيشه وخزائن بلاده فى سبيل تحرير ايطاليا ، وأسرع الى اعلان الحرب فى مارس سنة ١٨٤٨ . وانضمت اليه تسكانية ونابلى وولايات البابا وغيرها بإلحاح الأهلين فيها ، وأخذت جنود الجميع تتدفق على لمبردية

غريبلدى

الحرب على النمسا

نشبت الحرب فساعد النمسا الحظ فى تلك الأزمة العصيبة فى قائد جيوشهـا «رادِتزكى» الذى رأى بثاقب فكره عوامل الضعف الكثيرة فى الايطاليين ، وتحقق أن لو صبرت النمسا على مقاومة أعدائها ، لكان النصر لا محالة حليفها فى النهاية

حرج مركز النمسا

وقد كان موقف رادتزكى الحربى فى أول الأمر يبعث على اليأس ، لأن جيوش بيدمنت والمتطوعين من لمبردية وتسكانية كانوا زاحفين من الغرب ، وجنود البابا ونابلى قادمين من الجنوب ، فى حين أن البندقية (التى أصبحت جمهورية على إثر ثورة فيها) كانت تهدد جيشه من الشرق . ذلك الى قيام أهل التيرول بثورة فى الشمال . وكان جيش رادتزكى ، على قلة عدده بالإضافة الى جيوش أعدائه، جله من الطليان ، أى ممن لا يوثق بهم فى هذه الحرب . لذلك لم يكن فى الحسبان أن يقف

حذق رادتزكى

أمام جيوش العدو لو حملت عليه حملة صادقة . غير أن اللمبرديين أهملوا مهاجمته أثناء تقهقره من ميلان ، وأبطأ جيش بيدمنت فى تقدمه اليه ، فتمكن رادتزكى من جمع كل قواه الحربية فى « لِنْيَاجو » و « مَنْتُوَا » و « بِشْيِيرَة » و « فيرونة » المعروفة « بالحصن ذى الأربعة الأضلاع » ، وهو موضع من أحصن المواضع الحربية فى أوربا . وانتصر الايطاليون فى بادئ الأمر ، فبث فيهم ذلك روح الحماسة والأمل؛

تخاذل الايطاليين

غير أن نجاحهم هذا ما لبث أن جر عليهم الخيبة والهزائم المتوالية . فان الوحدة الايطالية التى ظهرت بوادِرُها فى عالم الوجود سرعان ما أخذت تضمحل أمام الحسد الذى أخذ يدب فى نفوس حكام الولايات المختلفة . فكان البابا أول من تخلى عنها؛ فانه من جهة داخلَهُ الريب من بيدمنت ، ومن جهة أخرى قال إنه بمحاربته دولة كاتوليكية يشعر بوخز ضميره ، فضلاً عن تذبذبه فى سياسته الدستورية . ثم تسللت نابلى من الحرب . لقيام بعض المتطرفين من الأحرار بثورة جديدة فيها ، اتخذها الملك ذريعة للقضاء عليهم وإلغاء النظام الدستورى الذى منحه للبلاد من قبل

أما « رادتزكى » فانه لم يفتأ أثناء ذلك يُطَمْئِن النمسا ويمنّيها بالنصر ، ويطلب منها المدد ، رغم انتصار الايطاليين فى عدة مواقع وإعلان شارل البرت ملكاً على ايطاليا وتسرّبِ اليأس الى قلوب الوزراء فى ويانة . ثم أخذ يهاجم الطليان ، حتى

موقعة كستزا

انتصر على شارل ألبرت فى موقعة جليلة الخطب عند « كَسْتُزَّا » (يوليه سنة ١٨٤٨) اضطره فيها الى إخلاء ميلان وعقد مهادنة معه . وفى خلال ذلك قامت الثورة فى رومية ، فاضطر البابا الى الهرب الى « جايِيتا » من أعمال نابلى ، ثم أُعلنت الجمهورية فى كلتا رومية وتسكانية ؛ وبذلك هُدم كل أمل يرمى الى وحدة ايطاليا بزعامة بيدمنت . وبقى شارل البرت يجدّد الحرب وحده مع النمسا . فجاهد جهاد الأبطال ؛ ولكن على شجاعة جنوده وخضوعهم له ، كانت الهزيمة عليهم لسوء قيادتهم ونفاد ذخيرتهم؛ ولم يمض اكثر من أربعة عشر يوماً حتى قضى الأمر ، ودارت الدائرة على جيش بيدمنت

موقعة نوفارا

فى موقعة دموية عند «نوفارا» سنة ١٨٤٩ . وبعد هذه الهزيمة أبت نفس شارل البرت

أن يمضى شروط صلح مخزية ، فنزل عن الملك لابنه الفتى « فكتور إمنويل » رجاء أن ينال هذا من النمسويين شروطاً أخف مما يرضون به مع أبيه . ومع أن حياة شارل ألبرت خُتمت بالخيبة ، قد ساعد على وجود الأمل فى تحرير ايطاليا ووحدتها . وقد قال فيه « كفور » وزير بيدمنت الفتى : « ان شارل ألبرت قد منح ايطاليا بتضحية النفس والنفيس ما عوّضها كل خسارة ، ألا وهو لواء وطنى »

مآثر شارل ألبرت

وبعد انهزام شارل ألبرت وعودة الحكم النمسوى فى ايطاليا ، عزم انصار الجمهورية فى ايطاليا على أن يثبتوا فى مطاولة الحرب مع النمسا ، اذ قالوا ان الملوك قد خانتهم، فليبتغوا المعونة من الشعب . وعلى ذلك قام غريبلدى وأتباعه بأعباء الحرب . وقد رافق مزينى الجيش يحمل لواء عليه شعاره المعهود « الله والشعب » . ولكن لم يمضِ قليل حتى شجر الأمر بينه وبين غريبلدى وترك الجيش وولى وجهه شطر سوسرة . وبعد بضعة أسابيع تقهقر غريبلدى الى الحدود السوسرية ، ولكن بعد أن أظهر مقدرة عجيبة فى حرب الكرّ والفرّ حببته الى قلوب كل أنصار الحرية فى جميع الولايات الايطالية

عزيمة غريبلدى

الفصل السابع

حرب القرم

١٨٥٣ - ١٨٥٦

خرجت الروسيا من حربها مع الترك عام ١٨٢٩ ولها مكانة عظيمة فى البلقان . فأخذت مطامعها فى تلك البلاد تعظم، حتى جرّت بها وبأعظم دول أوربا بعد عدة سنوات الى خوض غمار حرب القرِم ، التى هى أول حرب أوربية عامة وقعت بعد حروب نابليون

مطامع الروسيا

على أنه سبق نشوبَ تلك الحرب حوادث ثانوية أخرى كانت فرنسا أول محرك

اسباب الحرب الاولية

لها . وذلك أنه لما أعلن نابليون الثالث اعتلاءه عرش العاهلية (الامبراطورية) الفرنسية لم يلق معارضة من دول أوربا العظمى ، اذ كانت كل من النمسا وبروسيا منصرفة عنه باضطراباتها الداخلية ، ووافقت الروسيا على ذلك مرغمة ، وبخاصة لمّا أظهرت انجلترة اهتماماً عظيماً بالاعتراف بالعاهلية الفرنسية . ومع أن القيصر اعترف بعاهل فرنسا ، رفض أن يخاطبه كعادة الملوك بلفظ « أخي » ، بل كان يخاطبه بلفظ « صديقي » ؛ فحنق لذلك نابليون أشد الحنق ، وعقد النية على الانتقام لنفسه من القيصر في أول فرصة سانحة . فلم ينشب أن حانت له الفرصة : وذلك ان فرنسا كانت قد حصلت لنفسها من الدولة العلية عام ١٧٤٠ على حق حماية المسيحيين الكاثوليك في الدولة العثمانيــة والاحتفاظ بمفاتيح بعض البقاع المقدسة في بيت المقدس ، وبمضى الزمن انتقل هذا الحق الى الكنيسة الرومية بمعونة روسيا

نابليون والقيصر

فرأى نابليون في عام ١٨٥٠ أن يحيي حق فرنسا في هذه الأصقاع ؛ وكان يأمل من وراء ذلك ترضية لرجال الدين في فرنسا واكتساب مودتهم . فأفلح السفير الفرنسي في الاستانة بعد مفاوضات طويلة في الحصول على اعتراف الدولة العلية بمطالب دولته . فاحتجت الروسيا على ذلك احتجاجاً شديداً . ولم يكن نابليون على الحقيقة شديد الاهتمام بالأمر ، بعكس نقولا الأول قيصر الروسيا ، رأس الكنيسة الرومية وصاحب المطامع الكبيرة في إرث الدولة العثمانية ، فانه اتخذ من الخلاف الذي شجر بينــه وبين فرنسا فرصةً في عام ١٨٥٣ لإباحة ذات نفسه الى السفير

روسيا و « الرجل المريض »

الانجليزي في بتروغراد فقال : « ان دولة الترك كالرجل الذي أضناه المرض، وليس من الحكمة أن يُترك حتى نُفاجأ بموته » . ثم اقترح أن يطرد الأتراك من أوربا ، وأن تُنشأ ولايات مسيحية في البلقان بحماية الروسيا ، وأن ترضّى انجلترة كِفاء ذلك بمصر وقبرس وإقريطِش . أما القسطنطينية فانها تبقى على الحياد (لا تملكها احدى

انجلترة تحمي الترك

الدولتين) . وكانت الحكومة الانجليزية لا ترى رأى القيصر في تقريب أجل الترك بهذه السرعة ، بل كانت ترى ان مصيرهم لا يُبَتّ فيه الاَّ بمؤتمر من الدول العظام . فلم تجبه الى مطالبه

منشيكوف في الاستانة

فلما أخذ القلق يستحوذ على نقولا وعيل صبره ، أرسل الأميرَ « منشيكوف » الى القسطنطينية بأوامر مشدَّدة يطلب فيها من الدولة الاعتراف للروسيا بحق حماية الرعايا الأرثوذكس في بلاد تركيا. فأظهر منشيكوف اهتماماً عظيماً بمهمته. وكان جندياً جافياً مخلصاً في خدمة سيده وروسيا المقدسة : يهزأ بالمؤتمرات والمجتمعات. وكان عدد هؤلاء الرعايا عظيماً جداً لغاية تجعل للقيصر حق التدخل في شؤون كل ولاية عثمانية تقريباً لو منُح هذه الميزة. لذلك أوعز « اللورد ستر َتفورد دِردْكلِف » السفير الانجليزي في الاستانة الى الباب العالي بأن يرفض مطالب روسيا ؛ فأصبحت انجلترة بذلك عاملاً قوياً في المسألة. وعند ذلك قطع منشيكوف المفاوضات وغادر القسطنطينية. فهددت الروسيا الدولة بسوق جيوشهـا على أقاليم الطونة ؛ فأجابتها على ذلك فرنسا وانجلترة بارسال أساطيلهما الى الدردنيل. فتدخلت النمسا في الأمر ونقلت المفاوضات بما كان لها من النفوذ بين الدول الى ويانة . وهنالك اتفق نواب الدول على ارسال مذكرة الى الباب العالي وبطرسبرج بما يرضى الطرفين ، فقبلت الروسيا ما جاء في تلك المذكرة. أما الباب العالي فتشكك في المقصود من نصوصها وطلب بعض تعديلات فيها . فلما عُرضت هذه التعديلات على حكومة بطرسبرج رفضتها، وأرسلت مذكرة أفصحت فيها عن الأسباب التي دعتها الى الرفض، ومنها علمت الدول العظمى ان الروسيا لا تريد النزول عن شيء من مراميها ؛ وقطعت انجلترة كل رجاء في حل المسألة بالوسائل السلمية

روسيا تهدد الترك

توسط الدول

ابتداء الحرب

وقد استمرت النمسا وبروسيا تبذلان جهد الطاقة في التوفيق بين روسيا والباب العالي ، فلم تفلحا . ثم طلب السلطان بموافقة اللورد سترتفورد الى الروسيا أن تجلى جيوشها من أقاليم الطونة، وأبلغها أنها إن رفضت ذلك عُدَّ عملها اعلاناً للحرب. ولم يلبث الجيش التركي أن عبر نهر الطونة ودارت بعض مناوشات خفيفة بين الجيشين، ومع استمرار بذل المجهودات في ويانة لحقن الدماء واعادة السلم الى نصابه ، ذهب كل أمل في ذلك حينما وردت الأخبار بأن الأسطول الروسي هاجم أسطولاً تركياً

وحطَّمه فى ثغر « سينوب » ؛ فأثار هذا الخبر خواطر الأمتين الانجليزية والفرنسية.

فرنسا وانجلترة

وكان نابليون وقتئذٍ تتوق نفسه الى محالفة انجلترة، ويتحرّق شوقاً الى تمثيل دور حربى أمام أوربا ، فاقترح أن تخترق الأساطيل الانجليزية والفرنسية البسفور (وكانت قد عبرت الدردنيل من قِبَل بدعوى حماية السلطان من قيام الفتنة فى بلاده) وتطالب السفن الروسية بالعودة الى «سبستبول» . وفى انجلترة كان الميل الى اعلان الحرب شديداً بحالة لم يكن فى مقدرة الوزراء مقاومتها. فأرسلت انجلترة وفرنسا انذاراً نهائياً الى الروسيا؛ ولما رفض القيصر الإجابة عليه أُعلنت الحرب فى ٢٧ مارس سنة ١٨٥٤

فزحفت الجنود الروسية ، وعبرت الطونة ؛ فردها الأتراك على أعقابها بمساعدة انجلترة وفرنسا؛ وبتراجعها اتفقت النمسا مع الترك على أن تحتلّ ولايات الطونة لحمايتها وكان ينتظر أن تضع الحرب إذ ذاك أوزارها، ولكن الانجليز والفرنسيين طالما كانوا يحقدون على الروسيا عظم توسيع أملاكها ، وخشوا عاقبة ذلك ، فأعلنت الحكومة الانجليزية أنها لا تغمد السيف قبل أن تحطّم كل الأساطيل الروسية التى فى البحر الأسود وتدك جميع الحصون والمعاقل التى تحميها

كذلك كان نابليون يرغب وقتئذٍ فى سنوح فرصة تُظهر فيها الجنود الفرنسية قوتها ومهارتها فى البر ، فاقترح أن تهاجم جيوش التحالف براً ثغر سبستبول مقرّ قوة

موقعة ألما

الروس البحرية والحصن المكين لأسطولهم. لذلك نزلت الجيوش الانجليزية والفرنسية فى القرم، وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٥٤ دارت رحى موقعة عنيفة عند «أَلْما» هُزمت فيها الروس واضطر بعدها القائد منشيكوف الى التقهقر الى سبستبول ، ومن بعدها

حصار سبستبول

الى أواسط القرم . ثم أُطلقت المدافع برّاً على سبستبول ، إلاّ أنهـا لم تؤثر قط فى تحصينات « تُدِلْبين » المهندس الروسى الذى هو بطل هذه الحرب بأسرها ، أما منشيكوف فانهُ بعد أن وصل اليه المدد أخذ يزحف على مواضع الأحلاف، فاشتبك

بلكلافا وانكرمان

معهم فى واقعة « بَلَكْلافا » فى ٢٥ اكتوبر ، ثم فى واقعة « إنْكَرمان » فى ٥ نوفمبر؛ وفى كلتا الموقعتين كان النصر فى جانب الأحلاف ، وان كابدوا فى ذلك

خسائر فادحة . وسيبقى ذكر موقعة « بلكلافا » فى أذهان الانجليز زمنًا طويلاً ، لِما حدث فيها من هجوم فرقة من الخيالة أطاعت أمراً صدر لها عن رئيسها غلطاً ، فسار الستمائة الفارس على أخر ما يكون من النظام الى « هاوية الموت »

مصائب الحلفاء

واستمر حصار سبستبول حتى حلّ فصل الشتاء ؛ وكان البرد قارساً، وهبّت ريح صرصر على احدى وعشرين سفينة للحلفاء فحطمتها ، وكانت تحمل طعاماً وملابس للمرضى والجرحى، فقاست الجنود الانجليزية أثناء شتاء ١٨٥٤-١٨٥٥ ما لا يُنسى ؛ ولا تزال انجلترة نفسها تذكر مع الخجل أن معظم ما قاسته الجنود تسبب عن اهمالها فى أخذ العدة الكافية، وعن جشع تجارها وحبهم للكسب، إذ أرسلوا الى الخنادق أغذية غير صحية وملابس غثة . وقد بذلت الآنسة « فلُرنْس نَيْتِنْجِيل » مجهودات عظيمة لتخفيف آلام الجنود بما قامت به هى وزمرة الممرضات المدربات اللاتى كنَّ برفقتها من تنظيم المستشفيات وتلافى الارتباك الذى استولى على القائمين بأمر المرضى فلم يكن فضلهن قاصراً على تخفيف ويلات ذلك الحادث، بل نبّهن بأفعالهن النافعة أولى الشأن الى منع وقوع أمثاله بعدُ فى الأصقاع الأوربية

أما الروسيا فكان ما قاسته أشد وأنكى . فقد كان القيصر يعتمد كثيراً على « القائدين » يناير وفبراير (الشتاء) فى القضاء على أعدائه ، ولكنهما حاربا بدون تحيّز فى كلا الجيشين ؛ فإن ما هلك من الأحلاف أمام سبستبول لم يكن بأكثر مما كابدته الروسيا فى جلب كل مدد وذخيرة لجيوشها عن طريق سهول «الإستِبْس» الوعرة القفرة ؛ حتى أفرغ نقولا كل سهم فى كنانته ، ولم تعد نفسه الشامخة تتحمل مرارة الهزيمة ؛ فمات كمداً فى مارس سنة ١٨٥٥ قبل أن يرى خذلان دولته الأخير

مصائب روسيا

ولما خلفه الاسكندر الثانى على عرش الروسيا تجدد الأمل فى عقد الصلح ؛ ولكن الحلفاء أبوا أن يغمدوا السيف حتى يستولوا على سبستبول ، فواصلوا القتال

دخول سردانية الحرب

وفى هذه الآونة فطن « كفور » رئيس وزراء سردانية الى أهمية اكتساب رضاء انجلترة وفرنسا فى تنفيذ مقاصده السياسية المستقبلة ، فأسرع بتسيير نحو ١٨٫٠٠٠

مقاتل الى القرم فى مايو سنة ١٨٥٥ . وقد قام الحلفاء بهجوم عظيم على سبستبول فردهم الروس . ثم سمت الجنود الروسية فى خلاص المدينة، فهزموا على يد الفرنسيين والطليان فى موقعة « شِرْنايه » فى ١٦ أغسطس ، ولم تكن إلاّ برهة قصيرة حتى أفلح الفرنسيون فى ٨ سبتمبر فى الاستيلاء على حصن «ملَكوف» مفتاح سبستبول فسقطت المدينة بعد حصار دام ٣٦٩ يومًا

سقوط سبستبول

معاهدة باريس

بعد ذلك دارت مفاوضات الصلح ، فتم الاتفاق وأمضيت «معاهدة باريس» فى مارس سنة ١٨٥٦، وأهم شروطها : (١) أن يكون البحر الاسود على الحيدة وألاّ يسمح للسفن الحربية من أى دولة كانت حتى الروسيا وتركيا بدخوله . (٢) وأن تبقى الملاحة حرة فى نهر الطونة . (٣) وأن تعترف الدول بأنّ تركيا دولة مستقلة ؛ لها ما لغيرها من الدول الأوربية . (٤) وأن لا تتدخل أى دولة فى شئونها الداخلية* (٥) وأن لا تحصّن الروسيا سبستبول ثانيــة أو تؤسس دور صناعات بحرية على سواحل البحر الأسود

اثرها

وقد كانت الدول تتوهم أنها نالت أغراضها من هذه الحرب ، وحلّت المسألة الشرقية حلاًّ نهائيًا ، إلاّ أنها فى الحقيقة لم تحظ بكل ذلك : فان تركيا من جهة بقيت على حالتها الأولى ، ولم تبرّ بما وعدت به من الاصلاح ؛ وروسيا من جهة أُخرى لم ترْع شروط حيدة البحر الأسود ، فلم يمض على ابرام المعاهدة أكثر من خمسة عشر عامًا (كانت دولة بروسيا بلغت فى خلالها أوج عظمتها) حتى شجع « بِسْمَرْك » الروسيا على اختراق حرمة تلك الحيدة ، ووعدها بالمساعدة فى ذلك مكافأةً لها على حيدتها فى الحرب الفرنسية البروسية . ولكن مهما قيل من ذلك فلا شك فى أن حرب القرم وقفت اندفاع السيل الروسى نحو الإستانة مدة من الزمان

ولما لم تجد الروسيا فى هذا الوقت لنفسها منفذاً لتوسيع رقعتها من هذه الجهة أخذت تبحث عن مسلك لها فى جهة أخرى

* أدخلت هذه المادة فى شروط الصلح لان السلطان كان قد اصدر عهداً يضمن حسن معاملة رعاياه المسيحيين

الفصل الثامن

الوحدة الايطاليــة

١٨٥١ - ١٨٦٢

اكتساب صداقة انجلترة وفرنسا

كان أعظم حادث هزّ أركان أوربا بعد حرب القرم ما قام به الايطاليون لخلع نير الاستعباد النمسوى وتوحيد بلادهم . ويلاحظ أن الدست الذى لعبته مملكة سردانية فى حرب القرم غريب فى بابه ، اذ لم يكن بينها وبين حكومة القيصر من العداء ما يدعو الى اعلان الحرب عليها ؛ ولكن « الكونت كفور » وزير فكتور إمنويل فطن بثاقب رأيه وبُعد سياسته الى أنه لا يتسنّى للايطاليين أن يكتسحوا النمسويين من ايطاليا وحدَهم ، وأن بلاده اذا أرادت أن تحقق أمانيها لنيل وحدتها فلا بد لها من حلفاء يشدّون أزرها . لذلك عقد كفور النيّة من أول أمره على اكتساب صداقة انجلترة وفرنسا

فكتور امنويل

تولى فكتور امنويل الملْك وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . وكان طلق المحيا رقيق المزاج ، شجاعًا شهمًا ، مقداماً فى ساحة الوغى، على جانب عظيم من السياسة ؛ يساعده فى تدبير شئون الملْك وزيره كفور الذى كان منقطع القرين فى عصره ،

كفور

فقد قيل فيه « إنّا لنجد فى التاريخ أمثالاً كثيرين لكبار الحكام والسواس والعلماء والأبطال، ولا نجد الاّ القليل من أمثال كفور الذى جمع فى شخصه كل هذه الصفات» وقد أخذ يعدّ بيدمنت فى الهدنة لتلك المعركة التى كان يعلم أنها لا محالة سائرة نحوها ؛ فبذل كل مجهود فى تنمية ينابيع ثروتها ، ووجه عناية خاصة الى سككها الحديدية وجعل خطوطها مطابقة فى قياسها للخطوط الفرنسية ، كذلك ابتدأ فى حفر أول نفق عظيم فى جبال الألب ليربط بلاده بفرنسا

وكان فكتور إمنويل فى أول الأمر يعتمد على حليفه نابليون الثالث ، الذى

ايطاليا ونابليون الثالث

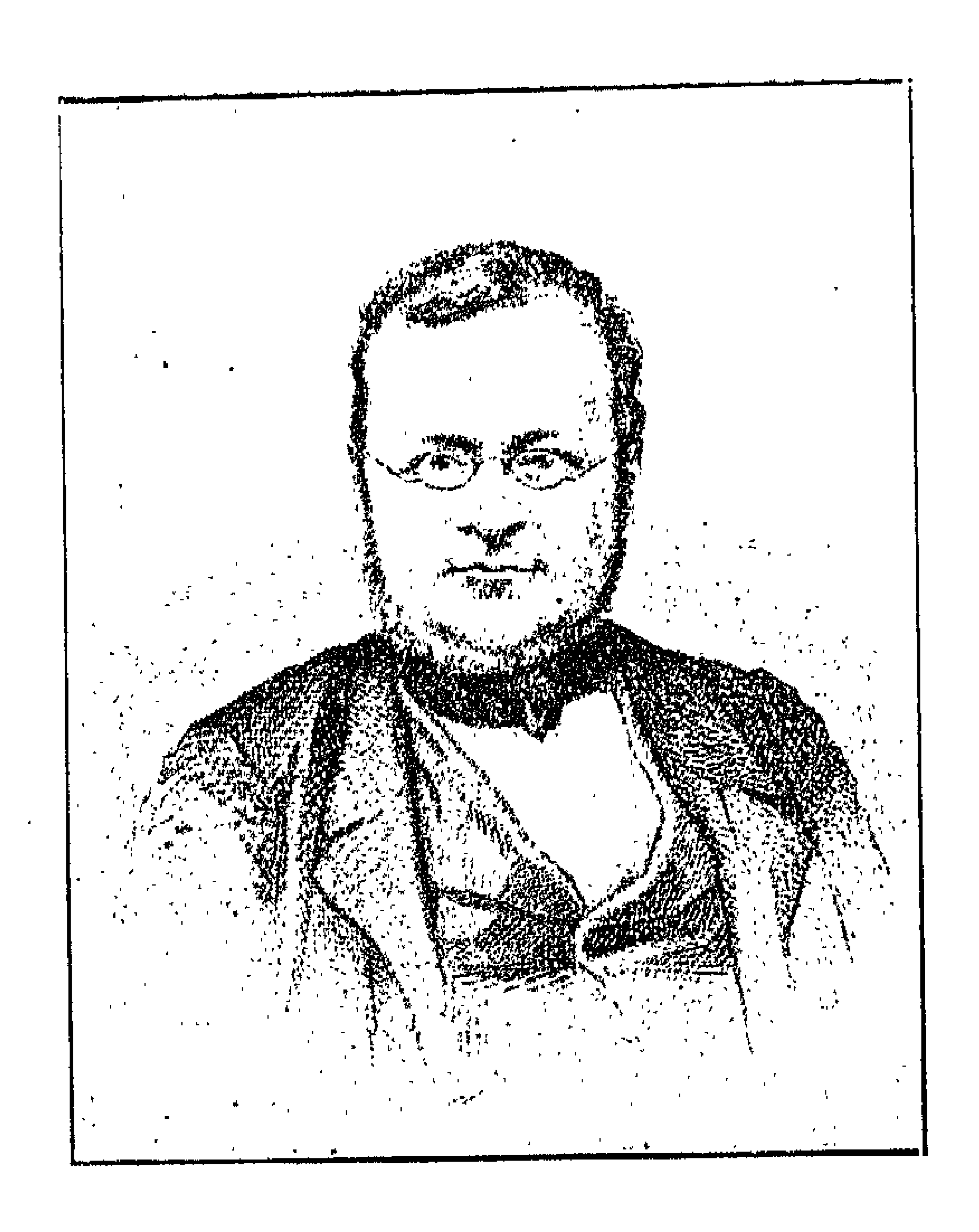
شارك الايطاليين فى ثوراتهم كأحد الأجناد أيام كان خامل الذكر ، والذى تدخّل بعد موقعة نوفارا فى أمر الصلح فى مصلحة الايطاليين . وفى عام ١٨٥٢ أى قبل أن يعتلى عرش العاهلية (الامبراطورية) وعَدَ رسولاً من قبل فكتور إمنويل أنه سيقوم بمساعدة ايطاليا عندما تتمّ اعادة قوة فرنسا اليها وتتحسَّن ماليتها. وقد حدث فى تلك المدة حادث ذكّره بوعده بمساعدة ايطاليا، وأغرى كفور بتنفيذ خطته ، وذلك أن ايطاليًا يدعى « أُرسينى » سعى فى اغتيال حياة العاهل نابليون فى يناير سنة ١٨٥٨ فلم يفلح ، ولكنه أرسل اليه رسالة كتبها ليلة اعدامه استحلفه فيها أن يمنح ايطاليا استقلالها ، وأكّد له أن حياته وسلام أوربا يبقيان فى خطر حتى ينفذ ذلك .

كفور ونابليون فى بلمبيير

وقد كان المظنون أن هذا الحادث يذهب بعطفه على ايطاليا ، ولكن خوفه من قيام المؤامرات الأخرى على اغتياله، مضافًا الى ميله الحقيقى، جعلاه ينحاز الى جانب الطليان . وعلى إثر ذلك ذهب فى يوليه سنة ١٨٥٨ الى «بلُمْبِيير» فى جبال الفوج بحجة الاستحمام فى مياهها، حيث قابل كفور؛ وبعد محادثة سرية دامت سبع ساعات وكتب مذكراتها كفور على منضدة فى نزل حقير ، اتفق الاثنان على الوسائل التى تغضب النمسا وتستفزها الى أن تبدأ هى باعلان الحرب ، وأن لا يعقد الصلح الاّ بعد اكتساح النمسا من أرض ايطاليا ، وأن يأخذ نابليون مكافأة له على ذلك نيس وسافواى مهد بيت بيدمنت الملكى ، وأن تتزوج «كلوتلدة» بنت فكتور إمنويل بأمير من أسرة بونابرت ، وقد وُطدت دعائم هذا الاتفاق بعدُ بتحالف دفاعى هجومى فى ديسمبر سنة ١٨٥٨

العمل على اثارة النمسا

أخذ بعد ذلك فكتور امنويل بمشورة وزيره كفور يسلك الطريق التى يجعل بها النمسا تظهر أمام أوربا بمظهر المعتدى؛ فأعلن عند افتتاحه مجلس الأمة سنة ١٨٥٩ انه لا يطيق صبراً على أنين الحزن والآلام الذى يسمعه فى كثير من بقاع ايطاليا ، وعلى إثر ذلك طلب كفور من المجلس الموافقة على ٥٠٠٠٠ جنيه لاتمام المعدات الحربية . فأجابت النمسا على ذلك بحشد جنودها فى لمبردية . وفى ذلك الوقت



كفور

قلق الدول

شعرت الدول بالاتفاق الذى أُبرم بين فرنسا و بيدمنت ، وأخذت تنظر الى المسألة الايطالية بعين القلق . وخشى كفور أن يرجع نابليون عن عزمه فتصبح قضية ايطاليا فى خبر كان ، وزاد فزعه عند ما اقترح نابليون على أوربا عقد مؤتمر دولى للنظر فى مظالم ايطاليا . وعند ذلك أشاع الايطاليون أنفسهم ان سردانية ليست على تمام الأهبة ، فخُدعت النمسا بهذه الأخبار واشترطت أن لا يُعقد المؤتمر الاّ اذا سرحت بيدمنت جيوشها ولم تمثَّل فى المؤتمر . فلم يرض بذلك كفور ، وسقط اقتراح نابليون

سياسة كفور

وبقى كفور يتخذ كل حيلة ويدس كل دسيسة لاظهار النمسا بمظهر المعتدى ، الى أن حانت له الفرصة يوم ١٩ ابريل ، اذ أرسل الى انجلترة نبأً برقيًا بأنه قد قرر تسريح الجيش حسب اشارة الحكومة الانجليزية التى كانت قد نصحت بذلك لكل فريق من الدول الثلاث . وكان كفور قد سوَّف تبليغ هذا القرار الى النمسا حتى عيل صبرها ؛ فأرسلت الى بيدمنت يوم ٢٣ ابريل بلاغًا نهائيًا تطلب فيه تسريح

مؤازرة الدول لايطاليا

الجيش وإلاّ أغارت عليها في الحال . فأبعدت بعملها العدائي هذا كل مؤازرة أو عطف من الدول . فرفض كفور ذلك الإنذار وهو يرقص طرباً ، وبذلك ابتدأت الحرب

ابتداء الحرب

فاجتازت الجنود النمسوية الحدود في ٢٩ ابريل ؛ وفي اليوم نفسه عبر جزء من الجيش الفرنسي جبال الألب ، ونزل جزء آخر منـه في جنوة من طريق البحر . وجاهر نابليون انه عازم على تحرير ايطاليا « من جبال الألب الى بحر الادريات »

وكان الشعب الايطالي قد تشبع بحل القضية الايطالية على هذا الوجه ، وأن لا تقوم لايطاليا قائمة الاّ على يد فكتور امنويل . واقتنع بذلك جُل الجمهور بين أنفسهم . وقد قام مزّيني يعارض في ذلك وفي الاستعانة بدولة أجنبية ، فلم يُصغَ اليه ، وأيقن الناس ان مهمته قد انتهت ، وان المسألة أصبحت عقدة سياسية حربية لا تفيد فيها المبادئ الخُلقية والفلسفة النظرية

منتبلو

وقد انتصر الفرنسيون في أول ملحمة عند « مُنْتبلُّو » في ٢٠ مايو ، ثم انتصر

بلسترو

الايطاليون في ٣٠ مايو عند « بَلِسْترو » في حين أن الأخبار كانت نترى بفوز غريبلدى وأجناده غير النظامية في الأصقاع التي حول البحيرات الايطالية

ماجنتا

وفي ٤ يونيه دارت رحى معركة « ماجِنْتا » العظيمـة التي فاز فيها الحلفاء وعلى إثرها دخل فكتور امنويل ونابليون مدينة ميلان دخول المنتصر ، واجتازا طرقاتها بين تهليل الطليان وترحيبهم

انضمام ولايات ايطاليا

عند ذلك أعلن فكتور امنويل ضم لمبردية الى بيدمنت ، ثم طردت تسكانيا حاكمها النمسوى وأعلنت انضمامها اليه ، وقفت اثرها مودينا وبرما بعد فرار حاكميهما وأعلنت رومانا سيطرة فكتور امنويل عليها لحين الفصل في الأمر . وقد تسربت الثورة الى مقاطعتي مَرش وأمْبِريا ، ولكن أخمدتها أجناد البابا المرتزقة

ولما رأى عاهل النمسا توالي الهزائم في جيوشه تولّى بنفسه قيادتها ، آملاً أن يهزم أعداءه قبل أن يصل اليهم المدد ؛ فالتقى الجمعان على حين غفلة في فجر ٢٤ يونيه

موقعة صلفرينو

على مقربة من قرية « صُلْفَرِينو » ، فدام القتال اثنتي عشرة ساعة اضطر بعدها

النمسويون الى التقهقر فى ريح زعزع لم تمكّن الفرنسيين من اقتفاء أثرهم . وتعدّ هذه الموقعة من اكبر معارك القرن التاسع عشر ، اذ اشتبك فيها اكثر من ٢٦٠٠٠٠ مقاتل يستخدمون نحو ٨٠٠ مدفع

تردد نابليون

وقد كان الظاهر من بوادر الأحوال ان النمسا تصبح على وشك الجلاء من البندقية ، ويستريح الايطاليون من وجودها بين ظهرانيهم . ولكن نابليون وقتئذ أخذ يستولى عليه الخوف والتردد ؛ اذ ظهر له أنه يكوّن بيده دولةً عظيمة على حدود بلاده ؛ فضلاً عن انه كان فى وجل من بروسيا ، التى بالرغم من ميلها الى خضد شوكة النمسا وإنهاك قواها ، كانت لا ترغب فى استفحال قوة فرنسا . لذلك فاجأ نابليون الطليان عند ساعة النصر بمقابلة العاهل « فرنسيس يوسف » فى ١١ يوليه فى « فِلاّفرَنكا » حيث عرض عليه عقد هدنة للمفاوضة فى أمر الصلح . وكان من أعذاره فى ذلك ان استمرار فرنسا فى احراز النصر يحمل بروسيا على مبارزتها فى ساحة الوغى

صلح فلا فرنكا

ولم يدون التاريخ ما جرى فى فلاّ فرنكا ، غير أنه يمكن الحكم بأن هذه اللحظة كانت خذلاناً عظيماً للنمسا ؛ اذ نال فيها نابليون أعظم أمنية لديه ، وهى المفاوضة رأساً مع عاهل شرعى . وأما الشروط التى اتفقا عليها فهى : أن تستولى بيدمنت على لمبردية وبرما ، وأن ترجع كل من تسكانية ومودينا الى حاكميهما ، وأن تبقى البندقية والحصن ذو الأربعة الأضلاع فى قبضة النمسا

وقعه فى ايطاليا

على ان هذه الشروط لم تكن ضربة قاضية على آمال فكتور امنويل فقط ، بل كانت إهانة له ؛ اذ أهمل فى عقد الصلح ولم يستشره نابليون فى شىء من شروطه . ففكر فى مزاولة الحرب وحده ، ولكنه ما لبث ان رأى استحالة ذلك ، واضطر الى

كفور والملك

قبول تلك المعاهدة المخزية . أما كفور فلم يقدر على كتمان غيظه ، فدخل على الملك وهو يتميز غيظاً والدم يكاد يقطر من وجنتيه ، وأعرب له بأوضح عبارة عن رأيه فى سلوك نابليون فى التخلى عن حلفائه خاسة ، ونصح للملك أن يرفض شروط الصلح

أو يعتزل الملك، أو يسلك أى طريق خالية من الامتثال الى هذه المعاهدة التى أبرمت من غير أن يستشار هو أو وزيره فيها، والتى فيها القضاء المبرم على آمال ايطاليا. ولكن الملك لم يصغ الى نصائحه، فاعتزل الوزير منصبه. وقد برهنت الحوادث عاجلاً أن يأس كفور لم يكن له أساس. وذلك أن ما أظهره الطليان من صدق العزيمة، وما أبداه كفور نفسه من المهارة، وما فطر عليه غريبلدى من الإقدام، فرط عقد ما قرره العاهلان. فانه لم يكد ينقضى على صلح فلافرنكا عام ونصف عام حتى اتحدت إمارات ايطاليا والجزء الأعظم من ولايات الكنيسة ومملكة نابلى وصقلية مع بيدمنت، وأصبح الكل مملكة واحدة: فتم اتحاد أواسط ايطاليا مع بيدمنت من غير حرب وبرغبة الأهلين أنفسهم بين أغسطس سنة ١٨٥٩ ومارس سنة ١٨٦٠؛ وتم ضم جنوبى ايطاليا فى إثر حرب قامت لغزو تلك البلاد من أغسطس الى ديسمبر سنة ١٨٦٠

بقاء الامل فى الوحدة

وبيان كل ذلك أنه إثر هدنة فلافرنكا صوتت هيئات امارات ايطاليا الوسطى بالاتحاد مع مملكة سردانية، بتشجيع سرّى من بيدمنت، فأعلن فكتور امنويل أنه لا يقبل ملك هذه الامارات الا بموافقة أوربا، فانضمت مودينا وروماننا وتسكانية بعضها الى بعض، وألفت منها جمهورية واستعملت النقود السردانية، ومحت كل المكوس التى بينها وبين بيدمنت، وانتخبت رئيساً لها من أقرباء فكتور امنويل. فأوجدت بذلك مشكلة جديدة فى المسألة الايطالية. فقد كان المفهوم للدول أن حكام هذه الامارات سيعودون الى عروشهم، فأخذ هذا الرأى يتضاءل أمام ما أبداه الأهلون أنفسهم؛ وعارض نابليون وبلمرستون فى ارغامهم بالقوة، وبقيت الحالة فى اضطراب الى أن عاد كفور الى منصبه فى يناير سنة ١٨٦٠. فرأى أن لا سبيل لحل المشكلة فى مصلحة ايطاليا الا بمعونة نابليون. ولكن نابليون لم يكن ليقدّم تلك المعونة الا بأجر؛ فحتم على الطليان التخلى عن نيس وسافواى اللتين كانت ايطاليا قد اتفقت معه على النزول عنهما لفرنسا مكافأة لها على مساعدتها فى نيل استقلالها. ولم يصرّ نابليون إثر معاهدة فلافرنكا على ضمهما، لأنه لم يفِ حينئذ بوعوده العريضة التى هى تحرير

تطوع الولايات الايطالية

معونة نابليون

ايطاليا من الألب الي الأدريات ». فرضى كفور فى هذه المرة بذلك ، وتمّ الاتفاق على أن يُعرض الأمر على الأهلين أنفسهم . فأعلنوا رغبتهم فى ذلك بأغلبية عظمى (ابريل سنة ١٨٦٠) ، وضُمت سفواى ونيس الى فرنسا . وكان من الاتفاق بين نابليون وكفور أن تؤخذ أيضاً أصوات أهل الجمهورية التى أُلفت حديثاً فى ايطاليا الوسطى فى اختيار الحكومة التى يريدونها ، فأعلنوا رغبتهم فى الانضمام الى بيدمنت بأغلبية عظمى (مارس سنة ١٨٦٠). فلم يرفض فكتور امنويل هذه المرة انضمامهم اليه ، ووافقت دول أوربا العظمى عليه فى ابريل سنة ١٨٦٠

انضمام الولايات الوسطى الى بيدمنت

غير أن كلّ ذلك لم يشف غليل كفور، فقال : « لقد وقفوا حجر عثرة فى سبيل تكوينى الوحدة الايطالية بطريق السياسة من جهة الشمال، ولكنى سأنفذ مقصدى بالثورة من جهة الجنوب » . وقد أُثر قوله توًّا ؛ فقد كانت نار الثورة متأججة فى صقلية ، وقلب غريبلدى يتحرق شوقاً الى المسير لنجدة أهلها وتنصيب نفسه زعيماً عليها باسم فكتور امنويل ، فطلب الى الملك وكفور أن يأذنا له بذلك ويمدّاه بالمساعدة، فلم يقبلا فى الظاهر إذ لم يكن بينهما وبين نابلى ما يدعو الى العداء، غير أنهما شجعاه سرًّا وأيداه بكل مساعدة تسمح بها الأحوال . فأقلع غريبلدى من جنوة فى مايو سنة ١٨٦٠ بألف من المتطوعين الأشداء ، وهم الذين عُرفوا فى التاريخ « بذوى القمصان الحمر » . فلم يمضِ شهر على حلولهم بالجزيرة حتى أصبحت فى قبضتهم ، واضطر جيش نابلى الذى كان بالجزيرة الى الجلاء عنها والرجوع الى نابلى وكان يبلغ نحو ٢٠٠٠٠ من الأشداء ؛ وجلا ملكها فرنسيس الثانى عنها . ولم يبق على الولاء لنابلى الا بضعة حصون ومدن ، لم تلبث أن اضطرت الى التسليم. وعند ذلك تفرغ غريبلدى الى الهجوم على نابلى نفسها، فاجتاز مضيق مسينى ، ثم دخل نابلى من غير أن يلقى أية معارضة . وهناك اعترف أهلها به زعيماً (دكتاتوراً) عليهم

غريبلدى فى الجنوب

وعندئذٍ داخل كفور الخوف ، واستولى عليه القلق مما عساه أن يأتيه غريبلدى بعد ذلك. وهو محاط وقتئذٍ بأتباع مزينى أنصار الحكم الجمهورى. وقد ضاعف خوفه

قلق كفور

اشتراكه امنويل فى الحرب

الثورة التى قام بها البابا فى رومية يدعو فيها الى القيام بحرب دينية على (العاهلية) الفرنسية، لحمده على نابليون منذ اتفق مع كفور على نقص أملاكه (رومانا). ورأى كفور أن وقت العمل لاتمام أمنيته قد حان ، فطلب الى الكردنال « انطونلّى » وزير خارجية البابا أن يسرح جنوده . ولما لم يقبل ذلك دخلت الجيوش الايطالية ولايات الكنيسة، فشتتوا شمل جنود البابا. ثم اجتاز فكتور امنويل الحدود الى نابلى، ليمدّ غريبلدى ويأخذ بزمامه، وكان وقتئذٍ فى مأزق حرج لاحتشاد جنود فرنسيس الثانى على نهر فُلْترنو

غريبلدى وامنويل فى نابلى

وكان غريبلدى قد اتفق وقتئذٍ مع الثوار فى هذه البلاد على أن يعرض أمر انضمام نابلى وصقلية الى مملكة ايطاليا على الهيئات الممثلة للبلاد ؛ فلم يسع هذه الأ الموافقة على الانضمام فى الحال . وفى خلال ذلك زحفت الجنود الايطالية وكسرت جنود فرنسيس الثانى فى عدة معارك ، حتى اضطر الملك والملكة الى الاحتماء بقلعة « جايتا » التى لم يستول عليها الطليان الآ عام ١٨٦١ . وقد تقابل فكتور امنويل وغريبلدى فى ٢٥ اكتوبر ، فحيا غريبلدى الملك باعتباره ملك ايطاليا. وبعد أربعة عشر يوماً دخلا نابلى راكبين جنباً بجنب عجلة واحدة

انضمام الولايات الجنوبية

ولما اجتمع البرلمان فى تورين فى ١٨ فبراير سنة ١٨٦١ كان يضم نوابًا من نابلى وصقلية وامبريا والمَرْش. وفى ١٧ مارس من العام نفسه أُعلن تأليف المملكة الإيطالية ؛ وبذلك صارت كل ايطاليا (عدا البندقية ورومية) دولة متحدة تحت حكم ملك بيدمنت فكتور امنويل

وكان غريبلدى يود من صميم فؤاده أن يضم رومية فى الحال. غير ان كفور، على اعتقاده ان رومية هى حاضرة البلاد الحقيقية ، فضَّل التؤدة على إشعال حرب

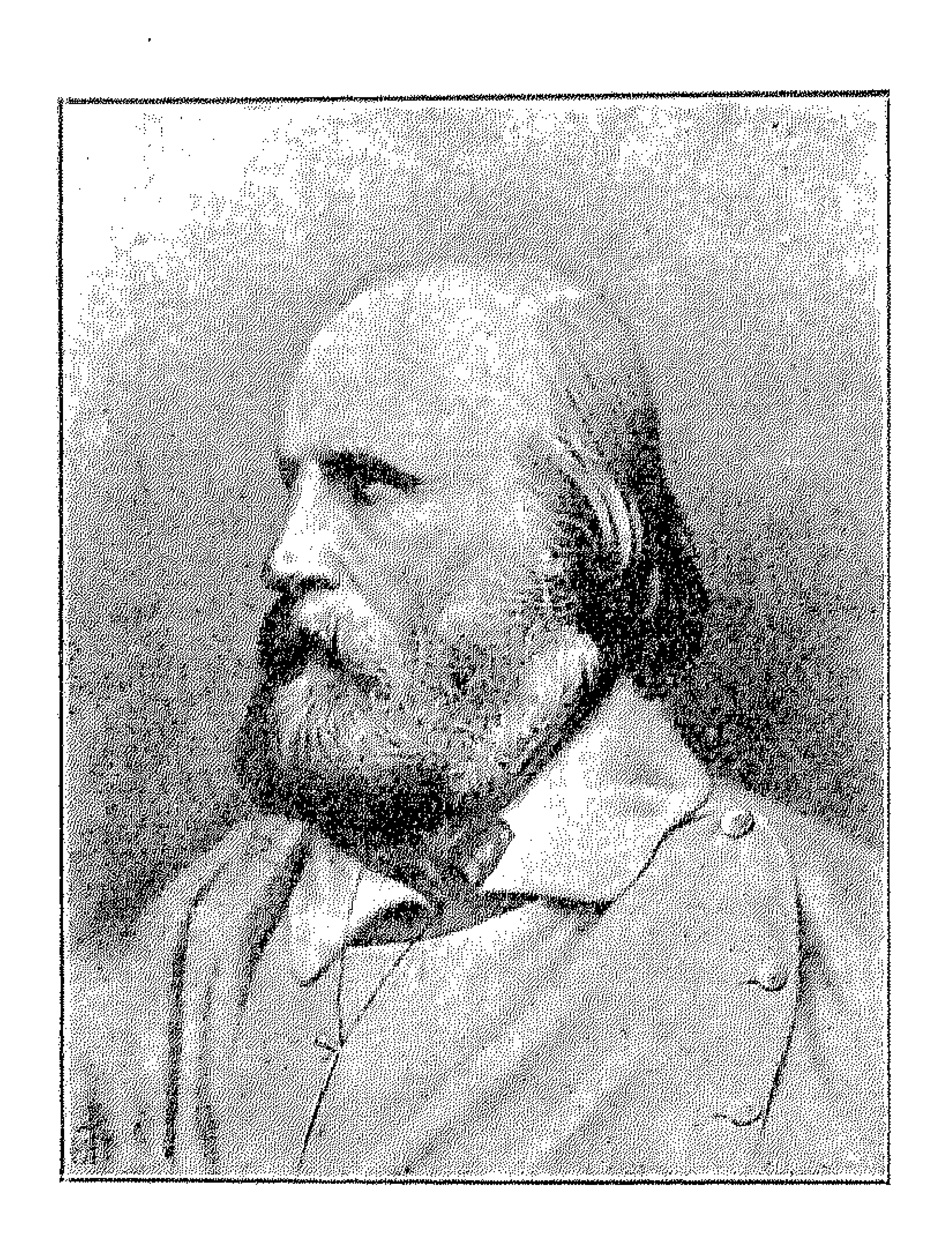
موت كفور

أوربية . وكان وقتئذٍ قد أنهكه النصب لما لاقاه من الآلام والأحزان والشدائد، فقضى سنة ١٨٦١ قبل أن يرى نضوج ثمرة أتعابه وآماله

ولا شك ان كفور كان اكبر قوة فعالة فى تحقيق الوحدة الايطالية . وقد عمل

على ذلك مزيني وغريبلدى وغيرهما كلٌّ بطريقته ؛ ولكن الى كفور يرجع الفضل في نهج الطرق السديدة واتخاذ الوسائل الفعّالة لتحرير ايطاليا ، وجعلها أمة قوية ذات مكانة بين الدول الأوربية

فضله هو وغريبلدى



غريبلدى

وتلت موته فترة كلها دسائس ومجادلات بين أتباع غريبلدى وأنصار مزيني والوزارة الايطالية ؛ الى ان عيل صبر غريبلدى ، فظهر فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٦٢ فى « بَلرْمو » ونادى بالناس : « رومية أو الموت » . واجتاز المضيق فى ٢٤ اغسطس على الرغم من اعلان الملك عدم رضاه عن عمله وتهديده إيّاه بأشد عقوبة يجيزها القانون . ثم التقت به جنود الملك عند « أسبرُومُنت » حيث جرح وأُخذ أسيراً

الملك وتسرع غريبلدى

فبقيت ايطاليا كذلك محرومة من حاضرتها الطبيعية حتى خذلان فرنسا سنة ١٨٧٠ إذ سنحت لها الفرصة للاستيلاء عليها . وذلك ان نابليون الثالث كان

رومية

نابليون يحمى البابا

قد رضى فى اتفاق أبرمه مع ملك ايطاليا سنة ١٨٦٤ بأن يجلى جنوده من رومية فى خلال عامين (وكانت تحتلها منذ أيدت البابا على عرشه سنة ١٨٤٩) ، على أن لا يهاجم فكتور إمنويل أملاك الكنيسة أثناء تلك المدة . وفى نهاية عام ١٨٦٦ غادر آخر جندى فرنسى رومية ، و بذلك تسنى للملك أن يعلن ان ايطاليا أصبحت خالية من كل نفوذ للأجانب . وكان غريبلدى (وقد أُطلق صراحه) لا يزال يتطلع الى جعل رومية عاصمة البلاد ، فسار فى العام التالى من خروج الفرنسيين على رأس عصبة من أتباعه الى المدينة ، ولكنه هزم وأبادت جنوده بعضُ فرق فرنسية سيّرها

جلاء الفرنسيين عن رومية

نابليون لمساعدة البابا ثانية . وقد كان رجوع الجنود الفرنسية الى ايطاليا ذريعة لتمزيق اتفاق سنة ١٨٦٤ ، ونادت الأمة بصوت واحد تطلب احتلال رومية . ومن حسن الحظ أنه لم يمض إلاّ فترة يسيرة حتى عادت الجنود الفرنسية الى بلادهم لقيام حرب السبعين ؛ فانتهزت ايطاليا الفرصة ، وزحف جيشها على رومية فدخلوها بعد مقاومة ضعيفة ، وأصبحت حاضرة للمملكة الايطالية المتحدة من سنة ١٨٧٠ [(١)] . أما البابا فلم يكن له ناصر وقتئذ ؛ وقد عرضت عليه ايطاليا شروطًا سهلة ، فرفض أن يفاوض

البابا فى الفاتيكان

حكومتها فى شىء ، ولم يقبل منها أى منحة . وتراجع الى الفاتِيكان ، وأعلن أنهُ سيبقى فيه سجينًا سُخطًا على الدنيا ؛ ومن ذلك العهد أصبحت سنّة البابوات أن لا يبرحوا أديم الفاتِيكان بعد اعتلائهم عرش البابوية [(٢)]

---

(١) يلاحظ أن البندقية لم تزل بعد فى يد النمسا وسيأتى ذكر ضمها الى ايطاليا فى مقام آخر

(٢) لم ينفسح المجال فى هذا الكتاب لذكر أخبار غريبلدى وحوادثه العديدة المدهشة فى ايطاليا وأمريكا الجنوبية وغيرها ، فليقرأ ذلك فى سيرته الشخصية

الفصل التاسع

ألمانيا وثورة سنة ١٨٤٨

١ — ✻ النمسا والمجر ✻

استبداد النمسا

رأينا فيما تقدم كيف كان انفجار الثورة فى فرنسا يعقبه وثوب الرعايا بالحكومات فى جميع أوربا تقريباً ، ولا سيما الاصقاع التى كانت النمسا تبذل الجهد لإخماد الآراء الدستورية فيها اذ كانت طبيعة بلادها لا تساعد على النشوء الدستورى ، لتكوّنها من شعوب مختلفة الأجناس واللغات والمذاهب ؛ فكان الحقد والتنافس بينهم فاشياً حتى كان أى تغيير يُنذر لا محالة بالخطر وسوء العاقبة . لذلك كان عاهلها يكرر جملته المشهورة كلما عُرضت عليه خطة ترمى الى التغيير وهى : « فلنتركها حتى تُنسى »

العاطفة القومية

ولكن نمو العصبية القومية فى دولته وميل الأمم التى كانت تتألف منهـا لنيل استقلالها وتكوين وحدة خاصة لكل منهـا ، لم تلبث أن تغلبت على كل ذلك ، وأبرزت تلك الأمانى الى حيز الفعل . فان خُطب « كشوط » التى أوقدت النار فى قلوب المجريين من قبل تُرجمت فى ويانة ، فأحدثت فيها هياجاً لم يلبث أن انقلب الى ثورة

الثورة فى ويانة

فلمـا علم « مترنيخ » بذلك النبأ لم يصدقه مطلقاً ، إذ كان يعتقد أن ويانة لا تخرج قط عن ولائها ؛ وبقى على اعتقاده حتى دهمته الحقيقة المرة وسمع صوت الثوار على باب حجرته . عند ذلك أفاق من غفلته ، وأسرع الى تقديم استقالته الى المَلك ، وغادر البلاد (فى مارس سنة ١٨٤٨) الى منفاه بانجلترة غير مأسوف عليه ؛

سقوط مترنيخ

وقوبل سقوطه بنفس الترحاب الذى قوبل به سقوط البستيل عام ١٧٨٩ . وكان وقتئذٍ قد طعن فى السن ، وذهبت عنه تلك المقدرة العظيمة التى امتاز بها من قبل . ولا شك أن آراءه أصبحت اذاً لا تلائم المبادئ الحكومية التى أخذت فى الانتشار فى ذلك العهد ؛ فلم تكن البلاد فى حاجة اليه . ولما كان اسمه مقروناً بذلك النظام

تأثير سقوطه

الذى كان يمقته الأهلون ، كان سقوطه اكبر مشجع لهم على العمل لنيل آمال البلاد الدستورية

فى المجر وبوهيميا

فنى إثر ذلك قامت المجر وانتخبت وزارة لنفسها ، وأصبحت مستقلة عن النمسا تقريباً ، لا تربطهما رابطة سوى ان حاكم المجر انتُخب من اسرة هبسبرج . ثم قفت أثرها بوهيميا فطالبت باستقلالها ؛ ويد النمسا وقتئذٍ مكبّلة عن مقاومتها ، إذ كانت كل قواها موجهة نحو ايطاليا ، فأجابتها الى معظم مطالبها

وكانت الحكومة النمسوية عند سقوط مترنيخ محاطة بالأخطار من كل جانب ؛ ففضلاً عن الثورات التى هاجتها عليها ايطاليا والمجر وبوهيميا وويانة نفسها ، كانت

منح الحكم النيابى

مسألة الوحدة الألمانية أخذت تشغل بالها ، لخوفها من استفحال نفوذ بروسيا فى ألمانيا ، فلم ترَ بُدًّا أمام ذلك من الخضوع لمطالب الثوار ، فأصدرت فى ابريل سنة ١٨٤٨ قانوناً بمنح مجلس نيابى يمثل جميع انحاء الدولة (ما عدا المجر) . غير أن ما ناله الثوار بذلك ما لبث أن أضاعه الشقاق والنزاع بينهم، فان روح الشقاق دبت بين الألمان والتشك والسلاف والمجريين ، اذ كان كل يريد أن يبسط سلطانه على الأجناس الأخرى ، وكانت المغبّة أن سادت الفوضى فى ويانة وفشا سوء النظام بحال

الهياج

لا يكاد يتصورها العقل ، حتى اضطر العاهل الى الانزواء فى « إنزبروك » ، ولكن سرعان ما انهالت عليه الملتمسات من المقاطعات تدعوه الى العودة الى حاضرة ملكه ، مشفوعة بالمواثيق بالولاء له والاستغاثة به من عسف غوغاء ويانة . عند ذلك محا العاهل بقايا النظام الإقطاعى المجحفة بالفلاحين ؛ فاستمال اليه تلك الطائفة التى كانت اكبر عون على انفجار نار الثورات ، فعاد نوابهم الى المجلس وهم على تمام الأهبة لمعاضدة من أنالهم ذلك الامتياز الجديد

الروح الرجعية

على أن حزب الرجعيين فى ويانة ما لبث ان استعاد نفوذه ، وحقد على المجر استقلالها بشؤونها الداخلية ، وبقى يترقب الفرص لاخضاعها مرة أُخرى لحكومة النمسا العليا، مُستعِزًّا فى ذلك بالشقاق الذى لم تخمد له نار بين شعوب تلك البلاد ، ولمّا كان العاهل فردننند قد أجاب ثوار المجر الى مطالبهم مكرهاً ، حرضه الرجعيّون على

الغدر بالمجر

النزول عن الملك لابن أخيه « فرنسيس يوسف » حتى لا يكون العاهل مقيداً بوعود أو عهود للمجريين . فلما رأى المجريون هذه الأحبولة لم يعترفوا بفرنسيس يوسف، وجاهروا بأنهم يحاربون لإرجاع ملكهم الشرعي فردنند

الحرب في المجر

وقد باء المجريون بادئ الأمر بالفشل، لأن انحياز كشوط للعنصر المجرى جعل السكسونيين والسلاف والرومانيين في المجر ينضمون الى جانب النمسا قلباً وقالباً ؛ فتوالت الهزائم على المجريين . ولكن لما أعلنت الوزارة النمسوية عزمها على وضع نظام حكومة مركزى يشمل جميع أصقاع الدولة آلم ذلك النبأ المجريين أشد إيلام ، فضاعفوا من عزيمتهم ، وحملوا على العدو حملة المستميت ؛ فكان النصر حليفهم ؛ وأخذ « جرجى » القائد المجرى الشهير يوالى نصراته على اعدائه . ولقد كان في استطاعة الزعماء المجريين المفاوضة في عقد صلح شريف لولا غلطة من كشوط ، فانه مع ما عرف عنهُ من اخلاصه للمجر وشغفه بها وميله الى تحريك أهلها الى نيل حريتهم ، برهن بتخبطه وقصر نظره في تلك الأزمة الشديدة أنهُ من اكبر خاذليها ، اذ لم يكن في مقدوره أن يقدر عظم القوى الأجنبية المسوقة على بلاده ؛ فاغتر بأن النمسا قد خارت عزيمتها ، ولم يقبل نصيحة المعتدلين غير مكترث بقوة « القيصر الحديدى » الذى كان ينتظر على الحدود بفارغ الصبر أى سبيل للتدخل في الأمر لتوطيد حق الملوك الالهى

اشتطاط كشوط

روسيا تغزو المجر

فلما أعلن كشوط خلع بيت آل هبسبرج عن العرش اتخذ القيصر من ذلك ذريعة للتدخل في الأمر ؛ فسيّر ٢٠٠،٠٠٠ مقاتل الى الحدود لمحاربة المجريين . فاستغاث كشوط بالسلاف ؛ فذهب نداؤه صرخة في واد ، لما كان يظهره من عدم العناية بحقوقهم ، ولم يلبث الجيش المجرى ان اضطر الى التسليم

ثم سلم القيصر نقولا تلك البلاد التي أخضعها بحد سيفه الى العاهل فرنسيس يوسف بلا شروط ولا تعويض ، فكان ذلك يوم حداد على المجر . وأرسلت النمسا القائد « هينو » الذى ترك اسمه ملطخاً في التاريخ بالوحشية لإخضاع البلاد وإرجاع الأمن

الفتك بالثوار فيها الى ربوعه . فشنق كل من له علاقة بالسعى وراء نيل الحرية ، وقضى بلا رحمة ولا شفقة على كل معالم الفتن فى البلاد

الرجوع الى الوراء أما ما كان من شأن حكومة النمسا فانها بعد أن خرجت ظافرة من هذه الحرب ومن مآزقها الأخرى فى ألمانيا وايطاليا عادت الى الكدّ لاخماد أنفاس الروح الثورية والحركة النيابية فى بلادها ، فألغت فى سنة ١٨٥١ الحكم الدستورى الذى منحته عام ١٨٤٩

٢ — ﴿ الاتحاد الألمانى ﴾

عدم الرضى عن الاتحاد الالمانى بينما كانت التقلبات الآنفة تجرى مجراها فى بلاد النمسا كانت روح الفتنة تسرى فى سائر أنحاء ألمانيا ؛ فان زعماء حزب الاصلاح الوطنى فى تلك البلاد أخذوا يطالبون بتغيير ذلك الاتحاد المفكك العرا الذى كان يربط الولايات الألمانية بعضها ببعض وتحويله الى اتحاد متين . فلما هبت نار الثورة فى فرنسا عام ١٨٤٨ انتشرت الفتن فى كل أرجاء ألمانيا ، وطالب الثوار بتأليف مجلس أمة يخول الشعب الاشتراك فى حكومة ألمانيا المتحدة . فاتفقت لجنة من زعماء الأحرار على عقد مجلس مؤقت ؛ فاجتمع هذا المجلس فى ٥ مارس سنة ١٨٤٨ فى مدينة فرنكفُرت . عند ذلك وقعت حكومات الولايات الألمانية وأمراؤها فى حيرة وسعى بعضها لارضاء أنصار الحرية بالوعود العريضة، ففى برلين حيث بلغت الفتنة أشدها استكان فردريك الرابع وجاوز الحد المعقول

استرضاء الامراء للشعوب فحل جيشه وألقى بنفسه بين يدى شعبه . فساد الأمل بأن الوحدة الألمانية ستُبعث الى عالم الوجود ، ورأى المجلس المؤقت أن يترك أمر البت فى نظام الحكومة الألمانية المقبل لمجلس أمة تنتخبه الأهالى . فاجتمع هذا المجلس فى ١٨ مايو ، وبعد أن وضع

مجلس الامة السلطة التنفيذية فى يد الأمير يوحنا النمسوى تساعده وزارة مؤاخذة، شرع فى العمل الذى اجتمع من أجله ، وهو سن دستور لألمانيا . ولما قضى عدة أسابيع فى تحديد حقوق الشعب الأساسية ، اعترضه أمر هام وهو مسألة حدود ألمانيا المتحدة والمركز الحقيقى الذى تشغله فيها كل من الدولتين العظيمتين المتناظرتين : النمسا وبروسيا

النمسا وبروسيا

فاقترح بعض الأعضاء أن تخرج النمسا بولاياتها المختلفة من ذلك الاتحاد، وان تعطى الزعامة الى بروسيا . فقابل فريق آخر هذا الرأى بالسخط، اذ كانوا يرغبون أن يضم الاتحاد كل ما يمكن ضمه من الولايات ولو لم تتكلم بالألمانية . أما ملك بروسيا فانه وافق على تكوين وحدة متينة تضم جميع الولايات الألمانية غير النمسوية ، مع وجود صلة عامة بينها وبين النمسا ؛ ولكن النمسا لم ترض بذلك وطلبت الى المجلس أن يعترف بالدستور الذى سنته أخيراً لكل أطراف دولتها ، وأن تدخل كل الدولة النمسوية بأجمعها فى الوحدة الألمانية ؛ واشترطت لذلك شروطاً تجعل لها السيطرة المطلقة والكلمة النافذة فى جميع البلاد . فرفض المجلس هذا الرأى ، وبعد أن أتم وضع الدستور انتخب ملك بروسيا عاهلاً (امبراطوراً) لألمانيا

وفى خلال مباحثة المجلس فى الدستور، قام نزاع بين ألمانيا والدانمرقة من جرّاء امارتى شلِزْوِج هلْستين* . فحسمت بروسيا هذا النزاع بعد محاربة الدانمرقة بدون مساعدة الولايات الألمانية ، فبرهن ذلك لتلك الولايات وحكامها على تضاؤلهم أمام قوى بروسيا الحربية . وقد خيَّب فردريك وليم آمال ألمانيا برفضه التاج العاهلى . وكانت حجته فى ذلك ان اسم هذا التاج لا يزال مقروناً فى أذهان القوم ببيت هبسبرج، وان قبوله له ربما أوقعه فى مشاكل مع النمسا، فضلاً عن انه يعتبره «تاج معَرَّة» مقدماً من مجلس ثورى لا من أُمراء الألمان أنفسهم . وعلى ذلك اكتفى بمنح بروسيا حكومة دستورية . ومن وقتئذٍ شُلَّت يمين مجلس فرنكفُرت ، فاستدعت النمسا منه مندوبيها وتلتها بروسيا ، ثم قفا أثرهما بعض الإمارات الأخرى ، وانتهى الأمر بانفضاض المجلس

ملك بروسيا يرفض تاج العاهلية

عند ذلك أخذ ملك بروسيا يعمل على ايجاد وحدة ألمانية فى شكل آخر يطابق مبادئه ومطامحه البعيدة . فقامت النمسا فى وجهه ، واشتدّ الخلاف بينهما الى أن اضطرت بروسيا ، ازاء قلة استعدادها الحربى وعظم دهاء « شوَرْزِنْبرج » وزير النمسا ونفوذه فى أوربا، الى مطاوعة النمسا فى اتفاق « أُلْمتْز » (نوفمبر سنة ١٨٥٠) ، فعدلت عن عزمها . وفى إثر ذلك اجتمع مؤتمر آخر فى فرنكفرت أعاد فى سنة ١٨٥١

اتفاق ألمتز

---

* انظر الفصل التالى

ذلك الاتحاد الواهى الذى أُلف فى سنة ١٨١٥

فشل الحركة

ولم تنسَ بروسيا ما لحقهـا من الخذلان فى أُلمتز ، وأخذت تستعد لليوم الذى تناقش فيه النمسا الحساب

ومما تقدم يظهر ان كل ما أحدثته ثورة سنة ١٨٤٨ من الحقوق الدستورية فى أوربا الوسطى (وفيها ايطاليا) أزالته الروح الرجعية وصار مؤقتاً كأن لم يكن

الفصل العاشر

توحيد شمالى المانيا

١٨٦٤ — ١٨٦٧

العوامل الممهدة لتوحيد المانيا

كان العون الأكبر فى اطلاق العنان للايطاليين فى سبيل تحرير بلادهم وتكوين وحدتها بوادر المعركة الهائلة التى كانت نارها على شفا الانفجار بين النمسا وبروسيا، والتى خُتمت بتكوين دولة ألمانية عظيمة من عدة امارات صغيرة لم يكن لها فى ذاتها شأن يذكر. على أنه طالما ساعدت العوامل من قبل على توحيد ألمانيا حتى أصبح أمراً محتماً ، ولم يبق لتحقيقه الاَّ الفصل فى أى الدولتين تكون لها الزعامة فى تكوين تلك الوحدة : النمسا أم بروسيا . وكان فردريك وليم (وِلْهِلْم) الرابع ملك بروسيا خائر العزيمة ؛ فأضاع كثيراً من مصالح بلاده فى سبيل استرضاء النمسا والتودد اليها على غير جدوى ، وكانت سياسته من اكبر العوائق فى تعجيل جعل بروسيا زعيمـة هذه الحركة

ضعف فردريك ولهلم الرابع

وفى سنة ١٨٥٨ اختلت قواه العقلية ؛ فتولى الوصاية عليه أخوه ولهلم أمير بروسيا.

ولهلم الاول

وبوفاته فى سنة ١٨٦١ خلفه على العرش بلقب « ولهلم الأول » . وكان متحلياً بكثير من الصفات التى تؤهله لإدارة الملك ؛ ومن أحسن ما اتصف به حسن اختياره لمستشاريه والعمل بمشورتهم

التعويل على الجيش

نظر ولهلم الى بلاده فرأى أن لا سبيل الى زعامتها على ألمانيا الا بجيش قوى . وقد علم ذلك منذ وقفت بروسيا مكبلة صاغرة يوم اتفاق «أُلمتز»؛ فوجّه جلَّ همه لإصلاح الجيش وزيادته زيادة تكفل تحقيق أمانيه . وكانت بروسيا أول مملكة أوربية أدخلت فى جيشها نظام الخدمة الاجبارية ؛ أدخلته سنة ١٨١٤ بفضل مشورة وزيرها العظيم « شارنهورست » . فكان الفردُ يقضى فى الجيش العامل ثلاث سنوات ، ثم يحال الى الاحتياطى لمدة عامين يمرَّن أثناءهما على الفنون الحربية عدة أسابيع كل عام ، ثم يحال الى (الرديف) بدوريه : الدور الأول (لَنْدِوير) من سن ٢٦ الى سن ٣٦ ، وفيه يمرّن قليلاً من وقت لآخر ، والدور الثانى (لَنْدستُرْم) يمتد الى سن الخمسين ولا يُستدعى فيه الفرد الاَّ للضرورة المتناهية . وقد بقى جوهر هذا النظام متبعاً مدة ست وأربعين سنة مع بعض تساهل فى تنفيذ التجنيد بنسبة عدد السكان ؛ فنى حين أن عددهم زاد من ١٢،٠٠٠،٠٠٠ فى سنة ١٨٢٠ الى ١٨،٠٠٠،٠٠٠ فى سنة ١٨٦٠ بقى عدد الجيش طول هذه المدة على ما هو عليه ، أى نحو ١٣٠،٠٠٠ جندى فى حالة السلم و ٢١٥،٠٠٠ فى حالة الحرب

النظام الحربى البروسى

فرأى ولهلم الأول أن هذه الحالة لا تضمن سلامة بروسيا ولا تلائم مراميها البعيدة . وكان يرى نفسه جندياً قبل كل شىء ، بل يراه أولَ جندى فى بروسيا وأولَ مسئول عن حمايتها ؛ فعقد النيــة على إصلاح الجيش إصلاحاً شاملاً مهما كلفه ذلك . ففى سنة ١٨٥٩ (أثناء وصايته) جعل على رأس وزارة الحربية « فُنْ رون » ، لِمَا عُرف عنه من طول الباع والحذق فى الفنون الحربية ، وقدم لمجلس الأمة سنة ١٨٦٠ مقترحاً لإصلاح الجيش يقضى بتجنيــد كل من قرر القانون تجنيده ، حتى يزيد بذلك عدد الجيش الى ١٩٠،٠٠٠ فى حالة السلم و ٤٥٠،٠٠٠ فى حالة الحرب . ولما كان ذلك يستدعى زيادة الأموال المقررة للجيش ، توقّف المجلس فى الموافقة على منح المال اللازم؛ ومن وقتئذ أخذ النزاع على ذلك يشتدّ بين الملك والمجلس ، حتى همَّ الملك بالنزول عن العرش فى أواخر سنة ١٨٦٢ ، مفضلاً ذلك على الرجوع

فن رون واصلاح الجيش

النزاع بين الملك والمجلس

الملك يستمين بيسمرك

عن عزمه الذى يرى فيه سلامة بروسيا ومجدها. وحينئذٍ وُفّق الى اسناد رياسة الوزارة الى رجل قوى الشكيمة ماضى العزيمة هو « أُتّو فُنْ بِسْمَرْك » ؛ فكانت توليته فاتحة طور جديد فى تاريخ بروسيا، بل فى تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر

حياة بسمرك الاولى

وُلد بسمرك فى سنة ١٨١٥ من أسرة نبيلة فى مقاطعة برندنبرج، وبعد أن تربى بجامعتى جوتنجن وبرلين انتظم فى سلك خدمة الحكومة الملكية؛ الاَّ أنهُ لم يلبث أن تركها عام ١٨٣٩، ازدراء لأعمالها المملة الخالية من كل مجال لتغذية العقل وظهور مواهبه. وإذ ذاك أقام فى ضيعة والده يدير شؤونها ويصلح حالها حتى سنة ١٨٤٧ اذ ابتدأ حياته السياسية بأن انتخب عضواً فى المجمع البروسى ببرلين. وفى سنة ١٨٥١ انتخب ممثلاً لبروسيا فى مجمع الاتحاد الألمانى الذى أُعيد تأليفه وقتئذٍ فى « فرنكفرت » فبقى فيه ثمانية أعوام خبر فيها أحوال ألمانيا ووقف على مرامى أُمرائها وساستها وأميال أهلها. وفى سنة ١٨٥٩ نصب سفيراً فى بطرسبرج، فبقى فيها ثلاثة أعوام الى أن تقلد مثل هذا المنصب فى باريس فى سنة ١٨٦٢، فلم يمكث فيه الا بضعة أشهر حتى استدعاه ولهلم الأول لتقلد رياسة الوزارة البروسية. وقد كان لتوليه منصب السفارة فى بطرسبرج وباريز أكبر فائدة فى وقوفه على مجارى السياسة الأوربية، وبخاصةٍ وقت ان كان بباريز. فانه عجم عود نابليون الثالث الذى خاض معه فيما بعد غمار الحرب التى كللت مجهود بروسيا بالنجاح وأوثقت آخر عقدة فى الوحدة الألمانية

مبادئ بسمرك

وكان « بسمرك » منذ ابتدأ حياته السياسية يرى أن مصلحة بروسيا فى تأييد نفوذ الملك بكل الوسائل، ومحاربة الآراء الثورية بل الروح الدستورية. ولذلك كان راضياً عن سياسة النمسا. فلما اتضح له سوء نياتها وسعيها ورأى زعزعة مكانة بروسيا فى ألمانيا، انصرف عنها؛ وصار يعتقد أن لا سبيل الى رقى بروسيا إلاَّ باخراج النمسا من زمرة الاتحاد الألمانى، والعمل على توحيد ألمانيا على يد بروسيا ولمصلحة بروسيا. كذلك سخط على الاتحاد نفسه، الذى هو من وضع النمسا ولا غرض لها منه إلاَّ بسط نفوذها فى المانيا. وقطع بسمرك كل رجاء فى الانتفاع به بالوسائل السلمية لبسط

سياسة «الدم والحديد»

سيادة بروسيا على المانيا ، وصار يعتقد أن لا سبيل الى ذلك الاّ بالقوة الحربية التى كان يرمز اليها « بالدم والحديد » ، وأن ما عدا ذلك من خُطَب أوكلام أو مِنَح دستورية لا يُقيم وَزنًا ولا يجدى نفعًا

هذه هى سياسة الرجل الذى استدعاه وِلهلم الأول سنة ١٨٦٢ ليشدّ به أزره فى أزمته العصيبة مع المجلس النيابى فى بروسيا ، فسار الاثنان فى طريقهما بلا خوف ولا وجل ، فلم يعبأا بمقاومة المجلس واستمرا فى انفاذ خطتهما ، حتى تم لهما زيادة الجيش على الوجه المطلوب ، وإذ ذاك شرع بسمرك يأخذ عدته لتوحيد ألمانيا بالطريق التى يراها مؤدية الى ذلك . ولما كانت هذه تنحصر فى سياسة « الدم والحديد » فصل فى الأمر بثلاث حروب : الأولى على الدانمرقة ، والثانية على النمسا ، والثالثة على فرنسا وكان من اكبر شواغله قبل إشعال نار هذه الحروب اتخاذ الوسائل لمنع تدخل الدول الأوربية فى المسألة الألمانية

ثلاث حروب

ضمان حيدة الروسيا

وفى عام ١٨٦٣ – ١٨٦٤ سنحت له الفرصة لتحقيق هذه الأمنية ؛ اذ انفجرت نار الثورة فى بولندة على إثر اصلاح قام به القيصر ولم تكن البلاد وقتئذ مستعدة له (وختمت الثورة بإخماد أنفاس البولنديين وإلغاء كل الامتيازات التى حصلوا عليها من قبل) . فلما قامت هذه الثورة أسرعت بروسيا الى مساعدة الروسيا فى اطفائها وبذلك ضمنت حيدة الروسيا فى المعارك المقبلة

أسباب الحرب على الدانمرقة

رأى بسمرك بعد ذلك فى الحرب مع الدانمرقة فرصة لتوسيع رقعة بروسيا وللاستعداد من بعيد لمنازلة النمسا ، وذلك أنّ ملك الدانمرقة كان أميرًا على إمارات « شِلزْوِج » و « هُلْستَين » و « لُونْبرج » بطريق الوراثة ، وكان الدانمرقيون يتطلعون الى إدماج هذه الامارات فى بلادهم جملةً ؛ غير أن هلستين ولُونبرج كانتا من جهة أخرى جزءًا من « الاتحاد الألمانى » ، وشلزوِج مرتبطة بهلستين تمام الارتباط . وكان سكان هلستين ولونبرج ونصف أهل شلزوج كلهم ألمانيى العنصر ؛ أما النصف الآخر من سكان شلزوج فكان من الدانمرقيين ؛ وكان الألمان فى المانيا

مشكلة شلزوج هلستين

وألمان شلزوج يرغبون فى ضم هذه الامارة الى الاتحاد الألمانى، فى حين أن السكان الدانمرقيين فيها والدانمرقة نفسها تريد ضم الامارة الى الدانمرقة . فحدث من جراء ذلك حرب سنة ١٨٤٨، غير أن الصلح الذى أبرم وقتئذ لم يكن حلاً نهائياً للمشكلة لذلك لم يمض طويل زمن حتى ظهرت فى المسألة مشكلات جديدة ، اذ كان يُنتظر قريباً أن يتولى عرش الدانمرقة امرأة ، وكانت الامارات الآنفة الذكر لا تزال تتبع القانون الذى يحرم على النساء اعتلاء العرش ؛ فاذا اعتلت أريكة الدانمرقة امرأة ، وبقيت الامارات تحت سيادتها ، كان فى ذلك خرق لقوانينها وفتح لباب القضاء على استقلالها الداخلى . لذلك خرجت الامارات على الدانمرقة ؛ واستصرخت الاتحاد الألمانى ، فتولى الدفاع عن قضيتها . عند ذلك خشيت الدول ازدياد نفوذ المانيا فى

معاهدة لندن

البحر البلطى ، فتدخلت فى الأمر وأبرمت « معاهدة لندن » سنة ١٨٥٢ ، وبها أقرت بقاء الامارات تحت سيادة الدانمرقة ، على أن تمنحها استقلالاً داخلياً . وكان دوق اوجستنبرج (الوارث الوحيد من الذكور من بيت الملك الدانمرقى) قد نزل عن حقه فى الامارات ؛ وأخذ حزب الدانمرقيين فى شلزوج يبذل قصارى جهده لضم امارتهم الى الدانمرقة ، وصارت أسباب النزاع بينه وبين الحزب الألمانى يستفحل أمرها

الدانمرقة تعيد تحريك المشكلة

وفى أوائل عام ١٨٦٣ شرع فردريك السابع ملك الدانمرقة فى اتخاذ الوسائل الممهدة لضم هذه الامارة الى الدانمرقة . فاحتجّ الاتحاد الألمانى على ذلك . ولكن فردريك لم يعبأ باحتجاجـه ، وشجّعه على ذلك اشتغال الدول بأمر بولندة . وفى هذه الأزمة لحقه الحمام . فلما خلفه كرستيان التاسع أيّد أعمال سلفه فى الامارات ووافق على منح البلاد دستوراً يقتضى ضم شلزوج الى الدانمرقة . عند ذلك قام «فردريك سندربرج أوجستنبرج» يطالب بملك الامارات ، بدعوى أن نزول والده عن حق لا يؤثر فيه . وأيده الاتحاد الألمانى فى دعواه ، وأعلن الحرب على الدانمرقة

ورأى بسمرك فى ذلك فرصة لتوسيع رقعـة بروسيا ، وبذر بذور حرب بينها

وبين النمسا ؛ فلم يوافق على عمل الاتحاد ، ونهج طريقاً آخر يكفل به تنفيذ خطته ، فاقترح على النمسا أن تشترك مع بروسيا فى التدخل فى الأمر ، بحجة المحافظة على معاهدة لندن . وكانت النمسا تنظر شزراً الى سياسة نابليون فى ايطاليا . وتود مصادقة بروسيا ؛ فوافقت على اقتراحه فى فبراير سنة ١٨٦٤ . ولم تلبث الجيوش النمسوية والبروسية أن اجتازت الحدود . وكان من المنتظر أن تحجم الدانمرقة عن الحرب ، على أمل أن تتولى الدول الدفاع عن قضيتها ، ولكن بسمرك فطن لذلك بطبيعة بديهته ، فأذاع بين رجال حكومة الدانمرقة أن انجلترة ستسارع الى نجدتها ان هى أعلنت الحرب . فخدعت الدانمرقة بهذا التمويه ، وتمكن بسمرك من تنفيذ خطته .

الحرب على الدانمرقة

وكانت هزيمة الدانمرقة أمراً مقضياً ، إذ لم يمض أكثر من أربعة عشر يوماً حتى جلا الدانمرقيون عن الإمارات ودخل الحلفاء شبه جزيرة جَتْلَنْدة . وعند ذلك اضطر ملك الدانمرقة الى الخضوع ، وأمضى صلحاً فى أكتوبر سنة ١٨٦٤ نزل به عن كل حقوقه فى الامارات ، وفوض أمرها الى النمسا وبروسيا ؛ فاتفقتا على احتلالها بالاشتراك

النمسا وبروسيا تحتلان الامارات

عند ذلك فطنت النمسا الى أن بروسيا استعملتها آلة لأغراضها فى هذه الحرب . فأخذت تعاضد دوق اوجستنبرج فى مطالبته بعرش الامارات . وكذلك كان الاتحاد الألمانى شديد الحرص على الأخذ بناصره ، وساعده حزب بروسى كبير ، بل ولى عهد بروسيا نفسه . ومع كل هذا كان بسمرك قد عقد النية من أول الأمر على ضم الامارات الى عرش بروسيا ، لتستولى دولته على ثغر كيل ، حتى يتسنى لها حفر خليج يجعل لبروسيا منفذاً من البحر البلطى الى بحر الشمال (وقد تم حفر هذا الخليج الآن قبيل الحرب العظمى ، وله عند الألمان شأن كبير)

مرامى بسمرك

وبقى احتلال الإمارات بالاشتراك مصدر مشاحنات مستمرة بين النمسا وبروسيا . ولما لم تكن كلتاهما على تمام الأهبة لخوض غمار الحرب ، أبرم بينهما اتفاق « جَسْتَيْن » فى ٥ أغسطس سنة ١٨٦٥ على أن تحتل بروسيا شلزوج ، وتحتل النمسا هلستين . أما لونبرج فضُمت جملة الى أملاك بروسيا بغرم دفعته للنمسا . ولا شك أن هذا

اتفاق جستين

غرض بسمرك منه

الاتفاق كان فوزاً سياسياً لبروسيا ، إذ به أسقطت كل حقوق أمير أوجستنبرج فى الامارات . وصارت كل معاضدة من جانب النمسا لهـذا الأمير تعد خرقاً للعهود المبرمة بين الدولتين

بسمرك ونابليون

وكان بسمرك فى هذه الآونة يمهّد السبيل للمعركة المقبـلة مع النمسا . فرأى أن أول خطوة تُتخذ لذلك هى إلزام فرنسا الحيدة فلم يلق فى ذلك صعوبة تذكر. اذ كان هوى نابليون فىأن تنشب الحرب بين النمسا وبروسيا . حتى إذا ماضعفت المانيا تيسرله أن يستعيد الىفرنسا حدود الرين . فلما اجتمع ببسمرك فى « بيارِتز » خدعهُ ذلك الوزير الماكر من غير كبير عناء ، وجعله يعتقد أنه سيكافئه على حيدته

بسمرك وايطاليا

ببعض تعديل فى الحدود الفرنسية . ثم وجه بسمرك نظره نحو ايطاليا . فعقد معها محالفة تجارية ؛ فسبق النمسا فى ذلك ، فحنقت عليه وأخذت تثير القلاقل فىهلستين لمؤازرة أمير أوجستنبرج . فاتهم بسمرك النمسا بعدم مراعاة العهود المبرمة بينهما . ونقض التحالف الذى كان بين الدولتين . ثم أبرم معاهدة رسميةبين بروسيا وايطاليا رضيت فيها ايطاليا بأن تعلن الحرب على النمسا ، بشرط أن تدخل بروسيا الحرب مع النمسا فى مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ، وتكون مكافأة ايطاليـا أخذ البندقيـة من النمسا

اثارة غضب النمسا

وكان همّ بسمرك وقتئذٍ أن يحقّق نشوب الحرب قبل انقضاء ثلاثة الأشهر ، فوضع خطة لإصلاح الاتحاد الألمانى أخرج بها النمسا من الاتحاد جملة . فلم يقبل المجمع خطته ، ولكنها استفزت غضب النمسا . وفى أول يونيه سنة ١٨٦٦ حدث ما كان بسمرك ينتظره بفروغ صبر . إذ عرضت النمسا على المجمع الألمانى النظر فى مسألة شلزوج هلستين ، فأسرع بسمرك الى تسيير الجنود البروسية لاحتلال هلستين بحجة أن النمسا بعملها هذا نقضت معاهدة جستين ، فضلاً عن مساعدتها لأمير أوجستنبرج . فالتجأ أوجستنبرج الى الاتحاد الألمانى مستغيثاً من بروسيا ، فقابلت بروسيا ذلك بأن أوضحت للمجمع أن كل امارة مستقلة فى شمالى ألمانيا تجرؤ على

نشوب الحرب

الأخذ بناصر أوجستنبرج أو النمسا لا بد أن تفقد وجودها، وتكون قد بحثت عن حتفها بظلفها، اذا كانت الغلبة فى الحرب لبروسيا. فلما عرض الأمر على المجمع كانت أغلبية الآراء فى جانب النمسا؛ ولكن بروسيا كانت على تمام الأهبة: فكان جيشها مدرَّباً على أحدث الطرق العلمية، وعلى رأسه « فُنْ مُلْتِـكه » الذى هو أعظم قائد أنجبته أوربا الى ذلك الحين منذ عهد نابليون، وأولُ من نبغ فى استخدام السكك الحديدية والخطوط البرقية فى تحريك الجيوش. أما الجيش النمسوى فكان ردىء العدة ليس على رأسه قائد حاذق. لذلك لم تكد الجيوش البروسية تجتاز الحدود فى يونيه سنة ١٨٦٦، حتى استولت على سكسونيا وهنوفر. وسلم اليها جيش هنوفر بأسره

موقعة سادوة

ثم استمر البروسيون فى الزحف لملاقاة النمسويين؛ فالتقى الجمعان فى بوهيميا فى ٢ يوليه عند « سادُوَة » حيث دارت موقعة من أكبر المواقع الحربية التاريخية انتصر فيها البروسيون انتصاراً مبيناً. وكان السبب الأعظم فى فوزهم فى هذه الملحمة خسد البافاريين للنمسا وإحجامهم عن القتال أثناء المعركة. وقد قال ملتكه للملك فى ذلك: « ان جلالتكم لم تفوزوا فى موقعة فقط، لا بل ظفرتم فى الحرب بأجمعها »

نصيب ايطاليا من الحرب

أما ما كان من شأن ايطاليا فانها برَّت بوعدها فى محاربة النمسا، ولكنها قُهرت براً فى « كَسْتُزَّا » (٢٤ يونيه) وبحراً فى « لِسَّا » (٢٠ يوليه). ومع ذلك أفادت بروسيا بشغل جزء لا يُستهان به من الجيش النمسوى

بسمرك يستوقف الجيوش البروسية

وأرادت الجنود البروسية بعد ذلك أن توالى نصرها؛ فزحفت على ويانة، حتى كادت تقف على أعتابها. ولكن بسمرك استوقفها، اذ رأى أن ذلك يؤدى الى مشكلات مع فرنسا قبل أن ينفذ خططه التى وضعها لتوحيد ألمانيا؛ بل أخذ يفكر وقتئذٍ فى إعادة روابط الود والمصافاة بين بلاده والنمسا، ليضمن نجاحه فى المعركة المقبلة مع فرنسا. لذلك أصر على ابرام الصلح بشروط لا تحطّ كثيراً من شرف النمسا

معاهدة براغ

وكرامتها؛ فأُمضيت معاهدة « براغ » فى ٢٣ اغسطس سنة ١٨٦٦ بين الدولتين، وبها ضمَّت بروسيا الى أملاكها هنوفر وبعض أجزاء من بافاريا وكذلك هس

اتحاد شمالى ألمانيا

دَرْمستات وشلزوج هلستين ومدينة فرنكفرت ، وأصبحت زعيمة اتحاد فى شمالى ألمانيا يشمل كل الإمارات التى فى شمالى نهر المين

أما الإمارات التى فى جنوبى هذا النهر فتكوّن منها « اتحاد جنوبى ألمانيا » ، على أن يكون مستقلاً عن بروسيا وله الحق فى أن يعقــد معاهدات تجارية مع اتحاد الشمال

اتمام الوحدة الايطالية

ثم انتُزعت البندقية من النمسا مكافأة لايطاليا على مهاجمة النمسا ، وبذلك تمت الوحدة الايطالية

خيبة آمال نابليون

وأما نابليون الذى قام يطلب مكافأته على حيدته وقت الحرب ، فان بسمرك أنذره بكل صراحة بأن أى تعديل فى الحدود يكون اعلانًا للحرب. فلما رأى حبوط مسعاه من جهة حدود الرين ولّى وجهه نحو لكسمبرج ، واستمال ملك هولندة الذى كان يسيطر على هذه الولاية أن يبيع حقه فيها لفرنسا. فأثار بذلك غضب ألمانيا ، اذ كان لها الحق فى حراسة معقل مدينة لكسمبرج ، وكانت تعتبرها مفتاح ألمانيا السفلى. وعند ذلك اجتمع مؤتمر من الدول العظام فى لندن لحل المشكلة ، فأُبرمت « معاهدة لندن » فى ١١ مايو سنة ١٨٦٧ ؛ وبها أصبحت لكسمبرج ولاية محايدة وبقيت السيادة الاسمية فيها لهولندة ، وقد تعهدت أن تهدم حصون مدينة لكسمبرج

النمسا بعد معاهدة براغ

أصبحت النمسا بعد معاهدة براغ خارجة عن دائرة الاتحاد الألمانى؛ ولكنها رغم ما خسرته فى هذه الحرب خرجت منها من بعض الوجوه أقوى مما كانت؛ إذ تحسنت العلاقات بينها وبين المجر التى لم تعد تخشى تسلط الألمان فى الدولة النمسوية ، فتأسست من الاثنتين مملكة ثنائية بحيث تدير شؤون المجر حكومة قائمة بذاتها ، وتكون كل من النمسا والمجر مستقلتين احداهما عن الأخرى تمام الاستقلال ، إلاّ فى الأمور الخارجية والشؤون المالية والحربية ، فانها فى يد هيئة مشتركة بين النمسا والمجر يرأسها مستشار الدولة . ويرجع الفضــل فى التوفيق بين المملكتين وتوحيدهما

اتحاد النمسا والمجر

على هذا الوجه الى « دياك » الوطنى المجرى الشهير . وقـد تُوّج عاهل النمسا « فرنسيس يوسف » ملكاً على المجر فى ذاتها ، وأُلبس تاج « سنت ستيفن » الخاص بتلك البلاد ؛ وصار المتبع أن ينتخب المجمع المجرى ستين نائبًا ، وينتخب مجلس « الرَيْشِسْرات » النمسوى ستين مثلهم ، ليجتمع الكل سنويًا مرة فى ويانة وأخرى فى بودابِسْت للنظر فى شؤون الدولة

وقد ارتاح المجريون والألمان لهذا النظام ؛ ومع أن مرجل الحقد بقى يغلى فى قلوب السلاف من سكان الدولة الذين شعروا أنهم لم ينالوا كل حقوقهم ، بقى هذا النظام ثابت الاركان حافظًا لكيان ملك آل هبسبرج الى نشوب الحرب العظمى .

الفصل الحادى عشر

الحرب الفرنسية البروسية

(حرب السبعين)

الامل فى توحيد الشمال والجنوب

رأينا كيف كان من نتائج هزيمة النمسا فى واقعة سادُوه (سنة ١٨٦٦) توحيد شمالى ألمانيا واعترافها بزعامة بروسيا فى ألمانيا ؛ ولكن كان من البديهى أن بسمرك لا يرتاح له بال أو يهدأ له خاطر حتى يضم الى ولايات الشمال بافاريا وورتمبرج وبادن التى تتألف منها ولايات الجنوب . وكان يعتقد أن ولايات الجنوب لا يمكن أن تكون جزءًا من ألمانيا المتحدة إلاّ بعد أن تزول كراهيتها و بغضها لبروسيا، وذلك لا يكون إلاَّ بالاشتراك معها فى حرب على فرنسا العدو القديم للجميع

عظم مكانة نابليون الثالث

وكان نابليون الثالث بعد الحرب الايطالية أهول شبح فى أور با ؛ فانهُ هزم الروسيا فى حرب القرم ، وخضد شوكة النمسا فى ايطاليا ، وضم الى ملك فرنسا نيس وسفواى مكافأة له على مساعدة ايطاليا فى حرب وحدتها (وان لم يبر بكل وعوده لها) .

ابتداء تزعزعها غير أن مركزه أخذ يتزعزع سنة ١٨٦٣ بعد تشجيعه الثوار فى بولندة على القيام على الروسيا ثم اخفاقه فى الأخذ بناصرهم ؛ إذ بذلك عادى الروسيا وصرف عنه قلوب شعبه الذين كانوا يعطفون أشد العطف على البولنديين ويرغبون فى تحريرهم . وزاد تزعزعه بتدخّله فى المكسيك ، إذ غرر بالأمير (الأرشدوق) مكسمليان النمسوى وجعله يقبل عرش تلك البلاد على أن يساعده ويثبت قدمه* فيها . فلما هددت

حادث المكسيك أمريكا نابليون نفض يديه من المسأله وأسلم بمكسمليان للمكسيكيين ، الذين أعدموه رمياً بالرصاص سنة ١٨٦٧

قلق نابليون وقد كانت الخطوات الواسعة التى خطاها بسمرك نحو توحيد ألمانيا ، والتى لم يكن نابليون ليحلم بها حينما كان يشجعها على منازلة النمسا ، من الأمور التى روعت عاهل فرنسا وأرهبته ، حتى أن « تيير » وزير حربيته أعلن جهاراً أنه يجب توقيف بروسيا عند هذا الحد . فأجاب بسمرك على ذلك بنشر مفاوضاته مع نابليون بعد موقعة

بسمرك يفشى سر نابليون لاوربا سادوة ، وهى التى طلب فيها نابليون أن يُمنح (ترضيةً له) بعض الأراضى التى على شاطئ الرين الأيسر وهدد باعلان الحرب اذا لم يُجَب الى طلبه . ونشر بسمرك مع هذه المطالب رفضَه الموجز لذلك ، بأنه لا ينزل عن قيد شبر من أديم ألمانيا . فهاج

التحالف مع ولايات الجنوب ذلك خواطرَ أهالى الولايات الجنوبية خوفاً على أملاكهم ، وعجّلوا بابرام تحالف مع بروسيا ؛ فأبرمت المعاهدات بين الولايات الجنوبية المختلفة على أن يصبح جلّ جنوبى ألمانيا خاضعاً لنظام بروسيا الحربى ؛ وتلا ذلك تشكيل مجلس يتولى أمر المكوس فى جميع أنحاء ألمانيا

وكان نابليون الثالث يرغب فى شن الغارة على بروسيا ، على قلة استعداد بلاده

---

* أصل هذه المشكلة أن جمهورية المكسيك قررت فى صيف سنة ١٨٦١ أن تقف دفع ديونها الاجنبية مدة عامين ، فاحتجت انجلترة وفرنسا واسبانيا على ذلك ، وأرسلت قوة لاحتلال بعض بلاد المكسيك ضماناً لدفع دينها . وعند ذلك تمادى نابليون فى تدخله وقال ان البلاد لا يصلح حالها الا بحكومة ملكية . وقد انضم الى رأيه نفر من أهل المكسيك وعرضوا عرشها على الامير مكسمليان

لها ؛ وكان فى قدرته أن يقف على حقيقــة ذلك من الرسائل العديدة التى كانت تتوالى من « استوفِل » مندوبه الحربى فى برلين ، الذى كان لا يفتأ يذكر لهُ رجحان استعداد بروسيا الحربى على فرنسا . ولكن نابليون أبى أن يصغى الى أقواله ، حتى أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها وُجد كثير من رسائل استوفل على مكتب العاهل لم تُفَضّ بعد . كذلك كان « تيير » يردد هذا التحذير بعينه . ولكن العاهل وقتئذٍ كان متأثراً أيما تأثر بنفوذ زوجته «يوجينى» ، وكانت امرأة وسيمة المحيا ضيقة الفكر ، منقادة لفئة ضالة لا تعرف مصلحة البلاد وحاجتها ، ولا همّ لها إلاَّ ضمانة عرش فرنسا لابنها « لولو» ، وتأمل أن تحبب حكومة العاهلية الى الأمة بالفوز فى الحرب مع بروسيا

قلة استعداد فرنسا

تأثير يوجينى

وكانت كلتا الدولتين وقتئذٍ تنظران حواليهما الى حلفاء . فوعدت الروسيا بسمرك بلزوم الحيدة بشرط أن يلغى ما جاء فى معاهدة باريس بشأن حيدة البحر الأسود ، بل وعدت بمد يد المساعدة لبروسيا اذا انضمت النمسا الى فرنسا . أما النمسا فكانت على تصادق مع نابليون على وجه عام ، وإن كان فيها وقتئذٍ حزب يعارض فى اعلان أى حرب على ألمانيا

بسمرك وروسيا

وكان نابليون طبعاً ينتظر رد الجميــل من ايطاليا فى هذه الأزمة الشديدة ؛ غير أن مؤازرته للبابا أغضبت الايطاليين ، وتضاعف غضبهم عند ما ساعد البابا فى الغزوة التى قام بهــا غريبلدى ليستولى على رومية ؛ ولذلك لم تعِدهُ ايطاليا فى هذه الأزمة بشىء فوق بقائها مصافية لفرنسا لا لها ولا عليها

نابليون وايطاليا

وقد كانت المسألة الأسبانية هى الشرارة التى أورت نار تلك الحرب الشعواء . وذلك أن الحروب التى نشبت فى اسبانيا بين الكرلوسيين والدستوريين تركت تلك البلاد فى اضطراب دائم حتى خيّم الفقر على ربوعها . وكانت ايزبلا ميالة للهو والخلاعة فتركت مقاليد الأمور فى يد فئة ضالة من عشاقها . ولما بلغ السيل الزبى وعمت الفوضى فى البلاد ، قام « المرشال برِم » سنة ١٨٦٨ بثورة يعاضده الجيش ومعظم الأمة ؛

سبب نشوب الحرب

الثورة في اسبانيا

ففرت ايزبلا الى فرنسا . وعلى إثر ذلك قرر الثوار أن تكون حكومة اسبانيا ملكية دستورية . ولكن من يرضى أن يعتلي عرش هذه البلاد ، وقد وصلت الى تلك الدرجة من الافلاس والاضطراب ؟ تلك كانت أم المعضلات

مشكلة العرش الاسبانى

فبعد عناء شديد ظن برم أنه عثر على ضالته المنشودة في الأمير « ليو بلد » من أفراد اسرة « هوهنزلرن سجمرنجن » ، وكان بينه وبين الأسرة المالكة في بروسيا قرابة بعيدة . ومع أنه كان ألصق قرابة بنابليون ويدين بالمذهب الكاثوليكي كانت أسرته بروسية قبل كل شيء في صبغتها وروابطها . وقد قبل الأمير هذا العرش بعد تردد ، على أن يوافق على ذلك مجلس الكرتيز الاسبانى والملك ولهلم باعتباره رأس أسرته . فوافق ولهلم وأصبح من المقرر أن يمنح ليو بلد تاج اسبانيا رسميًا

غضب فرنسا

فوقع خبر اعطاء العرش الاسبانى لأحد أفراد اسرة هوهنزلرن كالصاعقة في فرنسا ؛ فهاج الشعب وأعلنت الحكومة أنها لا تسمح بتولّى أى أمير بروسى عرش اسبانيا ، وقالت ان هذا الاقتراح ما هو الاَّ مسعى لتوحيد الدولتين البروسية والاسبانية وقلب التوازن الدولى باعادة دولة شرلكان . وأمرت فرنسا « بنِدِتّى » سفيرها في بروسيا أن يخفّ لمقابلة الملك ولهلم في مدينة « إمز » (حيث كان الملك يستحمّ بمياهها) ويفاوضه في الأمر وجهًا لوجه . فلم يسعْ الملك إلاّ أن صرّح بنفض يده من الأمر ؛ وتخلى الأمير ليو بلد نفسه عن اعتلاء هذا العرش حبًا في سيادة السلام

مقابلة امز

تمادى فرنسا

وكان المنتظر أن تنتهي المسألة عند ذلك الحد ؛ ولكن « الكونت جرامون » وزير خارجية فرنسا عمل برغبات حزب أنصار الحرب في باريس ، فطلب الى ملك بروسيا ، بايعاز من هذا الحزب ، أن يتعهد بأن لا يعود في المستقبل الى الموافقة على ترشيح هذا الأمير لعرش اسبانيا . فأجاب الملك على هذا الطلب الذى لم يسبق له مثيل بالرفض ، مع مراعاة الأدب في عبارته . وبينما كان بسمرك جالسًا في حجرته مع « فن رون » وزير الحربية وملتكه قائد الجيوش البروسية ، والكآبة بادية على وجوههم ، لظن أهل باريس أن تخلّى الأمير ليو بلد عن عرش اسبانيا هزيمة وخزى

برقية امز

لبروسيا ، اذا بإشارة برقية وردت له من الملك يصف فيها ما سلكه فى هذه المسألة ؛ وقد أذن الملك لبسمرك بنشر رسالته البرقية إن أراد . ورأى بسمرك ان جواب الملك على الحكومة الفرنسية كان فى غاية الحيطة ، بحيث لا يوجد مجالاً لإثارة غضب فرنسا ويمكن به تجنب إشعال الحرب . ولكنه رأى أيضاً أنه اذا حذف من الرسالة كلمات معينة ، تغيرت نغمتها وصارت تُشعر بالإهانة للأمة الفرنسية ، ولا سيما فى تلك الآونة التى كانت فيها حماسة الشعب الفرنسى بالغة أقصاها . وقبل أن يعبث بالرسالة التفت الى مُلتكه وسأله اذا كان على تمام الأهبة للحرب ؛ فلما رد عليه بالايجاب أخذ قلمه ومحا بعض أجزاء الرسالة وأمر بنشرها بتلك الصيغة المختصرة . فلم تكد الرسالة تُنشر فى باريس حتى اشتد هياج الشعب وعلا ضجيجهم ، وأُعلنت الحرب فى ١٩ يوليه سنة ١٨٧٠ بين صياح الناس مرددين : « الى برلين ! الى برلين ! »

بسمرك ينشر الاشارة مختصرة

هياج الفرنسيين

انتهز بسمرك هذه الفرصة ليصرف الرأى العام فى أوربا عن عطفه على فرنسا ؛ فنشر معاهدة كان يراد إبرامها بين فرنسا وبروسيا ، سطّرها السفير الفرنسى بخط يده ؛ وكان الغرض منها ضم لكسمبرج الى فرنسا ؛ ولكن رغم اعتذار السفير بأن بسمرك هو الذى أملاها عليه ، برهنت هذه المعاهدة أن فرنسا كانت لا تزال تسعى وراء تنفيذ مطامعها القديمة (فى مسألة الحدود) . عند ذلك طلبت انجلترة الى فرنسا أن تعطى ضماناً لحيدة البلجيك التامة ، فأُبرمت معاهدة بذلك أمضيت فى باريس وبرلين فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٠

تأليب اوربا على فرنسا

وأسرع ملك بروسيا وبسمرك وملتكه وفنْ رون الى اتمام ما تدعو اليه الحاجة لشن الغارة . وقد كان نظام بروسيا الحربى الذى وُضع أساسهُ منذ عهد نابليون بونابرت يتكامل تدريجاً ، حتى أصبح فى هذا الوقت تاماً عاماً فى جميع البلاد ، وصارت بروسيا لا تُعَدّ وقتئذٍ قادرة على انزال جيش من الأشداء فى ساحة القتال فقط ، بل أن فى مقدورها أن تسلّح الأمة البروسية بأسرها . وفوق ذلك كان فى وسع كل جندى عند ما يُطلب الى الميدان أن يستمدّ كل ما يلزمه من العدة من القرية التى يسكنها . ودرّب

استمداد بروسيا للحرب

خطط ملتكه — ملتكه عدداً من القواد انتخبهم من أنجب افراد الأُمة ليساعدوه فى تنفيذ الخطط التى وضعها لتحريك الجيوش . ووضع خطة المعركة قبل أن تشتبك جيوشه بجيوش الأعداء بزمن طويل ، وجعلها على أحدث الطرق الحربية . كذلك كان الجيش يحمل مصوّرات جغرافية لفرنسا اكثر تفصيلاً من التى كانت تحملها الجيوش الفرنسية نفسها

وكان تصميم ملتكه الحربى أن يهاجم فرنسا بثلاثة جيوش جرارة ، يشدّ أزرها احتياطى عام ، فتلتقى هذه الجيوش بجموع الفرنسيين فى ساحة الوغى وتسحقهم سحقاً ، ثم تزحف على باريس وتخيّم حواليها

سوء حال الجيش الفرنسى — أما الجيش الفرنسى وقتئذٍ فكان يعيش فى جو من الأوهام ، مرتكناً على ما كان له من بعد الصيت فى زمان غبر ؛ وقد أهمل أولو الشأن فيه أن يرقوا به الى درجة تلائم أحوال العصر الجديد . كما أُهمل كل استعداد للحرب فى زمن السلم ، وذلك من أشدّ الأمور خطراً على خفة حركة الجيوش فى الميدان . هذا الى أن كل نظام الجيش كان فى قبضة كبار القواد ، وليس بين ضباط الجيش والأجناد رابطة من روابط الألفة ، ولم ترسم للحرب خطط تفصيلية ، علاوة على أن كل الطرق التى اتُّخذت لتجهيز الجنود كانت عقيمة تتطلب مشاق عظيمة فى نقل المهمات ؛ مما أخلّ بنظام السكك الحديدية فى وقت كانت فيه الحاجة تستوجب تفرغها لنقل الجنود . ومع كل هذه العوائق كان وزير الحربية الفرنسية يفخر بقوله : « قد تم إعداد كل شىء حتى آخر عروة »

ابتداء الحرب — وعزم نابليون أن يبدأ الحرب باتخاذ خطة الهجوم ، فيسرع الى دخول جنوبى ألمانيا قبل أن تجتمع الجيوش البروسيـة لصده . وقد فاز الجيش الفرنسى فى أول نشوب الحرب على الأعداء فى موقعة غير جليلة الخطب عنـد « سار بروركن » ، ولكنه لم يذق بعدها للنصر لذة . ففى إثرها كُسر الفرنسيون عند « ويسنبرج » وتكاثفت جموع ولى عهد بروسيا على القائد الفرنسى « مَكْمَهون » واضطرته الى

سار بروكن — ويسنبرج

التقهقر الى بلدة « وُرْت » . ومع أن الألمان انتصروا على الجيوش الفرنسية انتصاراً مبيناً ، له أسوأ أثر على الفرنسيين ، كانت خسائر الألمان فى الرجال أعظم من خسارة أعدائهم . وقد حال بينهم وبين مطاردة الفرنسيين سدل الليل أستاره

ورت

وفى تلك الآونة كان جيش عظيم من الفرنسيين يولى الأدبار أمام قوة صغيرة من الألمان ، لعدم كفاءة القواد الفرنسيين وقلة حذقهم . وبذلك أصبحت الألزاس واللورين عدا حصونهما فى قبضة الألمان . فى حين أن الجيوش الفرنسية كانت تتقهقر بسرعة نحو شالون ومِتز . فسيّر ملتكه بعض جنوده لأخذ استراسبرج على حين غفلة فأخفقوا فى ذلك واضطروا الى أن يلقوا عليها الحصار . كل ذلك وهو يزحف على باريس بكل حزم وروية

موالاة زحف البروسيين

عند ذلك ترك نابليون قيادة الجيوش الى « المرشال بازين » ، لاعتلال صحته وشعوره بعدم كفاءته لقيادتها . وكان ملتكه وقتئذٍ ينتظر أن يتقهقر الفرنسيون الى ما وراء نهر الموز . ولا شك أن تلك كانت أنجع خطة يتبعونها ؛ ولكن لما تسلم بازين قيادة الجيوش انصرف عن خطة حماية هذا النهر ، وأمر جيوشه بالتقهقر الى « فردون » فالتقى الجيشان عنـد قرية « رِزُنْفيل » حيث دارت معركة خلّد ذكرها هجوم فرسان الألمان الباهر

رزنفيل

على أن التقهقر الى فردون كان لايزال ممكناً ، لولا ما كانت عليه الجنود الفرنسية من الانحطاط وانحلال العزيمة ، ففضّلوا الانزواء فى حصن متز ، وأمر بازين جيوشه بالاحتماء به . وقد اشتبك مع الأعداء عند « جرافلوت » ، فهُزم هزيمة منكرة فى ١٨ أغسطس بعـد أن حمّل الألمان خسائر فادحة . واحتمى جيشه بمدافع متز ، فألقى الألمان عليها الحصار

جرافلوت وحصار متز

ترك الألمان جيشاً لحصار متز ، ثم أخذوا يزحفون زحفاً عاماً على مدينة « شالون » حيث كانت القيادة بيد مكمهون والعاهل . وفى هذه الآونة نصح مكمهون الى العاهل وبطانته بالتراجع الى باريس ، لما كان عليـه الجيش من الانحطاط ، ولقلة المئونة

مكمهون يقترح التقهقر الى باريس

معارضة يوجيني له

والذخيرة ؛ حتى يتوافر لديهِ الوقت لتنظيم الجيوش ، ويتسنى له أن يستفيد من كل موارد البلاد . فوافق العاهل على هذا الرأى الصائب ؛ ولكن العاهلة زوجه وبطانتها كانوا يخافون عاقبة ذلك التقهقر الذى به يُترك جيش بازين الى الأقدار . ورأى مكمهون أن يوفّق بين ما كان يعتقده أحسن خطة وبين رغبات الملكة ؛ فتراجع الى « ريمس » . ولكن على الرغم من ميله الى التقهقر الى باريس وتحققه من خطورة أى خطة أخرى ، استماله بازين برسالة أظهر فيها عزمه على الخروج من متز ، فشرع فى الزحف نحو الموز لمعاضدته

ارغامه على السير لانقاذ بازين

ولما علم ملتكه بحركات جيوش مكمهون أسرع الى تسيير جيوشه الى الشمال لاعتراضه ؛ فلما أيقن مكمهون حرج مركزه ، أمر جيوشه بالتقهقر . وعند ذلك تسلم رسالة برقية من باريس تقول: «اذا هجرت بازين فسيكون من جراء ذلك ثورة هنا» ففضل ملاقاة الهزيمة على أن يتحمل الأذى الذى كان لا محالة يلحقه فى باريس اذا هو تقهقر

وفى أثناء ذلك كانت الجيوش البروسية تواصل الزحف ؛ فلم يحلّ أول سبتمبر حتى ضيقت الخناق على جيش مكمهون فى قطعة أرض مثلثة الشكل قاعدتها بلدة

موقعة سيدان

«سيدان» ويحيط بها مرتفعات ونجاد تمكن الألمانَ من موالاة صبّ ميزاب المدافع على الفرنسيين

مقاومة الفرنسيين

ولما دارت رحى الحرب فى هذا المكان جُرح مكمهون فى صبيحة اليوم ، وتغيرت قيادة الجيش مرتين أثناء المعركة . وقد حاولت خمس فرق من فرسان الفرنسيين اختراق طريق للجيش ، فوالت هجماتها على صفوف الأعداء بكل بسالة وإقدام ؛ حتى لم يقدر الملك وهلم على إخفاء اعجابه بهم فقال : « أُفّ لأولئك البواسل ! » ولكن لم يغن مجهودهم شيئاً ، وحصدتهم نار مدافع العدو . ولما رأى نابليون كل جيشه

تسليم نابليون

محصوراً ، ونيران العدو تفتك به فتكاً رائعاً ، حاول الموت عبثًا باقتحامه حومة الوغى وبعد أن يئس من النصر أمر برفع اللواء الأبيض على سيدان

شروط بروسيا

عند ذلك صرح له ملتكه بشروط الصلح ، فقال انها غاية فى السهولة ، وهى أن يسلّم كل الجيش الفرنسى بعدّته وذخيرته ، وأن يكون الضباط أسرى حرب هم وعساكرهم (٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠) . فلما سمع نابليون هذه الشروط طلب الى الملك ولهلم أن يقابله ، ليرجوه فى تخفيفها. فلما خاب رجاؤه وقّع على شروط التسليم فى كوخ نسّاج. ولما قضى الأمر سألت امرأة النساج العاهل الكسير القلب قائلةً : «أفى مقدرتى أن أقوم بخدمة لجلالتكم» ؛ فأجابها : «انما أريد ارخاء الستائر على النوافذ» . وبعد قليل سلم نابليون سيفه الى ملك بروسيا وصار أسير حرب فى قصر « وِلْهِلْمزهوهِه»

الجمهورية الثالثة

بهذه النكبات التى لم تستغرق أكثر من شهر من نشوب الحرب أصبح جيش فرنسا تلك الأمة الحربية العظيمة إما مشتت الشمل أو محصوراً. ولكن الأمة الفرنسية لم تسكن لهذه الهزيمة ؛ فبعد موقعة سيدان الفاصلة أصبح بقاء حكومة العاهلية ضرباً من المحال؛ فانفجرت نار الثورة فى باريس، وأُعلنت الجمهورية الثالثة ، وفرت العاهلة الى انجلترة . ثم تألفت حكومة « الدفاع الوطنى » وعلى رأسها القائد « تروشو » ووزير حربيتها « جول فَفْر » ووزير داخليتها «غَمْبِتّا» . وأخذ «ففر» يتفاوض مع بسمرك ، ليتعرّف منه الشروط التى ترضى بها الألمان . غير أن المناقشة فى هذا الصدد بُترت فجأة ، لان الحكومة الجديدة مالبثت أن جاهرت أنها لا تتنزل عن قيد شبر من أديم فرنسا أو عن حجر واحد من حصونها

مقاومتها

الزحف على باريس

فأخذ الجيش الألمانى فى الزحف على باريس، ولم يحل يوم ١٩ سبتمبر حتى طوّقها بنحو ١٤٧٠٠٠ من الأشداء . وكانت الحكومة الفرنسية قد عوّلت على الدفاع عن الحاضرة ريثما يتم جمع جيش جديد من سائر أنحاء فرنسا ، حتى اذا ما دُرّب على الفنون الحربية بضعة أشهر، انقضّ على المحاصِرين من جميع الجهات وقطع عليهم خط الرجعة . لذلك غادرت هيئة من الحكومة باريس قبل أن يُتمّ العدو حصرها، واتخذت مقرها بمدينة «تور» برياسة « كِرمييه »، على أمل ادارة الحركة الجديدة من هناك

انتقال الحكومة الى تور

حال الجيوش الالمانية

وقد أظهر مؤرخو الألمان بعدُ ما كانت تقاسيه الجيوش الألمانية فى هذه المدة بالرغم من ظفرها العظيم؛ فقد تضاءل عددها لما كان يؤخذ منه لحصار المعاقل الفرنسية الكثيرة، وما كان يُحتاج اليه لحفظ خطوط رجعتها. وفتكت بها الأمراض، فصار عددها لا يكاد يكفى لحصار باريس. وقد انفرجت الأزمة عنها قليلاً بعد أن سقط حصنا تول واستراسبورج فى أيديهم؛ فاستفادوا بالجنود الذين كانوا يحاصرونهما، وانفتح طريق جديد بين الجيش الألمانى وألمانيا رأساً

فرار غمبتا من باريس

ولكن سقوط العاهلية الفرنسية كان قد غيّر معالم الحرب بأسرها؛ وقام الشعب الفرنسى بأجمعه يدافع عن وطنه العزيز. ولما ظهر أن كرميه لم يكن بالرجل الذى يستطيع القيام بعبء هذه الحركة العظيمة فرَّ غَمْبِتّا من باريس فى منطاد (بالون) يوم ٧ اكتوبر وتولى قيادة الأمور فى تور. فأخذ بما فُطر عليه من الوطنية والحماسة، وما أوتيه من النشاط والمقدرة على العمل، يجد فى تأليف جيش جديد. فلم تنقضِ بضعة أسابيع حتى أفلح فى مرغوبه، وأمر الجيش بالزحف على أرليان. ولكن نجاح الفرنسيين فى هذا الوجه لم يغنهم شيئاً أمام انخذالهم الشنيع، عندما سلم القائد بازين فى متز يوم ٢٧ اكتوبر بنحو ستة آلاف ضابط و١٧٠,٠٠٠ جندى؛ على أنه لو قاوم عدوه اسبوعين لسار الجيش الفرنسى الجديد (بعد أن استرد أرليان) الى باريس ورفع عنها الحصار. وقد ذهبت الفرصة؛ فان الجيوش الألمانية التى كانت تحاصر متز أصبحت قادرة على امداد الجيوش التى تحاصر باريس

نكبة متز

وكذلك قضى الألمان بكل قوة على حرب الكر والفر التى كان يقوم بها الفرنسيون ويخرجون منها مظفرين

على أن كل ذلك لم يضعف من عزيمة غمبتا؛ فانه استفز الجيش الى الزحف على باريس. ومع بسالة الأجناد فى الهجوم عليها، كانت قلة تدربهم سبباً فى إخفاقهم؛ فلم يستطيعوا أن يكونوا يداً واحدة فى حركاتهم العسكرية. فلما قاموا بالهجوم عليها هُزموا المرة بعد الاخرى وردوا على أعقابهم حتى أخلوا أرليان نفسها، فاستولى عليها الألمان ثانيةً فى ٤ ديسمبر

فشل الفرنسيين

حصار باريس

وفى هذه الأثناء لم تكن باريس جامدة ، بل كانت توالى هجماتها على المحاصرين المرة بعد المرة؛ ولكنها جميعاً أسفرت عن الفشل ، ثم أخذت المدينة تكافح عدواً آخر من الجوع. فلم يفت كل ذلك فى عضد غمبتا وفرسنيه اللذين لم يجعلا لليأس سبيلاً الى أنفسهما ، وأخذا يبذلان جهد الطاقة فى تأليف جيوش جدد . فى حين أن جيشاً فرنسياً كان لايزال يقاوم الألمان ببسالة بقيادة « شنزى » على نهر اللوار ، وقد اضطر أخيراً الى التراجع الى « لمان » ، فأظهر فى تقهقره براعة نادرة المثال

الحرب على اللوار

فيضرب

وفى هذه الآونة أخذت الجنود الفرنسية بقيادة « فيضرب » تقاوم الألمان فى الشمال ، حيث قاتلوا جيوشهم قتالاً عنيفاً مدة ثلاثة أيام اضطروا بعدها الى التقهقر فى ٢٤ ديسمبر . ثم ابتدأ ضرب باريس بالمدافع فى ٢٧ ديسمبر . وقد سعى غمبتا مرة أخرى فى خلاصها ، بالعمل على قطع خطوط رجعة الألمان ؛ فأخفق فى مسعاه ؛ واضطر الجيش الفرنسى الذى كان بقيادة « بور با كى » الى الاحتماء وراء الحدود السوسرية . أما الجيش الذى كان بقيادة « شنزى » فأنهُ هُزم أمام « لمان » . ولم يمض اسبوع على جيش « فيضرب » الذى كان لايزال يحارب فى الشمال حتى هُزم هزيمة منكرة عند « سان كنتان » فى ١٩ يناير سنة ١٨٧١

مجهودات غمبتا الاخيرة

حيدة الدول

وكانت الحالة فى باريس فى هذه الآونة قد بلغت أشدها . فكان آخر ما فعله أهلوها أن قاموا بهجوم عام فى ١٩ يناير رُدوا بهِ على أعقابهم؛ فذهب « ففر » بعد ذلك بأربعة أيام الى قصر فرساى ليفاوض الألمان فى التسليم . وقد قطعت الحكومة المؤقتة كل رجاء فى تدخل الأمم الأوربية : فان ايطاليا كانت مشتغلة بالاستيلاء على رومية ، والنمسا وانجلترة مغلولتى الأيدى مع الروسيا ، التى أعلنت أنها ليست مربوطة بما جاء فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ بشأن البحر الأسود ، وأمضت اتفاقاً مع تركية خُول فيه لكلتا الدولتين الحق فى وضع ما تشاءان من الاساطيل فى هذا البحر وأُيّد حق السلطان فى اغلاق البسفور والدردنيل فى وجه جميع السفن الحربية

وقد كانت الحكومة الفرنسية أرسلت « تيير » الى حكومات لندن وويانة

الدول تشير بهدنة

و بطرسبرج ليطلب اليها أن تدخل فى أمر الصلح . فاقترحت عليه تلك الحكومات أن تطلب الحكومة المؤقتة هدنة يتسنى لها أثناءها الوقوف على ارادة الشعب الفرنسى وفى ٢٨ يناير عُقدت هدنة لمدة ثلاثة أسابيع، لتتمكن الأمة من انتخاب جمعية تُعقد فى بردو لتقرير السلم أو الحرب

الصلح

وقد أسفرت نتيجة هذا الانتخاب عن أن الأمة مستعدة لقبول الصلح، فأُبرمت شروطه الأولية فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٧١ . وبها قبلت فرنسا أن تنزل عن الألزاس واللورين الشرقية ، وفيها حصنا متز وستراسبرج ، وأن تدفع غرامة حربية قدرها ٥٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك ، وأن يبقى جزء من أرض فرنسا محتلاً بالجنود الألمانية حتى تنفذ هذه الشروط . واشتُرط أن تجلو هذه الأجناد عن أديم فرنسا تدريجًا متى دُفعت الغرامة

وقد دُفعت هذه الغرامة بسرعة لم تكن فى الحسبان ، وذلك لثراء البلاد بل لشدة اقتصاد أهلها وإبائهم الشريف ؛ ولم يمض طويل زمن حتى أقرت الجمعية فى بردو شروط الصلح ، وأعلنت الجمعية خلع نابليون الثالث رسميًا . وجاهرت أنه سبب كل الخراب الذى لحق فرنسا . أما المعاهدة الرسمية فأبرمت فى فرنكفرت فى ١٠ مايو

خلع نابليون

سنة ١٨٧١ . وقد نفض غمبتا يديه من كل هذه المفاوضات ، اذ كان يريد مد أجل الحرب، وكان جم غفير يعتقد أنه بمدّه أجلها الى ذلك الحين جاوز حد الحكمة. ولكن مهما قيل فى ذلك ، فان الطور الثانى من الحرب الذى يُعزى الى نشاطه قد أعاد الى فرنسا شممها ، وجعل أعداءها يشعرون بمقدار موارد ثروتها وقوتها المدهشة على مكافحة العدو ومقاومته

اتمام الوحدة الالمانية

بهذه الحرب نال بسمرك صلحًا ثمينًا وبلغ أمنيته العظمى . فانه لم يكد يتحقق الفوز النهائى بالانتصارات الأولى ، حتى ابتدأت المفاوضات تجرى فى أمر الشروط التى بها تنضم ولايات الجنوب الى اتحاد ألمانيا الشمالى . وقد امتد اجل هذه المفاوضات عدة أشهر ، ولا سيما أنّ بافاريا لم تكن لترضى بالنزول عن استقلالها فى الاندماج



بسمرك

تكوين العاهلية الالمانية

فى الوحدة الألمانية . ولكن بسمرك تغلب أخيراً على كل الصعوبات التى اعترضته ، ودُعى الملك وهلم ليعتلى عرش الوحدة الألمانية بلقب عاهل (امبراطور) ألمانيا . فتُوّج رسمياً فى ١٨ يناير سنة ١٨٧١ فى قاعة البلور فى قصر فرساى . ومع ذلك بقيت المانيا مكوّنة من عدة ولايات تكاد تكون مستقلة : لكل منها مجلس أُمة قائم بها ، ولكل منهـا السلطة فى جميع الشوؤن التى لم يرد فى معاهدات الضم نص على أنها تختص بالعاهلية بأسرها

الفصل الثاني عشر

الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين

١٨٧٥ — ١٨٧٨

حال الروسيا بعد حرب القرم

أنضبت حرب القرم معين ثروة الروسيا ، وكان من نتائجها أن انتشر السخط فى البلاد . فرأى قيصرها الاسكندر الثانى أن يعمل على ترضية الأهلين بتحسين حالهم :

تحرير الموالى فى روسيا

فقام بعدّة اصلاحات أهمها تحرير الموالى فى روسيا . إذ كان النظام الاقطاعى لايزال سائداً فيها ، بحيث كان الفلاحون الروس بمثابة الارقاء يباعون ويُشرون مع الضياع التى يفلحون أرضها ، كلما انتقلت من شريف الى آخر . فبدأ الاسكندر سنة ١٨٥٨ باطلاق الفلاحين الذين يعملون فى أرضه نفسه ، وعددهم ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ . ثم أخذ يعمل على تحرير الموالى الذين كانوا يعملون فى ضياع الأشراف ، فلاقى منهم مصاعب ما لبث أن تغلب عليها بالاتفاق معهم ، وأصدر فى مارس سنة ١٨٦١ المرسوم الأعظم الذى أطلق به سراح جميع الموالى الروسيين . وكان الاتفاق الذى تمّ به ذلك هو أن ينزل الأشراف للفلاحين عن جزء من الأرض التى كانوا يزرعونها لأنفسهم*، جزاء بعض أموال يعطونها لسادتهم ؛ ووضعت الحكومة نظاماً لإقراض الفلاحين المال اللازم لذلك ، على أن يسددوه فى عدة سنوات . على أن هذا الاصلاح لم يقابَل بالارتياح المنتظر له : فحنق منهُ الأشراف ، لأنه ذهب بجانب كبير من نفوذهم وزاد

آثار التحرير

من سلطان القيصر ؛ ولم يرض عنـه الموالى أنفسهم ، لانهم فقدوا به جزءًا من الأرض التى كانوا يستثمرونها ولم يفقهوا قيمة تملكهم للجزء الباقى تملكاً دائماً ، فضلاً عن أنهم لاقوا فى مبدأ الأمر صعوبة فى استقلالهم بشؤون أنفسهم، وكان الجم الغفير منهم

---

* كان الموالى فى الاصل يعطون قطعا من الارض يزرعونها لانفسهم جزاء اشتغالهم بالاراضى التى يجنى الاشراف ريعها وحدهم

متوانياً مهملاً سكيراً ، ففقد ما ناله من الأرض وسقط فى هوة التعس والشقاء . فساءت حالهم عما كانوا عليه قبل أن يفلتوا من ربق العبودية . ولكن مهما قيل فى ذلك ، لايشك أحد فى أن هذه الحركة كانت من أعظم الاصلاحات وأعدلها ، وتعدّ فاتحة طور جديد فى تاريخ روسيا

اتساع أملاك روسيا

كذلك جدّ الاسكندر الثانى فى توسيع رقعة بلاده ومدِّ نفوذها فى آسيا . وخطا فى ذلك خطوات شاسعة، حتى شغل بال انجلترة وصارت تخاف على سلامة دولتها فى الهند . وفى ذلك الوقت كانت روسيا ترقب أيضاً أحوال البلقان . وقد كانت معاهدة باريس عقبة فى سبيل توسيع رقعتها من هذه الجهة؛ ولكنها كما رأينا انتهزت الفرصة أثناء حرب السبعين، فأخلت بأحد شروط تلك المعاهدة وهو الخاص بتقييد قوتها فى البحر الأسود ؛ وباتت تترقب الفرص للتدخل ثانيــة فى شؤون البلقان ، لابدعوى أنها تريد ضم شىء من هذه الجهات، بل بحجة حمايتها للرعايا المسيحيين، وقد كان دب بينهم روح جامعة سلافية ترمى الى لمّ شعث هذه الأجناس وخلعها النير التركى . وقد ساعد على انبعاث هذا الأمل فيهـــا ما رأوه من توحيد ايطاليا وألمانيا، وأخذوا يتطلعون فى تحقيق هذه الأمنية الى الروسيا ، وخصوصاً بعد أن تحسنت حالها وعظمت شوكتها بنهضتها الأخيرة

مطامعها فى البلقان

الجامعة السلافية

ضعف تركيا

وفى هذه الآونة كانت الأحوال فى تركيا تدعو الى القلق ، فقد تسربت السلطة من يد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز من بعده، واستبد بها الوزراء وولاة النواحى ؛ فساءت حكومة البلاد ، ولم يكد ينفذ شىء من الإصلاحات التى وعد بها الباب العالى فى معاهدة باريس ؛ فأخذت نار الفتن تستعر فى بلاد الدولة . وأهم ما حدث من ذلك قبل سنة ١٨٧٥ قيام أهل جزيرة كريت (١٨٦٦-٦٨) بإيعاز من اليونان ، فحدث من جراء ذلك انقطاع العلائق السياسية بين أثينا والاستانة ، وكادت نار الحرب تنفجر بين الدولتين ، لولا توسط الدول وحملها حكومة اليونان على لزوم الحيدة . وفى إثر ذلك أُخمدت الثورة فى كريت، ورجعت الى ولائها للدولة بعد أن أرضتها باجابتها الى شىء من مطالبها

الثورة فى كريت

الثورة فى البسنة والهرسك

وفى سنة ١٨٧٥ شبت نار الفتنة فى بلاد البُسْنَة والهرسك ، فاشتعلت بها كل البلقان ، وصارت بسببها المسألة الشرقية الشغل الشاغل لسواس أُور با نحو ثلاث سنوات ولم تكد الفتنة تنشب حتى أخذ المتطوعون من الجبل الأسود والصرب يهرعون لمعونة الثوار. ولما كانت النمسا تضم بين دائرة بلادها عدداً عظيماً من الجنس السلافى، أظهرت فى مبدأ الأمر عطفاً على الثوار وأخذت تفاوض الدول فى أمر التدخل بما فيه صلاح حالهم . فكتب «الكُنت أندِراسى» وزير خارجية النمسا والمجر مذكرة، عدَّد فيها المطالب التى ينبغى للباب العالى إجابة رعاياه المسيحيين اليها (ديسمبر سنة ١٨٧٥).

مذكرة اندراسى

وقد حازت « مذكرة أندراسى» هذه رضا الروسيا والنمسا وفرنسا وايطاليا؛ ووافقت عليها إنجلترة بعد شىء من التردد. ثم قُدِّمت للباب العالى، فوعدت الحكومة العثمانية بانفاذ الاصلاح المطلوب. ولكن الثوار أنفسهم لم يرضوا بذلك، وقالوا انهم لا يضعون السلاح إلاَّ اذا قدمت الدول بالفعل ضماناً لانفاذ الاصلاح

مركز النمسا

وكانت النمسا قد أخذت تفتر عن معونة الثوار ، مراعاةً لهوى المجريين (الذين لم ينسوا للروسيا فعلتها عام ١٨٤٩ وقت أن أخمدت أنفاسهم بالقوة وظلوا منذ ذلك الحين يحقدون على الأجناس السلافية) ، ولعلمها أن مؤازرة الجامعة السلافية ربما أفضت الى أن ينسلخ عنها ذلك العدد العظيم من السلافيين الذى يقيمون فى بلادها . وقد قابل الترك تشبث الثوار وعنتهم بالشدة . فزادت الأحوال اضطراباً

مذكرة برلين

وكان قيصر الروسيا وعاهلا النمسا وألمانيا قد تحالفوا فى سنة ١٨٧٢ على أن يعملوا سوياً على اخماد الفتن وتوطيد أركان السلام فى العالم وخاصة فى الشرق . فلما لم يكن لمذكرة اندراسى الأثر المطلوب عادت هذه الدول الثلاث ، بدعوة من بسمرك الى النظر فى شؤون البلقان؛ فكانت نتيجة هذه المفاوضة أن حُررت مذكرة تدعى « مذكرة برلين » أشدّ لهجة من سابقتها، طلبت الدول فيها الى الباب العالى تنفيذ الاصلاح الموعود فى بحر شهرين . وكانت الحكومة الانجليزية وقتئذٍ (وعلى رأسها «لورد بيكُنْزفيلد») تخاف من اطماع روسيا، فلم تقرّ تلك المذكرة، فذهبت صرخةً فى واد

حزب الاصلاح التركى ومدحت باشا

وفى هذه الأثناء كان حزب الاصلاح التركى (تركيا الفتاة) ، برياسة « مِدْحَت باشا » ، أخذ ينبّه الأفكار الى ضعف الحكومة العثمانية واستسلامها الى تدخّل الدول الأوربية فى شؤونها ؛ فانتشر السخط فى البلاد وأفضى الأمر الى خلع السلطان « عبد العزيز » فى ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦ وقتله بعد أيام قلائل . فخلفه السلطان « مراد الخامس » وكان مختل القوى العقلية ، فخلع فى ٣١ أغسطس . وخلفه السلطان « عبد الحميد الثانى » ، وكان على جانب عظيم من الدهاء وقوة العزيمة

السلطان عبد الحميد

الصرب تعلن الحرب

وقد رأى الرعايا المسيحيون فى اضطراب الدولة فرصةً لنيل مآربهم ؛ ففى ٣٠ يونيه أعلنت الصرب الحرب على الدولة ، وتلاها الجبل الأسود بعد يومين . فلاقت الترك صعوبة فى مقاومة الجبليين المتدربين على حرب الكرّ والفر ، ولكنهم هزموا الصربيين شر هزيمة عند « أَلِكْسِينَتْز » . وبعد قليل اضطر الثوار الى طلب الهدنة حتى يروا ما تفعله الدول من أجلهم

وكان الاسكندر باغراء شعبه قد عزم على طرح المخاوف التى كانت تغلّ يده عن الاعتداء على الترك ، مستأنسًا فى ذلك بالتحالف الذى بينه وبين عاهلى ألمانيا والنمسا . وزاده طمأنينة أن فرنسا وايطاليا كانتا تميلان الى محالفته : لتثأر فرنسا لنفسها من ألمانيا (ان دخلت هذه ضد الروسيا) ، ولطمع ايطاليا فى الاستيلاء على اقليم « ترَنْتينو » . وكانت بلغاريا قد انضمت الى الثوار ، فأخمد الترك أنفاسها بشدة غير مألوفة ؛ فثار الرأى العام فى انجلترة بزعامة « غلادستون » وهوّل أمر هذه الفظائع* حتى أخذت الحكومة الانجليزية تنصرف عن تمسكها بسياستها القديمة فى حفظ كيان الدولة العثمانية . فشدّت كل هذه الاعتبارات من أزر الاسكندر الثانى ، فأرسل بلاغًا الى الباب العالى يهدده بشن الغارة على الدولة فى الحال ان لم تسمح للثوار بهدنة شهرين . فأجابته الدولة الى ذلك ، وعُقد مؤتمر دولى فى القسطنطينية فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٦

الفظائع البلغارية

الهدنة

* اشتهرت فى انجلترة باسم « الفظائع البلغارية »

حيل عبد الحميد

وكان السلطان عبد الحميد قد اتخذ « مدحت باشا » صدراً أعظم له ، وعهد اليه فى وضع نظام لدستور يعمّ أنحاء الدولة ، ليقنع الدول بأن عهد الاصلاح قد بدأ ، وأن لا داعى الى تدخّلهم . فلما اجتمع أعضاء المؤتمر فى الاستانة عدّوا ذلك حيلة من السلطان ، وقدموا اليه عدة مطالب ، اشترطوا أن تشرف الدول على تنفيذها ، وأن يكون لها رأى فى اختيار حكام الأقاليم المسيحية . فلم يقبل الباب العالى هذه المطالب التى فيها افتيات على استقلال الدولة العثمانية ، وانفضّ المؤتمر على إثر ذلك (٢ يناير سنة ١٨٧٧)

مصير مدحت باشا

أما مدحت باشا فانه كان مخلصاً فى نياته ، وكان يعتقد أن البلاد ستتمتع حقيقة بنعم الحكم النيابى . فلما رأى أن السلطان تباطأ فى انفاذ المشروع ، ألحّ عليه فى ذلك . ومن هذا الحين غضب عليه السلطان ونفاه ، وما زال به حتى قتله

روسيا تعلن الحرب

لم تجد الروسيا بعد ما لاقاه المؤتمر الدولى من الفشل صعوبة فى جعل الدول تلزم الحيدة ، وأخذت تأخذ العدة لشن الغـارة على الدولة العثمانية ؛ وفى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ أعلنت الحرب عليها . وقد انضمت اليها رومانيا على أمل نيل استقلالها جملة ؛ وقفت أثرها الصرب والجبل الأسود . ولم تلق الجيوش الروسية فى بادئ الأمر مقاومة شديدة ، فعبرت نهر الطونة عند « جَلَكْس » و « سِسْتُووَة » . وكان يُظن أن اندحار الترك سيكون عاجلاً ؛ ولكن ما لبث أن ظهر أن جنودهم لم تفقد تلك الصفات التى كانت من قبل تلقى الرعب فى قلوب الأوربيين

تكاثر الاعداء على تركيا

حصار بلفنا

ولاقى الروس أشد مقاومة عند « بِلِفْنا » التى هى مفتاح الطرق المتفرعة فى أواسط بلغاريا ، بحيث لم يروا من الحكمة مواصلة السير جنوبى جبال البلقان قبل الاستيلاء على ذلك المركز الحربى العظيم . وكان الترك قد تحصنوا فيها بقيادة « عثمان باشا الغازى » ، فكرّ عليها الروس ثلاث كرات عنيفة ابتغاء الاستيلاء عليها عنوة ، فكانوا يُصدون عنها كل مرة بخسائر فادحة (يوليه – سبتمبر ١٨٧٧) . عند ذلك ألقى الروس الحصار عليها بقيادة المهندس « تُدلُبين » الذى اشتهر فى الدفاع عن سبستبول

فى حرب القرم . وطال تشديدهم الحصار ، حتى اضطر عثمان باشا فى ١٠ ديسمبر الى التسليم بجيش مؤلف من ٤٣٫٠٠٠ مقاتل و٧٧ مدفعاً ، بعد أن دافع عنها دفاعاً مجيداً مدة خمسة أشهر ، شغل فيها جيشاً من الأعداء يبلغ ثلاثة أضعاف جيشه

دخول الروس أدرنة

وبعد ذلك توغل الروس فى بلغاريا بقيادة « جُرْكو » وجدّوا فى الزحف نحو القسطنطينية ؛ وفى ٢٠ ينـاير سنة ١٨٧٨ دخلوا « أدِرْنة » ، فذُعر السلطان وطلب الصلح

وكانت الحكومة الانجليزية قد هالها اقتراب الروس من القسطنطينية ؛ فأمرت أمير البحر « هُرْنبى » بالمسير بأسطوله الى الدردنيل ، لاظهار عزم انجلترة على توقيف الروس عند حد . ولكن الفرصة كانت قد فاتت ؛ إذ عُقدت هدنة بين الروس والترك

معاهدة سان استفانو

وأُبرمت بينهما معاهدة « سان استفانو » فى ٣ مارس على أن تنال رومانيا والصرب والجبل الأسود استقلالها ، ويُزاد فى مساحتها ؛ وأن تعطى بلغاريا استقلالاً إداريًا مع اعترافها بسيادة السلطان ، وجُعلت حدودها تمتد من البحر الأسود الى بحر إيجة فتشمل علاوة على بلاد البلغار الأصلية اقليم الروملى ومعظم مقدونيا ، بحيث لم يبق للترك بأوربا سوى شقة ضيقة تمتد فى شبـه جزيرة البلقان من الاستانة الى البحر الادرياتى ؛ وأن تأخذ الروسيا فى آسيا فضلاً عن ذلك بعض جهات أهمها باطوم وارزن الروم وقارص . ونُصّ فى المعاهدة أيضًا على أن تسترد الروسيا الجزء الذى نزلت عنهُ فى « بسارابيا » فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ ، وأن تعطى رومانيا جزاء ذلك اقليم « دوبروجا »

معارضة الدول

فلما سمعت الدول بهذه المعاهدة ثارت خواطرها ، وأصروا على منع روسيا من الانفراد بحلّ المسألة الشرقية التى طالما شغلت بال أوربا جمعاء . وفى الحقيقة لم ترضِ المعاهدة أحداً سوى الروس والبلغار؛ ولاقت معارضة فى شبه جزيرة البلقان نفسها : فاحتج عليها اليونان لأنها قطعت آمالهم فى مدّ حدودهم شمالاً وبخاصةٍ فى مقدونيا ، وحنق منها الصربيون لمثل هذا السبب ، اذ كانوا يطمحون الى الاستيلاء على جزء

من الأرض التي أقرت المعاهدة ضمها الى بلغاريا ، وغضب منها الرومانيون لأنهم لم ينالوا من مساعدتهم للروسيا سوى نزع جزء من بلادهم وتعويضهم منه اقليماً أقل منه قيمة . وأهم من كل ذلك مقاومة دول غربي أوربا ، وفي مقدمتهم انجلترة ؛ إذ

مخاوف انجلترة

كانت تخاف من امتداد نفوذ روسيا نحو البحر الأبيض المتوسط ، لاعتقادها أن بلغاريا وغيرها من ولايات البلقان ستكون مجرد آلات في يد الروسيا ، وأعلنت وجوب نقض معاهدة « سان استفانو » وعرض المسألة على مؤتمر دولي . ووافقتها النمسا على ذلك ، إذ كانت تود لنفسها شيئاً من الغنيمة

تمسكها بعزمها

وحاولت الروسيا مقاومة ذلك ، بحجة أن الدول لم تخُضْ غمار الحرب ، وأن ليس لها حق في حرمانها من ثمرة انتصارها ؛ ولكن الدول أصرت على عزمها ، ولا سيما انجلترة التي كان يدير سياستها « لورد بيكنزفيلد » ، وكان لا يترك فرصة للوقوف في سبيل اطماع الروسيا

مؤتمر برلين

فلم يسع الروسيا الاَّ التسليم بمطالب الدول ، وعُقد المؤتمر الدولي في برلين يوم ١٣ يونيه سنة ١٨٧٨ برياسة بسْمرك . وكان يمثل النمسا فيه « الكُنْت أندراسي » ويمثل الروسيا « جرُتْشا كوف » و «شوالوف» ، ويمثل انجلترة «لورد بيكنز فيلد» و « لورد سلِسْبُرى »

التوفيق بين الدول

ولما عُقد مؤتمر برلين حدث خلاف عظيم بين ممثلي الدول ، حتى أوشك المؤتمر أن ينفضَّ من غير أن يفصل أمراً ؛ فتارة كان « جرتشا كوف » يطوي مصوراته يأساً من المفاوضة ، وطوراً يطلب اللورد بيكنزفيلد قطاراً خاصاً إيذاناً بالرحيل ، لولا حسن سياسة بسمرك وحذقه في التوفيق بين الجميع في جلسات خاصة ، حتى تمّ الاتفاق بينهم ، وأمضيت « معاهدة برلين » الشهيرة في ١٣ يوليه سنة ١٨٧٨ ، وبها رُفع كثير من الاجحاف الشديد الذي كان يلحق الدولة لو نفذت معاهدة سان استفانو

فأيدت المعاهدة استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود ، ولكنها محت ضم الجهات التي كان يراد زيادتها على أرضها . كذلك قسمت المملكة الشاسعة التي



لورد بيكنزفيلد

معاهدة برلين

كان يراد اقامتها باسم بلغاريا الى قسمين ؛ فجعلت بلغاريا الأصلية ولاية مستقلة بشؤونها الداخلية مع اعترافها بسيادة الدولة العثمانية عليها ويحكمها أمير تختاره جمعية أهلية بموافقة الدول ، وبقى « الروملّى الشرقى » تابعاً للدولة مع شيء من الاستقلال الادارى ، ويحكمه حاكم مسيحى يختاره السلطان كل خمس سنين بموافقـة الدول . وأيدت المعاهدة ما يختص برومانيا ، وهو أنها تستبدل بجزء من بسارابيا اقليم دوبروجا (وقد غضبت لذلك رومانيا غضباً شديداً) . أما ولايتا البُسنة والهرسك فأُذِن للنمسا باحتلالهما الى أن يتم اصلاح أمورهما الإدارية . وأيّدت حرية الملاحة فى نهر الطونة ، مع هدم القلاع التى على ضفافه ، وأبقت الاتفاقات القديمـة الخاصة بالبسفور والدردنيل على ما كانت عليه . وفى آسيا نزلت الروسيا عن ارزن الروم ، ولكنها احتفظت بباطوم وقارص . وتعهد الباب العالى باجراء الاصلاح اللازم تحت اشراف الدول ، وأن يساوى فى الحقوق السياسية بين جميع رعاياه من غير نظر الى دينهم ؛ ولكن الدول لم تؤيد ما ادعته روسيا من حقها فى حماية المسيحيين الروم . وأما ما عدا ذلك من شروط معاهدة سان استفانوا (وفيه مسألة الغرامة الحربية) فتُرِكَ الفصل فيه لاتفاق جديد بين روسيا وتركيا

وقد عُرض على المؤتمر مسألة اليونان وما ترمى اليه من توسيع حدودها . فلم يفصل فى ذلك بأمر معين ؛ وإنما نصحت الدول للباب العالى أن يسمح ببعض التعديل فى الحدود اليونانية ؛ وحفظت لنفسها الحق فى أن تعود الى التدخل فى الأمر فى المستقبل

المعاهدة السرية بين انجلترة والترك

وعندئذ أُعلنت معاهدة سرية كانت قد أُبرمت بين انجلترة والترك قبل انعقاد المؤتمر بعشرة أيام ؛ وهى ان تتكفل انجلترة الدولة العثمانية بحماية أملاكها فى آسيا بعد سلخ باطوم وقارص عنها ، وأن تنزل لها الدولة جزاء ذلك عن جزيرة قبرس، وتتكفل باجراء ما يلزم من الاصلاح فى بلادها حسبما تتفق عليه الدول

وقد ارتاح لورد بيكنزفيلد أشد الارتياح للنتيجة التى أفضت اليهـا المفاوضات الدولية ، حتى لقد قال عند عودته من المؤتمر : « عدتُ بالسلم والشرف »

ما نقض من معاهدة برلين

وكان سواس أوربا وقتئذ يظنون ان معاهدة برلين قد حلت المسألة الشرقية حلاً وطيداً ، وحفظت كيان الدولة العثمانية من التمزق فى المستقبل ؛ ولكن لم تلبث الحوادث ان برهنت عكس ذلك : فقد عارضت البسنة فى احتلال النمسا لبلادها ، فلم يتم ذلك الاحتلال الا فى سنة ١٨٧٩، بعد مقاومة عنيفة ، وضُمت بلغاريا والروملى احداهما الى الأخرى فى سنة ١٨٨٥ ، واحتلت برطانيا العظمى مصر سنة ١٨٨٢ ، وتولى اليونان حكم إقريطش عام ١٨٩٨ ؛ وفى عام ١٩٠٨ انتهزت النمسا والمجر فرصة الاضطراب الذى حل بالدولة العثمانية إثر ثورة يوليه سنـة ١٩٠٨ وضمت البسنة والهرسك اليها ضماً نهائياً* ؛ وفى العام نفسه أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة جملة ؛ وفى سنة ١٩١٢ أغارت ايطاليا على طرابلس وضمتها اليها ؛ ثم جاءت الطامة الكبرى على العثمانيين فى أوربا سنة ١٩١٣ اذ استطارت نار الحروب البلقانية

وقد كانت انجلترة وغيرها من دول أوربا تزعم أنها بِغَلّ يد الروسيا فى البلقان

---

* وكانت الصرب تطمع فى أن تضم اليها يوما ما البسنة والهرسك والجبل الاسود ، وجميع أهلها من العنصر الصربى . فلما فعلت النمسا فعلتها هذه حقدت عليها ذلك وبقيت تضمر لها السوء منذ ذلك العهد

تأمن شر الوقوع معها فى مشكلات . ولكن تكبيل يدى الروسيا هذا جعلها تجدّ فى توسيع نطاق ملكها فى آسيا ؛ فأدى ذلك الى اصطدامها مع الانجليز قرب الحدود الهندية ، والى اتباعها فى منشوريا والشرق الأقصى تلك الخطة الاستعمارية التى أوجدت فى الشرق الأقصى مشكلة أشد إشكالاً من المسألة الشرقية القديمة . وسيأتى ذكر بعض هذه الأمور مفصلاً فى الفصول الآتية

تأثير المعاهدة فى انجلترة وروسيا

الفصل الثالث عشر

نشأة دول البلقان

ان تاريخ نشأة دول البلقان هو تاريخ ابتداء الطور الأخير من اضمحلال الدولة العثمانية . ولقد كان شغل الأوربيين الشاغل إبان شباب الدولة هو صد الترك وارجاعهم الى آسيا ؛ فلما هرمت ووهنت قواها صار أكبر خطر يهدد سواس أوربا هو انحلال تلك الدولة وسقوط القسطنطينية من يدها، لما يتبع ذلك من المشكلات المعضلة التى تقع فيها الدول . لذلك كان أكبر عامل فى حفظ سلامة تركية أوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو تنافس الدول على سلبها وحسد بعضهم بعضاً

ضعف الترك وتنافس الدول

فمن ذلك أن النمسا التى طالما كانت مِجَنّ أوربا فى صد غارات الترك عنها أصبحت بعدُ ترى سلامتها فى حفظ كيان دولتهم، لعلمها أن مداومة الروس زحفهم جنوباً وإحرازهم السيادة فى البلقان يكون نذيراً بتأسيس دولة سلافية هائلة فى تلك الجهات لاتلبث أن تضم بين جناحيها جميع السلافيين فى جنوبي أوربا الشرقية . وفى ذلك الخطر الأكبر على ملك آل هبسبرج

النمسا والترك

كذلك رأت برطانيا العظمى وجوب ابقاء الترك فى أوربا سداً فى وجه الروسيا

برطانيا والترك

يقى دولتها فى الهند(١) ومركزها فى البحر الأبيض المتوسط. لذلك تدخّلت فى أمر حماية الترك عام ١٧٩٠ (أيام كترين الثانية) وفى حرب القرم وفى غير ذلك من المواقف

الادواء الداخلية

ومع ان أوربا كانت تدرأ عن تركيا الأخطار الأوربية ، كانت الأدواء الباطنة فى داخليتها تضنى فى جسم ذلك « الرجل المريض »(٢) وتدنيه من الحَين. وأفتك عوامل هذه الأدواء اثنان : الأول – اطماع حكام الأقاليم وسلبهم النفوذ من يد السلاطين الضعاف ؛ والثانى – وهو أعظم خطباً – تمرد الشعوب المسيحية التى فى البلقان ، وسعيهم فى الانسلاخ عن الدولة

شعوب البلقان ومراميهم

وكان يقطن بلاد البلقان وقت أن غزاها الترك عدة شعوب مسيحية متميز بعضها من بعض فى اللغة والزى والعادات والأخلاق . وأهمها خمسة : الصربيون فى الشمال الغربى ، والألبانيون فى الغرب ، واليونان (الأروام) فى الجنوب وفى الجزر وعلى بعض السواحل الأخرى ، والبلغار فى الشمال على جانبى جبال البلقان ، والرومانيون شمالى نهر الطونة. وربما قطن من هذه الشعوب أقوام خارج منطقة وطنهم يخضعون لحكم دولة من الدول المجاورة لتلك المنطقة : فمثلاً كان بعض الرومانيين يقطنون اقليم ترنسلوانيا فى بلاد المجر ، وبعضهم فى بيكوفينا بالنمسا ، وبعضهم فى بسارابيا من من بلاد الروسيا؛ كذلك كان بعض الصربيين يقطنون بلاد المجر وألبانيا والهرسك؛ واليونان منتشرين فى الجزر وعلى سواحل آسيا . فكان همّ كل شعب من هذه الشعوب جمع شتاته وتأليف مملكة منه قائمة بنفسها . ونما فيهم هذا الأمل بانتشار روح العصبية القومية فى أنحاء أوربا

تقصير الترك

فلما تولى الترك حكمهم لم يعرفوا كيف يد مجونهم فى جسم دولتهم ، بتغيير صفاتهم القومية وصبغهم بالصبغة التركية أو الاسلامية ؛ وكل ما حصل أن اعتنق الاسلام معظم

---

(١) وزاد اهتمامها من هذه الوجهة عند ما انشئت قناة السويس وصارت أقرب طريق الى الهند . أما خوف الانجليز على الهند من جهة آسيا فلم يعظم الا بعد ، كما ذكرنا فى آخر الفصل السابق

(٢) لقبت روسيا الدولة « برجل أوربا المريض » وانتشر هذا اللقب فى سائر ممالك أوربا

الألبانيين ونفر من الصربيين . إلاّ أنهم لم يندمجوا كل الاندماج فى الترك ، لاحتفاظهم بلغتهم وزيهم وغير ذلك من المميزات القومية . فبقيت هذه الشعوب تنظر الى التركى كأنه غريب بينهم لا بد من اجلائه عن بلادهم يوماً ما ، حتى تتحقق أمانيهم الوطنية

وكان اليونانيون أول من تخلص من حكم العثمانيين ؛ وقد أوضحنا فى فصل سابق كيف نالوا استقلالهم فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر . أما الأمم الأخرى فمع أننا أتينا فيما تقدم على كثير من أخبار تطورها وتدرجها فى الانسلاخ عن الدولة ، نجمع هنا ملخص تاريخها زيادةً فى ايضاح نشأتها والعوامل التى ساعدت على قيامها

١ — ✻ رومانيا ✻

رقى رومانيا

رومانيا هى الآن أوسع ولايات البلقان رقعة*، وبها من السكان نحو ٧,٠٠٠,٠٠٠ نفس . وفضلاً عن هؤلاء يوجد من الشعب الرومانى نحو ٣,٥٠٠,٠٠٠ نفس فى بلاد المجر و ١,٥٠٠,٠٠٠ فى بسارابيا من أملاك الروسيا ؛ ولا يزال ضم هؤلاء الى رومانيا مطمحَ أنظار الرومانيين . وتجارة رومانيا تكاد تعادل فى اتساعها مجموع تجارات الصرب والجبل الأسود وبلغاريا واليونان معاً ؛ ولها جيش عظيم يلى فى مرتبته جيوش الدول الست العظام . ولقد تقدمت فى العصر الأخير تقدماً عظيماً حتى سُميت بلجيكا الشرق الأدنى

أصل الرومانيين

ومع أن رومانيا الحديثة لم تنشأ إلاّ منذ خمسين عاماً ، يرجع تاريخ أقوامها الى القرن الثانى بعد الميلاد . وذلك أن العاهل (الامبراطور) تراجان الرومانى أنزل طوائف من الرومان فى اقليم داسيا عند أسفل نهر الطونة ، فنموا هنالك وصاروا حاجزاً يدرأ عن الدولة الرومانية غارات الأمم البربرية من الشمال . ثم تخللت تاريخهم فترة طويلة خمل ذكرهم فيها ونسى أمرهم ، فلم يظهروا بعدُ فى التاريخ إلاّ فى القرن الثالث عشر فصرنا نراهم يقطنون إمارتين مستقلتين وهما مُلْدافيا وولاخيا (البَغْدان والافلاق) ؛

---

* كلامنا هنا مقصور على الحالة قبل الحرب العظمى

رومانيا والترك وما لبثوا أن دخلوا فى نطاق السلطنة العثمانية ، وإن بقى يحكمهم أمراء من بينهم . فلما أخذت الروسيا تزحف جنوباً على الأملاك التركية فى القرن الثامن عشر كانت هذه البلاد بطبيعة مركزها الجغرافى ممراً لها فى طريقها ، إذ كان الحدّ بين روسيا وتركيا هو نهر بروث الذى يحد ملدافيا أيضاً من الشمال ولذلك كانت الروسيا كلما شنت الغارة على الترك تبدأ باحتلال ملدافيا وولاخيا. وفى معاهدة كتشك قينرجة (١٧٧٤)

رومانيا وروسيا نالت الروسيا حق التدخل فى شؤون الامارتين ؛ وفى معاهدة بخارست (١٨١٢) استحوذت على القسم الشرقى من ملدافيا المعروف بيسارابيا ؛ ثم أعلنت حمايتها عليهما فى معاهدة ادرنة (١٨٢٩) ، فصارتا فى حيز الأملاك الروسية

ولما كانت هذه البلاد مفتاح نهر الطونة ، صارت الروسيا بالاستحواذ عليها هى المسيطرة على الملاحة فى هذا النهر الذى هو أعظم أنهار أوربا ؛ ولذلك اضطرتها الدول

رومانيا ومعاهدة باريس سنة ١٨٥٦ فى معاهدة باريس (١٨٥٦) الى النزول عن الإمارتين ، فصارتا ولايتين مستقلتين فى شؤونهما الداخلية تحت سيادة الدولة العثمانية ، ومعهما بسارابيا

وكان أهل الولايتين طالما تاقوا الى توحّدهما وتكوّن مملكة قوية منهما ، فوجدوا معاضداً كبيراً فى نابليون الثالث ، حتى لم ترَ الدول بداً من النظر فى أمرهم ؛ فقررت

رومانيا والدول فى معاهدة باريس الآنفة أن تُنتخب هيئة نيابية فى كل من الولايتين لعرض آراء الشعب على لجنة أوربية ؛ فأعلنت هاتان الهيئتان رغبة الشعب فى الاتحاد . وإذ ذاك وقفت فى طريق إنفاذ هذه الأمنية دولتان : انجلترة لرغبتها فى حفظ سلامة الدولة العثمانية لتقوى على صد الروسيا ، والنمسا لخوفها من تأثير الدولة الرومانية الجديدة فى رعاياها الرومانيين فى ترانسلوانيا وغيرها ؛ وانتهى الأمر بأن أقرت الدول أن تختار كل ولاية أميرها بنفسها (١٨٥٨) . فلم ينصرف الرومانيون عن عزمهم ، ووجدوا

استقلالها الادارى طريقاً لم يخطر على بال الدول ؛ فوقع اختيار كل من أهل الولايتين على شخص واحد وهو « الاسكندر كوزا » . فلم تر الدول إزاء ذلك مجالاً للمعارضة ، وتولى كوزا العرش بلقب « الاسكندر الأول » أمير رومانيا ، واعترف له السلطان بالملك مدة

حياته (١٨٦١) . فأعلن كوزا حينئذٍ على الملأ « أن الأمة الرومانية قد تكونت »

كوزا

لبث الأمير كوزا على العرش سبع سنوات (١٨٥٩ – ١٨٦٦) وجّه فيها عنايته للاصلاحات الداخلية، وقد تناولت هذه التدخل فى شؤون أملاك الكنيسة وتخفيف العبء الذى أثقل به الأشراف كاهل الفلاحين ، فحنق عليه الأشراف ورجال الدين ، واضطروه الى اعتزال منصبه

شارل

فخلفه على العرش الأمير شارل من بيت هوهنزُلرن سِجْمَرِنْجن : أوعز اليه بسمرك بقبوله، تنبأ بما ستناله هذه البلاد من الفلاح العظيم، وعند انتهاء الحرب الروسية التركية فى سنة ١٨٧٨ اعترفت الدول رسمياً باستقلال رومانيا ، ثم تحولت حكومتها الى ملكية سنة ١٨٨١ . وبقى شارل ملكاً على رومانيا الى سنة ١٩١٤؛ فاستمرت البلاد فى التقدم مدة حكمه الطويل ، حتى بلغت قبيل الحرب العظمى درجة من الرقى لم تكن تخطر على بال

استقلال رومانيا

٢ — ✱ بلغاريا ✱

أصل البلغار

كانت بلاد البلغار فى الأزمنة الأولى تقطنها قبائل من تراقية والِّيريا ، خضعوا فيما بعد لفليب ملك مقدونيا والاسكندر الأكبر من بعده ، ثم أخضعهم الرومان ، وعلى مدى الأيام حلّ محلهم فى هذه الجهات أقوام من الجنس الصقلبى (السلافى). وفى القرن السابع غزا هؤلاء جنس طورانى متبربر يسمى « البلغار » واستوطن البلاد؛ فامتزج العنصران أحدهما بالآخر، ونشأ منهما شعب أخذ من العنصر الأول لغته (الصقلبية) ومن الثانى اسمه ، وهو الشعب البلغارى الحالى. ومن ذلك الحين بقيت البلغار أمة مستقلة الى أن أخضعتها الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٠١٨؛ فبقيت تحت حكمها أكثر من قرن ، الى أن استعادوا استقلالهم وكوّنوا مملكة قوية ، ما زالت فى مكافحة مع الصرب، حتى أتى العثمانيون واكتسحوا الطائفتين فى أواخر القرن الرابع عشر

البلغار والترك

وقد خضع البلغاريون للدولة العثمانية خضوعاً تاماً ، وهى منحتهم حكومة عادلة ؛ فبقوا نحو خمسة قرون يتمتعون فى ظلها بالراحة والطمأنينة ، حتى أن ضباط الروس لما اجتازوا البلاد عام ١٨٧٧ لانقاذ « اخوانهم » من جور الترك المزعوم وجدوا أنهم أحسن حالاً من فلاحى روسيا ذاتهـا . وقد حاولت بعض الجمعيات السرية فى بخارست بث روح الوطنية والبغضاء للترك فلم تصادف نجاحاً . فكان يُظن أن البلغاريين يبقون على ولائهم للدولة ما دامت . ولكنّ الأحوال تغيرت فجاءة سنة ١٨٧٥، اذ شبت نار الثورة فى بلاد الهرسك ، واندلع لهيبها فى سائر ولايات البلقان؛ فنال بلغاريا شرارة منها. وقام البلغاريون بثورة فى «تتاربزاردجن»، فأُخمدت من غير كبير عناء . واشتط جنود الأتراك فى سفك دماء البلغاريين ، حتى لفت الأمر أنظار دول أوربا الغربية ، وصُور فى أعينها بأقبح صورة بتأثير أقوال غلادستون الحماسية فى هذا الشأن (وهو ما عُرف بالفظائع البلغارية)

بلغاريا وثورة الهرسك

الفظائع البلغارية

وتبع ذلك نشوب الحرب الروسية التركية ، وفيها هُزم الترك شر هزيمة حتى اضطروا الى ابرام معاهدة « سان استفانوا » فى مارس سنة ١٨٧٨ . وقد رأينا كيف رضوا فى تلك المعاهدة بتكوين ولاية بلغارية شاسعة الارجاء تمتد من الطونة الى بحر ايجة ومن البحر الأسود الى ألبانيا ، شاملة بلغاريا الأصلية وولاية الروملى الشرقية وجزءاً عظيماً من مقدونيا ، ورأينا كيف عارضت فى ذلك اليونان والصرب فضلاً عن معارضة دول أوربا العظمى ؛ مما أفضى الى ابرام معاهدة برلين ، وبها قُضى على الأمل فى تكوين تلك الدولة البلغارية الشاسعة . فقُسمت ثلاثة أجزاء : فاعيدت مقدونيا الى الأملاك العثمانية ، وجُعل الاقليم الذى فى جنوب جبال البلقان (ولاية الروملى الشرقية) ولاية مستقلة بشؤونها الداخلية خاضعة للسلطان فى الأمور الحربية والسياسية ، ويحكمها حاكم عام مسيحى يختاره الباب العالى بموافقة الدول لمدة خمس سنين ؛ ولم يبق لبلغاريا الا الاقليم الذى فى شمالى جبال البلقان ؛ وبذلك فُصلت عن البلغاريين الذين يقطنون الروملى الشرقى وغيرها من الجهات . وجُعلت بلغاريا (بحدودها هذه) إمارة مستقلة

بلغاريا ومعاهدة سان استفانو

بلغاريا ومعاهدة برلين

بشؤونها الداخلية، خاضعة لسيادة السلطان الاسمية، وتدفع له جزية. واختار الأهلون أميراً لهم الاسكندر أمير بَتنبرج، وهو أمير ألمانى ذو قرابة ببيت الملك الروسى

مؤازرة روسيا لبلغاريا

وأخذت الروسيا من بادئ الأمر تمدّ الامارة الجديدة بكل ما يعينها على تنظيم أمورها وترقية أحوالها، ولا سيما جيشها الذى كان معظم كبار ضباطه من الروس؛ كما كان بعض الوزراء منهم أيضاً. فعظم نفوذ روسيا فى البلاد، وأخذ عمالها يستبدون فيها بالأمر، مُظهرين أنهم يخدمون إرادة القيصر قبل كل شىء، حتى انقلب رضى البلغاريين عن روسيا سخطاً. وانضم الأمير الى جانب الشعب، فعظم النزاع بين المملكتين

انضمام الروملى الى بلغاريا

وفى أثناء ذلك كان البلغاريون فى ولاية الروملى الشرقية حاقدين على عزلتهم عن بنى جلدتهم فى بلغاريا، ويترقبون الفرصة للانضمام اليها. فخرجوا على الدولة وطردوا الوالى العثمانى، وأعلنوا رغبتهم فى الانضمام الى بلغاريا. فلبىّ الأمير الاسكندر نداءهم، وأعلن انضمامهم الى بلاده، وأنه أصبح «أمير البلغاريين» (سنة ١٨٨٥). ولم تُبدِ الدولة مقاومة؛ ولم تسمح أحوال دول أوربا الغربية بتدخلها فى هذا الأمر مع ما فيه من الافتيات الصريح على معاهدة برلين، فاكتفت بالاحتجاج على هذا الاتحاد. أما الروسيا فانها هاجت وماجت، وأسرعت الى استدعاء ضباطها من بلغاريا؛ فلم يكن لذلك من أثر فى بلغاريا إلاَّ ازدياد محبة الشعب لأميرهم الاسكندر

الحرب بين بلغاريا والصرب

وأحدث هذا الانقلاب استياء فى بعض الولايات البلقانيــة الأخرى، ولا سيما الصرب، فانها حقدت على بلغاريا ذلك التوسيع فى نطاقها، وشنّت عليها الغارة. فاشتبك الجيشان فى موقعة دموية عند «سِلِفنِتْسا»، بقى النصر بعدها حليف البلغاريين، وأخذوا يزحفون على حاضرة الصرب؛ فلم يعقهم إلاَّ تدخّل النمسا، فوقفت الحرب بعد أسبوعين وأُبرمت «معاهدة بخارست» بين المتحاربين (مارس سنة ١٨٨٦) على أن تبقى أملاك الطرفين على ما كانت عليهِ. وقد كان لفوز البلغاريين فى موقعة سِلِفنِتْسا أعظم أثر فى تأييد اتحادهم

مكايد روسيا الاسكندر

ومن ذلك الحين عظمت محبة البلغاريين لأميرهم الاسكندر ، وزادت كراهية الروس له ؛ فحنق عليه ابن عمه الاسكندر الثالث قيصر روسيا ، لاستقلاله عنهُ فى الرأى ، ودبر له المكايد لاختطافه . فبعد أن خابت المكيدة مرتين اختُطف الاسكندر ليلاً من حجرة نومه ، وأُرغم على اعتزال منصبه وحُمل من البلاد . فأبقتهُ الروسيا عندها الى أن ظنت أن حزبها صارت له الغلبة فى بلغاريا ، فأذنت له بالاقامة فى النمسا ؛ وإذ ذاك استدعاه البلغاريون وأعادوه الى عرشه . ولكنهُ ما لبث أن اعتزل العرش بارادته ، خوفاً من الروسيا أن تغتاله (سبتمبر سنة ١٨٨٦)

فردنند

وعند ذلك جدّت روسيا فى عرقلة اختيار خلف له ؛ فلم يزد ذلك البلغاريين إلاّ كرهاً لها . وبعد عدة شهور وقع اختيار الشعب على « فردنند » أمير سَكس كوبرْج أحد أحفاد لويس فليب ، فنُصّب أميراً على بلغاريا فى يوليه سنة ١٨٨٧

ستمبلوف

وكان فردنند يفوق سلفه سياسة وثباتاً ؛ وساعده الحظ بأن اتخذ وزيره فى سبع السنين الأول من حكمه رجلاً من أنبغ البلغاريين وأقدرهم، هو «استيفن ستَمْبلوف» الذى يُعَدّ أعظم سياسى رأتهُ البلقان ، والذى حاز بنبوغه ودهائه لقب « بسمرك البلغارى». وفى المدة التى قبض فيها على مقاليد الأمور رفع بلغاريا الى مستوى عظيم فى نظر أوربا، بشدة ثباته وتمسكه فى سياسته بمبدأ واحد ، وهو «بلغاريا للبلغاريين». وعظمت مكانته ، فحسده فردنند وعزله عام ١٨٩٤ . فانتهز أعداء ستمبلوف هذه الفرصة وقتلوه فى العام التالى

وكانت الدول قد أخذت تنظر بعين الارتياح الى تقدم بلغاريا واستتباب السكينة فيها ، فاعترفت بفردنند أميراً عليها سنة ١٨٩٦

استقلال بلغاريا

وفى سنة ١٩٠٨ أعلنت بلغاريا استقلالها عن الترك على إثر ثورة يوليه التركية، وصار أميرها يسمى ملكاً ، بل قيصراً

﴿ الصرب ﴾

أصل الصربيين

الصربيون جيل صقلبي نزلوا شبه جزيرة البلقان فى القرن السابع بعد الميلاد ؛ فاستوطنوا شواطئ بحر الادريات، وانتشروا جنوباً حتى بلاد مقدونيا والجبل الأسود. وما لبثوا أن وقعوا فى مشاحَّات طويلة مع البلغاريين ؛ فأخضعهم هؤلاء أيام اتساع دولتهم، وبقوا يئنون تحت عبء الضعف والانحلال، الى أن اتحدت كلمتهم وكوَّنوا دولة متماسكة فى أواسط القرن الثانى عشر. وبلغت هذه الدولة أقصى مداها فى أيام ملكهم « اصطفانوس دوشان » (١٣٣٦ – ١٣٥٦) الذى يُعدّ أقوى ملك جلس على عرش الصرب. وقد وسع دوشان نطاق دولتـه حتى صارت تشمل كل شبه جزيرة البلقان تقريباً ، ممتدة من الطونة الى خليج كورنثة ، ومن بحر الادريات الى بحر إيجة: فدخلت فيها بلاد البسنة والهرسك ومقدونيا وبلغاريا، وصارت القسطنطينية نفسها على وشك الخضوع لها ، لولا أن داهم دوشان الموت عام ١٣٥٦ . فلم تعمّر الدولة الصربية بعده طويلاً ، فأخذت فى الانحلال السريع ، ولم يمضِ ثلاثون عاماً حتى مزقها الترك فى واقعة « قوصوة » (١٣٨٩) التى بقيت بعدها البلقان فى يد العثمانيين نحو خمسة قرون . وفى أول عهد الحكم العثمانى كانت الصرب ولاية مستقلة فى داخليتها ، ثم أُدمجت ادماجاً تاماً فى الدولة العثمانية سنة ١٤٥٩

دوشان

غزو الترك للصرب

الصربيون والترك

ولم يطب للصربيين العيش فى عهد العثمانيين ، وكانوا دائماً يترقبون الفرص للإفلات من يدهم، وكادوا يفوزون بنيل استقلالهم أيام كانت النمسا تعطف عليهم، وخصوصاً عند ما عزم العاهل يوسف الثانى على اقتسام أملاك الترك بأوربا بينه وبين الروسيا قبيل انفجار الثورة الفرنسية. فضاع أملهم بموته سنة ١٧٩٠، وبتحول مجرى السياسة النمسوية بعد ذلك الى طريق أخرى ، فعاد الترك الى غل أيديهم . ولما لم يجدوا عوناً من الدول المجاورة لهم ، عملوا على نيل استقلالهم بأيديهم

والمؤسس الأول للصرب الحديثة هو « قره جورج » أحد أبناء فلاحى الصرب

قره جورج

وذلك أنه لما اشتد عسف الجنود الانكشارية فى البلاد فرَّ قره جورج مع جماعة من مواطنيه الى الجبال واعتصموا بها؛ ولم يلبث قره جورج ان عظمت مكانته بين قومه وصار رئيساً على قوة كبيرة . وفى هذه الآونة سخط السلطان على جنود الانكشارية لكثرة تمردهم؛ فأمر والى البُسنة أن يستعين بالصربيين على إخضاع الانكشارية وطردهم من بلغراد . ففعل وتخلصت بلاد الصرب من شر أولئك الجنود الطغاة . ولما رأى الصربيون أن النصر تمَّ على أيديهم، أنسوا من أنفسهم القوة وانتهزوا فرصة وجود السلاح بأيديهم للخروج على الدولة نفسها . فخرجوا عليها بقيادة قره جورج ، وطلبوا جلاء الجنود التركية عن القلاع الصربية . فلم تجبهم الدولة الى مطالبهم ، وأخذت ترسل لإخمادهم الجيش بعد الجيش؛ فما كان ذلك يجدى نفعاً أمام اعتصام الثوّار بالجبال ، وحذقهم فى حرب الكرّ والفر . وإذ كان الترك فى حرب عظيمة مع روسيا ، انتهى الأمر بانهزامهم هزيمة منكرةً عند «ميشار» سنة ١٨٠٦؛ فاضطرت الدولة الى منحهم استقلالهم بكل شؤونهم الداخليـة ، ورضيت باخلاء جميع القلاع الصربية (ما عدا بلغراد) وتخلى الملاك الترك عن أملاكهم فى البلاد

الاستقلال الداخلى

لم يتمتع الصربيون بثمرة هذا الفوز المبين إلاَّ قليلاً حتى زال عن الدولة الخوف من جانب الروسيا، لاشتغال هذه بعد عام ١٨١٢ بأمر نابليون، وتفرغت لاخضاعهم من جديد ، فلم يقدر قره جورج على مكافحتها هذه المرة ، وفرَّ الى النمسا

ملوش

فتولى زعامة الحركة رجل آخر من اعدائه يسمى « مِلُوش أُبرينووِتْش » وكان يتّجر فى الخنازير ، فجمع منها ثروة طائلة؛ وأظهر للدولة ولاءه وسخطه على الاضطراب الجارى فى الصرب ، فنصّبه السلطان جابياً للضرائب . فازدادت بذلك مكانته بين قومه ، وصارت له قوة يُخشى جانبها ، وما زال بالسلطان يتملّقه تارة ويظهر له قوته أُخرى ، حتى جعله أميراً وراثياً على الصرب سنة ١٨٣٠ ، ومنح البلاد استقلالاً داخلياً . ولذلك يُعدّ « ملوش » المكوّن الثانى لمملكة الصرب الحديثة

وقد كانت العداوة التى بين هذين الزعيمين من أنكد المصائب على الصرب ،

العداوة بين بيتى قره جورج وتش وابرينو وتش

وبقيت تذكى فيها نار الاضطرابات والقلاقل زمناً طويلاً . فان ملوش هذا خشى من بادئ الأمر منافسة قره جورج له ، فدبَّر مكيدة واغتاله سنة ١٨١٧ . فأخذ بيت قره جورج يثأر لدمه ، وبقيت نار الثارات بين البيتين تفتك بالبلاد حتى ثالث طبقة من نسلهما

أما ملوش فانهُ استبدّ بالأمر ، وبالغ فى ظلم القوم حتى اضطروه الى النزول عن العرش سنة ١٨٣٩ . وبقى الملك فى بيته ثلاث سنوات ، ثم نُزع منه ، واختار الصربيون أميراً لهم « الاسكندر قره جورج وِتْش » بن قره جورج بطلهم الأول .

الاسكندر

فحكم الاسكندر ستة عشر عاماً (١٨٤٢ — ١٨٥٨) ثم عُزل ، إذ التزم الحيدة أثناء حرب القرم ، فأغضب بذلك قومه الذين كانوا يميلون مع الروسيا ، فأُعيد ملوش من منفاه وجلس على العرش وهو فى التاسعة والسبعين من عمره ، فبقى مستبداً بالسلطة حتى مات سنة ١٨٦٠

ميخائيل

فخلفه ابنه « ميخائيل أبْرينووتش الثالث » ، فكان أحزمَ وأقدر ملك جلس على عرش الصرب الى اليوم . وقد قام باصلاحات كثيرة تلائم حالة بلاده المتأخرة ، واستمال السلطان حتى سحب الجنود التركية من جميع قلاع الصرب . وبينما هو سائر بالبلاد فى طريق التقدم السريع اغتيل فجاءة عام ١٨٦٨ : ذبحه أتباع قره جورج الذين لم يزل غلّ الانتقام يغلى فى صدورهم

ميلان

فخلفه ابن عمه «ميلان أبرينووتش الرابع» . وفى أيامه حدثت ثورة عام ١٨٧٥ التى عمّ لهيبها بلاد البلقان . وكان أولُ نشوب الثورة فى بلاد الهرسك ، حيث كان الفلاحون يئنون تحت أعباء ثقيلة من الضرائب واستبداد الملاّك والجباة ، ومنها انتشرت الثورة الى البسنة . فقام أهل الصرب والجبل الأسود بمساعدة بنى جلدتهم فى تلك البلاد . وكان على الصرب نصيب وافر من محاربة الترك ، كاد يقضى عليها لولا تدخل الروسيا لحمايتها . فنشبت الحرب الروسية التركية التى أفضت الى إبرام معاهدة « سان استفانو » بين الروس والترك ، وبها ضُم الى الصرب اقليم عظيم فى

الصرب ومعاهدة سان استفانو

الجنوب . فلما عارضت الدول فى إنفاذ هذه المعاهدة وأُبرمت « معاهدة برلين » سنة ١٨٧٨، نُزع من الصرب هذا الاقليم الجنوبى ، وعوضت منه جزءاً من الأراضى التى كانت ستضم الى بلغاريا ؛ وفضلاً عن هذا احتلت النمسا بلاد البسنة والهرسك . ففُصل بذلك بين الشعوب الصربية التى فى الصرب والجبل الأسود والبسنة والهرسك ؛ فسخط لذلك الصربيون الذين كانوا يرمون الى توحيد شعوبهم ، وحقدوا على النمسا

الصرب ومعاهدة برلين

وقد أيدت معاهدة برلين استقلال الصرب استقلالاً تاماً ، وتلقب الأمير ميلان بلقب « ملك » سنة ١٨٨٢ . وبقيت الصرب بعد ذلك فى اضطراب نحو ٢٠ عاماً بسبب العداء بين بيتى قره جورج وتش وأبرينووتش وفساد حاشيـــة الملوك . ففى سنة ١٨٨٩ وثب الأهلون بالملك ميلان ، واضطروه الى النزول عن العرش . فخلفه ابنه الاسكندر ؛ فاستبدّ بالملك وقضى على الحكم النيابى الذى وضعه سلفه . وفى سنة ١٩٠٣ دبرت مكيدة لاغتياله ، فذبح فى القصر هو وزوجته فى غلس الليل . ولم يكن له خلف ، فانقرض بذلك بيت أبرينووتش وأُعيد العرش الى بيت قره جورج

بيت قره جورج وتش

وتش، واليهِ ينتسب الملِك بطرس الحالى (١٩١٩) . وقد قام بطرس هذا باصلاحات عدة تناولت نظام الحكومة والتعليم والشؤون الاقتصادية ؛ ولكنّ حال البلاد لا تزال منحطة مضطربة

﴿ الجبل الاسود ﴾

أصل الجبليين

أهل الجبل الأسود فرع من الصربيين الذين نزلوا هذه الجهة وقت انتشارهم فى شبه جزيرة البلقان . ولما استولى الترك على هذه الجهات بقيت بلاد الجبل الأسود مستقلة فى شؤونها الداخلية ، لبعدها وصعوبة الاتصال بها . وبقى يحكمها أُمراء دينيون تختارهم جمعية من علية القوم . وفى سنة ١٦٩٦ انتُخِب « دانيال بترو وتش »

بيت بترو وتش

(رأس اسرة بترو وتش الحالية) أميراً على البلاد، وجُعل الملْك وراثياً فى بيته برضاء الأمة ، واستمال روسيا الى جانبه بزيارته لبطرس الأكبر سنة ١٧١٥

ولما تولى عرش البلاد « دانيال الثانى » (١٨٥١ – ١٨٦٠) نزل عن السلطة الدينية ، وتفرغ لشؤون الملك . والتزم الحيدة أثناء حرب القرم ، فاغضب بذلك مواطنيه الذين كانوا يتوقون لمنازلة الترك . وقد عرض على مؤتمر باريس (سنة ١٨٥٦) أن يمنح بلاده استقلالها ؛ فلم ينظر المؤتمر فى طلبه . وبقى بيت بترو وتش يترقب كل فرصة لنكاية الترك ، حتى شبت نار الفتنة فى بلاد البسنة والهرسك عام ١٨٧٥ ؛ فاتحد الأمير نيقولا الذى تولى عرش الجبـــل الأسود سنة ١٨٦٠ مع ميلان أمير الصرب ، فشنا الغارة على الترك وغزوا بلاد الهرسك . ولما انتهت الحرب بمعاهدة سان استفانو ضُمّ الى الجبل الأسود اقليم يفوق بلاده الأصلية فى مساحتها وعدد سكانها ، ولو أُنفذ ذلك لتم اتصالهـا بالصرب ومُهدت الطريق لاتحاد الشعوب الصربية . ولكن قُضى على هذا الأمل فى مؤتمر برلين الذى لم يُبق بيد الجبل الأسود الاّ نصف ماضُمّ اليه ؛ ومع ذلك امتنع مسلمو هذه الجهات عن اسلام أنفسهم للحكومة الجديدة ، ولم يتمّ للجبل الأسود الاستيلاء على هذه الجهة الاّ بعد أن قامت الدول بمظاهرة بحرية أمام « دُلسينو » سنة ١٨٨٠

الجبل وثورة البسنة والهرسك

استقلال الجبل الاسود

وقد بقيت بلاد الجبل الأسود منذ ذلك الحين فى سكينـــة وتقدم تدريجى ؛ وربط الأمير نيقولا بيته بطريق المصاهرة بالأسرتين المالكتين فى الروسيا وايطاليا ، فكان لذلك أكبر أثر فى دخول بلاده فى زمرة الدول الأوربية . ولم تلبث الدول ان اعترفت له بلقب الملك، فتُوج ملكاً على الجبل الأسود فى اغسطس سنة ١٩١٠ أزمان الثورة التى خُلع فيها السلطان عبد الحميد

تلقب أميره بلقب ملك

الفصل الرابع عشر

انجلترة فى القرن التاسع عشر

حال انجلترة بعد حروب نابليون

خرجت انجلترة من الحروب الأوربية الطويلة عام ١٨١٥ مكللة بالمجد والفخار ، ظافرةً بكل ما يكفل نمو ثروتها وتوطيد دعائم ملكها وتأييد سطوتها بين الأمم . فقد ثبتت حيث تزعزع غيرها فى مكافحة نابليون والقضاء على مطامحه ، وجعلت تكوّن التحالف بعد الآخر لنكايته حتى ظفرت بفخار قهره يوم « وُتَرْلو » ؛ وزاد عدد سكانها من ١٤٠٠٠٠٠٠ نفس قبل الحرب الى ١٩٠٠٠٠٠٠ نفس بعدها

الانقلاب الصناعى

نعم زادت الحرب فى دَينها زيادة فاحشة ، حتى بلغ ٨٦١٠٠٠٠٠٠ جنيه فى عام ١٨١٥ ، ولكن ذلك لم يكن شيئًا يذكر ، بجانب نموّ ثروتها واتساع مواردها من طرق عديدة : منها انفرادها فى تلك المدة بحركة الانقلاب الصناعى التى سيأتى الكلام عليها مفصلاً فى الباب الثالث من هذا الكتاب ، وهو من أعظم العوامل فى نجاح انجلترة ، حتى لقد قال أحد علماء الانجليز فى ذلك : « ان آلتنا البخارية المتقنة الصنع هى التى حاربت فى المواقع الأوربية وكوّنت المجد السياسى للأمة الانجليزية » .

اتساع التجارة

ومنها اتساع نطاق التجارة الانجليزية أثناء الحرب ، لبقاء أرض انجلترة فى تلك المدة آمنة مطمئنة ، فى حين كانت الممالك الأوربية الأخرى تخترقها الجيوش وتعبث بها يد التخريب ، حتى وقفت فيها حركة الصناعة وصارت تعوّل على انجلترة فى معظم ما تحتاج اليه من المصنوعات . ومنها أن الحرب ساعدت انجلترة على تأييد

سيادة البحار

سيادتها فى البحار ، اذ قد انفردت سفنها حينئذٍ بحمل معظم متاجر الدنيا ، حتى حسدها سائر الامم على هذا الخير الجزيل . يضاف الى ذلك ازدياد أملاكها فى أرجاء

المستعمرات

المعمورة ، بانتزاعها من فرنسا وهولندة أثناء الحرب الكثيرَ من مستعمراتهما النفيسة ، مما سيأتى ذكره مفصلاً فى غير هذا المكان

هكذا كانت حال انجلترة فى سنة ١٨١٥ . وهى حال يسهل معهـا تفهّم المنهج الذى نهجته الدولة الانجليزية بعد ذلك التاريخ فى اصلاح شؤونها الاقتصادية وأنظمتها الحكمية ، وتوسيع رقعة أملاكها بالوسائل السلمية

وقد أوردنا فى الفصول السابقة أهم الحوادث التى كان لانجلترة فيهـا شأن مع الدول الأوربية ، ولم يبق الآن ذكر أحوالها الداخلية . وليس فى مقدورنا هنا أن نتتبع حوادثها سنة بسنة ، ولذلك نكتفى بالكلام بوجه عام على ثلاثة أمور هى أهم ما دارت عليه الحوادث الداخلية فى تاريخ انجلترة فى القرن التاسع عشر . وهذه الأمور هى :

ثلاثة أمور هامة

(١) اصلاح الحكم النيابى

(٢) المساواة بين الطوائف الدينية المختلفة

(٣) علاقة انجلترة بارلندة

١ — * اصلاح الحكم النيابى *

انجلترة والثورة الفرنسية

كان مجلس النواب الانجليزى فى سنة ١٨١٥ (على بعد صيته واعتباره عند سائر الدول أرقى هيئة نيابية فى أوربا*) نابيًا عن صفات الحكم النيابى كما نعرفه الآن . وقد كان الشعب البرطانى يشعر بذلك قبل انفجار الثورة الفرنسية . وازداد ولعه أثناء انفجارها بتقويم ما اعوج من أنظمة حكومته ورفع افتياتها على حقوق الشعب ، لولا أن اشتطاط زعماء تلك الثورة ورضاءهم عن مخازيها الفتاكة نفّر عقلاء الانجليز منها ، وحدا بسواسهم الى القبض بيد من حديد على مروجى مثل هذه المبادئ الثورية . لذلك تأخرت حركة الإصلاح الحكومى الى ما بعد انقشاع تلك السحابة . وهنالك ظهرت بمظهر هادئ ، شعاره من جهة الرعايا المثابرة مع احترام أولى الشأن ما أمكن ذلك ، ومن جهة الحكومة أن لا تمادى فى السكوت عن مطالبهم حتى يصل الأمر الى ثورة عامة

* كانت تلك الدول تنسب نجاح انجلترة فى حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون الى حسن نظام الحكومة الانجليزية الممثلة فى مجلسها النيابى . وكان الاجدر بها أن تنسبه الى ثبات الشعب البرطانى ومقابلته للكوارث بقلب مطمئن

نفوذ الاشراف

وكان أساس الشكوى والمطالبة بالإصلاح عظم نفوذ الأشراف واستئثارهم بالسلطة فى جميع مصالح الحكومة ، ولا سيما مجلس النواب الذى يُستمد منه كل سلطان فى حكم البلاد . ففى حين أنهم كانوا هم المكوّنين لمجلس الأعيان كان لهم أيضاً النفوذ الأكبر فى مجلس العموم ، لاستخدامهم نفوذهم فى اختيار أعضائه

نظام التصويت

ذلك أن أعضاء مجلس العموم كانوا يمثلون ثلاث جهات أو دوائر ، يوفد كل منها العدد المقرر له من الأعضاء وهى: المديريات والمدن والجامعات . فالجامعات أقل هذه الدوائر أهمية، لقلة عدد ممثليها ؛ ومع ذلك فهم بطبيعة الحال من جانب الأشراف لما للجامعات الانجليزية حينئذٍ من النزعة التسيطرية (الأرستقراطية)

فى الاقاليم

أما فى الأقاليم فكان حق « التصويت » لاختيار الأعضاء مقصوراً على كل من يملك قدراً من الأرض لا يقل ريعه السنوى عن أربعين شلناً . ولما كان معظم الأرض بانجلترة فى أيدى كبار الملاك ؛ وأغلبهم من طبقة الأشراف ، كان عددُ من توافر فيهم هذا الشرط فى كل مديرية قليلاً جداً ، وفضلاً عما فى ذلك من حرمان جمهور المزارعين من حق التصويت ، جُعل النفوذ الأعلى فى الاختيار لعظماء البلاد ؛ فمن عززه عظيم بلده اختير بالاجماع ، ولم يتصدَّ له منافس. هذا الى أن كل مديرية كانت تنتخب عنها عضوين ، بلا مراعاة لأهميتها أو مقدار عدد سكانها

فى المدن

وأما حال المدن فكانت أدهى وأمرّ . فمع أن نفوذ الأشراف فى اختيار ممثّلى المدن لم يكن بأقل من نفوذهم فى اختيار ممثلى المديريات ، لم يكن للاختيار نظام واحد مطّرد كما فى المديريات ، بل تنوعت شكوله حتى ظهر نفوذ الأشراف بمظاهر عجيبة ، استبان فيها قلة الاكتراث بتمثيل الأمة تمثيلاً حقيقياً . من ذلك أن بعض المدن التى منحتها الملوك فى قديم الزمان حق ارسال أعضاء تمثلها فى المجلس ، وقت أن كانت ثَرِيّة آهلة بالسكان ، اضمحل شأنها على مرّ الأيام ، بل زال بعضها من الوجود جملة، ومع ذلك بقى لمنطقتها العدد المخصص لها قديماً من الأعضاء . فكان يختار الأعضاء فى مثل هذه الأحوال عظيم الجهة أو مالك أرضها . فى حين أنه ظهرت

مدن صناعية جديدة عظيمة الشأن مثل منشستر وبرمنجهام وليدز وشفيلد لم تكن في عالم الوجود وقت أن مُنحت المدن حق انابة أعضاء عنها . فبقيت بلا ممثل لها

ومن المدن نوع آخر كان انتخاب ممثليه في المجلس في يد الهيئة الصغيرة التي تدير شؤون المدينـــة ، وهي مكونة من شيخ البلد ومرءوسيه الذين كانوا جميعاً في العادة رهيني إشارة عظيم الجهة . فكان الانتخاب في مثل هذه الأحوال صوريًا محضاً . حتى أنه في سنة ١٧٩٣ بلغ عدد من نُخبوا بنفوذ الأشراف على هذا الوجه ٢٤٥ عضواً ، اختيروا بنفوذ ١٢٨ من الأشراف . وفي بعض المدن كان عدد المصوتين كثيراً ، ولكنهم كانوا يعطون صوتهم لمن ينقدهم اعلى ثمن فيه ؛ فكانت الكراسي في مجلس العموم تُشرَى وتباع*

معايب النظام

كل ذلك يدل على أن المجلس لم يمثل إلاّ طائفة واحدة من الشعب الانجليزي وهي طائفة الأشراف والأثرياء . فأدّى ذلك الى اهمال مصالح الطبقة الوسطى وطبقة العامة . وكان القوم يشكون من مظالم ومحن كثيرة ، ولا سيما الكساد الذي استولى على الصناعات الانجليزية عقب حروب نابليون ، وبقاء الجم الغفير من الصناع بلا عمل ، وغلاء المعيشة بسبب « قانون الغلال » الذي صدر عام ١٨١٥ لمنع جلب القمح الى انجلترة إلاّ اذا ارتفع سعر القمح الانجليزي عن حد معين . وكان الغرض من ذلك المحافظة على مصالح الأشراف الذين أخذوا أثناء حروب نابليون يكثرون من زراعة القمح ، بعد أن كان معظم أرضهم مراعي للأغنام (انظر فصل التقدم الصناعي والتجاري بعد)

استياء الاهلين

مطالبتهم بالاصلاح

واعتقد القوم أن لاعلاج لهذه الأحوال العليلة إلاّ بتغيير نظام الحكومة النيابية ، بحيث يصبح مجلس العموم ممثلاً لجميع طبقات الأمة . فقاموا يطالبون بجعل التصويت

(*) ولم تكن هذه الطريقة خالية من الفائدة ، فقد كانت هي الوسيلة التي بها انضم الى مجلس العموم نفر من أنجب أبناء انجلترة وانفعهم للبلاد . على ان السبب الاكبر في التهافت على دخول المجلس وجود طبقة جديدة من الاثرياء لم يألوا جهداً في انفاق شيء من المال ، حتى اذا دخلوا المجلس امكنهم اكتساب مكانة سياسية ، وربما فتح لهم ذلك باب الارتقاء لاحراز الالقاب اللوردية

عاماً يتمتع به كل فرد نافع من أبناء الانجليز . وحدثت من جراء ذلك عدة مظاهرات كانت تقابلها الحكومة بالحزم والشدة . وعظم ضجيج القوم إثر وفاة جورج الثالث

جورج الرابع

وتولى جورج الرابع العرش سنة ١٨٢٠ . وكان جورج هذا مكروهاً من الشعب أيام كان قيماً على أبيه وهو فى مرضه* ؛ فلما تولى العرش زاد من كراهية الشعب له ، لطالبه من مجلس النواب محاكمة زوجته « كارولين برنزويك » متهماً لها بارتكاب مايشين ، حتى يستطيع تطليقها . فعد الشعب ذلك دناءة منه وسخطوا عليه وعلى الكثير من رجال الحكومة الذين ساعدوه فى ذلك . فأخفق فى هذه المكيدة . وامتنع مجلس الأشراف (اللوردات) عن الموافقة على ذلك

انجلترة وثورة ١٨٣٠ الفرنسية

وفى سنة ١٨٣٠ رنّ صدى ثورة يوليه فى فرنسا بين الانجليز ، فازداد هياجهم هذه المرة اكثر من جميع سوابقها ، حتى لم تر الحكومة مفراً من اجابة الشعب الى بعض مطالبهم. واضطر الملك الى الانحياز الى هذا الرأى فعرض اللورد « جون رَسل » على مجلس العموم سنة ١٨٣١ مشروع لائحة لتوسيع نطاق التصويت فى انتخاب أعضاء المجلس؛ فوافق مجلس العموم على المشروع بأغلبية ضئيلة ، حتى أن الحكومة لم تستطع إحالة اللائحة على مجلس اللوردات ، فحلت البرلمان. فلما شُكّل مجلس العموم الجديد كان أعضاؤه اكثر ميلاً من سابقيهم الى المبادئ الحرة ؛ فوافقوا على اللائحة بارتياح ، ولكنها رُفضت عند ما عُرضت على مجلس اللوردات . فعُرضت اللائحة على مجلس العموم لثالث مرة ، وأحيلت على مجلس اللوردات فى ديسمبر سنة ١٨٣١

معارضة الاشراف فى الاصلاح

وكان المنتظر أن اللوردات يرفضونهـا هذه المرة أيضاً ، ولم يرد الملك ووزراؤه وقوع ذلك ، لازدياد هياج الشعب كل يوم ، ففكر الملك بمشورة « اللورد غراى » أن يرقّى الى رتبـة اللوردية عدداً جديداً من الانجليز لينضموا الى أعضاء مجلس اللوردات ، وهنالك يعطون أصواتهم فى جانب الموافقة على اللائحة ، فتتم الموافقة

---

* اصيب جورج الثالث فى اواخر حكمه بدخل فى عقله ، فلما تعذر شفاؤه اعتزل شؤون الملك وجعل ابنه قيما عليه

قانون اصلاح سنة ١٨٣٢

عليها رغم أنف المعارضين . فلما أحس اللوردات بذلك ، تلافوا أمر انخذالهم على رءوس الاشهاد ، وفضلوا أن يتغيّب المعارضون منهم للائحة يوم النظر فيها . فنفذت اللائحة وصارت قانونًا يسمى « قانون اصلاح سنة ١٨٣٢ » . وفحواه :

(١) الغاء الأصوات المختصة بالمدن التى بادت والمدن التى يقلّ عدد سكانها عن ٢٫٠٠٠ نفس ، وإنقاص الأصوات المختصة بالمدن التى يقل عدد سكانها عن ٤٫٠٠٠ نفس ، وتوزيع الأصوات التى توافرت عن هذا النظام على المدن الكبيرة التى نشأت حديثًا مثل برمنجهام وليدز ومنشستر وشيفلد

(٢) بعد أن كان حق التصويت فى الأقاليم مقصوراً على كل من يملك قدراً من الأرض لا يقل ريعه السنوى عن أربعين شلنا ، صار يشمل أيضًا المستأجرين الذين يدفعون كراءً قدره ٥٠ جنيهًا فى العام . وأما الحال فى المدن ففضلاً عن تنظيم توزيع الأصوات على الوجه المبين فى الفقرة الأولى ، أُعطى حق التصويت لكل من يملك أو يشغل منزلاً أو دكانًا أو نحوه لا تقل أُجرته السنوية عن ١٠ جنيهات

وبهذا القانون أصبح أفراد الطبقة الوسطى من الأمة يشتركون فى حكم البلاد ، بعد أن كان ذلك مقصوراً على الأشراف وكبار الملاَّك . فحسُنَ التفاهم بين الأمة والحكومة . وفى السنة عينها سُنّ نظام شبيه بذلك لاسكتلندة وآخر لإرلندة

تأثير القانون

وقد كان لهذا الاصلاح فى تشكيل مجلس النواب أثر بيّن فى تصرفاته ، فقام بمشروعات عديدة فى منفعة الأمة والانسانية . من ذلك أنه سَنَّ فى سنة ١٨٣٣ قانونًا لمنع الرقيق . وقد نشأ عن ذلك القرار اطلاق سراح ٨٠٠٫٠٠٠ عبد ، جلّهم فى جزائر الهند الغربية الانجليزية ؛ فكلف ذلك الأُمة الانجليزية ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وفى هذه السنة عينها سنت الحكومة أول قانون للمحافظة على حقوق الصناع فى المعامل ، والمحافظة عليهم من جور أصحاب المعامل وشراهتهم ، فكان الحلقة الأُولى من سلسلة قوانين أصلحت حال الصناع تدريجًا ، ورفعت عنهم الكثير من أنواع الجور والظلم والقسوة ، وخصوصًا ما يتعلق باستخدام الأطفال فى المصانع . كذلك

منع الرقيق

الصناع

التعليم

سُنت سلسلة قوانين شبيهة بهذه تختص بعمال المناجم . وفى نفس هذه السنة أيضاً (١٨٣٣) وافق المجلس على منح اعانة قدرها ٢٠٠٠٠ جنيه تشجيعاً لانشاء دور للتعليم ؛ فكان ذلك أول خطوة خطتها الحكومة الانجليزية نحو ترقية التعليم العام ونشره فى البلاد . وفى سنة ١٨٤٦ ألغت الحكومة الانجليزية قوانين الغلال، وأخذت تنهج على سياسة حرية التجارة . وفى مقدمة من لفتوا النظر الى وجوب هذه السياسة «رِتْشَرْد كُبدِن » و « جون برَيت» ، وساعد على إنفاذها حدوث قحط فى ارلندة بسبب عجز محصول البطاطس فى تلك البلاد

الغاء قوانين الغلال

المجالس البلدية

وقفا أثر اصلاح مجلس العموم اصلاح المجالس البلدية التى تدير الشؤون المحلية بالمدن ، اذ صدر بذلك قانون سنة ١٨٣٥ على اثر ضجة قامت من الأهلين

وقبل أن نستمر فى سرد بقية ما حدث من الاصلاح فى الحكم النيابى ، نقول كلمة موجزة عن تولية الملكة فكتوريا عرش انجلترة

فكتوريا

مات جورج الرابع سنة ١٨٣٠ بعد أن حكم عشر سنين لم يعمل فيها عملاً تقابله الأمة بالارتياح أو الاستحسان ، ولما لم يعقب ولداً تولى العرش بعده أخوه «وليم الرابع» ثالث أولاد جورج الثالث ، فحكم سبع سنين حدث فيها كثير من الاصلاح الذى ذكرنا ، ومات سنة ١٨٣٧ من غير أن يعقب ولداً أيضاً . فخلفته على العرش « فِكْتوريا » ابنة أخيه أدورد دوق كِنْت ، رابع أولاد جورج الثالث ، التى كان حكمها أطول حكم فى تاريخ انجلترة (١٨٣٧ - ١٩٠١) . وكانت ولاية هنوفر منذ سنة ١٧١٤ يضمها مع انجلترة تاج واحد ، فلما تُوِّجت فكتوريا هذا التاج فى ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٧ انفصلت هنوفر عن انجلترة ، لأن قانون تلك البلاد يمنع تولّى النساء حكمها . فاستقلت بنفسها وجُعل « إرْنِسْت أمير كَمْبَرْلَنْد » خامس أولاد جورج الثالث ملكاً عليها ، وضمت الى بروسيا سنة ١٨٦٦

نزع هنوفر من انجلترة

وبتولى فكتوريا العرش حدث أمر ذو شأن فى تعيين مقدار نفوذ ملوك انجلترة ؛ فقد كان الملوك الى ذلك العهد يغيّرون ويبدلون فى وزرائهم ومستشاريهم حسبما

انتهاء الحكم الفردى

يشاءون ، من غير أن يبدوا لمجلس النواب سبباً لذلك . فلما توفى وليم الرابع مات معه ذلك المظهر الأخير من مظاهر الحكم الفردى ، وصار المتبع أن لا يجوز لمن يتولى عرش المملكة الانجليزية أن يعزل وزراءه الا بموافقة مجلس العموم ، وأن لا يُبقى وزارة يمتنع الرأى العام عن تأييدها

والآن نعود الى حركة اصلاح الحكم النيابى فنقول :

نقص اصلاح سنة ١٨٣٢

ان قانون اصلاح سنة ١٨٣٢ ، وان كان مبنيًا على أساس تعميم اشتراك الأمة فى ادارة شؤون البلاد ، لم يخطُ فى ذلك الا خطًا قليلة ، اذ لم تكن الشروط الجديدة التى قُصد بها توسيع دائرة المصوتين تفتح المجال الا للطبقة الوسطى ، وبقى دهماء القوم بلا صوت فى الحكومة . فأخذوا يقيمون الاحتجاجات ويعدّون المظاهرات إظهاراً لاستيائهم من ذلك . وقدَّم جم غفير منهم عريضة شكوى للمجلس سنة ١٨٣٩ يطالبون فيها بخمسة أمور :

عريضه سنة ١٨٣٩

(١) أن يكون حق التصويت عامًا يتمتع به كل رجل فى البلاد

(٢) أن يكون التصويت سريًا ، بحيث يعطى كل فرد صوته كما يشاء من غير خوف أو تأثير بنفوذ أى زعيم أو وجيه فى الجهة التى يقطنها

(٣) أن يشكل مجلس جديد كل عام؛ فان ذلك يحمل الأعضاء على السعى فى ارضاء منتخبيهم حتى يعيدوا اختيارهم

(٤) أن يُمنح أعضاء المجلس مرتبات مقابل أعمالهم ؛ فان ذلك يمكن الفقراء (كالصنَّاع مثلاً) من الانضمام الى المجلس اذا وقع عليهم الاختيار

(٥) أن يباح لكل رجل الانضمام الى المجلس اذا وقع عليه الاختيار ، سواء أكان يملك عقاراً أم لا

انجلترة وثورة سنة ١٨٤٨

فلم يجب المجلس الثوار الى مطالبهم ، وبقوا يثورون تارة ويخفقون أخرى حسب مقدار شعورهم بالبؤس أو انفجار الأزمة . واستمر الحال كذلك حتى سنة ١٨٤٨ حين قرع انجلترة صدى ثورة سنة ١٨٤٨ بفرنسا. واذ ذاك هاج الثوار هياجًا شديداً

اضطر الحكومة الى استعمال الشدة معهم وتشتيت شملهم. وأخذ مشروعهم فى أسباب الفشل، باختلاف زعمائهم وتخبط الكثير منهم فى المنهج الذى يسلكونه. وساعد على انحلال مقصدهم زوال أسباب شكواهم ، بانفراج الأزمــة المعيشية على إثر الغاء قوانين الغلال

على أن مطالب الثوار كانت فى الحقيقة عادلة ، وعملت بمعظمها الحكومة الانجليزية بعد ، وان لم يكن ذلك نتيجة عاجلة لهذه الحركة

حركة الصناع

ولما اتسع نطاق الحركة الاقتصادية فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأخذت طائفة العمّال تتدرب على النظر فى الشؤون الاجتماعيــة ، بانشاء النقابات العديدة التى تضمهم فى طول البلاد وعرضها ، أخذ سواس الأمة يفكرون فى وجوب تغيير نظام التصويت ، الذى كان الى ذلك الحين لا يسمح الاّ لسدس عدد رجال الأمة باعطاء صوتهم فى الانتخابات. فقدمت العرائض فى ذلك للمجلس فى سنة ١٨٥٢ و ١٨٥٤ و ١٨٥٩ و ١٨٦٠ ؛ ولكن كان نصيبها جميعاً الرفض . وكان أهم سبب فى ذلك استئثار « بَلْمَرستون » بالنفوذ بين قومه ، وكان لا يريد تغييراً ما دام قابضاً على زمام الأمور

فلما مات سنة ١٨٦٥ ظهر فى عالم السياسة الانجليزية بعد فترة شابان مقدامان هما « غلادستون » ردِزْرائيلى (لورد بيكنزفيلد) ، فلم يهــابا تغيير النظام الذى أصبح غير ملائم لحالة ذلك العصر. وبعد مناقشات حادة ونزاع طويل فى داخل المجلس وخارجه، صدر قانون اصلاح سنة ١٨٦٧، وفحواه أن يعطى حق التصويت فى المدن لكل رب منزل ، ولكل ساكن يقيم مدة سنة فى مسكن لا تقل أجرته السنوية عن عشرة جنيهات . أما فى الأقاليم فأعطى حق التصويت لكل من يدفع كراء لا تقل قيمته عن ١٢ جنيهاً فى العام . وبذلك مُنح حق التصويت للطبقة الراقية من صناع المدن ، ولجميع المزارعين المستأجرين لأَراض فى الأقاليم . وقد زاد عدد المصوتين بهذا النظام الى ضعفيه تقريباً . ولقد كان التغيير عظيماً ومدهشاً ،

قانون اصلاح سنة ١٨٦٧

التعليم الاجبارى

حتى قال أحد سواس الانجليز فى ذلك : « يجب علينا الآن أن نعلّم سادتنا » ، يقصد بذلك أن حق التصويت قد مُنح لجمٍ غفير من الذين لم ينالوا قسطاً يذكر من التعليم . وسرعان ما ساد هذا الرأى ، فلم يمض أكثر من ثلاثة أعوام على قانون سنة ١٨٦٧ حتى أصدر المجلس قانوناً لتعميم التعليم فى الجزر البرطانية ، بأن خوّل لأولى الشأن بالحكومات المحلية حق انشاء المدارس وادارتها وإرغام الأهالين على ارسال أبنائهم اليها

قانون اصلاح سنة ١٨٨٤

وفى سنة ١٨٨٤ عرض « المستر غلادستون » رئيس الوزارة الانجليزية على المجلس مشروعاً جديداً يوسع دائرة التصويت أكثر من سوابقه . وذلك بأن يُمنح حق التصويت فى الأقاليم بنفس الشروط التى مُنح بها لأهل المدن ، بحيث يشمل معظم المشتغلين بالزراعة . ووافق المجلس على المشروع وأصدر به قانوناً ؛ فزاد بذلك عدد المصوتين فى البلاد من ٢,٠٠٠,٠٠٠ الى ٥,٠٠٠,٠٠٠ . وتبع ذلك تعديل النظـام المتبع فى توزيع أعضاء المجلس على دوائر الانتخاب ، بحيث يمثل الأعضاء أفرادَ الأُمة تمثيلاً عادلاً . فأُنقص عدد الأعضاء الممثلين للمدن ، وزيد فى عدد أعضاء الأقاليم

آثاره

وكما أن قانون اصلاح سنة ١٨٣٢ تلاه اصلاح نظام الحكومات المحلية بالمدن ، كذلك تلت قانون اصلاح سنة ١٨٨٤ حركة اصلاح فى الحكومات المحلية بالأقاليم . وقد أصدر المجلس لذلك عدة قوانين أشهرها « قانون الحكومة المحلية لانجلترة والغالة سنة ١٨٨٨ » ، ومثله لاسكتلندة سنة ١٨٨٩ ، ومثله لإرلندة سنة ١٨٩٨ ، وقانون مجالس (الأَبْرُشيّات) سنة ١٨٩٤

بجميع هذه الاصلاحات خطا الشعب البرطانى خطوات واسعة فى سبيل الحكم الدستورى ، وصار يحكم نفسه بنفسه قولاً وفعلاً

٢ — ﴿ المساواة بين الطوائف الدينية ﴾

القيود القديمة

أباحت انجلترة منذ زمن طويل لمن يقيم فى بلادها أن يتعبد كما يشاء ويدين بأى مذهب يريد . ولكنها بقيت الى القرن التاسع عشر تحرم على من يدين بغير مذهب الكنيسة الانجليزية الانضمام الى المجالس والانتظام فى سلك مناصب معينة كثيرة . فحرمت من كل ذلك البروتستنت الخارجين عن الكنيسة الانجليزية ، والكاتوليك ، واليهود . فلما كثر عدد المخالفين لهذه الكنيسة ، وتغيرت الأحوال الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، أخذ الشعب البرطانى ينظر الى وجوب نزع هذه القيود التى تحرم الأمة من خدمات كثير من أنجب أبنائها

رفع القيد عن المخالفين

وكان أول خطوة فى هذا السبيل هى نزع القيد المتعلق بالبروتستنت المخالفين . حدث ذلك سنة ١٨٢٨ عقب نهضة قامت بها هذه الطائفة لنيل هذا الحق ، وبعد أن جرت فى ذلك مناقشات طويلة فى المجالس

عن الكاتوليك

وتلا ذلك رفع هذا القيد عن الكاتوليك سنة ١٨٢٩. ومن أعظم الأسباب التى قربت ذلك هياج الإرلنديين بسبب هذا القيد ، خصوصاً عند ما اختار أهل مقاطعة « كلير » الزعيم الإرلندى المحبوب « دانيال اوكونل » ليمثلهم فى المجلس . فلما ذهب ليجلس على كرسيه بين صفوف مجلس العموم منع من ذلك بحجة أنه كاتوليكى المذهب . وقد انتشرت حركة الاستياء التى نشأت عن ذلك الى انجلترة ، واستفحل الأمر حتى لم يجد المجلس مفرًّا من نزع هذا القيد

عن اليهود

وفى سنة ١٨٥٨ نُزع هذا القيد عن اليهود أيضًا ، فصاروا يتمتعون بكل حقوق إخوانهم البروتستنت والكاتوليك ، الاَّ بضعة مناصب معدودة حُرِّمت عليهم

المسألة الدينية فى إرلندة

ومن الخطوات العظيمة التى خطتها الحكومة الانجليزية فى سبيل المساواة الدينية الغاء الكنيسة الانجليكية (الانجليزية) فى إرلندة . وكانت الحكومة الانجليزية قد أنشأتها بين الإرلنديين ، على أمل تحريضهم على اعتناق مذهب الكنيسة الرسمية .

محو الكنيسة الانجليزية فى ارلندة

ولكن جلّ الإرلنديين كانوا (ولا يزالون) شديدى التمسك بالمذهب الكاثوليكى؛ فلم يفد ذلك، وبقوا يتعبدون فى كنائسهم الخاصة. وقد فُرض عليهم مدّ الكنيسة الانجليكية بالمال اللازم لإدارتها. ففضلاً عن شعورهم بضياع هذا المال سدى، كانوا يمقتون الكنيسة الانجليكية، ويعدّون وجودها بينهم رمزاً حياً لغزو الانجليز لبلادهم. ولطالما أعلنوا شكواهم من هذه المظلمة، وطلبوا محو هذه الكنيسة من بلادهم؛ ولكن حزب المحافظين عارضوا ذلك بزعامة «اللورد دَرْبى» والمستر دِزْرائيلى، فبقى الحال كذلك الى أن قبض الأحرار على السلطة بزعامة «برَيت» وغلادستون؛ فسن المجلس قانوناً بمحو تلك الكنيسة من إرلندة سنة ١٨٦٩، ومُحيت فعلاً من تلك البلاد سنة ١٨٧١

٣ — ﴿ علاقة انجلترة بارلندة ﴾

المظالم الثلاث

كان الإرلنديون منذ غزا الانجليز بلادهم يشكون من عدة مظالم، يدور معظمها حول ثلاثة أمور: الدين، والحكم الذاتى (هوم رول) Home Rule، والأرض. وقد أوضحنا فيما تقدم كيف زالت ظلامتهم من جهة الدين. أما مسألة الحكم الذاتى فيرجع تاريخها الى ما قبل القرن التاسع عشر. ففى سنة ١٧٨٢ استرضت انجلترة البلاد بأن خوّلت لها تشكيل مجلس خاص بها يدير شؤونها الداخلية. ولكنهُ لم يسِرْ سيرة مرضية فى ادارة البلاد، وأخذت انجلترة تنظر فى إلغائه. فلما نشبت حروب نابليون قوى هذا الرأى: إذ خشى سواس الانجليز أن يتفق نابليون مع الساخطين فى إرلندة ويحتلّ تلك البلاد. فاسترضت انجلترة أعضاء المجلس الإرلندى بالمال، فنزلوا عن مناصبهم، معلنين أن الأصلح لإرلندة أن تنضم هيئتها التشريعية الى الهيئة التشريعية بانجلترة.

الحكم الذاتى

المجلس الارلندى

وعلى إثر ذلك مُحى المجلس الإرلندى، وصار يمثل إرلندة عدد من الأعضاء الإرلنديين بالمجلس الانجليزى. ومن ذلك الحين صار يطلق على الجزيرتين «المملكة المتحدة الشاملة لبرطانيا العظمى وإرلندة» (سنة ١٨٠٠)

المملكة المتحدة

الثورة في ارلندة

على أن الوطنيين من الإرلنديين لم يلبثوا أن سخطوا على ذلك، وقاموا يطالبون بإعادة مجلسهم اليهم. وقد اشتدت هذه الحركة فى أواخر النصف الأول من القرن بتأثير بلاغة «دانيال أوكونل» الوطنى الإرلندى الآنف الذكر. وبعد عدة سنوات وصلت الحركة الى حد الثورة. فبادرت الحكومة الانجليزية الى اخماد الفتنة وعاقبت الزعماء الذين أثاروها

غلادستون والهوم رول

ولم يمضِ طويل حتى اتخذت مسألة الحكم الذاتى (الهوم رول) دوراً جديداً عند ما تولى رياسة الوزارة الانجليزية لثالث مرة المستر غلادستون بطل الدفاع عن الدعوة الإرلندية. فكان من أوائل أعماله أن عرض على مجلس العموم مشروعاً لمنح إرلندة الحكم الذاتى. وفحوى هذا المشروع أن يكون لإرلندة مجلس فى دبلن،

آراء المعارضين

يتكفل بادارة جميع الشؤون الإرلندية المحضة. فعارض فى ذلك كثيرون، بحجة أن المجلس الإرلندى ربما يجحف بحقوق الملاَّك الانجليز فى إرلندة، ويظلم البروتستنتيين من سكان تلك البلاد (أهل ألِسْتر)، وربما يفصل ارلندة عن الدولة البرطانية فى وقت من الأوقات العصيبة. ذلك فضلاًعن مشاكل أخرى زادت الموضوع إشكالاً؛ فمثلاً اذا جُعل للإرلنديين مجلس خاص بهم فى دبلن، فهل يبقى لهم أعضاء يمثلونهم فى المجلس الانجليزى، حيث يتدخلون فى الشؤون الانجليزية والاسكتلندية المحضة، أولا يكون لهم فيه أعضاء، وإذ ذاك لا يكون لهم نصيب فى ادارة شؤون الدولة البرطانية بأجمعها. وبعد جدال طويل رفض مجلس العموم المشروع سنة ١٨٨٦ بأغلبية عظمى. وعلى إثر ذلك حُل المجلس وأُعيدت الانتخابات، فأسفرت عن عدم تأييد الشعب البرطانى لسياسة غلادستون هذه، إذ كان معظم الأعضاء الجدد من المعارضين لهذه السياسة؛ فخلفهُ « لورد سَلِسْبُرى » فى منصب رياسة الوزارة

على أن النزاع على مسألة الحكم الذاتى بقى محتدماً، وفى سنة ١٨٩٢ أفضت الانتخابات الجديدة الى رجوع غلادستون الى رياسة الوزارة لرابع مرة. فعرض على المجلس سنة ١٨٩٣ مشروعاً للحكم الذاتى شبيهاً بسابقه. وبعد جدال طويل وافق



غلادستون

بقاء النزاع

مجلس العموم على المشروع ، ولكنه رُفض في مجلس اللوردات بأغلبية الآراء . وفى السنة التالية استولى على غلادستون ضعف الشيخوخة ، فاعتزل منصبه ليستريح من أعباء السياسة . ثم مات سنة ١٨٩٨ ؛ وكأن الأخذ بناصر دعوة الحكم الذاتى الإرلندى قد دُفن معه . وفى سنة وفاته (١٨٩٨) أرادت الحكومة الانجليزية أن تسترضى الشعب الإرلندى ، فمنحته حكومات محلية لادارة شؤون الأقاليم المختلفة كما ذكرنا آنفاً ، ولكنها لم تتخذ خطوةً فعّالة نحو منح إرلندة الحكم الذاتى إلّا فى الأيام الأخيرة اذ ظهرت فى إرلندة حركة جديدة ترمى الى الانفصال جملةً من الامبراطورية البرطانية وكان من جرائها وضع مشروع للتوفيق بين مصلحة الفريقين لا يزال موضع نزاع بين الإرلنديين أنفسهم

مسألة الارض

أما مسألة الأرض فكانت أم المظالم . وذلك أن جزءاً عظيماً من الأراضى الارلندية فى يد عدد قليل من كبار الملّاك الانجليز : وصلت اليهم هذه الاملاك بطريق الوراثة أو الشراء عن النزلاء الانجليز والاسكتلنديين الذين أُقطعوا الأراضى

الارلنديون والملاك الانجليز

الفسيحة المنتزعة من الأهلين فى عهد كُرمْوِل وغيره ممن أنزلوا البروتستنتيين أرض إرلندة . وكان معظم هؤلاء الملاك لايقيمون بارلندة ، ولهم فيها وكلاء كانوا لايرحمون الزراع الارلنديين ، ولا يفترون عن أن يبتزوا منهم كل ما تصل اليه أيديهم . ففضلاً عن رفع أجور الأرض لدرجة لم يبقَ معها للفلاحين شيء يكفى للقيام بقوتهم، كان المستأجر اذا أحدث فى الأرض التى يفلحها من الاصلاح ما تخصب به تربتها وتزيد غلتها ، رُفع كراؤها . واذا امتنع عن دفعه نُزعت منه الأرض بكل ما أقامه فيها : مما جلب الفقر والتعس على الزراع الارلنديين

تحسن الاحوال

وقد شعرت الحكومة الانجليزية بسوء هذه الحال ، وشرعت فى تلافيها بأن أصدرت عدة قوانين لتحسين حال الفلّاح الارلندى . وأعظم خطوة اتخذتها فى هذا السبيل قانون سنّته عام ١٩٠٣ ، يبيح للزراع شراء الأرض التى يزرعونها ، على أن تساعدهم الحكومة على ذلك بدفع جزء من الثمن ، وباقراضهم الجزء الباقى ليسددوه على دفعات عديدة . وكان المنتظر أنه متى تمّ تنفيذ هذا المشروع بكل حذافيره ، زال استياء الارلنديين وزاد إخلاصهم للحكومة الانجليزية

ملحق (١)

المعاهدات الكبرى

التى أُبرمت بين الدول الأوربية منذ ظهور نابليون

الى توقيع معاهدة برلين

أولاً — فى عهد نابليون :

١ – معاهدتا بال : بين فرنسا وبروسيا فى سنة ١٧٩٥

ا – الأولى وُقّعت فى ابريل ، وبها تعهدت بروسيا أن تنزل عن أملاكها غربى الرين وأن لا تدخل الحرب مدة عشر سنوات

ب – والثانية فى أغسطس ، وتعهدت بها فرنسا أن تعوض على بروسيا خسارتها بمنحها أرضاً فى شرقى الرين ، ورضيت بروسيا أن يكون نهر الرين الحد بين الدولتين

٢ – صلح كَمبُو فورميو : المبرم بين فرنسا والنمسا فى سنة ١٧٩٧ . وبه :

ا – نالت فرنسا الأراضى المنخفضة وكانت تابعة للنمسا

ب – مُحيت جمهورية البندقية وانقسمت شطرين نالت النمسا الشطر الممتد من نهر أديج شرقاً والمشتمل على إستريا ودلماسيا ونالت جمهوريةُ سسلبين (الجمهورية الألبية الدنيا) الشطر الممتد من نهر أديج غرباً

حـ – أعطيت الجزائر الأيونية لفرنسا

ء – اعترفت النمسا بجمهورية سسلبين ووافقت على أن تعطى بِرسجاو الى دوق مُدينا تعويضاً له

هذا وتضمنت احدى فقرات المعاهدة اتفاقاً سرياً اعترفت فيه النمسا بعدّ نهر الرين الحد الشرقى لفرنسا وبتعويض الأمراء الذين تؤخذ أملاكهم تبعاً لذلك بأراض

فى ألمانيا ، وأن يكون نصيب النمسا ذاتها من ذلك سَلْزبرج وجزءًا من بافاريا

٣ – صلح لونيفيل : المبرم بين فرنسا والنمسا فى سنة ١٨٠١ ، وبه :

ا – تأيدت مواد صلح كمبو فورميو

ب – أذعن العاهل فرنسيس بعدّ الأديج آخر حدود أملاكه فى ايطاليا الشمالية

حـ – النزول عن تسكانيا الى ابن دوق برْما

ء – اعترفت النمسا بجمهوريات سسلبين وليجوريا وهِلْفسيا وبتافيا ، كما أذعنت بامتلاك فرنسا لبلجيكا والبلاد التى غربى الرين

٤ – صلح أميان : المبرم بين انجلترة وبين فرنسا وحليفتيها أسبانيا وجمهورية بتافيا فى سنة ١٨٠٢ ، وبه :

ا – تعهدت فرنسا بالجلاء عن الولايات البابوية ونابلى ، وبأن تبقى مصر تابعة للباب العالى ، وأن تعترف باستقلال الجزائر الأيونية

ب – ردت برطانيا العظمى الى فرنسا وحليفتيها كل ما نالته منها بفتوحاتها أثناء الحرب ما عدا جزيرة سيلان (التى استولت عليها عام ١٧٩٥) وجزيرة ترينداد ، ووافقت على رد جزيرة مالطة لفرسان القديس يوحنا، وسلمت بباقى صلح لونيفيل من غير جدال

٥ – معاهدة شُنْبرون : المبرمة بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٠٥، وبها ألزم نابليون بروسيا بقبول هنوفر، على أن لا تسمح للمراكب الانجليزية بالدخول الى موانيها

٦ – معاهدة برسبرج : المبرمة بين فرنسا والنمسا سنة ١٨٠٥ ، وبها :

ا – نزلت النمسا عن البندقية وإستريا ودلماسيا لمملكة ايطاليا

ب – ووافقت على تتويج نابليون ملكاً على ايطاليا

حـ – نزلت النمسا عن اقليم التيرول جميعه وعن عدة مقاطعات أخرى صغيرة لمملكة بافاريا

ء – نزلت النمسا كذلك عن أملاكها فى غربى ألمانيا لمملكة وُرْتِمبُرج

هـ – دخلت كل من بافاريا وورتمبرج فى عداد الممالك

٧ – معاهدة تِلْسِتْ : المبرمة بين فرنسا وروسيا فى ٧ يوليه سنة ١٨٠٧، وبها :

المواد العلنية

ا – اعترفت روسيا لنابليون بتملكه نابلى وهولندة ووستفاليا واتحاد الرين ودوقية ورسو، وعُدّت دنزيك مدينة حرة

ب – صار نهر وستول الحد الغربى لروسيا

حـ – اتفقت الروسيا أن تتوسط بين فرنسا وانجلترة

المواد السرية

ى – أذعنت الروسيا بتسليم الجزائر الأيونية لفرنسا، وتعهدت أن تنحاز الى فرنسا اذا لم يتم الاتفاق مع انجلترة قبل أول نوفمبر

هـ – تستولى الروسيا نظير تعهداتها هذه على فنلندة من السويد وعلى ملدافيا وولاخيا من تركيا

و – وتجبر كلاً من السويد والدانمرقة والبرتقال على الدخول فى حرب ضد انجلترة

٨ – معاهدة تلست : المبرمة بين فرنسا وبروسيا فى ٩ يوليه سنة ١٨٠٧، وبها :

ا – حُرم آل هوهنزلرن من كل المقاطعات التى فى غربى نهر إلب ومن كل ما تملكوه من مملكة بولندة منذ سنة ١٧٧٢

ب – فرضت عليهم غرامة مُرَزّحة

حـ – اذعنت بروسيا بتملك نابليون الممالك التى أنشأها، وتعهدت باغلاق موانيها فى وجه المراكب الانجليزية

٩ – معاهدة ويانة (شنبرون) بين فرنسا والنمسا سنة ١٨٠٩، وبها :

ا – نزلت النمسا لدوقية ورسو عن غاليسيا الغربية، ونزلت للروسيا عن غاليسيا الشرقية

ب – نزلت لنابليون عن تريستا وكرواتيا وقرنيولا والجزء الأعظم من كارنثية

حـ – ضُم الى بافاريا التيرول وسلزبرج وجزء من النمسا العليا

ى – خسرت النمسا ٤,٥٠٠,٠٠٠ من رعاياها ودفعت غرامة حربية قدرها ٣,٤٠٠,٠٠٠ جنيـه وأذعنت بأن تقلل عدد جندها الى ١٥٠,٠٠٠ وأُلزمت أن تقاطع انجلترة

١٠ – النظام القارّى : قرّت عزيمة نابليون على القضاء على انجلترة بتدمير تجارتها في حين كانت جيوشه البرية تحقق رغائبه فى انحاء القارة الأوربية. وكانت أوّل خطوة فى تنفيذ هذه السياسة :

مراسيم برلين الصادرة فى سنة ١٨٠٦ ومفادها :

ا – ان الجزائر البرطانية فى حالة حصار

ب – ان جميع التجارة مع انجلترة محظورة

حـ – ان المتاجر الانجليزية مصادرة حيثما وُجدت

ى – ان الرعايا البرطانيون يعاملون كأنهم أسرى حرب

هـ – ان المراكب القادمة من برطانيا أو المستعمرات البرطانية لا يسمح لها بالدخول الى الموانى الفرنسية أو موانى حلفاء فرنسا

وقد أُضيفت الى مراسيم برلين مراسيم أُخرى صدر بعضها فى ورسو سنة ١٨٠٧ وبعضها فى ميلان سنة ١٨٠٧ وصدرت أُخرى فى فُنْتِنبلو سنة ١٨١٠

١١ – قرارات المجلس : وهى القرارات التى أصدرتها الحكومة البرطانية لمقابلة مراسيم نابليون

ا – كل الموانى التى لا تسمح بدخول السفن الانجليزية فيها تعدّ محصورة

ب – يُحظر على جميع السفن الدخول الى الموانى الفرنسية أو موانى حلفاء فرنسا

حـ – السفن التى تخالف ذلك تكون غنيمة حلالاً اذا وقعت فى الأسر

١٢ – معاهدة فنتنبلو : التى أُبرمت بين فرنسا وبين انجلترة وحليفاتها سنة ١٨١٤، وبها :

ا – ينزل نابليون عن عرش فرنسا وعن كل حق له أو لأحد أفراد أسرته فى هذا العرش

ب – تمنح جزيرة إلبا ملكاً مطلقاً لنابليون ويعطى له معاش قدره ٨٠٫٠٠٠ جنيه

حـ – منحت الأميرة مارية لويزة زوج نابليون إمارات برما وبياشنزة وجستالا

ى – منح أفراد بيت نابليون معاشات بلغت قيمتها ١٠٠٫٠٠٠ جنيه

١٣ – معاهدة باريس الأولى : المبرمة بين فرنسا و بين الحلفاء سنة ١٨١٤ ، وبها :

ا – انحصرت أملاك فرنسا فى حدودها القديمة التى كانت لها فى سنة ١٧٩٢ واضيف اليها أجزاء صغيرة فى سافواى وعلى الحدود الشرقية وأفنيون

ب – لم تفرض عليها غرامة حربية

حـ – اذن لفرنسا باستبقاء التحف التى نهبها نابليون من العواصم الأوربية

ى – تعهدت فرنسا أن لا تحصن الهند الشرقية

هـ – ردَّت انجلترة لفرنسا المستعمرات التى احتلتها أثناء الحرب ماعدا تُباجُو وسَنْت لوسيا وإيل دِفرانس

و – أذعنت فرنسا باستقلال سوسرة والأراضى المنخفضة والولايات الايطالية والألمانية التى كانت خاضعة لنابليون

ز – وافقت ايطاليا على الغاء تجارة الرقيق

ح – استبقت انجلترة فى حيازتها جزيرة مالطة ورضيت أن تدفع ثمن مستعمرة الكاب السابق لها فتحها وسلخها عن هولندة فى سنة ١٨٠٦

ط – أُجّل النظر فى المسائل الأخرى الى حين يعقد مؤتمر و يانة

١٤– معاهدة باريس الثانية : المبرمة بين فرنسا و بين الحلفاء فى سنة ١٨١٥ ، وبها :

ا – أُلزمت فرنسا النزول عن سافواى والممتلكات التى أحرزتها سنة ١٨١٤

ب – وأُلزمت أيضاً برد التحف المنهوبة

حـ – وأُلزمت بدفع غرامة قدرها ٢٨،٠٠٠،٠٠٠ جنيه وبترك ثمانية عشر حصناً على حدودها الشمالية والشرقية بيد الحلفاء مدة خمس سنوات ضماناً لحسن سلوكها فى المستقبل

١٥ – نتائج مؤتمر و يانة : الذى انعقد فى سنة ١٨١٥

أولاً – نالت الروسيا فنلندة وجميع امارة ورسو الكبرى ما عدا بوزن وثورن

ثانياً – نالت بروسيا :

ا – ثورن ودنزيك

ب – النصف الشمالى من سكسونيا وكذا بومرانيا السويدية

حـ - بلاداً واسعة النطاق على جانبى الرين ومشتملة على وستفاليا وكولونيا وتريفز واكس لاشابل ومنستر وأجزاء من لمبرج ولكسمبرج . وبذلك تكون قد عُوّضت بروسيا عما فقدته من رعاياها الصقالبة بألفى ألف من الشعوب الألمانية ؛ وهكذا أصبحت قائدة ألمانيا وزعيمتها فى وجه فرنسا

ثالثاً - أما النمسا :

ا - فنزلت عن بلجيكا لهولندة

ب - ربحت البندقية ولمبردية

حـ - استردت ولايات إلّيريا وغاليسيا الشرقية والتيرول وسلسبرج من بافاريا

رابعاً - نالت بافاريا بيروث وانسباخ من بروسيا وكذا بَلاتنات الرين

خامساً - وُضع نظام لحكومة ألمانيا ، فأصبحت ألمانيا عبارة عن ٣٩ ولاية متحدة اسمها « بُنْد » ذات مجلس نيابى (مجمع) يجتمع سنوياً فى فرنكفرت تحت رياسة النمسا

سادساً - أما ايطاليا فقد سُلب منها اتحادها الذى حصلت عليه تحت حكم نابليون وتجزأت :

ا - فاستولى الملك فردنند على اقليم الصقليتين (صقلية ونابلى)

ب - واستولى البابا على ولايات الكنيسة

حـ - واستولت النمسا على البندقية ولمبردية

ء - ومُلّكت العاهلة مارية لويزة على بَرْما

هـ - واستولى أمير نمسوى على كل من مُدينا وتسكانيا

و - ورجع الملك فكتور إمنوبل الى عرش بيدمنت وألحقت بأملاكه سافواى وجنوة

سابعاً - تعهدت جميع الدول بالمحافظة على حياد سوسرة وألحقت بها المقاطعات فاليه ونيوشاتل وجنيرة ، فكملت مقاطعاتها اثنتين وعشرين

ثامناً - سُلخت النُرويج من الدانمرقة وألحقت بالسويد تعويضاً لها عن فقد

فنلندة التي أخذتها الروسيا

تاسعاً – أُلحقت بلجيكا بهولندة

عاشراً – حصلت برطانيا على :

ا – هليجولند ومالطة وحق حماية الجزر الأيونية

ب – جزائر ترينداد وموريس وتباجو وسنت لوسيا

حـ – جزيرة سيلان

ى – مستعمرة الرأس

هـ – وذلك عدا اتساع نطاق أملاكها في الهند أثناء الحروب بين سنتي ١٧٨٩ و ١٨١٥

ثانياً — المعاهدات المتعلقة بالمسألة الشرقية

١ – معاهدة كنشك قينرجة : المبرمة بين تركيا وبين الروسيا في سنة ١٧٧٤ وبها :

ا – حصلت الروسيا على أزوف ؛ وبذلك رسخت أقدامها على البحر الأسود

ب – مُنحت الروسيا حق الملاحة التجارية في البحر الأسود

حـ – أنشئت وكالة سياسية روسية في الاستانة وخولت الروسيا حق حماية مسيحيي المذهب الرومي في انحاء الدولة العثمانية

ى – رُدَّت ولايات ملدافيا وولاخيا وجزائر بحر إيجه الى تركيا على شرط أن يتحسن حكم تركيا في المستقبل

٢ – معاهدة بخارست : المبرمة بين الروسيا وبين تركيا في سنة ١٨١٢ ، وبها :

ا – سلم الاتراك بسارابيا للروسيا

ب – مُنحت الصرب سلطة تامة في ادارة شؤونها الداخلية

٣ – معاهدة أدرنة المبرمة بين الروسيا وبين تركيا في سنة ١٨٢٩ ، وبها :

ا – أعادت الروسيا لتركيا فتوحاتها ما عدا جزائر الدانوب

ب – أذعنت تركيا لحقوق روسيا في جورجيا وولايات أخرى في القبجاق (قفقاسيا)

ح – تقررت حرية الملاحة لمراكب الأمم فى البحر الأسود وعلى الدانوب

ء – منح كل من ولاخيا وملدافيا استقلالاً إدارياً تحت حماية الروسيا

ه – وضع التجار الروس فى تركيا تحت أحكام قناصلهم فقط

وتمت الموافقة على استقلال اليونان

٤ – معاهدة أنكيار إسكلسى المبرمة بين تركيا و بين الروسيا سنة ١٨٣٣ ، وبها :

ا – تركت الحرية التامة للمراكب الحربيـــة الروسية فى البحر الأسود وفى الدردنيل

ب – وبالاجمال أصبحت تركيا تحت حماية الروسيا

٥ – معاهدة لندن المبرمة بين انجلترة والنمسا و بروسيا وفرنسا و بين تركـيا فى سنة ١٨٤١ ، وبها :

ا – حرم محمد على من سورية واقريطش (كريت)

ب – منح محمد على ولاية مصر يرثها أفراد اسرته من بعده

ح – تقرر اغلاق الدردنيل فى وجه السفن الحربية التابعة لأية أمة . وبذلك نقضت سيادة الروسيا على البحر الاسود

٦–معاهدة باريس المبرمة بين انجلترة وفرنسا وتركيا و بين الروسيا فى سنة ١٨٥٦ ، وبها :

ا – أذعن السلطان بحقوق الرعايا المسيحيين

ب – نفضت جميع الدول (وروسيا أيضًا) أيديها من التدخل بين السلطان و بين رعاياه

ح – أُلغيت حماية الروسيا على ولايات الدانوب

ء – أُعيدت حرية الملاحة فى الدانوب وأُخرجت روسيا من ضفافه وسلمت جزءًا من بسارابيا الى رومانيا

ه – تقرر حياد البحر الأسود وحظر دخول المراكب الحربية فيه أو انشاء الموانى الحربية على سواحله

٧ – معاهدة برلين المبرمة بين دول أُوربا و بين السلطان فى سنة ١٨٧٨ ، وبها :

ا – انسلخت الصرب والجبل الأسود ورومانيا عن تركيا وتقرر استقلالها

ب – انسلخت البسنة والهرسك عن تركيا واحتلتهما النمسا

حـ – نالت الروسيا باطوم وقارص واستعادت الأرض المحصورة بين نهر بروث والدانوب وهى التى كانت فقدتها فى سنة ١٨٥٦

ى – انقسمت بلغاريا الى قسمين :

(١) بلغاريا الأصلية وتقرر أن تكون مستقلة تحت سيادة تركيا

(٢) الروملى الشرقى وتقرر أن يترك للسلطان بشرط أن يُولِّى عليه حاكماً مسيحياً توافق على تعيينه الدول

ثالثاً — الاتفاقات المتعلقة بارتفاع شأن بروسيا :

١ – مراسيم كرلسباد الصادرة من مجلس نواب الولايات الألمانيـة بمدينة فرنكفرت سنة ١٨١٩ والتى توضح مآرب البرنس مترنيخ ، وبها :

ا – أُلغيت حرية الصحافة

ب – راقب موظفو الحكومة عمل الجامعات

حـ – منع تأليف الجمعيات

ى – حظرت الاجتماعات السياسية

هـ – تأليف لجنة فى مينز لمحاكمة المتهورين من الوطنيين

٢ – انشاء اتحاد زُلفرين بين سنتى ١٨١٩ و ١٨٣٦ :

انضمت الولايات الألمانية كلها ما عدا النمسا الى بروسيا وألفوا اتفاق المكوس المعروف باسم زلفرين وبه :

ا – أُلغيت رسوم المكس بين الولايات بعضها وبعض

ب – تقررت رسوم معينة على التجارة الخارجية

وقد طلبت النمسا فى سنة ١٨٥٢ أن تدخل فى هذا الاتحاد فلم تجب الى طلبها

٣ – معاهدة براغ المبرمة بين بروسيا والنمسا فى سنة ١٨٦٦ وبها :

ا – نزلت النمسا عن البندقية لايطاليا ودفعت غرامة حربية صغيرة

ب – نفضت النمسا يدها نهائياً من التدخل فى الشؤون الألمانية

حـ — انحل مجلس البُند

ء — ضمت بروسيا الى أملاكها : هنوفر وهِس كاسل وشلزوج هلستين واُولِنبرج ونسَّاو ومدينة فرنكفرت على نهر مين

هـ — تألف من الولايات التى فى شمالى نهر مين اتحاد تحت رياسة بروسيا

وعلى ذلك يقدر ربح آل هوهنزلرن بمقدار ٢٥٠٠٠ ميل مربع من الأراضى؛ وقد خضع لهم رعايا جدد يقدر عددهم بخمسة آلاف الف كما أنه قد تم لهم توطيد ملكهم ونالوا قاعدة بحرية عند كيال

٤ — معاهدة فرنكفرت المبرمة بين فرنسا و بروسيا فى سنة ١٨٧١ ، وبها :

ا — نزلت فرنسا الى بروسيا عن الألزاس كلها ما عدا حصن بلفور وعن اللورين وفى ذلك حصنا منز واستراسبرج

ب — أُلزمت فرنسا بدفع مائتى الف الف جنيه غرامة حربية

حـ — تبقى جنود الألمان محتلين للأراضى الفرنسية حتى يتم دفع الغرامة

ملحق (٢)

ملخص

الحوادث الكبرى التى وقعت بين سنتى ١٧٨٩ و ١٨٧٨

مرتبة ترتيباً تاريخياً

سنة	
١٧٨٩	اجتماع مجلس النواب الفرنسى فى ٥ مايو
	سقوط البستيل فى ١٤ يوليه
١٧٩٠	النظام الدستورى الجديد
١٧٩١	محاولة لويس السادس عشر الفرار
	وفاة ميرابو
١٧٩٢	اعلان لويس السادس عشر الحرب على النمسا
	اعلان بروسيا الحرب على فرنسا
	مذابح شهر سبتمبر
	إلغاء الحكم الملكى واعلان الجمهورية الفرنسية
١٧٩٣	مقتل لويس السادس عشر
	تجزئة بولندة للمرة الثانية
	اعلان فرنسا الحرب على انجلترة
	انشاء لجنة الأمن العام
	مقتل الملكة مارية انطوانت

سنة	
١٧٩٤	مقتل روبسبيير
	استيلاء فرنسا على بلجيكا
١٧٩٥	غزو فرنسا لهولندة
	تأسيس الجمهورية البتاوية
	تجزئة بولندة للمرة الثالثة
	الهياج فى لافنديه وبرتنى
	احتلال الانجليز لمستعمرة الرأس وفتوحاتهم فى الهند الشرقية والغربية
١٧٩٦	حرب نابليون فى ايطاليا (لودى واركولا)
	اخفاق مساعى بت السلمية
١٧٩٧	الانتصار البرطانى عند رأس سنت فنسنت
	الحكم الجديد فى ايطاليا : سسلبين والجوريا
	قلب نظام الحكومة الفرنسية

سنة

١٧٩٧ معاهدة كمبو فورميو

١٧٩٨ جمهورية رومية

الجمهورية الهلفية

حملة نابليون على مصر ومعركة انبابة

وموقعة بوقير البحرية

١٧٩٩ دخول نابليون سورية وحصار عكاء

رجوع نابليون الى فرنسا

قلب الحكومة وتأسيس القنصلية

١٨٠٠ معركة مارنجو

اعادة فتح ايطاليا

١٨٠١ معاهدة لونيفيل

فوز نلسن عند كوبنهاغ

١٨٠٢ تعيين نابليون رئيساً للجمهورية الايطالية

صلح اميان

تنصيب نابليون قنصلاً مدة حياته

١٨٠٣ تجديد الحرب

احتلال الفرنسيين هنوفر

١٨٠٤ صدور قانون نابليون

تولية نابليون عاهلاً

« فرنسيس الثانى عاهلاً للنمسا

١٨٠٥ « نابليون ملكاً على ايطاليا

خطط نابليون لغزو انجلترة

أُلم والطرف الأغر وأُوسترلتز

سنة

١٨٠٥ معاهدتا شنبرون وبرسبرج

١٨٠٦ وفاة بت

تنصيب أخوى نابليون ملكين على نابلى وهولندة

انحلال الدولة الرومانية المقدسة

وقوع الحرب بين بروسيا وبين فرنسا – معركة يينا

نابليون فى برلين . النظام القارى

نابليون فى ورسو

١٨٠٧ قرارات المجلس الانجليزى (نحو النظام القارى)

معاهدتا تلست

ذهاب الأسرة المالكة البرتقالية الى البرازيل

١٨٠٨ تدخّل نابليون فى الشئون الاسبانية

تنصيب يوسف بونابَرت ملكاً على اسبانيا

وصول القائد ولزلى الى اسبانيا

١٨٠٩ التقهقر الى كورونة

١٨١٠ زواج نابليون بالملكة مارية لويزة

استيلاء الفرنسيين على هولندة

١٨١١ غزوة ولنجتن لاسبانيا–فوز البرطانيين

١٨١٢ ولنجتن فى مدريد

نابليون فى مسقو

سنة

١٨١٣ موقعتا درزدن وليبزج
ولنجتن فى جبال البرانس – غزو الحلفاء لفرنسا

١٨١٤ دخول الحلفاء باريس . نزول نابليون عن العرش
دخول لويس الثامن عشر الى باريس
دخول فردنند السابع الى مدريد
دخول بيوس السابع الى رومية
دخول فكتور إمنويل تورين
معاهدة باريس الأولى
مؤتمر ويانة

١٨١٥ هروب نابليون من إلبا
الأيام المائة
معركة وترلو
معاهدة باريس الثانية
الحلف المقدس

١٨١٦ الروح الرجعية فى ألمانيا واسبانيا

١٨٢٠ ثورة اسبانيا

١٨٢١ ابتداء حرب استقلال اليونان

١٨٢٢ استقلال البرازيل

١٨٢٣ اعلان مبدأ منرو فى الولايات المتحدة الامريكية

١٨٢٤ موت لويس الثامن عشر . وتولى شارل العاشر

سنة

١٨٢٤ احتلال جنود ابراهيم باشا لجزيرة اقريطش

١٨٢٥ تخريب شبه جزيرة المورة على يد ابراهيم باشا

١٨٢٧ استيلاء ابراهيم باشا على أتينا
معاهدة لندن
معركة نوارين البحرية

١٨٢٨ اعلان الروسيا الحرب على تركيا

١٨٢٩ معاهدة أدرنة

١٨٣٠ الثورة فى فرنسا . لويس فيليب
الثورة فى بلجيكا وألمانيا وايطاليا

١٨٣٢ استقلال بلجيكا

١٨٣٣ استيلاء محمد على على سورية
معاهدة انكيار اسكلسى

١٨٤٠ معاهدة لندن
جلاء محمد على عن سورية

١٨٤٨ الثورة فى باريس . الجمهورية الفرنسية الثانيــة
الهياج العام فى أوربا
لويس نابليون رئيس الجمهورية الثانية

١٨٤٩ اعلان الحكومة الجمهورية فى رومية
نهاية جمهورية البندقية

١٨٥١ قلب لويس نابليون للحكومة الفرنسية

١٨٥٢ تولية لويس نابليون عاهلاً على فرنسا

سنة	
١٨٥٤	حرب القرم
١٨٥٥	سقوط سبستبول
١٨٥٦	معاهدة باريس
١٨٥٩	حرب تحرير ايطاليا . ماجنتا وصلفرينو
	اتحاد شمالى وجنوبى ايطاليا تحت رياسة سردانية
١٨٦٠	التحاق سفواى ونيس بفرنسا
	غزو غريبلدى لصقلية ونابلى
١٨٦١	تولى فكتور امنويل ملكاً على ايطاليا
١٨٦٢	تقلد بسمرك رياسة الوزارة ببروسيا
١٨٦٣	مسألة شلزوج هلستين
١٨٦٤	احتلال النمسا وبروسيا لشلزوج هلستين
١٨٦٦	الحرب النمسوية البروسية (حرب الأسابيع السبعة)
	سادوة

سنة	
١٨٦٦	انتصارات النمسا على ايطاليا
	تسليم البندقية لايطاليا
١٨٦٧	الاتحاد الألمانى الشمالى
١٨٦٩	افتتاح قناة السويس
١٨٧٠	نشوب الحرب الفرنسية البروسية
	تسليم نابليون الثالث فى سيدان
	الجمهورية الثالثة
	حصار باريس
	ضم الولايات البابوية الى ايطاليا
١٨٧١	تولية ولهلم الأول عاهلاً على ألمانيا
	اتخاذ رومية عاصمة لايطاليا
	سقوط باريس
١٨٧٧	الحرب الروسية التركية
١٨٧٨	معاهدة سان استفانو
	دخول انجلترة فى الأمر
	معاهدة برلين

ملحق (٣)

ملخص

التغيّرات الأوربية الكبرى الى سنة ١٨٧٨

١ — فى ألمانيا :

تقلصَ ظل الدولة الرومانية المقدسة وخلفتها العاهلية الألمانية الجديدة . وقد كانت ألمانيا قبل ذلك عبارة عن مئات من الامارات الصغيرة والمدن المستقلة غير مرتبط بعضها ببعض الاَّ بأضعف الروابط السياسية ، فأصبحت دولة متحدة متألفة من بروسيا ومن أربع وعشرين امارة متحدة ومشتملة على الأملاك الجديدة فى الألزاس واللورين وقد خرجت من ألمانيا الجديدة الولايات الخاضعة لحكم عاهل النمسا . واتسع نطاق أملاك بروسيا وتوحدت أملاكها بما نالته من ولايات شلزوج هاستين ولونبرج وهنوفر وهس ونساو وفرنكفورت على نهر المين

٢ — النمسا والمجر :

قد قامت هذه الدولة الجديدة فى جنوبى ألمانيا وأصبح لها محل فى السياسة الدولية الأوربية . وكان عاهل الدولة الرومانية المقدسة قبل انحلال دولته فى سنة ١٨٠٦ قد لقب نفسه عاهل النمسا فى سنة ١٨٠٤ . وبقى آل هبسبرج يحكمون بلاداً واسعة مشتملة على عدة ولايات متلاصقة ولكنها مختلفة العناصر أشهرها النمسا والمجر وبوهيميا . أما الأراضى المنخفضة التى كانت ملكاً للنمسا فقد خرجت من أيديهم ، وبعد أن أُلحقت بهولندة (بين ١٨١٥ و ١٨٣٠) عادت فأصبحت مستقلة باسم مملكة بلجيكا . وكذلك ضاعت منهم أملاكهم الايطالية التى اندمجت فى مملكة ايطاليا الجديدة

٣ — بولندة :

وحدث تغيير جدير بالالتفات على حدود ألمانيا الشرقية اذ أصبحت هذه الحدود مشتركة بينها وبين الروسيا. فقد محيت دولة بولندة نهائيًا، وكان قد بدئ فى تجزئتها عام ١٧٧٢ . ونالت كل من النمسا وبروسيا جزءًا من هذه المملكة ، غير أن السواد الأعظم منها ابتلعته الروسيا ولم يتمثل نهائيًا فى بدنها

٤ — الروسيا :

خطت الروسيا أول خطواتها غربًا وجنوبًا فى القرن الثامن عشر، ولكنها تقدمت بعد ذلك تقدمًا مبينًا فى خلال المدة ١٧٨٩ — ١٨٧٨ . ولقد أشرنا الى استيلائها على جزء كبير من بولندة (١٧٩٣ و ١٧٩٥ و ١٨١٥) . ثم أنها اختطفت فنلندة من السويد فى سنة ١٨٢٩ وبذا أتمت سلطانها على الساحل الشرقى لبحر البلطيق . وقد كانت فى سنة ١٧٧٤ رسخت قدمها على البحر الأسود بمعاهدة قينرجة ثم اتسع نطاقها فى جهة الجنوب الغربى بمعاهدة ياسى فى سنة ١٧٩٢ فوصلت أملاكها الى نهر دنيستر. وفى سنة ١٨١٢ امتدت أملاكها الى نهر بروث بمعاهدة بخارست. أما فتوحها فى شرق البحر الأسود وبحر الخزر فهى أعظم رقعة من سواها؛ فأصبحت الروسيا ملاصقة للفرس والأفغان والصين. وبالجملة فان اتساع رقعة الروسيا باستمرار وانتظام كان من أهم ما يلفت نظر من يطلع على المصوّر السياسى لهذه الدولة قبل نشوب الحرب العظمى

٥ — شبه جزيرة البلقان

كما أن اتساع نطاق الروسيا قبل هذه الحرب جدير بالالتفات كذلك تقلصُ أملاك الدولة العثمانيــة يلفت الأنظار. وقد كان أغلب توسع الروسيا مكتسبًا على حساب تركيا. وزيادة على ذلك فقد تقلص ظل النفوذ التركى من كثير من البلدان الأخرى؛ فانسلخت من أملاك السلطان كل من اليونان ورومانيا والصرب والجبل

الاسود وبلغاريا . هذا الى أن انجلترة احتلت مصر وجزيرة قبرس ، ووضعت النمسا يدها على البسنة والهرسك ، وانتزعت ايطاليا طرابلس

٦ — ايطاليا :

فى سنة ١٧٨٩ لم تكن ايطاليا الا اسماً جغرافياً لبلاد مشتملة على عشر حكومات مختلفة ؛ فكانت ايطاليا الوسطى فى حوزة البابا ، وكان يحكم نابلى وصقلية بيت بربون الاسبانى ، كما كانت تسكانيا ومعظم الامارات الصغيرة تحت حكم أمراء من آل هبسبرج ، وكانت لمبردية محسوبة من النمسا ، وأمراء سفواى يحكمون سردانية وبيدمنت ويلقبون بملوك سردانية ، ولم يبق من ايطاليا المستقلة المعروفة فى تاريخ القرون الوسطى غير جمهوريتى البندقية وجنوة

ومنذ سنة ١٧٨٩ حدثت تغيرات فى الحكومة الايطالية كانت فى أول الأمر كلها صورية؛ غير أنه بعد سنة ١٨٤٨ توجهت جميعها نحو تحقيق الوحدة والاستقلال وما جاءت سنة ١٨٧١ الا وقد تخلصت ايطاليا من نير الأجانب واتحدت ولاياتها العشر تحت حكومة قصبتها رومية وملوكها آل سفواى. وقد أضاعت ايطاليا سفواى ونيس ، فألحقا بفرنسا

٧ — فرنسا وشبه جزيرة أيبريا :

قد كان تعديل حدود فرنسا طفيفاً بالنسبة لأغلب الدول الأوربية ؛ فهى قد كسبت سفواى ونيس من ايطاليا، وانتزعت منها ألمانيا الالزاس واللورين . أما كل من اسبانيا والبرتقال فلم يتغير مصورهما الجغرافى فى أوربا

٨ — اسكندناوة :

وقد حصلت تغييرات عظيمة فى أوربا الشمالية عند سواحل بحر البلطيق ؛ فقد تقدم القول بنزول السويد عن فنلندة لروسيا، وعوضت السويد عما خسرته بالحاق النرويج بها اذ انتُزعت من الدانمارقة فى سنة ١٨١٥ كما انتزعت منها شلزوج هلستين فى سنة ١٨٦٦ فأخذتها بروسيا

٩ — هولندة وبلجيكا :

وتألفت مملكة جديدة فى الأراضى المنخفضة؛ فقد كان القسم الجنوبى منها خاضعًا للنمسا فى سنة ١٧٨٩ ثم أُلحق بفرنسا وبقى ملحقًا بها زمانًا. ونزلت عنهُ النمسا فى سنة ١٨١٥ واتحد مع هولندة فتألفت منهما مملكة الأراضى المنخفضة. غير أن أمد هذا الاتحاد لم يكن طويلاً ولم يكن فيه خير؛ ولذا تأسست مملكة بلجيكا الجديدة فى سنة ١٨٣٢ وذلك بفضل مساعى انجلترة وفرنسا

١٠ — الدولة البرطانية :

ليس مصور أُوربا ذا نفع كبير فى الدلالة على ما نال انجلترة فى خلال قرن كامل وتحولت بسببه المملكة البرطانية الى دولة تمتد أطرافها فى جميع الآفاق. ولم يكن الطالع فى سنة ١٧٨٩ يبشر بشىء من هذا النجاح بل كان الظاهر أن نجم انجلترة فى أُفول. فقد كانت أضاعت الثلاثة عشرة الولاية الأمريكية؛ وإن تكن كندا قد دخلت تحت حكم برطانيا فانها لم تكن قد استعمرت بعد. وكان الانجليز قد استثمروا استكشاف الكبتن كوك فأرسلوا جماعة من المحكوم عليهم الى خليج بُتنى فى سنة ١٧٨٦. غير أن الاستعمار الحقيقى لكل من أُستراليا وزيلندة الجديدة لم يكن قد بدأ فعلاً

وكانت مستعمرة الرأس وجزيرة سرنديب لاتزالان بيد شركة الهند الشرقية الهولندية. أما الهند فاحتفظ بها ورن هيستنجز ولم يحدث بها ما حدث فى أمريكا الشمالية؛ ولكن اتساع نطاق الحكم البرطانى بدرجة كبرى لم يحن له الوقت الاَّ فى عهد كل من لورد ولزلى ولورد هيستنجز ومن بعدهما

ويُرى مقدار هذا الاتساع العظيم فى مصورات آسيا وأفريقية وأُستراليا وأمريكا الشمالية. أما مصور أوربا فتعرف منه الأملاك الجديدة التى جعلت انجلترة صاحبة السيادة فى البحر الأبيض ذلك الطريق البحرى العظيم

الباب الثالث

تقدم الصناعة والتجارة

فى القرن التاسع عشر

الفصل الأول

تمهيد

التاريخ الاقتصادى

قصرنا الكلام فيما مضى على تاريخ الدول من الوجهتين السياسية والحربية . والآن نذكر شيئاً عن تاريخها من وجهة لا تقل أهميتها عن تينك ، وهى الوجهة الاقتصادية . وذلك ما يدلنا على كيفية معيشة تلك الأمم ، ومقدار ثرائها ، وتقدم صناعتها وتجارتها ، فى العصور التى نحن بصددها

الانقلاب العجيب

وحقاً أن الانقلاب الذى حدث فى أوربا ، بل فى العالم المتمدين بأسره ، من حيث الأحوال المعيشية فى القرن الأخير ، لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشر ، حتى لقد قيل إنهُ يفوق جميع ما طرأ على العالم من ذلك منذ عهد قدماء المصريين الى قبيل انفجار الثورة الفرنسية . ولا غرو ، فقد صار الناس وكأنهم خلق جديد : يصنعون بالآلات ما كانوا يصنعونه بأيديهم ، واكتظت بهم المدن الكبيرة بعد أن كانوا منتشرين فى أنحاء البلاد فى القرى والضياع الصغيرة ، وأصبحوا يتّجرون مع البلاد الأجنبية بنفس السهولة التى يتجرون بها مع قومهم وأهل بلدتهم ؛ مصانعهم تديرها القوى الطبيعية العظيمة ، بعد أن كانت تديرها قوة الإنسان العضلية الضئيلة ،

وأسواق تجارتهم العالم بأسره ، بعد أن كانت البلدة أو المملكة التي يقطنونها . ولقد ألِفنا نحن أهل القرن العشرين ، كلّ هذه المظاهر ، حتى ليغرب عن أذهاننا أنها شيء جديد ؛ غير أننا اذا رجعنا بالخيال الى صورة أحوال المعيشة عند أسلافنا الذين عاشوا منذ قرن واحد ، وقفنا حيارى أمام ذلك الانقلاب العجيب الذي حدث في هذه الهنيهة القصيرة

أشهر الممالك من الوجهة الاقتصادية

وإن هذا الكتاب ليضيق بتتبع سير هذه الحركة العظيمة في جميع ممالك الدنيا ؛ وانما نكتفي هنا بوصف الحوادث العامة التي أثّرت في مجراها ، مع ذكر شيء من الشؤون التفصيلية الخاصة بأشهر الممالك ذات المكانة الاقتصادية الكبرى

ومع أن هذه الممالك ومراتبها النسبية لا تبقى ثابتة على الدوام ، لقيام التنافس التجاري بينها على قدم وساق ، فمما لا شك فيه أن التأثير الأكبر في تطور الصناعة والتجارة في القرن التاسع عشر كان للممالك الآتية :

انجلترة

كانت انجلترة أول من قام باعباء الانقلاب الصناعي ؛ ففيها ظهرت مبادىء هذا الانقلاب ، وساعدتها الأحوال الأوربية على أن تسبق سائر الدول في تلك السبيل بمرحلة كبيرة ، حتى لانكون مغالين اذا قلنا إنهُ لم يكن لها منافس ما بين عام ١٧٦٠ ومنتصف القرن التاسع عشر . ثم أفاقت فرنسا مما أصابها من ويلات حروب نابليون التي مزقت احشاءها ، فأخذت تدرج الى هذا المقصد . وتبعتها ألمانيا ، بعد أن تماسكت أجزاؤها ، وتمت وحدتها على يد بروسيا ؛ فخطت اليه خطوات واسعة مستمرة حتى كادت في الأيام الأخيرة تلحق بسابقة المضمار ، بل فاقت جميع الأمم في بعض الصناعات ، لا سيما الفنون الكيماوية . وفي الجيل الأخير ظهرت عظمة الولايات المتحدة بما لها من الموارد الخالدة ، فاستولت على شطر عظيم من تجارة الدنيا ، وهي تُعدّ الآن أثرى جميع ممالك العالم . وقد قام لمناهضة هذا المنافس الجديد سلائل الجوالي الانجليزية التي نزحت الى الأطراف القاصية ؛ فإن أُستراليا وكندا وجنوبي افريقية وزيلندة الجديدة تتألف منها الان مجموعة ممالك جديدة نامية ، تُعرف

فرنسا — ألمانيا — الولايات المتحدة — الامبراطورية الانجليزية

« بالامبراطورية البرطانية » ؛ وهى ذات ثروة لا تكاد تدخل تحت حصر ، وما زالت فى جملتها تفوق أى مجموعة أخرى . وفى العشرين سنة الأخيرة نزلت ميدان التنافس الاقتصادى عدة جمهوريات فى أمريكا الجنوبية بعضها قوىٌّ ثابت الأركان : مثل البرازيل وشيلى والجمهورية الفضية ؛ وبعضها لا يزال فى طور التكوّن والتحوّل . ومع حداثة عهد هـذه الممالك بذلك التقدم ، سيكون لها بلا شك اكبر أثر فى تجارة العالم المستقبلة

أمريكا الجنوبية

ولا ننسى ما لبلجيكا من المنزلة فى عالم الصناعة ، مع قلة نفوذها السياسى ، بل توقّف وجودها على إرادة الممالك القوية المجاورة لها ؛ وهى أحسن مثال لتقدم الأمم اذا هدأت أحوالها وقلت شواغلها الخارجية

بلجيكا

كذلك لا يفوتنا تقدم بلاد « الشمس المشرقة » (اليابان) التى تجدّ الآن فى استثمار مواردها وإنمائها ؛ ومتى تمّ لها ذلك زادت قوتها التنافسية . ولا يبعد أن تقتدى بها بلاد الصين فى نهضتها* ، فتضيف الى عالم التنافس الاقتصادى عاملاً قويًا جديداً

اليابان

الفصل الثانى

الانقلاب الصناعى

١ — ✻ الحالة قبل الانقلاب الصناعى ✻

كانت الزراعة قبل ابتداء الانقلاب الصناعى العظيم الذى سنتكلم عنه هى المورد الأصلى لثروة الأمم الأوربية ؛ وكان امتلاك المرء لمقدار ما من الأرض يكسبه جاهًا ومنزلة سياسية ، لا ينالها باحراز المال وحده . على أنه لم يكن وقتئذ من أصحاب رءوس الأموال العظيمة سوى أعضاء الشركات التجارية الكبيرة ، مثل شركة الهند الشرقية ونحوها ؛ وقلما استُخدمت رءوس الأموال فى إقامة المصانع واستخدام العمال

شأن الزراعة

* الحقيقة ان مباديء ذلك النهوض قد ظهرت بالفعل

حالة الصناعة قديماً

كما هو مشاهد الآن . فقد كانت كل الصناعات تؤدى باليد* ، ويقوم كل صانع بعمله في منزله بين أولاده وزوجته ، يساعدونه فيه ويأتنس بهم . ويكون منزله غالباً فى الأرياف ، وبقربه قطعة صغيرة من الأرض ، ينبت فيها طعامه ، ويروض النفس فيها هو وأسرته . وكان فى أول الأمر يصنع السلع لنفسه أو ليبيعها لأهل قريته أو المدينة القريبة منه ؛ ثم تقدمت الأحوال الصناعية نوعاً ما ، فصار الصناع يؤدون العمل بالأجر لصاحب مال يجمع منهم المصنوعات فيتجر فيها ، وكان هذا فى العادة صانعاً مثلهم ويشتغل بيده فى نفس العمل الذى يؤدونه . هذا الى أن رأس ماله كان محدوداً لا يكفى أضعافه لإقامة مصنع من المصانع الصغيرة ، فضلاً عن أمثال الكبيرة التى نشاهدها الآن بما يتبعها أحياناً من خطوط حديدية ومستودعات هائلة وغير ذلك من الأشياء التى تتطلب نفقات باهظة لا تثمر الاّ بعد زمن طويل

مبدأ المصانع

وفى منتصف القرن الثامن عشر ، حينما ألف أصحاب الاموال استثمار أموالهم بطريق الصناعة ، أخذوا تدريجاً يستخدمون العمال مجتمعين تحت سقف واحد ، بعد أن كان كل يشتغل بمنزله . فكان ذلك مبدأ نظام المصانع الحديث ، والبذرة الاولى فى حقل الانقلاب الصناعى العظيم

فضل النظام القديم

ولا شك أن حياة الصناع فى عهد النظام القديم كانت أقل عناء وأنعم بالاً من حياتهم الآن من عدة وجوه . أجلْ ان أجورهم كانت أقل من مثلها الآن ، ولكن أثمان الطعام وغيره من مرافق الحياة كانت زهيدة ، فضلاً عن توافر أبواب العمل على الدوام ؛ فقد أخلى صلح عام ١٧٦٣ فى انجلترة نحو١٠٠٠٠٠ مقاتل كلهم وجدوا بسهولة أعمالاً يكسبون منها قوتهم . ولا ننسى فضل معيشتهم الأولى فى الهواء الطلق بين بنيهم وأزواجهم على قضاء حياتهم وسط المدن المكتظة بالمداخن الشاهقة والأفران الهائلة ، التى تفسد الجو بأدخنتها وأبخرتها المنبعثة منها ليل نهار ، وبين مضايق المصانع الغاصة بالآلات الضخمة التى لا يبطل لها دوىّ ولا حراك

* وتسمية الصناعة بكلمة *Manufacture* التى معناها الحر فى الشغل باليد دليل حى يشهد بذلك

٢ — ✱ عصر الاختراعات العظيمة ✱

الانقلاب فجائى

كان الانتقال من النظام المنزلى الى نظام المصانع الحديث فجائيًا وسريعًا ، ولذلك سُمى بالانقلاب الصناعى : ولقد ظهرت جميع المخترعات العظيمة تباعًا فى مدة وجيزة ؛ فلم يمض طويل زمن حتى اختفت الطرق المطولة المتبعة قديمًا فى الصناعة وحلّت مكانها الطرق الحديثة التى قلبت النظام الصناعى بأوربا

المخترعات الانجليزية

وكان أول ظهور هذا الانقلاب فى انجلترة ، فنما فيها نموًا مطردًا ؛ وانفردت هذه البلاد به طويلاً لأسباب تختص بحروب نابليون وغيرها ، مما سيأتى مفصلاً فيما بعد . وقد كان أول المخترعات فى صناعة المنسوجات جهازًا اخترعه « هَر جريفز » عام ١٧٧٠ لتسهيل غزل القطن؛ وبه صار العامل الواحد يستطيع ادارة ثمانية مغازل فى آن واحد، بعد أن كان لا يدير الاّ مغزلاً واحداً . وتبع ذلك كشف « أرْكرَيت » لكيفية الانتفاع بقوة المياه ؛ فاستخدمها فى ادارة جهاز جديد من صنعه (١٧٧١) . ثم تلاهما « كرُمْبتُن » ، فاخترع عام ١٧٧٩ جهازاً جمع فيه بين الاختراعين السالفين (ولذلك سماه البغل) . وقد ارتقت أنواع هذا الاختراع ، حتى صار العاملُ الواحد الآن يستطيع أن يدير ١٢,٠٠٠ مغزل فى آن واحد

صناعة الغزل

صناعة النسيج

ولما كانت جميع هذه المخترعات خاصة بغزل الخيوط من القطن الغُفْل (الخام) ، أخذ الناس يفكرون فى طريقةٍ لمضاعفة سرعة النسج حتى يتسنى للنُسَّاج أن يقوموا بانجاز ما يُقدم لهم من الغزالين . وبقيت اليد الانسانية هى الواسطة الوحيدة فى ادارة أنوال النسيج ، حتى اخترع « كَرْتريت » آلة للنسيج عام ١٧٨٥ ؛ ثم عمّ انتشارها فى المصانع عام ١٨١٣

استخدام البخار

وكانت أمثال هذه الآلات تدار فى أول أمرها بيد الانسان ، ثم بالماء . ولكن الضربة التى كان فيها القضاء المبرم على النظام الصناعى القديم لم تأت الاَّ بعد الاهتداء الى استخدام قوة البخار . وذلك أن المهندس الانجليزى الشهير « جيمس وَت »

اخترع عام١٨٦٩ آلة تدار بالبخار ، استعملت فى أول أمرها فى كسح المياه من المناجم . ثم تنبهت الأذهان الى امكان استخدامها فى الصناعة ، فاستعملت فى معمل غزل بمدينة نتنجهام عام ١٧٨٥ . ومن ذلك الحين عرف الناس مزايا البخار العديدة ؛ فانتشر استخدامه، حتى أن صناعة المنسوجات القطنية بلغت بين عامى ١٧٨٨ و١٨٠٣ ثلاثة أمثال ما كانت عليه

انتشار الطرق الحديثة

وانتشر استعمال هذه الآلات تدريجاً من صناعة القطن الى غيره من المنسوجات كالصوف والتيل بتعديل لا محل لذكره هنا . ولما كثر استعمالها فى هذه الصناعة على اختلاف أنواعها ، لم يعُد من الممكن صنع هذه الآلات نفسها بالطرق القديمة، لشدة بطء تلك الطرق وكثرة الحاجة الى الآلات . فأحدث ذلك بطبيعة الحال تغييراً فى صناعة التعدين وأشغال المناجم ؛ وما زال الانقلاب فى صناعةٍ يدعو الى انقلاب فى أخرى ، حتى عمّ النظامُ الجديد جميعَ الصناعات

٣ — ﴿ الأسباب التى سهلت على انجلترة التفوق فى الصناعة ﴾
« فى أوائل الانقلاب »

انجلترة بعد عام ١٧٦٣

خرجت انجلترة من حرب السنين السبع عام ١٧٦٣ وكل الأحوال تساعدها على نمو صناعاتها . فان فرنسا مناظرتها القوية فى التجارة كانت قد وهن شأنها فى مستعمراتها الهندية والأمريكية ؛ فصارت انجلترة صاحبة السيادة فى الهند ، وانتزعت منها فى أمريكا كندا وفلوريدا وجميع الأملاك الفرنسية شرقى المسيسيبى ما عدا أرليان الجديدة . وفقدت اسبانيا حليفة فرنسا كل مقدرة على المنافسة فى التجارة الخارجية . أما ألمانيا فكانت منهكة القوى من جراء الحروب التى أذكى نارها فردريك الاكبر وبقيت مستعرة بين النمسا وبروسيا زمناً طويلاً . كذلك قضت على نشاط هولندة الفتن والقلاقل الداخلية . وأما الممالك الاسكندناوية وروسيا ، فلم يكن لها شأن يذكر فى عالم التجارة . لذلك لما ظهرت المخترعات العظيمة بعد عام ١٧٦٣ ، سهُل

على أصحاب المصانع والمناجم الانجليزية أن يجدّوا فى العمل ويضاعفوا ما ينتجونه ، من غير أن يخشوا بأس أى مزاحمة أجنبية

استقلال الولايات المتحدة

ثم رُزئت انجلترة بفقد مستعمراتها الأمريكية التى استقلت عنها عام ١٧٨٣ . فقد كان سواس الانجليز فى ذلك الوقت يرون أن الدولة الحاكمة لهـا الحق فى التصرف فى كل شؤون مستعمراتها : تكيّف أعمالها وسياستها التجارية كيف شاءت لما فيه مصلحتها نفسها . وعلى هذا المبدأ حظرت انجلترة على تلك المستعمرات جلب شيء من البضائع الى بلادها الاّ منها ، لمنع كل مزاحمة للبضائع الانجليزية . كذلك عرقلت نمو أى صناعة فى داخل المستعمرات ، فضيّقت الخناق على صناعة المنسوجات الصوفية ، ومنعت صناعات الحديد على اختلافها ؛ وبلغ بها الأمر الى أن حرّمت مرور البضائع بين ولاية وأخرى *

ثم فَرضت الضرائب على الواردات ، لتقوم بنفقات حرب عام ١٧٥٦ . ومع أن هذا الأمر ينطبق فى مبدئه على ما تقتضيه العدالة ، اذ كانت الحرب لحماية تلك المستعمرات من فرنسا ، تذرع المستعمرون الى الهيج بأن ليس لهم من يمثّلهم فى مجلس النواب الانجليزى الذى فرض هــذه الضرائب ؛ وعلى ذلك امتنعوا عن دفعها . وقد آزرهم الوزير البعيد النظر « بت » فى مطالبهم ؛ فأُلغيت الضرائب ، الاّ على الشاى (عام ١٧٧٠) ؛ فامتنع المستعمرون عن دفع هذه الضريبة أيضًا ، وبذلك نشبت الحرب الشهيرة التى انتهت باستقلال المستعمرين وتكوين جمهورية الولايات المتحدة . ففقدت انجلترة احتكار الاتّجار مع أهل تلك الجهات

عدم تأثر انجلترة بذلك

وقد كان يُخشى أن يُصيب ذلك كبد الصناعات الانجليزية فى بلادها ، إذ كانت هذه المستعمرات من أعظم الأسواق التى تركن اليها انجلترة فى تصريف مصنوعاتها؛ إلاّ أن نجاح الانجليز فى الهند واستتباب السكينة فى بلادهم نوعًا ما نحو ثلاثين عامًا (١٧٦٣ – ١٧٩٣) ساعدا على نمو الطرق الصناعية الجديدة فيها . وفى عام ١٧٨٩

---

* أوردنا ذلك هنا لما فيه من بيان تطور سياسة الانجليز الاستعمارية والتجارية

تأثير الثورة الفرنسية

انفجر بركان الثورة الفرنسية ، وبقيت أوربا مشتملة بحروب طاحنة نحو ٢٦ عاماً . وكانت انجلترة فى أول الأمر بمعزل ، ثم خاضت غمار الحرب ، بتأثير الأشراف الذين كانوا بالطبع يحقدون على حركةٍ أساسها قيام الغوغاء على أسيادهم الأشراف ، وبمساعدة أصحاب المصانع والتجار الذين رأوا فى دخول الحرب فرصة سانحة للقضاء على منافسيهم الفرنسيين القضاء المبرم . وقد أحدق الخطر بعض الشىء بانجلترة من جراء هذه الحروب عام ١٨٠٦ ، إذ أصدر نابليون « مرسومات برلين » التى حظر بها على دول أوربا أن تتجر مع انجلترة[1] ؛ ولكن ذلك لم يكن له أثر يذكر بفضل سيادة انجلترة البحرية ، التى مكّنت سفنها العديدة من اصدار بضائعها الى كل مملكة من ممالك أوربا ، حتى فرنسا نفسها ، بطريقة توسط دولة أُخرى ؛ فضلاً عن أن أحوال أمريكا الجنوبية وقتئذٍ فتحت مجالاً واسعاً جديداً للتجارة الانجليزية[2] ؛ الى أن انقضت تلك الأزمة بنفوذ القضاء فى عدو انجلترة العنيد ، وانتهاء الحرب عام ١٨١٥

انجلترة ونابليون

تأثير الحرب

ولا شك أن هذه الحروب الشعواء كان لها أكبر أثر فى إضعاف موارد الأمم جمعاء ؛ ولكن ذلك الأثر كان أقل خطباً فى انجلترة منه فى غيرها ، بفضل سيادتها البحرية التى جعلتها الحاملة لتجارة العالم فى المحيطات ، ولأنهـا هى الدولة الوحيدة التى لم تطأ الحرب أرضها من الدول المتحاربة ، فبقيت مصانعها مفتوحة . فتقدمت فيها الطرق الصناعية الجديدة ، بل انفردت بها انجلترة مدة من الزمان

(١) وأجابت على ذلك انجلترة باصدار « قرارات المجلس » التى رمت الى معاملة فرنسا بمثل ما ارادت أن تعامل به انجلترة . ولكن الفريقين لم يستطيعا انفاذ أوامرهما بالدقة ، وكثر الاتجار بطريق تهريب البضائع

(٢) أولا لان الاملاك الاسبانية بها كانت آخذة فى الاستقلال ، وثانيا لان الحكومة نقلت مقرها سنة ١٨٠٨ الى البرازيل

الفصل الثالث

حالة الممالك التجارية الشهيرة

فى أوائل القرن التاسع عشر

١ — ﴿ انجلترة والولايات المتحدة ﴾

من أعظم المشاهد التاريخية وأهمها فى أوائل القرن التاسع عشر[1] انسلاخ الدنيا الجديدة عن القديمة[2]، إذ كان مؤذناً بقيام دول جديدة ذات تأثير فى عالم التجارة، ولاسيما الولايات المتحدة

العلائق التجارية بين انجلترة وأمريكا

وعلى الرغم من أن الحرب التى قامت بها هذه الولايات لنيل استقلالها كانت على انجلترة، لم يكد يثبت أن الهوّة التى فصلت بين المملكتين أصبحت بالاستقلال دائمة ثابتة، حتى أخذت العلاقات التجارية تنمو بينهما بسرعة عظيمة. ولا غرو فانهُ فضلاً عن روابط الدم واللغة التى تربط الأمتين، كانت الحالة الاقتصادية فى كل منهما تدعو الى تبادل السلع بينهما: فتستورد الولايات المتحدة من انجلترة الملابس والآلات وغيرها من المصنوعات التى تُعوز عادة الممالك التى فى دور التكوّن، وتستورد منها انجلترة المواد الغذائية والمواد الغفل (الخوامّ) التى تلزم لصناعاتها الآخذة وقتئذٍ فى النمو السريع. وأهم هذه القطن؛ فقد كانت الولايات المتحدة لا ترسل منـهُ الى انجلترة رطلاً واحداً قبل عام ١٧٩٠، فأرسلت اليها منه عام ١٧٩١ نحو ١٨٩,٠٠٠ رطل، وازداد ذلك ازدياداً سريعاً فبلغ فى سنة ١٧٩٩ نحو ١,٠٠٠,٠٠٠ رطل،

(١) المشهدان العظيمان الاخران هما: ١ - الثورة الفرنسية التى كان لها اكبر أثر فى شعوب ممالك أوروبا. و ٢ - الانقلاب الصناعى الذى احدث استعمال الآلات وتسخير قوة البخار

(٢) تلا استقلال الولايات المتحدة خروج الاملاك الاسبانية فى جنوبى أمريكا على اسبانيا والبرتقال

القطن الامريكي

وربا فى عام ١٨٤١ على ٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ رطل . ومن أهم الأسباب التى ساعدت على هذه الزيادة العظيمة اختراعُ طريقةٍ لتسهيل استعمال القطن ذى الخيوط القصيرة ، فقد كان استعمال هذا النوع من القطن (الذى ينمو بكثرة فى أمريكا) يكاد يكون معدوماً ، لصعوبة فصل خيوطه من البذر . ثم اخترع أمريكى يدعى « هوِتْنى » جهازاً سهّل هــذه العملية ، فأدى ذلك سريعاً الى زيادة ما يصدر من القطن الأمريكى بالنسبة الهائلة التى ذكرناها .

حماية التجارة فى أمريكا

وفى هذا الوقت أخذت الصناعات الأمريكية فى النمو . واتّبعت الولايات المتحدة من بادئ الأمر سياسة « حماية التجارة » أى فرض ضرائب ثقيلة على ما يرد الى البلاد من المصنوعات الأجنبية ، مساعدة للمصانع الوطنيــة على العمل من غير أن يغلبها على أمرها رخصُ الواردات الأجنبية .

أمريكا وحروب نابليون

وفوق هذه الوسائل انفسحت فى تلك المدة أبواب أخرى لنمو التجارة الأمريكية باشتعال نار حروب نابليون ؛ فانها فتحت أسواقاً عظيمة للمواد الغذائية الواردة من أمريكا ، ولا سيما الولايات الجنوبية . كذلك تقدمت صناعــة بناء السفن تقدماً سريعاً ، لنقل الحبوب ونحوها الى ممالك أوربا ، وسهّل أمرها سهولة الحصول على الخشب من غابات أمريكا العجيبة . ولما عطلت الحرب تجارة ممالك أوربا ، تناولتها أمريكا ، واقتسمت نقل متاجر العالم بينها وبين انجلترة ، حتى زادت حمولة السفن الأمريكية من ٢١،٠٠٠ طن فى عام ١٧٨٩ الى ١١٠،٠٠٠ طن فى عام ١٨٠٨

٢ — ﴿ فرنسا ﴾

فرنسا فى آخر القرن ١٨

بينما كانت تجارة أمريكا آخذة فى التقدم كانت حالة فرنسا الاقتصادية تسوء يوماً بعد يوم . وكانت تجارتها قد أخذت فى التقدم فى أواخر القرن الثامن عشر ، بفضل

معاهدة سنة ١٧٨٦

معاهدة تجارية أُبرمت بينها وبين انجلترة عام ١٧٨٦ ؛ فأدى تخفيض المكوس التى تجبى فى إحداهما على البضائع التى ترد من الأخرى الى تضاعف التجارة بين الدولتين

تأثير الثورة

فعاد ذلك على فرنسا بالنفع الوفير ، ولكنهُ ما لبث أن ذهب أدراج الرياح بمجرد نشوب الثورة الفرنسية ؛ فأخذت تجارة فرنسا في الاضمحلال ، حتى كادت تعدم . فقد كانت حمولة تجارة فرنسا مع مستعمراتها فى عام ١٧٨٨ تقدر بنحو ٢٠٤٠٠٠ طن ، فأصبح ذلك صفراً فى عام ١٨٠٠ . كذلك اضمحلت الصناعة فى داخل البلاد ، لاستنفاد القتال وما يتبعه من المصانع الحربية مَعِينَ رجالها الذين كانوا يعملون فى الصناعات النافعة ، حتى اضطرت الى استيراد كثير من حاجياتها من الممالك الأجنبية وقد اشتد بها الحال حتى زادت وارداتها فى عام ١٨٠١ على صادراتها بنحو ٣٥٪

صناعة الحرير

ولاننسى ما أصاب صناعة الحرير النفيسة سنة ١٧٩٣ يوم خرّبت جيوش الجمهورية مدينة ليون (أهم مراكزها) وذبحت أهلها ؛ إذ بقيت تلك الصناعة بعدها فى حكم العدم عدة سنين . وقد حصل ذلك بعينه فى صناعات أُخرى

الاضطراب المالى

كذلك اضطربت أحوال فرنسا المالية ؛ فأن كثرة نفقات تلك الحروب الشديدة اضطرت الحكومة الى إصدار أوراق مالية (بمثابة نقد) نقصت قيمتها بسرعة مدهشة حتى صار ثمن زوجي الأحذية ٨٠٠٠ فرنك (بنقد الورق) ، ورطل الزبد يساوى ٧٠٠ فرنك !

٣ — ﴿ الممالك الأوربية الأخرى ﴾

تأثير الحروب الاوربية

ألحقت الحروب الأوربية ضرراً بليغاً بجميع هذه الممالك ، ولاسيما ألمانيا وهولندة واسبانيا ، وقد كانت الروسيا أقلها مصاباً ، إذ كانت تصدر مقادير عظيمة من الحبوب الى الممالك المتحاربة التى كانت فى شدة الحاجة اليها ، لسد ما نقص فى محصولها بسبب الحرب . وكانت السفن الانجليزية هى التى تحمل هذه المتاجر ، فزاد ذلك فى تجارة النقل الانجليزية

٤ — ﴿ المستعمرات البرطانية ﴾

لم تكد انجلترة تفقد الولايات الأمريكية حتى أخذت تضم اليها أملاكاً جديدة . فقد ضمت اليها مستعمرة الرأس أثناء حروب نابليون؛ وزادت تجارتها مع كندا وجزائر الهند الغربية . وقد أخذ شأن كندا الاقتصادى يعظم منذ ذلك العهد ؛ فراجت فيها صناعة بناء السفن ، وكثر تصدير الفراء منها وصار مورد ربح كبير ، وإن لم تبلغ تجارتها فى تلك الأيام حدًّا يذكر فى جانب التقدم العظيم الذى تقدمته أثناء القرن التاسع عشر. أما جزائر الهند الغربية فكانت نسبة تجارتها على العكس من ذلك أعظم شأنًا مما هى الآن ؛ وكان أهم مواردها السكّر ، الذى كان يُستهلك منهُ فى برطانيا العظمى وحدها ما يربو على ١٠٠،٠٠٠ طن فى العام . وبلغ مجموع قيمة الصادرات من تلك الجزر نحو ٦،٠٠٠،٠٠٠ جنيه فى العام ، فكانت تجارتها مع انجلترة أعظم من تجارة أى مستعمرة انجليزية سواها . وقد ألحق نابليون ضرراً جسيماً بتجارتها فى السكر ، بأن أمدّ صنّاع سكر البنجر فى فرنسا بالمال ابتغاء القضاء على جزء هام من التجارة الانجليزية. وحقًّا أنه فعل بهذه الوسيلة ما لم تفعله جيوشه وأساطيله

جزر الهند الغربية

الهند

وأما تجارة الهند فى ذلك الوقت ، فلم تكن عظيمة الشأن ؛ فكان مجموع قيمة الصادرات من تلك الجهات لا يتجاوز ٣،٠٠٠،٠٠٠ جنيه فى العام . وكان الشاى أهم هذه الصادرات ، تُجبى عليه عند دخوله انجلترة مكوس باهظة تأتى بجزء هام من دخل الحكومة . إلاّ أن ذلك أدّى الى توريده الى البلاد خِلسة ، فراجت مهنة « التهريب » ، الى أن رأى « بِت » انقاص هذه المكوس، فخفضها من ١١٩٪ الى ١٢ ½٪

استراليا

كذلك أستراليا لم تكن شيئًا يذكر ، بل لم يكد يبدأ استعمارها بعد ؛ فكان أول من نزلها من الانجليز جماعة من المجرمين ، نفتهم الحكومة اليها سنه ١٧٨٨ لتأمن بلادهم من شرهم . وفى سنة ١٧٩٢ أخذ الانجليز يفدون اليها من تلقاء أنفسهم . فلم

يلبث هؤلاء المستعمرون أن رأوا مزايا هذه البلاد ، وشدة صلاحيتها لرعى الأغنام وإنتاج الصوف ؛ وقد أخذت حاجة انجلترة اليه تزداد يوماً بعد يوم ، بسبب تقدم صناعة المنسوجات الناشئ عن استعمال الآلات ، ولأن كثيراً من الأراضى الانجليزية التى كانت تُرعى فيها الأغنام أصبحت تُستخدم فى زراعة القمح لسد ما أنقصه الحرب من الوارد منه من البلاد الأجنبية . وفى هذا الوقت أيضاً خطت أستراليا خطوات أولية فى صيد الحيتان

الفصل الرابع

السياسة التجارية

واختلاف المذاهب فيها

١ — ﴿ مقدمة ﴾

حماية التجارة وحرية التجارة

تتبع الأمم فى الوقت الحاضر فيما يتعلق بتجارتها الخارجية احدى طريقتين، تسمى احداهما « حماية التجارة » والثانية « حرّية التجارة » . فالدول التى تتبع الطريقة الأولى تفرض مكوساً ثقيلة على السلع التى ترد اليها من الخارج ؛ لا بقصد الزيادة فى دخل الحكومة ، بل لتقليل الواردات الأجنبية ومعاضدة الصناعات الوطنية . والدول التى تسير على طريقة حرية التجارة لا تضع هذه القيود على تجارتها ؛ واذا فرضت على الواردات شيئاً ، فانما يكون ذلك على مواد خاصة لا تُحدث انخفاضاً يُذكر فى مجموع الواردات ، ويكون الغرض من المكوس فى هذه الحال زيادة دخل الحكومة ، ولهذا يجب أن تكون خفيفة ما أمكن ذلك ، كى لا تقلّ الواردات

ولكل من هاتين الطريقتين محاسن ومعايب ؛ وفى أوقات خاصة ترجح محاسن احداهما على معايبها ، فيتحتم العمل بها. فمحاسن حماية التجارة أنها تحمى من المزاحمة

مزايا حماية التجارة

الأجنبية الصناعاتِ الوطنيةَ التى لا يصحّ أن تركن الأُمة فيها الى غيرها ولا تساعد طبيعة البلاد وأحوالها على صنعها بنفس النفقات الزهيدة التى تصنعها بها الأمم الأخرى. ويظهر فضل هذه الطريقة مجسّماً فى أوقات خاصة. فمن ذلك أن صناعة السفن والفنون الكيمياوية وصناعة الذخائر الحربية ونحوها، كلها لازمة؛ ويجب أن تكون الأُمة قادرة على القيام بها بنفسها، كى تستطيع الدفاع عن بلادها اذا نشبت الحرب بينها وبين غيرها من الأُمم. وبفضل هذه الطريقة أيضاً يمكن الصناعات الناشئة أن تنمو، حتى اذا ما ترعرعت فى ظل هذه الحماية تُركت وشأنها، ليبذل أصحابها غاية جهدهم فى منافسة صنّاع الأمم الأخرى *

معايبها

على أن ذلك لا ينسينا معايب هذه الطريقة فى الإدارة الداخلية؛ فإنّ المصنوعات المحمية تكون غالية الثمن، يدفع الجمهور فى اقتنائها أكثر مما لو رُفعت عنها الحماية، فى حين أن أصحاب المصانع يتمتعون بالأرباح الكبيرة. فكأن الحكومة بعملها هذا تفرض ضريبة على الأمة بأسرها لمنفعة أصحاب المصانع (وإن كانت أموال الجميع فى الحقيقة ثروة للوطن). وفضلاً عن ذلك، فان تبادل السلع بين الأمم فيه فائدة للجميع؛ إذ أن أحوال كل بلاد تساعد على إنتاج أشياء يصعب على غيرها انتاجها. فمصلحة العالم من الوجهة الاقتصادية تقضى بأن يتبادل الناس بضائعهم. وكل قيد أو افتيات على هذه السّنة فيه إضرار بمجموع البشر

٣ — ﴿ تأثير الحروب فى السياسة التجارية ﴾

الحرب وسيلة لحماية التجارة

الحرب فى ذاتها وسيلة من وسائل حماية التجارة؛ لأنه متى خاضت أُمة غمار الحرب، منعت الاتّجار مع عدوها، وعملت على تعطيل تجارته بكل الوسائل، بل أصبح اتّجارها مع المحايدين على جانب من الصعوبة؛ فيقلّ استخدام السفن فى

* ان لم ترفع عنها الحماية فربما لا يستطيع أصحابها بيع سلعهم الا بأثمان مرتفعة، فيحرمون من الاتجار فى الاسواق النائية مهما ساعدتهم حكومتهم فى بلادهم

التجارة، لازومها فى الأعمال الحربية، ولأن العدو يُغرق بسفنه الحربية عدداً منها. وبذلك تصبح الدولة المحاربة لا تعوّل على غير مواردها الطبيعية، وتضطر الى أن تصنع فى بلادها ما كان يرد اليها من الخارج. فاذا ما وضعت الحرب أوزارها، أصبحت هذه الصناعات الجديدة عرضة للمزاحمة الأجنبية، بحيث لو بيعت أمثالها وارداتُ الأجانب بأثمان أقل من أثمانها هى، لا تلبث حتى تضمحلّ وتفنى. ولذلك يستصرخ أصحاب المصانع بالحكومة فى مثل هذه الأحوال، طالبين ضرب مكوس شديدة على الواردات الأجنبية لحماية تلك الصناعات. وعلى ذلك لا تكون الحرب وسيلة للحماية أثناء اشتعالها فقط، بل هى تدعو أيضاً بعد انتهائها الى التزام خطة الحماية زمناً ما

حتى بعد الحرب

وذلك ماحدث فى الممالك الأوربية عقب ابرام الصلح فى سنة ١٨١٥؛ فان جميع الدول لم تكد تفرغ من الحرب، حتى اندفعت بكل قواها فى العمل على اتّباع خطة الحماية فى تجارتها. وذلك ان وسائل الحصار التى اتخذها نابليون أثناء حروبه أدّت الى ظهور كثير من الصناعات فى تلك الممالك لم تكن من قبل؛ فلما انتهت الحرب صار من الضرورى حمايتها من المزاحمة الأجنبية. وكان المقصود بالمزاحمة الأجنبية فى معظم هذه الممالك المزاحمة الانجليزية؛ لأن أحوال انجلترة الخاصة أثناء الحرب، وعدم امتداد ميادين القتال الى أرضها، سهّل عليها الاستمرار فى تنمية صناعتها. وقد تراكم عند أرباب المصانع مقادير وافرة من البضائع، حتى انهم كانوا ينتظرون انتهاء الحرب بفروغ صبر، لتصريفها فى الأسواق الأجنبية. فذعر لذلك أصحاب المصانع فى القارة؛ وبدلاً من أن يكون الصلح بشيراً لفتح أبواب التجارة وتحريرها وتسهيل تبادلها بين الأمم، كان نذيراً بابتداء عهد زادت فيه قيودها واشتدت حمايتها. ففى فرنسا مثلاً زاد مكس الواردات حتى بلغ ٣٠٪ على الصوف و١٠٠٪ على الصلب، وهكذا فى معظم أصناف التجارة. وبقيت الحال كذلك حتى أيام نابليون الثالث

بيان ذلك فى اوربا

بعد حروب نابليون

في أمريكا

كذلك خافت الولايات المتحدة على صناعاتها الجديدة من المزاحمة الانجليزية؛ وزاد تمسكها بذلك احتفاظها بالمال، لشدة حاجتها اليه وقتئذٍ فى تنظيم شؤونها الداخلية وقد كانت المكوس التى فرضتها على الواردات معتدلة فى بادئ الأمر؛ فكانت على المنسوجات القطنيـة والصوفية مثلاً تبلغ ٢٥ ٪ فى عام ١٨١٦ ، وعلى الحدائد ٢٠ ٪ . ثم زادت حتى صار متوسطها فى جميع الواردات ٣٧ ٪ . وقد ساء ذلك الولايات الجنوبية، التى كان أهم مواردها زراعة القطن، وتودّ شراء المصنوعات بأثمان معتدلة . واشتد استياؤها حتى همت بالانفصال عن باقى الولايات . وفى سنة ١٨٣٢ خفضت الحكومة المكوس على بعض المصنوعات التى اشتد السخط من جرائها؛ ولكنها لزمت خطة حماية التجارة بوجه عام

في انجلترة

أما انجلترة فكانت خطتها أيضاً الحماية فى أوائل القرن التاسع عشر . وتمثّل ذلك مجسّماً فى وارد الحبوب ؛ فقد فرضت عليها مكوساً ثقيلة ، مكّنت المزارعين الانجليز من بيع غلاتهم بأثمان ما كانوا ليحصلوا عليها لو سُمح بجلب الميرة من الممالك الأجنبية أو المستعمرات من غير مكس

٣ — ﴿ انجلترة وحرية التجارة ﴾

آدم سمث

أخذت انجلترة أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر تدرج على مهل نحو اتباع خطة حرية التجارة. وقد نشأ ذلك عن عدة أمور؛ أولها اعتبار القوم بالمبادئ الاقتصادية التى استنبطها «آدم سمث» أبو علم الاقتصاد السياسى فى كتابه المشهور « ثروة الأمم » (١٧٧٦) ، اذ يقول : ان الأمم اذا عملت فى تجارتها بنظرية « تجزئة العمل » التى يتبعها الأفراد فى المصانع، جنت الثمرة الاقتصادية بعينها . فكما ان الأفراد يختلف استعدادهم وكفاءتهم باختلاف العمل الذى يؤدونه فيتقن بعضهم ما لا يتقنه الآخر، كذلك الأمم يمكن بعضها ، بسبب ميزة فى تربة بلادها أو جوّها أو موقعها الجغرافى أو خُلق أهلها ، أن تمتاز على غيرها فى انتاج أشياء معينة

آراؤه في حرية التجارة

زراعية كانت أو صناعية . فمثلاً حالة فرنسا وألمانيا وايطاليا تساعدها جميعًا على إنبات الفواكه وعمل الخمور ، على حين أن انجلترة بها تسهيلات خاصة لاستخراج الفحم الحجرى . فالواجب من الوجهة النظرية على كل أمة أن تتفرغ بكل قواها لإنتاج الصنف الذى تساعد أحوالها على التفوق فيه ، بدلاً من تشتيت قواها فى صنع أشياء لا يتم لها صنعها الاَّ بمشقة أو نفقة كبيرة . ومتى صنعت الأمم شيئًا كان من منفعتها العامة أن لا تُوضع أى عراقيل تمنع إحداها من أن تستبدل بسلعها الزائدة عن حاجتها السلعَ التى تحتاج اليها من صنع غيرها

ابتداء العمل بها

على ان هذه المبادئ لم يُعمل بها عقب ظهور ذلك الكتاب توًّا ، بل بقيت حبراً على ورق الى سنة ١٨٢٤ ، اذ بدأ أولو الشأن بالبلاد الانجليزية يقدرونها حق قدرها . فألغت الحكومة المكوس التى كانت تجبى على البضائع الحريرية ، وأعقبت ذلك عام ١٨٢٥ برفع مكس الصوف ؛ وقد ألجأ الى ذلك ازدياد حاجة المصانع الانجليزية اليه ، بكثرة استعمال الآلات فى الصناعة

قوانين الغلال

وكان أهم نقطة اشتد عليها الجدل أثناء البحث فى أن الأولى بانجلترة أن تطلق الحرية للواردات الأجنبية ، أو تحافظ على حماية الموارد الوطنية ، مسئلة « قوانين الغلال » . وهى القوانين التى سنتها الحكومة الانجليزية بفرض ضريبة ثقيلة على ما يرد من الحبوب من الخارج . وقد كانت نتيجة هذه القوانين انه متى حصل عجز فى محصول الحبوب ارتفع ثمن القمح الى حد لا يُحتمل ، وعلا ضجيج الشعب بطلب الخبز . وكثيراً ما حدث هياج فى الطرق من جراء ذلك . وقد بذل المفكرون وسعهم وبخاصة « رِتْشَرْد كُبْدِن » فى تنوير الأذهان الى مضار خطة حماية التجارة اذا

كبدن

سرت على الميرة التى تعيش عليها الأمة ؛ الى أن تجلت تلك المضار عام ١٨٤١ ، وزاد ظهورَها حدوث أزمة مالية مقرونة بعجز فى محصول الحبوب . وتلا ذلك عجز محصول البطاطس بدرجة رائعة ، وبخاصة فى إرلندة . فضج الناس ، وتجسم الخطر الذى يتهدد الأمة إن لم تركن الى خطة تسهيل جلب الميرة من الخارج ، حتى تُسد حاجة الشعب عند حلول هذه النكبات

الغاء المكوس على الحبوب

وفى أثر ذلك ألغت الحكومة أو خفضت المكوس التى تُجبى على نحو ١٥٠ صنفاً (سنة ١٨٤٦) ؛ ولم تأت سنة ١٨٤٩ حتى ألغت جميع المكوس على وارد الحبوب؛ وواصلت العمل بهذه السياسة الجديدة حتى لم يبق فى عام ١٨٦٠ من الواردات التى تجبى عليها مكوس الا ٤٨ صنفاً ، قُصد بمكوسها زيادة دخل الحكومة قبل كل شىء ، بعد أن كان عددها ١٠٥٢ صنفاً فى سنة ١٨٤٢

وقد عادت هذه الخطة فى ابتدائها على التجارة الانجليزية بالفوائد الجمة ، وان لم تكن ضامنة الآن لفوائدها الأولى ، أو أنها تفيد لو اتبعت فى غير انجلترة من الممالك . والحق ان الأمة الانجليزية تفكّر الآن فى أولوية الرجوع الى سياسة حماية التجارة ، بصورة تضم جميع العاهلية البرطانيـة ، لانماء مواردها ومناهضة المنافسة التجارية التى تبديها أمريكا وألمانيا ، والتى يزداد شأنها يوماً بعد يوم

احتمال الرجوع الى الحماية

ولما كانت أحوال الممالك الأخرى مغايرة لأحوال انجلترة ، لم تحْذ واحدة منها حذوها ، وما زالت هى الدولة الوحيدة التى تعمل بسياسة حرية التجارة

الفصل الخامس

تاريخ الزراعة فى القرن التاسع عشر

١ — ﴿ انجلترة ﴾

تقدم زراعة انجلترة فى أول القرن

أخذت الزراعة فى انجلترة فى أسباب التقدم فى ابتداء القرن التاسع عشر ، و بقيت نامية يانعة معظم القرن . وقد ساعد على ذلك عدة عوامل ، منها : (١) ان الأراضى الفسيحة التى كانت فى أيدى كبار الملاك الذين قلما كانوا يستخدمونها فى الزراعة انتقل استعمالها الى ايدى طبقات جديدة من الناس الذين يريدون انماء أموالهم من استثمار الأرض . (٢) ان سياسة حماية الموارد الوطنية رفعت أسعار الحبوب ارتفاعاً

صناعياً ، بقي الى منتصف القرن ؛ فقوّى الإقبال على الزراعة . (٣) ادخال اصلاحات كبيرة فى طرق الزراعة ، كعمل المصارف المنتظمة ، واستعمال الأسمدة الصناعية ، واتباع النظام الدورى فى الزراعة

تقهقرها فى آخر القرن

وفى أواخر القرن أخذت الزراعة الانجليزية تتقهقر مرة أخرى ، بانصراف القوم الى الصناعة وأشغال المناجم . ولأن اتّباع سياسة حرية التجارة عرّض المحصولات الانجليزية لمزاحمة لا طاقة لزرّاع الانجليز بها ؛ اذ ترد الميرة من بلاد خصبة التربة تنبت الحبوب بنفقات يسيرة . فنقصت بذلك الأراضى المزروعة ؛ فبعد أن زادت فى أوائل ذلك القرن عليها فى سابقه بنحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ فدان عادت فنقصت فى أواخر القرن بنحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ فدان ، وفى مقابل ذلك زادت مساحة المراعى ، اذ اصبحت تربية الأغنام ونحوها أربح من الزراعة ؛ وزاد عدد الماشية بسبب ذلك من ٥,٠٠٠,٠٠٠ رأس فى سنة ١٨١٢ الى ١٠,٠٠٠,٠٠٠ رأس فى سنة ١٨٨٨ . ومع ان اصلاح طرق الزراعة زاد محصول الأرض بنسبة ٥٠ ٪ نقصت نسبة المحصول بالاضافة الى حاجة السكان . ففى حين أن نسبة الوارد من القمح من الخارج كانت ٤ ٪ فى سنة ١٨١١ ، تجاوزت ٦٥ ٪ فى سنة ١٨٨٩

مزاحمة الولايات المتحدة وكندا

وقد كانت الولايات المتحدة وكندا اكبر منافس لزراع الانجليز ؛ فان أحوالهما الخاصة بهما قد ساعدت على رخص القمح فى أواخر القرن التاسع عشر ، بدرجة لم تخطر ببال ، حتى ان مجموع ثمن ما استهلكه الشعب الانجليزى عام ١٨٥١ كان ٥٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، فصار فى عام ١٨٨٥ أقل من ذلك بنحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، مع ما زاده عدد السكان فى تلك المدة من ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ الى ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ نفس تقريباً*

* وذلك بالرغم من زيادة متوسط ما يستهلكه كل فرد من ٣١٧ رطلاً فى السنة الاولى الى ٤٠٠ رطل فى السنة الاخيرة

٢ — ﴿ فرنسا ﴾

فرنسا بلاد زراعية

فرنسا من أفضل ممالك أوربا زراعة . وتختلف طرق الزراعة فيها عن انجلترة : من حيث أن الأرض فيها كلها فى يد ملاّك صغار ، جلهم يزرعونها بأيديهم، وأن سكانها البالغ عددهم ٣٧,٠٠٠,٠٠٠ نفس منهم اكثر من ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ يشتغلون بالزراعة . وهى مع ذلك غير قائمة بذاتها فيما يحتاج اليه أهلها من الحبوب ، وقد نقص ما انتجته منها فى أواخر القرن التاسع عشر

الخمر

ومن أهم حاصلات فرنسا الخمر ، وقد كانت تنتج منه الى عام ١٨٨٠ ما يكفى لحاجة أهلها ، فضلاً عن مقادير وافرة تصدرها للخارج ؛ ومن ذلك الحين صار الوارد اليها منه اكثر مما تصدره بالرغم من ازدياد محصولها

بنجر السكر

ومن أنفع هذه المحصولات بنجر السكر : أدخل صناعته فى فرنسا نابليون الأول فصادفت نجاحاً ؛ حتى لم يأت عام ١٨٤٠ الاّ وقد بلغ مجموع ما يزرع من البنجر ٢٠٠,٠٠٠ فدان ، وزاد ذلك بالتدريج ، حتى صار فى عام ١٨٨٦ يربو على ١,٢٥٠,٠٠٠ فدان تُنتج نحو ١٥,٠٠٠,٠٠٠ طن من البنجر . ثم تقدمت زراعة البنجر وصناعة استخراج السكر منه تقدماً كبيراً ، بفضل تقدم العلوم ولا سيما الكيمياوية ، حتى زاد مقدار السكر الذى يستخرج فى فرنسا من ٤٠٠,٠٠٠ طن فى سنة ١٨٧٦ الى ٧٠٠,٠٠٠ طن فى سنة ١٨٩٨ (وفى هذه المدة زاد مقدار السكر الذى يستخرج من الطن الواحد من البنجر بقدر ٧٠ ٪)

مزاحمة الممالك الجديدة

ولكن على الرغم من ذلك ، ومن ازدياد مقدار الأراضى المزروعة بوجه عام ، أصاب فرنسا منذ عام ١٨٨١ ما أصاب انجلترة من انحطاط قيمة مزروعاتها بنمو الممالك الجديدة الخصبة التربة ؛ فقد نقصت أثمان الحبوب والمحصولات الريفية والخمر نقصاً فاحشاً ، حتى قلّ دخل المزارعين والفلاحين ، ولم يغنهم كل ما حدث من ازدياد الأراضى المزروعة وتقدم الطرق العلمية

﴿ المانيـــــا ﴾

يلزمنا قبل التكلم فى حالة ألمانيا أن نتذكر أمرين : الأول – قصر المدة التى مضت منذ اتحادها وتكوينها دولة واحدة . فقدكانت ألمانيا الى حرب السبعين عبارة عن عدة ولايات ، كل منها قائمة بنفسها فى جل شؤونها ؛ وكانت كل ولاية فى أول أمرها تفرض الضرائب والمكوس على البضائع التى ترد اليها من الولايات الأخرى ، فوقف ذلك عائقاً منيعاً وعقبة كئوداً فى سبيل تقدم الصناعة والتجارة ، الى أن كوّنت بعض الولايات الألمانية بينها « اتحاداً للمكوس » (الجمارك) يسمى «زُلْفَرين» ربط بعضها ببعض فى الشؤون التجارية ، كأنها مكوّنة لمملكة واحدة . فكان ذلك أول خطوة فى سبيل توحيد البلاد ، وفتح الباب لتقدم صناعتها وتجارتها . ولم يشمل هذا الاتحاد وقت تأسيسه (فى عام ١٨٢٨) الاَّ عدداً صغيراً من الولايات الألمانية ، ثم نما تدريجاً حتى صار فى سنة ١٨٣٤ يشمل جميع الولايات العظيمة الشأن فى ألمانيا ما عدا النمسا[1] . ولما رأت النمسا الفوائد التى تجنيها هذه الولايات من انضمامها الى الاتحاد سعت فى تكوين اتحادٍ اكبر منه يشمل جميع أنحاء ألمانيا ، وتكون هى من أعضائه . فلم تحظ ببغيتها ، واكتفت الولايات التى يتألف منها اتحاد « الزلفرين » بابرام معاهدة معها سنة ١٨٥٤ ، قوّت بها علاقتها مع النمسا وسمحت لها بالاتجار مع أعضاء الزلفرين بشروط معينة . فكان ذلك أساس الوحدة الألمانية ، التى كان لها فى تقدم الحالة الاقتصادية فى ألمانيا شأن آخر

الزلفرين

الثانى – كثرة عدد الذين هاجروا من ألمانيا أثناء القرن التاسع عشر[2] . وقد أدّى الى ذلك أمور أهمها : (١) عدم استقرار الأحوال الاجتماعية وقلق الأهلين بسبب حدوث انقلابات سياسية واقتصادية ، هى إن عادت على البلاد فيما بعد

كثرة الهجرة من المانيا

---

(١) يلاحظ الفرق بين المقصود بالمانيا هنا وما يقصد بالمانيا الآن

(٢) هاجر كثير منهم الى الولايات المتحدة

أسبابها

بالفوائد الجمة كان لها فى حينها أثر سيئ فى كثير من الطبقات . (٢) شدة النظام العسكرى الذى قضى على جزء كبير من رجال الأمة بالخدمة فى الجيش

وتضح كثرة المهاجرين من البيان التالى :

سنة ١٨٢٠ – ٣٠	٧,٥٠٠
« ١٨٣٠ – ٤٠	١٥٢,٠٠٠
« ١٨٤٠ – ٥٠	٤٠٠,٠٠٠
« ١٨٥٠ – ٦٠	٩٥٠,٠٠٠

تأثيرها فى وقوف الزراعة

اذا لاحظنا ما تقدم سهل علينا أن ندرك أن ألمانيا ، على خصب كثير من بقاعها وكثرة الأراضى الصالحة للزرع فيها ، لم تتقدم فيها الزراعة فى القرن التاسع عشر بالدرجة التى تقدمت بها فى انجلترة وفرنسا فى ذلك الوقت . ومع أن زراعة ألمانيا لا تزال تُعتبر اليوم ناقصة غير يانعة ، فهى فى تقدم مستمر منذ أواخر القرن التاسع عشر* . على حين أن الزراعة أخذت منذ ذلك العهد تقهقر تقهقراً مطرداً فى انجلترة وبدرجة خاصة فى فرنسا . نعم ان الحرب العظمى جعلت الجزائر البرطانية تعود الى زرع الحقول بل حدائق المنازل بالحبوب والبطاطس بحالة لا نظير لها فى التاريخ ، الا أنه من المرجح ان هذه الحالة لا تدوم طويلاً بعد الحرب

ابتداء تقدم الزراعة فى ألمانيا

سكر البنجر

ومن أهم المحصولات التى تقدمت فى ألمانيا سكر البنجر الذى يزداد مقداره عاماً بعد عام . فقد كان ما يُستخرج منه عام ١٨٣٦ فى الأراضى الداخلة فى دائرة اتحاد « الزلفرين » (وان كانت مساحتها وقتئذٍ أقل مما بلغته فيما بعد) ٢٥,٠٠٠ طن ، فزاد حتى بلغ ٣,٤٠٠,٠٠٠ طن فى سنة ١٨٧٣

التبغ

كذلك أثمرت زراعة التبغ ، وإن كانت مقاديره لم تلزم حداً واحداً أو تزداد

* بين عامى ١٨١٦ و ١٨٨٧ تضاعفت مساحة الاراضى المزروعة ، فزادت من ٢٣,٠٠٠,٠٠٠ فدان الى ٤٤,٠٠٠,٠٠٠ فدان . ومما يدل على نقص طرق الزراعة فى ألمانيا أن العامل ينتج ٥ طنون من المواد الغذائية فى السنة ، بينما نظيره فى الولايات المتحدة ينتج ١٥ طنا

بنسبة مطردة . فقد كان أقصاها سنة ١٨٥٨ ، إذ بلغت الأراضى التى زُرعت بالتبغ ٧٠٠٠٠ فدان ، وقد أحدث تقدم العلوم زيادة عظمى فى مقدار ما ينبت من التبغ فى الفدان الواحد ، فقد كان نصف طن فى عام ١٨٦٩ ، فزاد بعد عشر سنوات بقدر ٨٠ ٪

ومن أهم العصور شأناً فى تقدم الزراعة فى ألمانيا المدة ١٨٤٨ - ١٨٥٥ ؛ وفيها جُزئت الضياع الفسيحة الى قِطع صغيرة ، قُسمت بين الفلاحين ، فزاد ذلك من جدّهم واهتمامهم بالزراعة

٤ — ❋ روسيا ❋

بطء التقدم

الروسيا بلاد زراعية قبل كل شىء ، ومع ذلك ليست حال الزراعة فيها على ما يرام ومع أن أملاك المزارعين فيها لا تزيد على ٣٥ فداناً فى المتوسط (وهو أمر يدعو الى العناية بالزراعة) فهى لا تزال ضئيلة المحصول . كذلك تربية المواشى فيها لا تتقدم تقدماً يذكر ، بل ان الاحصاآت تدل على أن مقدار ما تنتجه البلاد من اللحوم نقص أثناء القرن التاسع عشر عما كان عليه

تأثير تحرير موالى الروس

على أن حالة الزراعة العامة تقدمت نسبتها تقدماً حثيثاً منذ تحرير موالى الروس (سنة ١٨٦١) الذى نشأ عنه ازدياد الصادر من القمح حتى بلغ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ (بُشِل)* فى عام ١٨٨٧ . ومن موارد الثروة التى ظهرت فى روسيا فى السنين الأخيرة البيض ، زاد انتاجه حتى بلغ ما تصدره يومياً منه فى عام ١٨٩٩ نحو ٤٠٠٠٠٠٠ بيضة

٥ — ❋ الولايات المتحدة ❋

أكبر مملكة زراعية

الولايات المتحدة هى أكبر مملكة زراعية فى العالم ، وهى تنتج وحدها من المواد الغذائية ما يربو على ١٣٠٠٠٠٠٠٠ طن ، فى حين أن أوربا بأسرها لا تنتج أكثر من ٢٧٧٠٠٠٠٠٠ طن . ومع ذلك فالزراعة فيها ليست إلا فى أوائل تقدمها ، إذ

* البشل = $\frac{٣}{٣٦}$ من الاردب المصرى

سعة المجال لتقدمها

لا يزال الفدان فيها ينتج من القمح ½ ١٢ بُشِل مع أنه ينتج فى انجلترة ٣٣ . فلو راعينا أن المجال لا يزال فسيحًا أمام الأمريكيين لتطبيق كل المسائل العلميــة على زراعة الأرض ، وأضفنا الى ذلك أنهم فاقوا الأوربيين فى اختراع الآلات الزراعية والإكثار من استعمالها ، لا يغرب أن محصول بلادهم الزراعى يصبح يومًا ما ضعفى ماهو عليه الآن

ابتداء التقدم

وقد ابتدأ هذا التقدم الباهر منذ أوائل القرن التاسع عشر ؛ ولكن معظمه كان فى النصف الأخير منه ، فقد كان محصول الحبوب سنة ١٨٥٠ نحو ٨٦٠٬٠٠٠٬٠٠٠ بشل ، فصار ضعفيه فى عشر سنوات ، ثم ثلاثة أمثاله بعد عشر سنين أخرى ، حتى بلغ فى أواخر القرن ما بين ٣٬٠٠٠ و ٤٬٠٠٠ ألف ألف بشل ، ومن أهم أسباب هذه الزيادة ازديادُ مساحة الأراضى المزروعة ، إذ تضاعف مقدارها بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٨٠ ، وكثرةُ استعمال الآلات فى الأعمال الزراعية ، فقد كانت قيمة المستعمل منها عام ١٨٥٠ تقدر بنحو ٥٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه* ولا بد أن يكون ذلك قد بلغ الآن حدًّا هائلاً . وزاد بفضل استخدام الآلات مقدار ما ينجزه الفرد الواحد زيادة عظيمة ، فأصبح يستطيع أن يزرع ١٦ فدانًا علاوة على ما كان يزرعه منذ ثلاثين أو أربعين عامًا

القطن

وأهم حاصلات الولايات الجنوبية هو القطن ، الذى تقدم زرعه فى هذه البلاد بسرعة لم تكن فى الحسبان ، فقد كان المزروع منه عام ١٧٨٤ قدرًا ضئيلاً ، وكاد يكون فى دور التجارب ، فلم تأت سنة ١٨٣٠ حتى بلغ المحصول ١٬٠٠٠٬٠٠٠ (بالة) وصار فى سنة ١٨٨٠ يربو على ٥٬٠٠٠٬٠٠٠ بالة تقدر قيمتها بنحو ٥٥٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه . وتصدر الولايات المتحدة من هذا المحصول نحو ثلثيه ، وتستخدم الثلث الباقى فى مصانعها ؛ وهى نسبة تكاد تكون ثابتة منذ عام ١٨٧٠ ، على الرغم من ازدياد المحصول . ومن أغرب ما يلاحظ فى ثمن القطن أن الازدياد العظيم الذى حدث فى مقدار محصوله منذ ذلك العام لم يحدث تغييرًا يذكر فى مجموع ثمنه ، فقد كان فى آخر

---

* المقصود بالجنيه فى جميع هذه الاحصاآت الجنيه الانجليزى

القرن ٥٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وهو يكاد يكون نفس الثمن فى سنة ١٨٨٠ . وذلك مثال آخر لهبوط أثمان المحصولات الزراعية فى أواخر القرن التاسع عشر*

هبوط اثمان المحصولات الزراعية

ومما لا يستهان به من محصولات الولايات المتحدة الماشية وجميع أنواع الحيوان النافع . وقد كانت فى أول القرن تعدّ بالآلاف ، فصارت فى أواخره تعد بألوف الألوف ، وأصبحت الولايات المتحدة تصدر مقادير وافرة منها ومن لحومها ، بفضل ما أوجده العلم الحديث من تسهيل وسائل النقل و إتقان عمليات تثاليج اللحوم لتبقى صالحة للطعام زمناً طويلاً . كذلك تصدّر اللحوم محفوظة فى العلب ، ومثلها الفواكه التى أهمها الخوخ والتفاح الصنوبرى (الأناناس) ، وأعظم مصدر لهما اقليم كاليفورنيا . وكل هذه طرق جديدة لم تُعرف الا فى القرن التاسع عشر ؛ وليست مقصورة على الولايات المتحدة فان جارتها كندا تصدر سمك السَّمُن المحفوظ فى العلب ، واستراليا تصدر الضأن المثلوج ، وجمهورية الأرجنتين تصدر اللحم البقرى . فذلك مشهد من مشاهد القرن التاسع عشر العجيبة ؛ ولو لم يكن تمّ فيه غيره لكفى ذلك وحده بجعله قرن العجائب ؛ فانه هو القرن الذى فُتحت فيه مخازن الطعام الكبرى فى العالم لألوف الألوف من الجياع من سكان المدن الأوربيـــة المكتظة بمن فيها ، فأنقذهم من خطر المجاعات التى كانت تتهدد أمثالهم فيما مضى . وليس الفضل فى ذلك مقصوراً على تقدم العلوم الزراعية ، بل يشترك معه فى ذلك البواخر والسكك الحديدية وآلات التجميد (التثاليج) وعلب الصفائح

وفرة الحيوانات بأمريكا

العلب

ولا يسعنا قبل ختام هذا الفصل إلاّ أن نشير الى المستقبل الاقتصادى الزاهر الذى ينتظر تلك المستعمرة البرطانيـــة العظيمة المجاورة للولايات المتحدة ، ونعنى بها « كندا » . فان موارد هذه البلاد شبيهة من عدة وجوه بموارد الولايات المتحدة ومع ان استثمارها لايزال فى أوائل أطواره ، لا شك أنها عما قريب تصبح مصدر ثروة عظيمة

مستقبل كندا

* المقصود بذلك هنا الممالك الاوربية ولا ينطبق فى كل شيء على بلد مثل مصر لم تصدر فيما مضى الى أوربا شيئا يذكر من المواد الغذائية

الفصل السادس

تقدم الصناعة فى القرن التاسع عشر

تكلمنا فى فصل سابق على تقدم الصناعة فى الممالك الغربية أوائل القرن التاسع عشر؛ ولكن ذلك لم يكن فى الحقيقة الاّ مقدمات لذلك التقدم العظيم الذى ظهر فى القرن ، وانتشر فيه فى الممالك الأوربية ، بعد أن كاد يكون مقصوراً على انجلترة وحدها. فان التقدم الذى أحدثته المخترعات الحديثة فى سرعة انجاز المصنوعات وتخفيض أثمانها ، بلغ فى نصف القرن الأخير مبلغاً لم يكن ليخطر ببــال ؛ فأصبح متوسط ما تنجزه فتاة واحدة من (الشيت) فى مصانع لنكشير بانجلترة يقدر بنحو ٣٠ ياردة فى اليوم ، أى أنها تصنع فى السنة ما يكفى للبس ١٢٠٠ من أخواتها فى المشرق . وفى صناعة الأحذية صار الصانع الواحد فى مصانع أمريكا ينجز فى اليوم نحو ٦٠٠ زوج . وبلغ مقدار ما صُنع فى الولايات المتحدة سنة ١٨٨٨ من آلات الخياطة ٦٠٠و٠٠٠ آلة ، يقدر ما تنجزه بقوة سبعة آلاف ألف امرأة ؛ وغير ذلك من الأمثلة العجيبة ، التى يحار العقل البشرى فى تصوّرها . كذلك قلت نفقات الانتاج فى كثير من الصناعات ؛ فبعد ان كان الطن الواحد من الحديد يستنفد استخراجه ثلاثة طنون ونصف طن من الفحم الحجرى، صار يكفى له طنّان فقط ، وبتقدم العدد البخارية نقص مقدار ما تحرقه البواخر من الفحم الى ربع ما كانت تحرقه فى منتصف القرن ؛ فنقصت بذلك أيضاً الأثمان نقصاً كبيراً ، اذ النقل جزء لا يستهان به من نفقات الانتاج . على ان كل هذه الأمثلة الصغيرة ليست الاّ قطرة من بحر من عجائب الاختراعات الحديثة. وان كان القرن التاسع عشر قد أدهشنا مرة ، فسيدهشنا ويدهش أخلافنا القرن العشرون مرات . والآن نفصّل هذه النظرة العامة بالكلام على أشهر الممالك الصناعية كل على حدة فنقول :

التقدم فى النصف الثانى من القرن

نقص نفقات الانتاج

عجائب الاختراعات



جيمس وَت
مخترع الآلة البخارية

١ — ﴿ انجلترة ﴾

أولوية انجلترة

بقيت انجلترة عدة سنين فريدة في استعمال الآلات والمخترعات الجديدة ، فأحرزت قصب السبق فى أسواق العالم التجارية ، وقطعت فى مضمار الاختراع مرحلة كبيرة قبل غيرها بمدة من الزمان . واذ كانت هذه المخترعات من بنات أفكار أبنائها ، فلا غرابة أن تمتّعت بالأولوية فيها زمنًا طويلاً

انجلترة والممالك الاخرى

ولما أخذت العلوم الصناعيــة تنتشر على مر الأيام فى سائر البلدان ، لم يعد فى استطاعة أمة أن تستأثر بها ، بل انها لم تعد مقصورة على الممالك الأوربية ؛ فصارت الولايات المتحدة بأمريكا تضارع تلك الممالك فى صناعتها ، وأخذت اليابان بالشرق الأقصى تحذو حذوها ، فقُرن مجهودها بالنجاح العظيم . ومع أن المجال أصبح مفتوحًا لأن يضارع انجلترة بعضُ الأُمم الأُخرى ، بقيت الأُولى لآخر القرن فى عالم الصناعة والتجارة بوجه عام

وقد بيَّنا فى غير هذا المكان ان أول ظهور الاختراعات الحديثــة وحدوث الانقلاب الصناعى كان فى صناعة المنسوجات ، ثم انتقل منها بالتدريج الى غيرها . وأعظم

انقلاب صناعة التعدين

انقلاب شوهد بعد ذلك كان فى صناعة تعدين الحديد والصلب . والفضل الأكبر فى تقدمها للمخترع « السير هنرى بِسِمَر » الذى ابتدع سنة ١٨٥٦ طريقة لتحويل

طريقة بسمر

الحديد الى صلب بنفقات زهيدة . وذلك بأن يُطلق على الحديد الذائب وهو فى التنور تيَّارٌ قوى من الهواء الساخن الشديد الضغط ، فبمروره بين خلايا الحديد ينزع منه بقايا الفحم (الكربون) الذى يتخلله ، فيتحول الحديد بذلك الى نوع نافع من الصلب ، يصلح للقضبان الحديدية والمراجل ونحوها ، مما لا داعى فى صنعها الى استخدام الصلب المسقى الباهظ الأثمان . وقد تضاعف محصول الصلب بهذه الطريقة ٣٠ مرة ، ونقص ثمن الطن منه من ٤٠ جنيهاً فى سنة ١٨٦٠ الى نحو ½ ٤ من الجنيهات فى سنة ١٨٩٥ . وعلاوة على ذلك أحدثت هذه الطريقة فيما ينفقه أصحاب المصانع الانجليزية وفراً عظيماً ، بلغ فى سنة ١٨٨٥ وحدها ٩،٠٠٠،٠٠٠ جنيه ، وتقدر قيمته فى مجموع المدة التى مضت منذ ظهور الاختراع الى ذلك العام بما لا يقل عن ٢٦٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه

تنور سيمنز

ولم يكن هذا الاختراع الاَّ فاتحة لعدة اختراعات عظيمة . ففى العام الذى ظهر فيه اختراع بِسِمَر اخترع « السير وليم سيمِنْز » تنوره الشهير للاقتصاد فى الوقود ، فجاء ذلك مساعداً آخر على تخفيض أثمان الصلب . ثم تتالت الاختراعات تترى ؛ فظهر فى صناعة التعدين من المدهشات ما أحدثته مخترعات أوائل القرن فى صناعة المنسوجات ، بل ما أربى عليها فى تجلّى مقدرة الانسان وكيفية تسخيره قوى الطبيعة.

الآلات الهائلة

من ذلك الآلات الهائلة التى تبلغ قوة الواحدة منها ١٠،٠٠٠ حصان : تتلقى الكتلة الهائلة من الصلب التى يزيد وزنها على طن ، فتخرجها قضباناً دقيقة يبلغ طول الواحد منها ١٣٠ قدماً ، أو تطرقها الى ألواح وصفائح متفاوتة السمك ، فتُتخذ منها المراجل ومصفّحات السفن الحربية الحديثة ؛ كل ذلك بسهولة عظيمة ، كأنما تُشكَّل من عجين ؛ مما قلب نظام تلك الصناعة وضاعف محصولها أضعافاً مضاعفة . فقد كان مقدار ما يُستخرج بانجلترة من الحديد فى عام ١٨١٠ ، يقدر بنحو ٢٥٠،٠٠٠

طن ، فصار فى عام ١٨٩٠ يربو على ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ طن

صناعة الحديد فى انجلترة وامريكا

ولإظهار مقدار تقدم صناعة الحديد بانجلترة وكثرة انتشارها فى البلاد فى أواخر القرن التاسع عشر، نورد الجدول الآتى ببيان ما يخص كل فرد من أبنائها من مجموع ما يُصنع سنويًا فى البلاد ، مع مقابلة ذلك بمثله فى الممالك الأخرى التى اشتهرت بصناعة الحديد :

	رطل		رطل
انجلترة	٤٠٠	ألمانيا	٢٠٠
بلجيكا	٣١٠	فرنسا	١١٢
الولايات المتحدة	٣٠٠	ايطاليا	٢٠

تقدم اشغال المناجم

وفى أثناء تقدم صناعة التعدين ، كانت تتقدم معها مهنة أُخرى ملازمة لها بطبيعة الحال ، وهى استخراج المعادن من بطن الأرض . ففى سنة ١٨٠٠ كان مقدار ما يستخرج بانجلترة من الفحم لا يتجاوز ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طن ، فبلغ ٤٩٫٠٠٠٫٠٠٠ طن فى سنة ١٨٥٠ ، ثم زاد حتى ربا فى سنة ١٨٩٦ على ١٩٥٫٠٠٠٫٠٠٠ طن ، وصار العامل الواحد يستخرج مقدار ما كان يستخرجه أربعة عمال فى سنة ١٨٠٠ . عدا التقدم العظيم الذى حدث فى نظام المناجم وتقليل أخطارهـــا ، حتى نقصت بقدر ٦٦ ٪ مما كانت عليهِ فى أوائل القرن

تقدم المنسوجات

على أن كل ذلك لم تُهمَل بجانبه صناعة المنسوجات التى كانت مهد الانقلاب الصناعى ومنبعث المخترعات . فقد زاد مقدار ما يُصنع بانجلترة من المنسوجات القطنية حتى بلغ ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل من القماش ، وهو يعادل ٣٠ مثلاً لما كان يُصنع منها فى أوائل القرن . وكان ما تصنعه انجلترة وحدها من هذه المنسوجات فى آخر القرن يربو على مجموع ما تصنعه جميع الدول الأوربية . كذلك نقصت أثمانها ؛ فالقماش الذى كان الميل منه يباع بسبعين جنيهاً صار يباع الميل منه بعشرين جنيهاً . ومع كل هذا ارتفعت أُجور العمال وزادت أسباب الراحة لهم فى المصانع

المنسوجات الصوفية

أما المنسوجات الصوفية فقد بلغت أربعة أمثال أو خمسة أمثال ما كانت فى سنة ١٨٤٠ . ومن أهم ما يلاحظ فى هذه الصناعة أن الصوف الذى يستعمل فيها كان كله فى أول الأمر من الأغنام الانجليزية ، فصار نحو أربعة أخماسه يرد من أستراليا ، وقد نقص بذلك ثمنه نقصاً حثيثاً ، فصار الرطل يساوى ٨ ½ بنسات (٣ ½ قروش) ، بعد أن كان يساوى ٢٨ بنساً (١٣ قرشاً) ، فكان هذا ، مضافاً الى مزايا الصنع بالآلات ، سبباً فى هبوط أثمان المنسوجات الصوفية

٢ — ﴿ فرنسا ﴾

تقدمت الصناعة فى فرنسا أثناء القرن التاسع عشر تقدماً محسوساً ، ولكن لا بالسرعة ولا بالقدر الذى تقدمت به مصنوعات انجلترة أو ألمانيا . وقد كان أعظم هذا التقدم فى صناعة المنسوجات الدقيقة ، وتزيد قيمة ما تصنعه فرنسا منها بعض الشىء على قيمة ما تصنعه المانيا ؛ ولكن ذلك لم ينشأ عن كثرة المقدار بل عن دقة المصنوعات الفرنسية وجمالها وارتفاع أثمانها . والحقيقة ان الأخلاق والميول القومية تظهر فى صناعات الأمم كما تظهر فى كثير من فعالها ؛ ولذلك يشاهد الذوق الفرنسى الجميل فى جميع مصنوعات فرنسا ، سواء اكان ذلك فى المنسوجات أم فى غيرها . ويشاهد هذا الأمر بعينه فى مصنوعات انجلترة وألمانيا ؛ فان كلتيهما امتازتا فى صناعة الحديد والفولاذ ، وهما صنفان يُشعران بقوة هاتين الامتين

المنسوجات الدقيقة

الذوق الفرنسى

٣ — ﴿ المانيـــا ﴾

سرعة تقدم الصناعة الالمانية

لم تتقدم دولة أوربية فى الصناعة بقدر ما تقدمته ألمانيـا فى القرن الأخير . وقد كان جل هذا التقدم العظيم بعد سنة ١٨٧٠ ، اذ برزت ألمانيا مملكة متحدة عظيمة القوى . فكان عدد الألمان المشتغلين بالصناعة فى سنة ١٨٦٩ حوالى ٥,٠٠٠,٠٠٠ فبلغ فى سنة ١٨٨٠ ما يزيد على ١٦,٠٠٠,٠٠٠ نفس . وامتاز الألمان بشدة عنايتهم

بصناعة الآلات الحربية ولكنهم تقدموا أيضاً تقدماً سريعاً فى الصناعات السلمية ، حتى صار مجموع قيمـة مصنوعاتهم يقارب قيمة المصنوعات الانجليزية ، وكانت ألمانيا الى نشوب الحرب العظمى تخطو كل يوم خطوات واسعة ، جعلتها من أقوى منافسى انجلترة

صناعة الاصباغ

ومن الصناعات التى اختص بهـا الألمان دون سواهم صناعة الأصباغ : انتهز كيمياويوهم فرصة كشف كيمياوى انجليزى إمكان الحصول على صبغة معينة بالطرق الصناعية بعد أن كانت لا تُتخذ الا من النبات ، فاهتموا بهذا الكشف ودرسوه ، وعملوا على تطبيقه فى التجارة . ولم يقتصروا عليه ، بل وقفوا على أسرار صناعة أصباغ لم يُسمع بها من قبل . وقد تقدمت هذه الصناعة تقدماً عجيباً ، حتى صارت وحدها مورد ثروة لألمانيا لا تقل عن ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه فى العام . والحق أنهـا أفادت تلك البلاد بما هو أهم من ذلك ؛ فقد أفضى الاشتغال بها الى الاهتمام بالعلوم والفنون الكيمياوية بوجه عام ، حتى كانت ألمانيا قبل الحرب العظمى قائدة العالم فى ذلك

الفنون الكيمياوية

أسباب التقدم

وأعظم الاسباب التى ساعدت على هـذا التقدم ثلاثة : الأول اتحاد ألمانيا فى سنة ١٨٧١ ، اذ بعث فيها روحاً قوياً كبيراً . وغرس فى أهلها حب الاقدام والثبات .

١ - اتحاد المانيا

الثانى أن الألمانى بطبعه قادر على أن يشكّل نفسه ومصنوعاته حسبما تتطلب الأحوال يتأمل فى نوع المصنوعات الذى يروج فى جهة ما من العالم فيصنعه ، بحيث يطابق رغبات أهلها تمام المطابقة ، بقطع النظر عن متانته أو حسن ذوقه . الأمر الثالث دقة التعليم وتكييفه بحيث يلائم الأحوال الحديثة فى معترك الحياة . فترى صاحب المصنع الألمانى لم يُزوَّد بتربية عامة عالية فقط ، بل يكون قد تلقى فوق ذلك دراسة فنية خاصة ، والمدارس الفنية المعدة لهذا الغرض وللبحوث العلمية الفنية كثيرة الانتشار فى ألمانيا . وكذلك المصانع الألمانية لا تستعمل الا الآلات الحديثة ، وتتوخى أحدث الطرق فى كل ما تصنعه . هذا الى مراعاة الاقتصاد التام ، بحيث لا يضيع شىء من مخلّفات الصناعة سدًى ، بل يوجد لكل شىء وجه ينفع فيه

٢ - تشكيل الصناعة

٣ - دقة التعليم

نظام المصانع الالمانية

وقد كان المشهور عن البضائع الألمانية أنها زرية النوع ، بخسة الثمن ، حتى لقد كان يقال إذا أريد تحقير شيء : « انه مصنوع فى المانيا » . ولكن ذلك العهد قد انقضى ، فصارت ألمانيا فى السنوات الأخيرة تصنع الغث والسمين ، وأصبحت من اكبر المنافسين فى أسواق البضائع الراقية

٤ — ﴿ الممالك الأوربية الأخرى ﴾

من الممالك الأوربية الأخرى التى أحرزت تقدماً يذكر فى الصناعة أثناء القرن التاسع عشر وأولاها بالفخر بلجيكا ، التى تُعتبر بالاضافة الى صغر حجمها ، من أعظم ممالك أوربا الصناعية : أقبل البلجيكيون على استعمال الآلات والمخترعات الحديثة منذ ابتداء الانقلاب الصناعى ، فتقدموا فى ذلك الميدان تقدماً عظيماً ، حتى صارت مصنوعاتهم عام ١٨٨٠ عشرة أمثال ما كانت عليه فى سنة ١٨٣٠ ، و بقيت فى تقدم مستمر حتى نشوب الحرب العظمى . ولا شك أن من أعظم الأسباب التى ساعدت على ذلك توافر الفحم لديهم ، بفضل ميدان الفحم العظيم المعروف بالميدان الفرنسى البلجيكى

بلجيكا

الروسيا والنمسا

وقد نالت الروسيا والنمسا أيضاً جانباً من التقدم ، ولكنه لم يكن شيئاً مذكوراً فى جانب ما أحرزته الممالك السالفة . و يكفى لبيان ذلك ان الروسيا ، مع كل اتساعها الهائل ، لا تتجاوز مصنوعاتها نصف مصنوعات ألمانيا ؛ وأن مصنوعات النمسا لا تبلغ حتى ذلك القدر . ومع ذلك فالنمسا اكثر صناعة من روسيا ، ولها شهرة خاصة من زمن فى صناعات معينة ، كصناعة الزجاج والجعة وغيرهما

ايطاليا

وأعظم بقية الممالك تقدماً ايطاليا ، فقد تحسن أثناء القرن الكثير من صناعاتها ، ولا سيما صناعتى المنسوجات القطنية والحرائر ، وزاد مقدار ما يستهلك فى مصانعها من الفحم ازدياداً عظيماً ، إذ بلغ ثلاثة أمثاله فى تسع سنوات (١٨٧٨ – ١٨٨٧) .

ويقدر عدد المشتغلين من أهلها الآن بالصناعة بنحو ٥٠٠٠٠٠٠ ، وهو قدر لا يستهان به بالاضافة الى مجموع السكان

تاخر اسبانيا

أما اسبانيا فعلى العكس من جميع الدول السابقة؛ لم تقف الصناعة فيها عن التقدم فقط ، بل تأخرت تأخراً محسوساً . من ذلك أن عدد المشتغلين فيها بصناعة المنسوجات صار الآن لا يتجاوز ٥٣٠٠٠ عامل ، وأن عدد أنوال الحرير المستعملة فيها أصبح يقدر بنحو ٣٠٠٠ نول ، بعد ان كان ١٦٠٠٠ نول فى القرن السادس عشر. أجَلْ قد زاد فيها استخراج المعادن ، فبلغ فى أواخر القرن عشرة أمثال ما كان فى سنة ١٨٦٣ ؛ ولكن لا يُستعمل فى البلاد من ذلك القدر الاّ النزر اليسير ، وجلّه يصدر للممالك الأجنبية ذات الشأن فى الصناعة ؛ فضلاً عن أن معظم مناجم اسبانيا فى يد شركات أجنبية اكثرها للانجليز

٥ — ﴿ الولايات المتحدة ﴾

امريكا أعظم الممالك الصناعية

أوردنا فى غير هذا المكان أن الولايات المتحدة هى أعظم مملكة زراعية فى العالم وقد تقدمت صناعاتها تقدمًا مطرداً منذ عام ١٨٥٠ ، حتى صارت الآن أعظم الممالك الصناعية أيضًا . وذلك تقدم عجيب لا يكاد يُرى له مثيل ؛ فقدكانت قيمة المصنوعات الأمريكية تقدر فى عام ١٨٣٠ بنحو جنيهين عن كل فرد من السكان ، فصار ذلك ٥ جنيهات سنة ١٨٤٠ ، و ٩ جنيهات سنة ١٨٥٠ ، و٢٢ جنيهًا سنة ١٨٨٠ ؛ وبقى فى ازدياد حتى وصل فى أواخر القرن الى ٣٢ جنيهاً

الاسباب التى ساعدت على ذلك

ولا شك أن بعض الفضل فى هذا التقدم العظيم يرجع الى الأحوال الحسنة التى أحاطت بالولايات المتحدة؛ فإنّ بُعدها الشاسع عن أوربا حفظها من منافسة عظيمة ربما كانت تقضى على صناعاتها وهى فى المهد . كذلك كفاها الحظ مؤُنة التجارب والمصاعب التى لاقاها غيرها فى الدور الأول من الانقلاب الصناعى؛ فانها لما أخذت فى أسباب النهوض، وعوّلت على استعمال الآلات فى صناعتها ، وجدت أمامها

المخترعات التى جادت بها قرائح المهندسين الأوربيين وخبرتهم

وقد عمّ هذا التقدم صناعات عديدة ؛ فوصلت صناعة المنسوجات القطنية فى أواخر القرن الى ٦/٧ مثلها فى انجلترة ، وقاربت صناعة الأصواف نظيرتها فى انجلترة أيضاً ؛ ولكن التقدم الأعظم هو فى صناعات الحديد والفولاذ ، فان ما صُنع منهُ عام ١٨٧٠ كان ٦٤,٠٠٠ طن فقط (وهو أقل بكثير مما كانت تصنعه فرنسا أو ألمانيا إذ ذاك)، فبلغ فى عام ١٨٨٢ نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ طن ، وزاد حتى بلغ فى آخر القرن ٦,٠٠٠,٠٠٠ طن ، وهو الآن أكثر مما تصنعه انجلترة وألمانيا مجتمعتين . على أن معظم هذا القدر يُستعمل فى داخل البلاد فى صنع الآلات الكثيرة ، ومدّ السكك الحديدية المديدة ، ولا يزال ما تصدره الولايات المتحدة من الصلب خمس ما تصدره انجلترة

صناعة الحديد والفولاذ

قطع الاخشاب

ومن الصناعات المثمرة التى تمتاز بها الولايات المتحدة وكندا صناعة قطع الأخشاب وفى الولايات المتحدة أراض شاسعة تنمو فيها أشجار الغابات وتعظم ، وأُخرى تزرع فيها تلك الأشجار قصداً لكثرة أرباحها . فلا غرابة إن كان يصدر سنوياً من كل ثغر فى البلاد مقادير هائلة من الأخشاب على اختلاف انواعها

استعمال الالات فى الصناعة

واشتهر الأمريكان بشدة ميلهم الى استعمال الآلات فى كل أنواع الصناعة، حتى ما كان منها يبعد استعمال الآلات فيه . من ذلك صناعة الساعات التى كان أعظم مركز لصناعتها سويسرة، حيث أُجور الصناع بخسة ويمكن صناعة الساعات فيها باليد بثمن بخس ؛ فما زال الأمريكيون بهذه الصناعة حتى تمكنوا من اختراع آلات لصنع كل جزء من عددها على انفراد ، فتخرج منه الآلاف بسرعة عجيبة ، حتى صارت الساعات تصدر من أمريكا الى جميع أنحاء العالم بأثمان بخسة لم يسبق لها مثيل . ولطريقة صنع أجزاء العدد بالآلات على هذا الوجه ميزة كبيرة ؛ وهى أن الألوف التى تصنع من الجزء الواحد كلُّها متساوية فى حجمها وشكلها بغاية الدقة ، فمتى تلف جزء من آلة أمكن أن يُستبدل به غيره بسهولة . وتظهر هذه الطريقة ممثَّلة فى أعظم

مظهر لها فى صناعة السيارات (الأُتوموبيلات) ؛ فان يد الانسان لا تكاد تمسها إلاَّ عند تركيب بعض أجزائها على بعض . على أن الأشياء التى تُصنع بهذه الطريقة لا تعادل فى جودتها ما يُصنع من مثلها بمساعدة اليد مع البطء اللازم ؛ ولكنها بخسة الثمن ، فتلقى رواجاً عظيماً . ومن أشهر الأمثلة المعروفة لهذا النوع من البضائع ساعة « إنجرْسول » وسيارة « فورد »

وفرة القوة المحركة

ومن أعظم الأسباب التى ساعدت على نمو الصناعة بأمريكا وفرة الوسائل المولّدة للقوة المحرّكة التى تلزم لإدارة المصانع . ففضلاً عما فيها من مقادير الفحم الوافرة ، وُهب لها من الطبيعة ثلاثة موارد أُخرى لتوليد القوة : الأول قوة المياه فى الأنهر والجنادل (الشلالات) وأعظم مثال لذلك جنادل « نياجارا » ، حيث تُستخدم قوة الماء المندفع منها فى توليد الكهرباء فتضىء المدن وتسيّر مركباتها وتدير مصانعها. وهى قوة عظيمة يُنتفع بها فى منطقة واسعة ، يبعد بعض مدنها عن الجنادل بنحو ١٥٠ ميلاً . المورد الثانى زيت (البترول)؛ وكان أول استخراجه سنة ١٨٥٩، إذ حُفرت لذلك بئر واحدة فى ولاية بنْسِلْفانيا ، فلم يناهز القرنُ الانتهاء الاَّ وقد صار فى البلاد نحو ٣٠٠٠٠ بئر تُخرج ما يربو على ٢٠٠٠٠ ألف ألف جالون فى العام . وهذا المقدار آخذ فى الازدياد منذ ذلك العهد، وليس ثمة ما يُشعر بأنهُ سيأخذ قريباً فى أسباب النقصان . المورد الثالث الأُيام (الغاز) الطبيعى ؛ وكان أول كشفه سنة ١٨٨٠ قرب « بتسبرج » ، حدث ذلك اتفاقاً أثناء حفر بئر للبحث عن زيت البترول . فبينما الحفر جارٍ على عمق ١٣٢٠ قدم ، اذا بانفجار هائل دفع العدد والآلات الى أعلى الفوهة ؛ وانطلق منها دوى عظيم من الأيام يزمجر فى الهواء . ولم يعرف الناس ماهية هذا الأُيام ؛ فاستوقدوه ، فاتّقد . ثم بقى يشتعل سدًى خمس سنوات من غير أن يعمد القوم الى الانتفاع به ، ظانين أنهُ مقدمات صغيرة متصاعدة من زيت البترول الذى فى أسفل البئر ؛ الى أن أُلّفت الشركات لاستخدامه فى أعمال الانسان ؛ فصار يُحمل فى الأنابيب الى المدن ، حيث يُستعمل فى الاضاءة والأغراض المنزلية وإدارة بعض المصانع الصغيرة

نياجارا

زيت البترول

الغاز الطبيعى

هذا ولا يمكننا فى هذا المؤلف الصغير أن نفرد كلمة لكل صناعة على حدة من الصناعات الأمريكية العديدة ، أو كل مورد من موارد ثروتها العظيمة. وكل ما نرمى اليه أن تكون هذه النظرة العامة المُقتضبة كافية لتصوّر المستقبل الباهر الذى يُنتظر أن تحظى به أمريكا ، وأن تحتفظ به زمنًا طويلاً

الفصل السابع

حركة العمّال — العلم والصناعة — العلم والحرب

١ — ﴿ حركة العمال ﴾

مظلمة العمال

لمّا حدث الانقلاب الصناعى لم تجنِ طائفة العمال فائدة تُذكر من الأرباح العظيمة التى نشأت عن استعمال الآلات والمخترعات الحديثة؛ بل كانت الأموال الطائلة تتدفق الى جيوب أصحاب المصانع ، فى حين أن أُجور العمال بقيت ضئيلة لا تكاد تقوم بأودهم؛ وزاد حالتهم بؤسًا كثرة الضرائب التى فُرضت على جلّ حاجيات المعيشة. إلاّ أن هذا النظام الجديد أوجد معهُ ميزة لم يحظ بها العمال من قبل، وهى أن وجود عدد عظيم منهم تحت سقف واحد مكّنهم من التعارف والاختلاط ، والنظر فى

اجتماع العمال

شؤونهم مجتمعين . وقد حظرت عليهم الحكومة فى بادئ الأمر أن يجتمعوا للاتحاد على شىء ، ولكنها اضطُرت الى سحب هذا القانون عام ١٨٢٥؛ ومن ذلك الحين أخذت كلمة العمال تتحد، وصار فى مقدورهم أن يعملوا لتحسين حالهم ما كانوا يعجزون عن عمله منفردين؛ فتقدمت حالهم فى آخر القرن تقدمًا عظيمًا. وقد توصلوا الى هذه

اغراض جمعيات العمال

الغاية بتأليف جمعيات منهم تُعرف « بنقابات العمال » ، كثر انتشارها حتى عمّت كل الصناعات تقريبًا. وأهم أغراضها تحسين أجور العمال بوجه عام. وللوصول الى ذلك يدفع أعضاء كل جمعية قدراً صغيراً من المال فى الأسبوع ، يجتمع منه لدى الجمعية

الوسائل التى تستعين بها

مبالغ وافرة تنفقها لمساعدة من يمرض من العمال، ولتحسين حال الجمعية والعمل على تحقيق أغراضهم بوجه عام. واذا رأت الجمعية وجوب زيادة أجور أعضائها، عمدت الى ذلك أولاً بالطرق السلمية، بأن تسعى فى إقناع أصحاب المصانع بطريق العقل؛ فاذا أخفقت فى ذلك، لجئت الى سلاحها القوى وهو تقرير «الاعتصاب». وفى هذه الحالة يُعرض الأمر على الأعضاء لإبداء آرائهم فيه، حتى اذا ما قرّ رأيهم على الاعتصاب أضرب الجميع عن العمل. وعندئذٍ تنفق الجمعية عليهم من المال المدّخر لديها حتى ينفد. فأحياناً يكسب العمال القضية، فيُجابون الى مطالبهم قبل نفاد ذلك المال؛ وأحياناً يكسبها أصحاب المصانع، فيعود العمال الى عملهم بالشروط الأولى. ولكن لا مشاحة أن النتيجة العامة لهذه المجهودات كانت فى جانب العمال؛ فتحسنت حالتهم كثيراً عما كانت عليه فى أوائل القرن

ممثلو العمال فى مجلس الامة

وكثيراً ما تمدّ الجمعية الأكفاء من أعضائها بالمال، مساعدةً لهم على ترشيح أنفسهم للعضوية فى مجلس الأمة النيابى، حيث يدافعون عن مصالح العمال. وقد نجحت هذه الطريقة نجاحاً عظيماً، حتى أن مجلس الأمة الانجليزى به الآن ما لا يقل عن ٤١ عضواً من مندوبى العمال؛ وكثيراً ما أظهر بعضهم من الكفاءة والمقدرة ما أدخله فى سلك الوزراء. ولا يخفى ما فى ذلك كله من رفع شأن العمال واحترام حقوقهم. وفى أستراليا وزيلندة الجديدة عظُم نفوذ حزب العمال حتى أن مجلس الوزراء فيهما كثيراً ما كان جميع أعضائه من هذا الحزب. وكذلك فى الممالك الأوربية الأُخرى ارتفع شأن العمال ارتفاعاً يذكر، وإن كان لا ينتظر بالطبع أن يخطو ذلك فى الممالك ذات الحكومات المطلقة نفس الخطوات التى يخطوها فى البــلاد ذات الحكومات الجمهورية مثل فرنسا، أو فى بلاد حرة مثل انجلترة

مؤتمرات العمال الدولية

وما زالت حركة العمــال فى ارتقاء ودعوتهم فى انتشار، حتى انهم أخذوا فى السنين الأخيرة يعملون على توحيد أغراضهم فى جميع الممالك. فعقدت لهم مؤتمرات دولية حضرها زعماء العمال فى كل مملكة، وتباحثوا فى مسائل شتى خاصة بشؤون العمل والعمال

الاشتراكية

وقبل أن نختم هذه العجالة فى حركة العمال ، نأتى بكلمة فى حركة متصلة بها ، وهى حركة « الاشتراكية » التى أصبح لها شأن سياسى كبير . ولا نستطيع هنا بيان أغراض الاشتراكيين ، ولا توضيح مذاهبهم المختلفة ؛ وانما نقول ان فئة عظيمة من العمال الذين ينتمون الى هذه الاشتراكية يقرب غرضهم مما نحن بصدده ؛ وذلك انهم يقصدون الى ازالة أصحاب المعامل من الوجود ، ووضع ادارة الصناعة فى يد الحكومة ، وبذلك تُنفَق الأرباح فى مصلحة مجموع الأمة بدلاً من تدفقها الى جيوب أصحاب المصانع . ومنهم طائفة أُخرى تسمى « النقابية » ترمى الى أن يدير أمر كل صناعة العمالُ المنتمون اليها بحيث توزّع أرباح المصانع على الذين يشتغلون فيها

طائفة النقابية

على أن هاتين الحركتين وأمثالها لم تُقرَن بعدُ بنجاح يذكر فى أى مملكة ؛ ولكن مجرد وجودها يُنذر بتفاقم النزاع بين العمال وأصحاب المصانع فى المستقبل ، بل بينهم وبين الحكومات نفسها . وأمامنا الآن مظهر من اكبر مظاهر سطوة العمال والاشتراكية ، وهو تشتت شمل روسيا وتدكدك أطواد ملكها من ثورات العمال بحكومتها

سطوة العمال والاشتراكية

على أن كثيراً من أصحاب المصانع فى الممالك أخذوا يحسّون بأن الخير فى استرضاء العمال ، فساروا معهم على نظام يقضى بتخصيص قدر معلوم من الأرباح لتقسيمه عليهم

٢ — ﴿ العلم والصناعة ﴾

العلاقة بين العلم والصناعة

العلاقة بين العلم والصناعة أوضح من أن تُذكر . وقد كان تقدم الاثنين أثناء القرن التاسع عشر مقروناً أحده بالآخر ؛ وكثيراً ما كان تقدم الطرق الصناعية ناشئاً عن مباحث علمية بحتة

أمثلة

فان صناعة الأصباغ فى ألمانيا لم تنشأ الاَّ من شدة ارتباط العالِم بصاحب المصنع وفى انجلترة ظهرت أنواع جديدة نافعة من الفولاذ ، كان وجودها على إثر مباحث علميـة فى التعدين . فمن ذلك ان إضافة $\frac{1}{4}$ ٪ من المعدن النادر المسمى

« فَناديوم » الى الصلب تزيد فى صلابته بدرجة عظمى ؛ وعلى هذه النظرية صار الآن من الممكن صنع آلات لقطع الفولاذ بسهولة كبيرة . كذلك دفّاعات السفن البخارية (الرفّاسات) كانت تُصنع أولاً من الصلب الخالص ، فلا تلبث أن يعلوها الصدأ من طول مكثها فى ماء البحر ؛ ولكن الباحثين فى علوم التعدين وصلوا الى تركيب مزيج معدنى خاص ، صارت تكسى به الدفاعات فلا يصيبها الصدأ . وغير ذلك من الأمثلة كثير ، فى بيان فضل المباحث العلمية المتعلقة بخواص المعادن على صناعات الحديد والفولاذ وغيرهما من سائر أنواع صناعة المعادن

العلم والزراعة

كذلك الزراعة تقدمت تقدماً عظيماً بفضل الكيمياء وعلم الحياة وعلم الحشرات؛ فبمساعدة الكيمياء اختُرعت الأسمدة الصناعيـــة القوية الأثر فى تجديد ما فقدته الأرض من المُذكى (النتروجين) بالزراعة ، وذلك بتركيب « أملاح » شتى يكون فيها عنصر المذكى غزيراً . ومن أعجب ما وصل اليه العلماء فى هذا الباب أنهم اخترعوا طريقة لتحويل المذكى الذى فى الهواء بواسطة الكهرباء الى مادة شديدة التأثير فى تسميد الأرض . وفى علم الحياة قد كان لما كشفه العلاّمة الكبير « مِنْدِل » فى قوانين الوراثة أكبر فائدة فى تحسين نتاج النبات والحيوان ؛ فصار الآن من الممكن انتاج نوع من البطاطس لا يصيبه أذى من الحشرات التى كانت تفتك به فيما مضى . و بتوليف صنفين جيدين من أحد أنواع الحبوب كالقمح مثلاً ، أمكن زيادة محصوله زيادة عظمى . ومثل ذلك ينطبق على الماشية وغيرها من أنواع الحيوان . ولكن الموضوع فنّى بدرجة لا تسمح بالبحث فيه فى هذا الكتاب

العلم وتسهيل المواصلات

ولا ننسى ما أحدثته العـــلوم فى تسهيل التجارة وتقريب المواصلات باختراع القاطرات البخارية التى تنهب الأرض نهباً ، والبواخر العظيمة التى ذلّلت صعوبات الملاحة ، ولا سيما النوع الحديث منها الذى يُدفع بدفّاعة (رفاسة) فى مؤخره . وأعجب من ذلك الكهرباء ، التى فضلاً عن كونها منبع قوة عظيمة تدير المصانع بلا دخان ولا روائح كريهة ولاغيرها ، مما هو مقرون باستعمال البخار ، قد استُخدمت

التلفون والتلغراف

فى حمل الرسائل بالمسرة (التلفون) والبرق (التلغراف) اللذين لا تعترض سلوكهما الجبال أو الوديان أو البحار ، بل ان الاشارات البرقية أصبحت تحمل بلا سلك فى الهواء (بواسطة الأثير) . فقلت بذلك أخطار البحار ، وسهل انقاذ راكبيها وقت الخطر ، وصار التاجر يتفاهم مع جميع أنحاء العالم ، سواء أكان فى منزله ، أم فى مصنعه أم فى غير موطنه ، أم فى البحار

وما ذلك كله الا اشارات صغيرة الى عظم المخترعات الحديثة وتنوع أشكالها ومنافعها فى تقدم الصناعة والتجارة . وصفوة القول ان الأمم لا تستطيع الآن أن تضرب بسهم وافر فى الصناعة أو الزراعة أو التجارة ، الا اذا راجت فيها العلوم الحديثة ، وتزود أبناؤها بتربية فنية عالية

٣ — « العلم والحرب »

العلم والفنون الحربية

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذا الموضوع أن نأتى بكلمة عن تقدم الفنون الحربية وازدياد الاستعداد للقتال فى عصرنا هـذا ؛ إذ أن ذلك مرتبط بتقدم العلوم كل الارتباط ، بل هو نتيجة من نتائجه . فقد أصبح العلم يوجد كل يوم فى يد الإنسان اختراعاً حديثاً للقتال ، لا يكاد يبرز الى حيز الوجود حتى يحدث اختراع غيره يفوقه فى أثره ، فيمحو فائدته قبل أن يستعمل . وقد زاد حرص الدول على إحراز أضر الآلات الحربية وأشدها فتكاً ؛ فصارت المخترعات تظهر تباعاً ، ابتغاء أن يكون فى يد كل أمة اختراع تقاوم به ما اخترعه غيرها : فمثلاً قد زيد فى حجم السفن الحربية وعظمت متانتها ، كى لا تفتك بها مقذوفات الأعداء ؛ فأجيب على ذلك باختراع النسافات (قاذفات الطوربيل) الذى لا يعوقه سمك مصفحات السفن أو متانتها ، ثم أجيب على هذا باختراع المدمرات التى تفتك بالنسافات . ثم زاد التفنن فى هذا الميدان ؛ فاخترعت الغواصات التى تسبح تحت الماء ، والطيارات التى تعمل فى الهواء

تعدد المخترعات الحربية

كثرة النفقات

- على أن هذه الحال تستدعى نفقات باهظة ، وتثقل كاهل الأمم كل يوم بإنفاق الأموال الطائلة فيما لا يجدى نفعاً . فقد قال مؤلف أمريكى شهير * فى هذا الصدد قبل نشوب الحرب العظمى إن نفقة صنع المدفع الواحد من مدافع الاستحكامات الكبيرة ، التى يبلغ مدى قذفها ٢١ ميلاً ، تربو على ٢٥٠٠٠ جنيه ، وتبلغ نفقة الطلقة الواحدة من طلقاته مائتى جنيه . وثمن السفينة الحربية العظيمة التى من الطراز العظيم (دِرِدْنُوط) يبلغ فى المتوسط ٢٥٠٠٠٠٠ جنيه . فاذا كان هذا شأن آلات القتال قبل الحرب العظمى ، فكيف بها الآن ، وقد أظهرت هذه الحرب منها العجائب

محاولة توقيف الحرب

ولطالما شعرت الدول الأوربية بثقل هذا العبء ، وتمنّت من زمن بعيد أن تبطل الحروب ، ويُفصل فى المشاكل التى تنشأ بين الأمم بالطرق السلمية . وأول ما بعث فى الدول بريق الأمل من هذه الوجهة أن أُقيم معرض صناعى دولى فى باريس سنة ١٨٥١ ، عُرضت فيه المصنوعات من كثير من الدول على اختلافها . فأمل الناس خيراً ، وظنّوا أن الساعة قد حانت لأن يرفرف لواء السلم على العالم ، وتعمد الأمم الى الاكتفاء بالمنافسة السلمية فى ميادين الصناعة والتجارة

المعرض الصناعى الدولى سنة ١٨٥١

مؤتمر لاهاى سنة ١٨٩٩

وثانى خطوة اتُخذت فى هذا السبيل عقد مؤتمر دولى فى مدينة لاهاى سنة ١٨٩٩ بدعوة من « نقولا الثانى » قيصر روسيا . فحضر المؤتمر مائة مندوب وفدوا من قِبَل ست وعشرين حكومة من حكومات العالم ، البالغ عددها إذ ذاك تسعاً وخمسين . وتناقشوا فى أمر تقليل التسليح وتفويض المشاكل التى تقع بين الدول إلى هيئة تحكيم ثابتة ، يُختار أعضاؤها من بين الدول . فلم يكن لانعقاد المؤتمر أثر يذكر من حيث تقليل التسليح ، ولكن رضيت الدول فى الجملة بمبدأ التحكيم الدولى اختياراً وتراضياً

ومما يوجب الأسف أن القرن العشرين الذى لم يبعد ابتداؤه كثيراً عن وقت انعقاد المؤتمر افتتح بحروب طاحنة ، لم تكن ميادينها الأراضى الأوربية ، كما كان شأن الحروب التى نشبت فى القرن السابق ؛ بل جرت فى ميادين نائيـة عن مقرّ الدول

فشله

---

* هو الاستاذ هـ . ن

المتحاربة : فحاربت انجلترا فى جنوبى افريقية ، وحاربت روسيا فى منشوريا[1] .

اسباب الحرب الآن

وحقاً إن الحروب الحديثة لم تعدُ أغراضها ناشئة عن آمال الملوك الشخصية أو الأسرية ، كما كان الحال من قبل ، وأن السبب الجوهرى فى نشوبها صار المنافسة التجارية ؛ ولكن هذه ليست أقل محرضاً ولا أضعف شأناً من تلك

على أن هذه الحروب لم تفتّ فى عضد دُعاة السلم ، ولم تذهب بآمالهم جملة ؛

مؤتمر لاهاى سنة ١٩٠٧

فقد انعقـد فى لاهاى مؤتمر ثان سنة ١٩٠٧ حضره مندوبون من أربع وأربعين حكومة[2] . وقد بحث المؤتمر فيما بحث فيه سالفه ، وزاد على ذلك وضع أنظمة تراعيها الدول وقت الحرب ، وحدّد كثيراً من العلاقات الدولية التى لم تكن جلية من قبل ؛ ولكنه لم يفعل شيئاً نحو تقليل التسليح ، سوى ابداء الأمل فى أن تنظر الحكومات فى الأمر بجد فى المستقبل . ومن الغريب أن أعمال الدول فى العامين التاليين (١٩٠٨ و ١٩٠٩) وزيادة استعدادها للحرب زيادة لم يسبق لها مثيل ، كانت

فشله

منذراً عاجلاً بأن كل فعال المؤتمر ومساعيه ذهبت صرخة فى واد . وظهر ذلك جلياً عند ما نشبت الحرب العظمى ، فبرهنت أن كل ذلك لم يكن إلاّ أضغاث أحلام

زيادة أهوال الحرب

فيظهر مما تقدم أن ارتقاء العلوم الى هذا الحد الذى نرى لم يدعُ الجنس الإنسانى الى الإقلاع عن خوض غمار الحرب ، التى لم يفتأ يزاولها منذ دبّ روح الحياة فى كوكب الأرض . ولم يجن العالم من هذه الوجهة من تقدم العلوم ، سوى أنها وضعت فى يد الإنسان آلات قوية أكثر تدميراً وأشد فتكاً . وزادت أهوال الحرب أيضاً بانتشار التجارة وشدة ارتباطها عند جميع الأمم ؛ فقد صارت حاجات كل أمة مرتبطة بحاجات الأخرى ، ومتى نشبت الحرب لا يمتنع ورود هـذه الحاجات عن

---

(١) وفى الحرب العظمى حاربت امريكا فى اوربا

(٢) أى ضعفى عدد الحكومات التى مثلت فى المؤتمر الاول تقريبا . ولا يخفى أن الدول الاوربية كانت الاقلية لصغر عددها

الأمم المتحاربة فقط ، بل يتعداها الى الأمم المحايدة ، فتعطل بلا شك متاجرها عطلاً كبيراً .

هل تبطل الحروب

وقد يتساءل الناس هل يأتى وقت تبطل فيه الحروب ، وتفصل فيه الأمم فى مشاكلها بالطرق السلمية ؟ فالجواب على هذا انه لا يرجى ذلك الاّ اذا انتشر العلم فى جميع بقاع المعمورة (بحيث لا تبقى فيها أقوام على حالة التأخر والجهل التى تجعلهم موضع اطماع غيرهم ممن تسلحوا بقوة العلم) ، وأدرك الناسُ شدة الفظائع والأهوال التى تنشأ عن الحروب . و إذ كان ذلك لا يزال بعيداً ، فالمنتظر أن الدول لا تنصرف فى زماننا عن أخذ الأهبة للقتال ، اتقاء لشر الاعتداء وعملاً بالمبدأ الحالى المشهور « ان الاستعداد للحرب خير وسيلة للاحتفاظ بالسلم » *

* كتبت هذه السطور قبل عقد الهدنة فى الحرب العظمى . ولا نعلم ماذا يكون اثر هذه الحرب فى تقوية الامل فى انصراف الامم عن القتال

الباب الرابع

التقدم السياسى

فى بعض الممالك الأسيوية

الفصل الأول

التقدم الحديث فى الصين

١ — ✱ الصين القديمة ✱

مقدمة

الصين أمة قديمة بقيت الى عهد قريب فى معزل عن العالم، متمسكة بتقاليدها القديمة. ولا بد لنا لتفهّم التغيرات الحديثة التى طرأت عليها، أن نلمّ بمعرفة بعض عاداتها الأولى وبشىء من تاريخها القديم، حتى يسهل علينا ادراك كنه تلك التغيرات ومبلغ تأثيرها فى حال الأمة الاجتماعية والسياسية

منشأ الصينيين وصفاتهم

اصل الصينيين

أمة الصين الحالية جيل من الجنس المغولى؛ ويقال إنها نشأت من قبائل تتارية رحّل، سارت شرقاً من شواطئ بحر قزوين حتى بلغت نهر « يَنْج تسى كيَنْج »، وواصلت سيرها على طول سقى النهر، حتى حطّت رحالها فى المنطقة الخصبة التى تعرف الآن بمقاطعة « شِنْسى »✱. وكان هؤلاء القبائل يعيشون على رعى الأغنام؛

✱ وتقول بعض الآراء ان بلاد الصين هى موطن اهلها الاصلى، وهذا ما تقول به الانباء الصينية نفسها

ولكنهم كانوا على شيء من الرقى ، بمعنى أنهُ كان لهم بعض الدراية بعلم الفلك ، وبكتابة تشبه الكتابة الهيروغليفية ، استعملوها قبل الميلاد المسيحي بزمن بعيد لا يقل عن ١٧٢٠ سنة . وما لبثوا أن اشتغلوا بالزراعة ؛ ثم أخذوا يطاردون أهل البلاد القدماء حتى أبادوهم تقريبًا

قدم تاريخهم

وتاريخ بلاد الصين قديم جدًّا ، أخباره الأولى غامضة مبهمة ، لا تتجاوز حدّ الأساطير والأقاصيص الخرافية . ومع ذلك قد عُثر على أنباء مدوَّنة يرجع تاريخها الى نحو عام ٢٣٠٠ ق . م . وهذا هو افتتاح العصر التاريخي ، الذي يكاد أكثر أخباره يكون معروفًا مستيقنًا

النظام الاقطاعى

وكانت الصين وقتئذٍ مؤلفة من عدة ولايات مفككة العرا تسير فى حكم بلادها على نمط شبيه بالنظام الإقطاعى . وبلغ هذا النظام أرقى درجاته فى عهد « وُوونج » مؤسس أسرة « شو » ، التى حكمت نحو تسعة قرون (١١٢٢ – ٢٤٩ ق . م)

اسرة شو

وأول من وحّد الولايات الصينية وألّف منها دولة قوية هو العاهل (الامبراطور) الشهير « شى هوَنْج تى » (٢٤٦ – ٢٢١ ق.م) ؛ وهو الذى أمر ببناء « سور الصين العظيم » الذى يمتد شمالى الصين نحو ٢٠٠٠ ميل ، رجاء صدّ غارات الهون وغيرهم من الشعوب المتبربرة

شى هونج تى وسور الصين

اتساع نفوذ الصين

ولما وُطّدت دعائم الدولة ، وكثرت غارات الهون عليها ، غزتهم فى عقر دارهم ، وبسطت نفوذها على أواسط آسيا : حتى صار ملكها يمتد غربًا الى شواطئ بحر قزوين

وفى أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد المسيحى ، غزا بلاد الصين القائد المغولى العظيم « جَنكيز خان » ؛ ثم واصل أحدُ أحفاده « قُبلاى خان » الفتحَ ، فاستولى سنة ١٢٦٠ على جميع بلاد الصين الشمالية ، وضم اليها الأقاليم الجنوبية سنة ١٢٧٩ ؛ فصارت جميع البلاد فى قبضة يده . ثم نقل مقر الملك من ننكين الى بكين . ودام حكم المغول فى الصين نحو قرن ونصف ، الى أن أجلاهم عنها زعيم وطنى أسس اسرة « منج » الصينية سنة ١٣٣٨ . وبقيت هذه الاسرة تحكم فى بلادها الى سنة ١٦٤٤ ،

غارة جنكيز خان

قبلاى خان

اسرة منج

إذ خلفتها اسرة أجنبية تتارية ، غزت الصين من الشمال : تلك هى اسرة « مَنْشو » الشهيرة التى دخلت الصين فى عهدها فى طور جديد

عزلة الصينيين

وقد بقى الصينيون منذ نشأتهم الى نحو منتصف القرن التاسع عشر فى معزل عن العالم ، ينظرون الى جميع الشعوب الأجنبية كأنها دونهم ، ويحرصون كل الحرص على اجتنابهم ، حتى صاروا ولا مثيل لهم فى التمسك بكل الأحوال والتقاليد القديمة . ويرجع ذلك الى مبادئ ديانتهم ، أى الى فلسفتهم ، التى هى أساس دينهم ، والتى يرجع عهدها الى حوالى سنة ٥٠٠ ق . م . وأعظم فلاسفتهم هو « كُنْفُوشيُوس » (كُنج فوتسى) الذى وقف حياته على نشر الفضيلة وأصول الحكم العادل (٥٥١ — ٤٧٥ ق . م) . ومع أن تعاليمه لم يُكترث بها فى زمانه ، كان لها بعد مماته اكبر أثر فى آراء الكتّاب والمفكرين ؛ وما زال جلّ الأُمة الصينية يعمل بها فى زماننا هذا *

كنفوشيوس والديانة الصينية

الكتب المقدسة

وتشمل كتب الصين المقدسة تسعة أسفار : كتبَ منها كنفوشيوس واحداً ، وكتب البقية تلاميذه وأتباعه بعد مماته . وليس لهذه الكتب فى عصرنا قيمة أدبية تذكر ؛ فضلاً عن أنها بإيثارها القديم، أضرت بالأدبيات الصينية اكبر ضرر . ويمكن تلخيص آراء كنفوشيوس فى أحوال المعيشة والمبادئ الحكمية فى العبارة الآتية : « لا تطرق سبيلاً لم تُطرق من قبل »

التمسك بالقديم

وقد كان انتشار الفساد فى عصر كنفوشيوس أكبر سبب فى تفضيله القديم ؛ فانهُ كان يستصرخ معاصريه الى الاقتداء بأسلافهم الصالحين ونبذ ما هم عليه من النقائص والرذائل . ومن هنا نشأ تمجيد الصينيين لكل شئ قديم وتمسكهم بذلك فى كل أحوال معيشتهم

---

* دخلت الديانة البوذية بلاد الصين عن طريق الهند سنة ٦٧ م ، ومع كثرة انتشارها بين القوم لا تزال المكانة العليا لمذهب كنفوشيوس . اما الاسلام فكان اول دخوله هذه البلاد بمدينة كنتون حوالى سنة ٦٢٨ م . وبعد مائة عام هاجر كثير من المسلمين الى الصين من الشمال الغربى على اثر حملة ارسلها ابو جعفر المنصور سنة ٧٥٥ م لمساعدة الصينيين فى اخماد ثورة قامت فى بلادهم ، وانتشروا فى اقليم كان سو وشنسى ويتان . ويربو عدد مسلمى الصين الآن على ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٢٠ نفس

الحكومة والعاهل

أما حكومة الصين فكانت استبدادية دينية . فالعاهل معتبر فيها ابن الله وأباً للرعية ، يُنزل عليهم الرضاء أو السخط حسبما تقتضيه الأحوال . ولعلوّ هذه المنزلة الهائلة كانت قوة العاهل لا حدّ لها : يفصل بين الشعب وبين مقامه السامى كل أنواع الرسوم والقيود التى لم يضعفها مضى الزمان . فكانت كل حياته من يوم تولّيه العرش الى يوم مماته (اليوم الذى يصبح فيه ضيف السماء) محاطة بالكلفة والمظاهر الرسمية. وله ديوان يسمى ديوان الشعائر ، يحدّ كل ساعة ودقيقة من زمنه ، ويعين العمل الذى يقوم به فيها. ولم يغادر القصرَ قط إلاّ فى الحفلات الرسمية ؛ ولذلك وقع الكثير من العُهال فى أسر الملذات والشهوات : مما أدّى الى سوء حال الأمة وتعسها

ويساعد العاهلَ فى شؤون الحكم مجلس خاص . كان يتكوّن فى القرن التاسع عشر من ١٦ عضواً ، منهم ٩ من الشعب المنشورى و٧ من الصينيين . وتنقسم دواوين الحكومة الى ستة وهى : ديوان الحرب وديوان العقوبات وديوان الادارة الداخلية وديوان التشريفات وديوان الجباية وديوان الأشغال

حكومات الاقاليم

أما حكومة الأقاليم المحلية فكانت قائمة بذاتها فى معظم الأمور، يرأس كل أقليم والٍ بيده حياة القوم ؛ ويقوم بجباية ضرائبه وصرف نفقاته واعداد جيشه وأسطوله والمحافظة على السلم فى داخل بلاده ، ويرسل الى بكين جزية سنوية لتصرف فى شؤون الحكومة العليا

تفشى الفساد

وكثيراً ما تفشّى الخلل والفساد فى حكومات الأقاليم ؛ فقلّما كانت رواتب العمال تُصرف لهم ، وإذا صُرفت كانت ضئيلة لا تقوم بعوزهم . ففشت فيهم الرشوة ولجئوا الى ابتزاز الأموال من الأهلين بطرق غير قانونية . وكان العدل فيها يُشرى ويباع لمن يدفع فيه اكبر الأثمان

٣ — ﴿ اسرة منشو ﴾

الفوضى قبل اسرة منشو

قبل أن تستولى هذه الأسرة على عرش الصين كانت حكومة البلاد فى بيت «منج» الذى دبّ فيه الضعف منذ عام ١٤٠٠ ، وأخذت حال البلاد تزداد بعده تعساً على تعس . فعمت الفوضى وفشا الفساد بين الحاكم والمحكوم ، وكثرت الفتن والقلاقل ؛ فكانت البلاد تخرج من حرب داخلية الى أخرى ، حتى عمها الشقاء وساءت حال الرعية . وفى سنة ١٦٣٤ قامت ثورة خطيرة بزعامة قائد يدعى « لى تسى شِنج » فى اقليم شِنْسى ، ومنهُ فشت فى هونان وهو بيه وغيرهما ؛ حتى صارت الصين ميداناً هائلاً للقتال ، وبقيت عشر سنين تجرى فيه الدماء أنهاراً . وقد كان « لى » يحرز النصر بعد النصر ، حتى عظم شأنه ، فأعلن عام ١٦٤٤ أنه هو العاهل وشرع يؤسس حكومة لادارة البلاد . ثم سار الى بكين ، فاستولى عليها ، ووجد أن عاهلها قد انتحر خنقاً . وقد كانت كل الأحوال تنبئ بتمام نصر الثوّار ، وأنه سيتم الى ما تمنّى . غير أنهُ بقى حصن لم يستولِ عليه ، كان يدافع عنه رجل شديد الحقد على الثوّار والحسد لزعمائهم ؛ فاستدعى الى البلاد الجيوشَ المنشورية التى طالما تاقت نفسها الى وطء الأراضى الصينية . وكانوا أعدّوا لذلك عدّتهم منذ زمن بعيد ؛ فأخذوا الصينيين على غرة ، واضطر القائد «لى» الى الفرار . فاستولى المنشوريون على البلاد ؛ وقضوا نحو سبعة وثلاثين عاماً فى اتمام غزوها وتهدئة حالها . وما زالوا يتغلبون على ما كانت تبديه الأقاليم من المقاومة ، حتى صبغوا جلّ البلاد بالصبغة المنشورية ، وانتشر فيها التقليد المنشورى القديم ، وهو حلق الرأس وإرخاء ضفيرة على الظهر

الثورة و لى تسى شنج

غارة المنشوريين

كنج هى

وقد كان أوائل الملوك المنشوريين على جانب كبير من القوة والحزم وحسن الإدارة ، ولاسيما ثانيهم « كَنْج هى » (١٦٦١ — ١٧٢١) الذى أتى من محاسن الأعمال ما خلّد له حسن الأحدوثة . فقد كان لا يعرف الملل فى السهر على ما فيه صالح القوم وإسعادهم . وعمل على نشر العلوم والآداب ، وسهّل لليسوعيين دعوتهم .

ومن مآثره في ذلك أنه أمر بوضع قاموس للغـة الصينية . وفي أيامه انضمت الى الأملاك الصينية « التُبَّت » ، وصارت مملكتهُ تمتد من البحر الصيني الى التركستان ، ومن كوشان شين الى سيبيريا

كين لنج

ومن أشهر ملوك هذه الأسرة رابعهم « كين لَنْج » (١٧٣٥ - ١٧٩٦) ؛ وكان مولعًا بالحروب ، يمقت مداراة الأجانب بالطرق السلمية . وقد حاول الاستيلاء على برمة وكوشان شين ، فلم يفز بنجاح يذكر . وكان فظًا قاسى القلب على رعيته ، فكانوا كثيراً ما يثورون به . وفي عهده خرج عليه المسلمون في مقاطعة قان سوه ، فأخمد ثورتهم ونفى منهم ١٠,٠٠٠ نفس . ثم خشى أن يعودوا الى ثورانهم ؛ فأمر بقتل جميع المسلمين في تلك المقاطعة ، وكان عددهم لا يقل عن ١٥,٠٠٠,٠٠٠ نفس (سنة ١٧٨٤) . ومن أعظم الأعمال التي نجح فيها غزوه بلاد ويبول ؛ فقد دخلها قواده بنحو ٧٠,٠٠٠ مقاتل ، وتوغلوا فيها الى قرب ٦٠ ميلاً من الحدود الهندية البرطانية ، وخضعت لهم قبائل الجُرخَى . وثبت بذلك أيضاً نفوذ الصين في أرض التبت (١٧٩٢) . وكان كين لنج ناظمًا ناثراً ، وقد جعل وصف غزواته والتمدح بها موضوع شعره وكتاباته . وفي سنة ١٧٩٥ نزل لابنه عن الملك

٣ — ✱ مبدأ التحام الصينيين بالدول الغربية ✱

تجار الانجليز وحكومة الصين

في عهد كين لنج ساءت العلاقات بين شركة الهند الشرقية والحكومة الصينية ، لاضطهاد هذه الحكومة للتجار الانجليز وابتزاز عمالها لأموالهم بكل الوسائل . فأوفدت انجلترة مندوبًا من قبلها الى الصين يلتمس اصلاح هذه الحال ؛ فاستقبل بها خير استقبال ، وسُمح له بالمثول في حضرة العاهل ؛ ولكنه أخفق في الحصول على ما كان يرجوه أبناء وطنه من تسامح الحكومة الصينية معهم

وفي عهد خلفه « كيا كِنْج » (١٧٩٥ - ١٨٢٠) نشبت عدة فتن وقلاقل بسبب ضعف العاهل وعناده ، وكثرة تردد لصوص البحر على شواطئ بلاده .

زيادة استياء التجار

وازداد الفساد بين عمال حكومته . وكثرت إساءتهم لتجار الانجليز وسلبهم أموالهم . فأوفدت الحكومة الانجليزية « اللورد أمهرست » مندوبًا الى الصين (سنة ١٨١٦) فاستقبله مندوبو العاهل وساروا به نحو بكين . فلما أفهموه فى الطريق أن لابدّ له عند المثول بين يدى العاهل من الركوع أمامه ، وإلاّ فلا سبيل الى مقابلته ، لم يرضَ بذلك وعاد الى انجلترة . فكان ذلك مدعاة جديدة لزيادة سوء معاملة عمال الحكومة الصينية للأجانب . وكان أعظم سبب جرّ سخط الصينيين ، وحقدهم على

مشكلة الافيون

تجار الانجليز قيام هؤلاء بتوريد الأفيون الى الصين ، على الرغم من تحريم حكومتها ذلك منذ عام ١٧٩٦ ، وسهرها سنين عديدة على مكافحة تهريب هذا السم المتلف للأجسام والعقول . وحدث فى سنة ١٨٣٩ ان الحكومة الصينية قبضت على ٢٠،٠٠٠ صندوق من الأفيون وأعدمتها ؛ فاعتبرت الحكومة الانجليزية ذلك عملاً عدائيًا ،

حرب الافيون

وأعلنت الحرب على الصين سنة ١٨٤٠ . ووقفت الحرب فى العام الثانى ، على أن تنزل الصين لانجلترة عن هُنج كُنج ، وتدفع لها غرامة حربية قدرها ١،٢٠٠،٠٠٠ جنيه ، ولكن ما لبثت الحكومة الصينية ان أهانت المندوب الذى أبرم هذا الصلح ؛ فأعادت انجلترة الحرب جَذعةً ، واستولت جيوشها على عدة مدن عظيمة الشأن .

الصلح

وخاف الصينيون على ضياع ننكين الحاضرة الجنوبية لبلادهم ، فأبرموا الصلح معها سنة ١٨٤٢ ؛ فأيّدوا فيه امتلاكها لجزيرة هنج كنج ، وقبلوا فتح أربعة ثغور للتجارة الاجنبية علاوة على كنتون وهى : أموى وفوتشو ونِنْج بو وشنغهاى ، ودفع غرامة حربية للانجليز تربو على ٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . ولم يذكر شىء فى المعاهدة عن تجارة الأفيون

فتح الموانى الصينية

ومن ذلك الحين كثر اتّجار الأجانب مع الصين ، وصارت جميع دول الدنيا تتسابق لإحراز مركز فيها . وقد بلغت الموانى التى فُتحت للتجارة الأجنبية فى الصين بين عامى ١٨٤٢ و ١٨٦٠ سبعة عشر ميناء . ولما كثر اختلاط القوم بالأجانب أَلِفُوا الأحوال الغربية بعض الشىء ، وأخذوا يقلعون بالتدريج عن تمسكهم بالآراء

القديمة وإعراضهم عن المخترعات الغربية الحديثة، الى ان أُنشئت سكة حديدية فى شنغهاى أقرت الحكومة الصينية انشاءها بعد جهد طويل. ونشأ فريق من الصينيين مولع بالزيادة من الوقوف على أحوال الغربيين ومعرفة عاداتهم وأخلاقهم؛ ولم تحل سنة ١٨٧٠ حتى أخذ الطلبة الصينيون يفدون زمراً على الجامعات الأمريكية. وعند عودتهم الى بلادهم كان لهم أثر عظيم فى تنبيه أذهان قومهم الى ما يلاقونه من العسف والجور، فبذروا بذلك بذور الثورة فى البلاد والعمل على قلب نظام حكومتها

﴿ الثورات فى الصين ﴾

هين فنج

كان القابض على زمام الأمور فى الصين بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٥٩ العاهل « هين فِنج » ، وكان يضارع أباه فى ظلمه وحبه لذاته؛ فعاش طول حياته منغمساً فى اللذات لاهياً عن مصالح شعبه. ولما اشتدّ سخط القوم ثاروا فى كونج سى ، ومنها انتشرت الثورة سريعاً الى هونان وهو بيه؛ وما لبثت أن رأسها رجل متعصب للدين ادّعى أنه أُوحى اليه الأمر بإخراج المنشوريين من الصين واعادة حكمها الى يد الصينيين . ثم أظهر اعتناقه للديانة المسيحيـة ، وأعلن استياءه من رذائل عصره ، واستصرخ أهل الفضل لمعونته على ابادة الحكام الذين يقضون كل حياتهم فى جميع أنواع الرذيلة. وما لبث أن استولى على «ووشنج» حاضرة هو بيه ، وفتحت ننكين أبوابها له ، ولم يأت عام ١٨٥٢ حتى كوّن له أسرة سماها أسرة «تاى بِنْج» وجعل نفسه عاهلاً ، وتسمى باسم « تين ونج » (الملك السماوى) . وقد توغلت جيوشهُ فى البلاد حتى بلغت تينتسين؛ وكثرت أتباعه فى كل مكان ، فبقى صاحب الشأن عدة سنوات

ثورة تاى بنج

الحرب مع انجلترة عام ١٨٥٧

وفى سنة ١٨٥٧ حدث حادث كان ينذر بتثبيت قدمه . وذلك ان الحرب شبّت ثانية بين حكومة بكين وانجلترة . فاستولى الانجليز على كنتون، ثم على حصون تاكو عام ١٨٥٨ ، وواصلوا الزحف على بكين بمساعدة الفرنسيين ، فبادرت الصين

معاهدة تينتسين

الى ابرام معاهدة « تينتسين » على أن تدفع للانجليز غرامة حربية . وبعد قليل مات هين فنج ، تاركاً الملك لطفل فى الخامسة من عمره

وبإبرام الصلح مع الأوربيين انفسح المجال أمام حكومة بكين للضرب على يد أسرة تاى بنج ، واستفادت من العلاقات الودية التى وُجدت حديثًا بينها وبين

غردون فى الصين

انجلترة ، فاستخدمت فى جيشها « الميجَر غردون » (وهو غردون باشا المتوفى فى الخرطوم أثناء ثورة المهدى) ، فنظم الجيش الصينى . ولما بدأ الجيش بمهاجمة قوات

اخماد ثورة تاى بنج

تاى بنج كان يحرز النصر إثر النصر وسقطت المدن الصينية فى يده واحدة بعد أخرى ، حتى استولى عام ١٨٦٤ على ننكين . وعندئذٍ انتحر تين ونج ، وبُدد شمل أتباعه ، وزالت قضيته من الوجود

الثورة الاسلامية

وفى الوقت الذى كانت فيه الحكومة مشتغلة بإخماد ثورة تاى بنج ، ثار المسلمون فى اقليم يُنَّان ؛ فاستولوا على نصف الاقليم الشرقى ، وأسسوا لهم حاضرة بزعامة السلطان سليمان . ثم قامت لهم ثورة أعظم من هذه بزعامة يعقوب بك : بدأت فى بلاد التركستان ، ثم انتشرت الى اقليم شِنْسى ؛ فعمت بذلك جميع شمالى الصين الغربى وقد أحرز يعقوب فى أول أمره نصراً مبيناً . فلقبه المسلمون « بالأب البطل » ، وصارت الأحوال تنبىء بتكوين دولة اسلاميـة فى الصين . على أن الحكومة لما فرغت من أمر تاى بنج بمساعدة الضباط الانجليز وجّهت همّها الى الشمال الغربى ، فساقت عليه هذا الجيش المدرب الذى اكسبته الحروب الأخيرة خبرة وحنكة ؛

يعقوب بك

فأخمدت الثورة الاسلامية عام ١٨٧٨ ، واستردت ما استولى عليه المسلمون من المدن . ومات يعقوب كمداً مكسور القلب

٤ — ﴿ تسابق الدول الغربية فى الصين ﴾

تأثير معاهدة تينتسين

كانت معاهدة تينتسين (عام ١٨٥٨) والاتفاقاتُ التى بعدها فاتحةً لسلوك الصينيين مسلكاً جديداً فى معاملة الدول الأوربية . فتخلّوا عن مبدئهم القديم القائل

الصينيون والغرب

بأنهم فوق جميع الشعوب الأخرى ، وأقروا مبدأ تساوى الأمم والشعوب . فصار للأجانب الحق فى السياحة داخل الصين أو الاقامة فيها ، وايفاد مندوبين سياسيين يمثلونها فى بكين . على أنهُ مع اقرارهم بذلك كتابةً ، بقيت قلوبهم نافرة منهُ ، ولم يعملوا على انفاذ شيء منه الاّ كرهاً . وسعى فريق ممن أشربت قلوبهم حب المدنية الغربية لدى الحكومة لتُدخل الاصلاحات الحديثة فى البلاد ؛ فلم يلقوا نجاحاً عظيماً ، اللهمَّ الاَّ فى انشاء خط حديدى بين بكين وهنكاو (٧٦٠ ميلاً) لم يتم صنعه الاَّ بعد عناء كبير

القتال على الامتيازات الاجنبية

ولعل لهم عذراً فى ذلك . ففى سنة ١٨٧٨ بدأ ما يجوز أن يسمى « القتال على الامتيازات الأجنبية » ، أى تسابق الدول الأوربية على نيل ما تصل اليه أيديها فى الصين . وتلخص أهم حوادث ذلك فيما يلى :

البرتقال

(ا) كانت حكومة البرتقال قد استأجرت من الصين قديماً جزيرة « ماكاو » منذ عام ١٥٥٧ ، فنزلت لها الحكومة الصينية عنها جملةً سنة ١٨٨٧

روسيا

(ب) وشرعت روسيا منذ سنة ١٨٨٠ تجدّ فى بسط نفوذها فى الأنحاء الشمالية المحيطة بالصين . وما لبثت ان فازت بجانب عظيم من مآربها ؛ فأبرمت مع « كورية » سنة ١٨٨٨ معاهدة كانت من أول الأسباب التى أدَّت الى حرب الروسيا واليابان فى سنة ١٩٠٤ ، نالت بها حق الاتجار فى بعض الموانى الكوريَّة

فتح الموانى

(حـ) وفى سنة ١٨٩٠ سمحت الحكومة الصينية ، بطلب من انجلترة ، بفتح مدينة شِن كِيَنْج للتجارة الأجنبية . فأعقب ذلك رجوع الصينيين الى الحقد على الأجانب لمَّا رأوا ما يلاقيـه الصينيون الذين يهاجرون الى أمريكا وأستراليا من الاضطهاد المنافى للمساواة التى ينشدها الأوربيون ؛ وقُتل بسبب سخط الصينيين هذا عدد من مبشرى المسيحيين

سخط الصينيين

اليابان

(ء) وبعد انتهاء الحرب الصينية اليابانية (التى سيأتى ذكرها عند الكلام على اليابان) ، فُتحت عدة موان جديدة للتجارة ، وسُمح للسفن اليابانية بالملاحة

فى أعالى نهر ينج تسى كينج والترع المؤدية من شنغهاى الى الداخل . واحتلت اليابان « واى هاى واى » ريثما تنفذ هذه الشروط

ألمانيا

(هـ) وحدث فى سنة ١٨٩٧ أن قُتل اثنان من مبشرى الألمان فى الصين . فقام الاسطول الألمانى فى اثر ذلك ، ودخل ميناء كياوتشاو ، واستولى فيه على جزيرة تسينج تاو . وقد دفعت الصين لهم غرامة قدرها ٢٥٫٠٠٠ جنيه ، وأوقع بالحاكم المؤاخذ بقتل المبشرين أشدّ العقاب ، وأعيد بناء كنيسة المبشرين ، وأجّرت جزيرة تسنج تاو لألمانيا لمدة ٩٩ سنة . وقد شيد فيها الألمان إثر ذلك الحصون المنيعة ، وصارت مركزاً للنفوذ الألمانى فى المشرق *

روسيا فى بورت ارثر

(و) وفى سنة ١٨٩٧ قفت روسيا اثر ألمانيا ، فاستأجرت ميناء بورت أرثر ، فبقى فى يدها الى أن انتزعته اليابان منها عام ١٩٠٥

انجلترة وفرنسا

(ز) وفى سنة ١٨٩٨ استأجرت انجلترة « واى هاى واى » مقابل احتلال روسيا لبورت أرثر . وعند ذلك طلبت فرنسا ميناء « كونج شووان » ، فأعطى لها . وسُمح لانجلترة أيضاً ازاء ذلك بمائتى ميل مربع على الساحل أمام هنج كنج ، وبانفرادها بالامتيازات فى حوض نهر الينج تسى كينج

ايطاليا

وحاولت ايطاليا فى العام التالى أن تنال مثل ما نالته زميلاتها . فتنبهت الصين للأمر ، ورفضت مطلبها رفضاً باتاً

٥ — « حركة الملاكمين (البكسر) »

العاهل والاصلاح

لما رأى العاهل ما لحق الأمة من العار فى حرب سنة ١٨٩٤–٩٥ (بين الصين واليابان) تنبه الى وجوب اصلاح نظام الحكومة ، والعمل على ما فيه ترقية شؤون البلاد . فأعدّ لذلك منهجاً مطولاً ، وعقد النية على انفاذه . لكنه رأى أن لا بد قبل كل شىء أن يزيل عقبة كئودا فى طريق الاصلاح المنشود ، وهى العاهلة

* الى ان استولت عليها القوات الانجليزية اليابانية فى اوائل الحرب العظمى

العاهلة تؤيد الروح الرجعية

(زوجة العاهل السالف) ، وكانت قيّمة عليه فى صغره ، فبقى لها جانب عظيم من السلطان فى البلاد . فعزم على القبض عليها والفتك بأتباعها ، ولكن خانه أحد أمنائه « يُوان شيه كاى » (وسيأتى ذكره بعد) ، فأبلغ المكيدة الى مسامعها . وكانت قوية البطش ؛ فقامت فى الحال وأجبرت العاهل الضعيف على النزول عن كل سلطة ، فعادت الحكومة الى يد الرجعيين ، ووقف كل اصلاح

العاهلة وجماعة الملاكمين

وقد ظهر صدى هذه الحركة الرجعية فى الأقاليم ؛ فعادت روح العداء للأجانب الى شدتها الأولى ، وتمثلت بوجه خاص فى جماعة ، تُعرف « بالملاكمين » ، لتحفزّهم للاعتداء على الأجانب . وقد عاضدت العاهلة هذه الجماعة ، إذ كانت نفسها تكره العناصر الأجنبية . وجاهرت بذلك للشعب ، فكانت تقول : « إن الدول الأجنبية تنظر الى بلادنا نظر النمر لفريسته » . ورسخت أقدام فتنتها باختيار حكام الأقاليم ممن اشتهروا بالكراهية للأجنبى . وزاد الاضطراب طول عام ١٨٩٩ وربيع ١٩٠٠؛ فقتل الصينيون اخوانهم الذين اعتنقوا النصرانية ، وعبثوا بالسكك الحديدية

فزع الاجانب

ففزع الأجانب لذلك ، واستصرخت السفارات بقواد أساطيلهم ، وزاد الخطب عند ما رأس المجلس العاهلى الأمير « توان » أحد زعماء جماعة الملاكمين . فأيقن النزلاء أن السفارات نفسها أصبحت فى خطر لا محالة

انقاذ السفارات

وبالفعل هجم الثوار على السفارات ، والتقوا بالجنود القادمة لانقاذها ، وصدوهم مدة من الزمان . وعند ذلك ألّفت الدول من بينها جميعاً جيشاً يبلغ ٢٠٫٠٠٠ مقاتل . فاستولى على قلاع تاكو ، وزحف من تينتسين على بكين ، حيث أنقذ السفارات بعد ان حوصرت ثمانية أسابيع

العاقبة الوخيمة

وقد كانت العاقبة هذه المرة أيضاً وخيمة على الصينيين : فحكم على زعماء الثورة بالموت : بعضهم بيده وبعضهم بيـد غيره ؛ وأوفدت الحكومة مندوبين الى ألمانيا واليابان يقدّمون المعذرة عن موت مندوبيهما ؛ وقبلت دفع غرامة حربية قدرها ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وأن تنزع الآلات الحربية من قلاع تاكو وغيرها من الحصون

التى بين بكين والبحر ؛ وأن تعدّ السفارات حراسًا لها ، وأن تُلغَى امتحانات المنافسة مدة خمس سنوات فى جميع الجهات التى قُتل فيها الأجانب ! *

استيقاظ الصين

وقد كان لهذا الحادث وما جرّه على الصين من الذلّ والهوان ، أكبرُ أثر فى استيقاظها وتنبهها لمواضع ضعفها . وزاد هذه النهضة انتصارُ اليابان فى الحرب الروسية اليابانية ؛ فصار الصينيون يبحثون عن سرّ تقدم اليابان العظيم ، وأيقن الكثير منهم أن لا بدّ من الاغتراف من العلوم والفنون الغربية . فصارت المدارس تُنشأ لذلك تباعًا فى أنحاء الصين ؛ وانصرف القوم عن تعاليم كنفوشيوس فصاروا يقلبون الكثير من المعابد الى مدارس ، واستحضروا الكثيرين من أساتذة اليابان للتعليم فيها ،

البعوث العلمية

وأرسلوا الألوف من الطلبة لتلقى العلم فى اليابان وأمريكا . وقد أُرسل بعث علمى الى أوربا وأمريكا لدرس أنظمة الحكومة الغربية . فلما عاد أعضاؤه الى بلادهم طلبوا الى العرش أن يصدر مرسومًا يعد فيه « أن تكون للصين حكومة نيابية فى مدة لا تتجاوز خمس سنوات » . وكان ذلك عام ١٩٠٥

الاصلاح

وفى اثر ذلك قامت الحكومة بعدّة اصلاحات عظيمة ، فلم يأت عام ١٩٠٧ إلاَّ وقد صار بالصين أكثر من ٣٥٠٠ ميل من الخطوط الحديدية . وأُصلحت المكوس بارشاد مديرين من الانجليز ؛ فبلغ دخلها وحدها ٥٠٠٠٠٠٠ جنيه فى العام ؛ وتحسنت حال الجيش ؛ وأُنشئت مصلحة للبريد

٦ — ✻ الجمهورية ✻

المطالبة بالحكم النيابى

كان الناس بالرغم من الاصلاحات الداخلية العديدة قد سئموا تباطؤ العرش فى فى منح البلاد حكومة نيابية . وكان أشدهم حماسة فى ذلك الذين تشبعوا بالمبادئ العصرية ، فأوغروا صدور الشعب ؛ وقامت فى البلاد ثورة عظيمة سنة ١٩١١ ، انتهت بخلع اسرة منشو وجعل الصين حكومة جمهورية

* كانت هذه الامتحانات فى العلوم والاداب الصينية القديمة ، ولعل الاوربيين ظنوا انها تثير البغضاء لهم

ابتداء الثورة

وكان أول ظهور الثورة فى اقليم « زيشوين » حيث اشتدت كراهية الأهلين لجميع العناصر الأجنبية . وانفجر فُلْكان حقدهم حين كانت الحكومة على وشك الترخيص لشركة أجنبية بانشاء خط حديدى . فعارض الناس فى ذلك ، وقالوا انهم ينشئون الخط بأموالهم ، وان مال الأجانب قد جرّ على الصين الويلات . فرضيت الحكومة بذلك ، وجمع الأهلون المال من بينهم . ولكن ما لبث أن عبثت به أيدى الجهلة المبددين والمختلسين . فقررت الحكومة أن تتولى نفسها انشاء الخط ؛ فعارض الاهلون مرة أخرى ، بحجة أن الحكومة ستلجأ حتماً الى اقتراض المال من الأجانب ، وهم لا يريدون أن يكون للصين أى علاقة معهم . عند ذلك أرسلت الحكومة من بكين مندوباً لينظر مع الأهالى فى الأمر ، فقتلوه وقتلوا والى الاقليم من بعده . ثم ألّفوا الجماعات السرية لبث الكراهية للأجنبى ، ومن ذلك جماعة تسمى « جماعة منع القروض الأجنبية » . وما زال أمر الحركة يستفحل حتى عمت الثورة أنحاء الاقاليم فى سبتمبر سنة ١٩١١ ، وانضم الى الثوار الجندُ النازلون بذلك الاقاليم

جماعة منع القروض الاجنبية

لى يوان هنج

وفى اكتوبر سنة ١٩١١ شبت فى « هنكاو » (حاضرة اقليم هوبيه) ثورة أشد خطورة من سالفتها . إذ اتخذ الثوار زعيماً لهم القائد العظيم « لى يُوان هَنج » ، وهو رجل من أعظم أهل الصين استنارة وحباً للإصلاح . وقد كان شعاره : « لا بد من إبعاد آل منشو » ؛ فما لبث أن ضم اليه جيش هوبيه واستولى فى هنيهة وجيزة على « هنكاو » و « هان يان » و « ووشنج » . وعند ذلك استولى الذعر على حكومة الصين ؛ ولما دبّت فيها عوامل اليأس لجئت الى رجل من أشهر الذين شغلوا صحفاً عظيمة فى تاريخ الصين ، كانت الحكومة قد غضبت عليــه لأسباب سياسية ؛ فلم تجد الآن بداً من الاستنجاد به ، إذ رأت فيه المنجَد الوحيد الذى ينقذها من هذه الهوّة : ذلك هو « يوان شيه كاى » الذى تقدم ذكره

استفحال الثورة

يوان شيه كاى

كان هذا الرجل قبل انفجار الحرب الصينية اليابانية سفيراً لحكومة الصين فى « سيُول » حاضرة كورية . وهنالك اشتهر بالكبرياء والتعاظم ، وبخاصة على سفراء

الدول الأجنبية ، وقد كانت أعماله من أكبر الأسباب التى نشبت من أجلها الحرب الصينية اليابانية ؛ فكانت نتائجها درساً نافعاً له علّمه بُعد النظر والتذرع فى أعماله بالحزم والحكمة

تدريبه الجيش

واعتقد حاجة البلاد الى اصلاح الجيش ؛ فعهدت اليه الحكومة برياسة جيش أخذ ينظّمه ويدرّبه على الأنظمة اليابانية والأوربية ، حتى صار لا مثيل له فى الصين ، ولذلك سُمى بنموذج الجيوش الصينية

مقاتلته الثوار

ثم تولى قيادة الجيوش الملكية ، وسار نحو هنكاو ؛ فالتحم بالثوار فى عدة مواقع ؛ فاستولت جيوش الحكومة على « هنكاو » وخربوها ، وأتوا بهـا من الفظائع شيئاً كثيراً ، فاضطر جيش الثوار الى التراجع الى « ووشنج » . وكان الأسطول فى جانب الحكومة فى أول الأمر ، ثم انضم الى الثوار . وفى هذه الآونة اندلع لهيب الفتنة فى البلاد ، حتى أعلن الثوار انه أصبح فى جانبهم أربع عشرة مديرية من الثمانى عشرة مديرية التى تتألف منها بلاد الصين

ووتنج فنج

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩١١ ظهر للثوار زعيم قوى فى شنغهاى يدعى « النطاسى (الدكتور) ووتِنج فَنْج » ، فازدادوا به بأساً وثباتاً . ولم يدمْ القتال بعـد ذلك طويلاً ، إذ لم يحلّ شهر ديسمبر الاّ وقد أصبح الفريقان عاجزين عن تدبير المال اللازم للإنفاق على الجيوش : ففريق الثوار محدود الموارد ؛ والحكومة خالية الخزائن ولم تقدر على اقتراض قروض أجنبيـة جديدة . لذلك أظهر الفريقان رغبتهما فى

تهادن الفريقين

التهادن ؛ وأخذوا العدة لذلك ، فعُقد مؤتمر للصلح فى شنغهاى . وبعد التفاوض فى الأمر ، قرّ الرأى على أن تكون حكومة البلاد جمهورية ، وعند ذلك أصدرت العاهلة القيّمة ، نائبةً عن العاهل ، مرسوماً بالنزول عن العرش . وقد وضع رجال كلا الفريقين

اعلان الجمهورية

ثقتهم فى « يوان شيه كاى » ، وقالوا إنه أقدر رجل فى الصين ؛ فقدموا له منصب رياسة الجمهورية ، فقبله

وإن مستقبل الصين لا يزال غامضاً : فان اتساع رقعة البلاد ، واختلاف

مستقبل الصين

شعوبها ، وتمكن العداوة والبغضاء بين أهل الشمال منهم وأهل الجنوب ، ووقوف دول أوربا لها بالمرصاد ، كل ذلك يشير الى صعوبة التئامها وتكوين هيئة ديمقراطية حقيقية منها . على أنها اذا أفاقت من رقدتها ، وشمّرت عن ساعد الجدّ فى استثمار ينابيع ثروتها الهائلة ، فانه يؤمل لها أن تأخذ المنزلة الحَرِيّة بهـا فى مصاف دول العالم العظمى ؛ فانها لا تزال بكثرة عديدها ، وشدة وطنيتها ، واحترامها لجنسها ، سليمة بعدُ لم تُمسّ بأذى محقَّق

الفصل الثانى

نهضة اليابان

١ — ﴿ اليابان القديمة ﴾

سرعة تقدم اليابان

تُعتبر اليابان الآن أقوى دول المشرق . وهى بتهذيب تربيتها الحربية والاقتصادية على الأسلوب الأوربى ، أصبحت بعـد قريب من نصف قرن إحدى دول العالم العظمى ، التى تتحكم فى مصير أمم الأرض . وتقدمُها بهذه السرعة المدهشة من أعجب وأغرب ما دوّنه التاريخ

اصل اليابانيين

واليابانيون من أصل مغولى ، أخذوا حضارتهم الأولى عن الصين واشتهروا بالشجاعة والشهامة . وكان نظام حكومتهم القديم كمثله بأوربا فى القرون الوسطى .

الميكادو والشوجن

فكانت السلطة العليا للعاهل (الميكادو) الذى يُنزله الشعب منزلةَ الآلهة . ويقاسمه فى السلطة الفعليـة رئيس يلقّب بالشَوْجَن (القائد) ، ما زال يستبدّ بالسلطة حتى جعل منصبه وراثياً فى بيته

طبقات الامة

وكانت طبقات الأمة تتكوّن من خاصة وعامة . فالخاصة تتألف :

أولاً — من « الكوج » . وهم سلائل من بيت الملك أُولو نزعة تسيطرية

الكوج — (ارستقراطية) ، يعيشون عيالاً على العاهل وحاشيةً لقصره ، ولا يملكون من الأرض شيئاً

الدايميوس — ثانياً – من « الدايميوس » أو الأشراف المستغلّين للأراضى الفسيحة ملكاً خاصاً أو إقطاعاً وراثياً من الشوْجَن ، يتصرف كل منهم فى أهل ضيعتهِ أو قطيعته تصرف الملك المستقلّ

الساموراى — ثالثاً – من « الساموراى » . وهم رجال اتّخذوا الجندية حرفةً وراثية لهم ، ولا يحمل السلاح غيرهم

العامة — والعامة تتألف :

أولاً – من طبقة الزرّاع والتجار وأرباب الحرف والصناعات الشريفة

ثانياً – من خشاش الناس ورعاعهم ، وهم المحترفون بالحرف الدنيئة ، المحتقَرون من جميع الطوائف

معاملة الساموراى للعامة — وتَعتبر أجنادُ الساموراى العامة بمنزلة الموالى والعروض المملوكة لهم ، فلا يؤاخَذ أحدهم بما جَنى عليهم . وهؤلاء الأجناد هم الذين قاموا باعباء الانقلاب العظيم الذى نهض باليابان نهضتها الأخيرة

٢ – ﴿ انقضاء عهد الشواجنة ﴾

ازدياد نفوذ الشوجن — ما زالت تضعف سلطة العاهل (الميكادو) الفعلية أمام الشوْجَن ، حتى استقلّ الشوجن بكل شيء ، وأصبح على رأس الأمة بيتان مالكان : بيتُ العاهل بمدينة « كيوتو » ؛ وبيت الشوجن بمدينة « ييدو » (طكيو)

اضطراب الاحوال — وكانت الشواجنة فى أول أمرهم على جانب عظيم من القوة الحربية والأدارية ، فصلحت حال البلاد فى عهدهم . ثم اضمحلت قوتهم وضعفت شوكتهم على مرّ الزمان ، حتى أخذ عمال النواحى ينازعونهم السلطان . فانتشر الفساد فى البلاد ، وبدت فيها مخايل الثورة ؛ ولم يبق الاّ شرارة لإشعالها

بری فی المیاه الیابانیة

وقد اتّقدت هذه الشرارة على يد « برى » أمير البحر بأسطول الولايات المتحدة ، إذ ظهر بأسطوله فى مياه « يدو » (طكيو) عام ١٨٥٣ ، وأنذر الشوجن (يظنّهُ العاهل) بأنهُ قد آن لليابان أن تقلع عن عزلتها عن العالم، وبأنه يجب عليها حتمًا أن تسمح توًّا لغيرها بالاتّجار معها . فأطاع مكرَهًا

اول عهد الاوربيين باليابان

وكان الأوربيون قد سبقوا الأمريكان الى التحكك باليابان، وإن لم يستطيعوا استعمال القوة أمثال هؤلاء : دخلهـا فى عهد الاستكشاف الجغرافى المستكشف البرتقالى « بِنْتو » سنة ١٥٤٢، فاستُقبل بالترحاب. ثم لحق به كثير من المبشرين، وتنصّر على أيديهم نحو ٥٠٠٠٠ نفس . ثم شعر اليابانيون بتدخّلهم فى شئون بلادهم فسخطوا عليهم وعلى من تنصّر، فقاموا يضطهدونهم ويقتّلونهم . وأفضى الأمر الى أن حرّمت الحكومة دخول الأجانب بلادها، وحظرت على اليابانيين الخروج منها، ومعاملة الأجانب فى بيع أو شراء ، الاّ باذن منها ، على ألاّ يكون المعامَل الاّ هولنديًا ، وسمحت لهولندة بالاتجار معها فى مرفأ صغير فى شبه جزيرة « شيما » . وبقيت هذه الحال مرعيّة ، حتى طلع عليهم أسطول أمريكا يجبرهم على الاتجار مع غيرهم

منع معاملة الاجانب

رضوخ الشوجن لمطالب برى

فلما رأى الشوجن أن لا قِبَل لليابان بمدافع الغربيين وأسلحتهم ، وسفنهم التى تسير مع الريح وضده ، عقد مع أمير الأسطول معاهدة ، على أن يُفتح ثغران للسفن الأمريكية . وتلتها معاهدات أُخرى مع أمريكا وانجلترة وفرنسا وغيرها

أوربا تنذر اليابان

وبذلك ابتدأ عهد اختلاط اليابانيين بالأمم الغربية، الاّ أن هذا العهد كان فى مبدئهِ عهد قلاقل وفتن؛ فكثيراً ما ثاروا بالأجانب وذبّحوهم ؛ فأرسلت انجلترة وفرنسا أساطيلهما لتهديد اليابان وإنذارها بالشرّ إن لم تقلع عن اضطهاد الأجانب . فزاد كل ذلك حنق الشعب على الشوجن ، الذى سمح للأجانب بنزول أرض الوطن المقدسة ؛ وحنق عليه الأوربيون، إذ لم يستطع القيام بحماية رعاياهم. ولما أعيته الحيل واشتدّ حرج مركزه ، اعتزل منصبه، ونزل عن سلطته للعاهل سنة ١٨٦٨ ؛ وبذلك ابتدأ عهد « العودة الى الملكية » ، لحصر السلطة بعدئذٍ فى العاهل

نزول الشوجن عن سلطته

٣ – ﴿ بعد العودة الى الملكية ﴾

رجال الحكومة الجديدة

لما اعتزل العملَ الشوجنُ وأتباعه الممارسون معاملةَ الأجانب، خلفهم قوم قليلو الخبرة بمعاملتهم. فمنّوا الشعب بأنهم سيطردون أولئك « البرابرة » من أرض اليابان، فلما رأوا حال الدولة، وما هي عليه من الضعف أمام أساطيل الأوربيين وآلاتهم القتّالة؛ علموا أنهم أقل حيلة من الشوجن واتباعه؛ وهبّوا يفكرون باخلاص وحميّة فى أحسن الوسائل الى سلامة اليابان وتقدمها. وبعد أن دَرست الحكومة

سياسة الاختلاط بالاوربيين

الجديدة الأمر من جميع وجوهه، أقرَّت سياسة الاختلاط بالأوربيين، والتدرع لهم بدروعهم، وتعلّم علومهم وصناعاتهم، حتى تصير دولتهم فى مصفّ أعظم دولهم. فعملوا على تنفيذ هذا الرأى بعزيمة ودأب، فنجحوا نجاحاً لم يكد يرى التاريخ مثله

الميكادو متسوهيتو

وكان العاهل قد مات قبيل الانقلاب، وخلفه الميكادو العظيم « متُسوهيتو » سنة ١٨٦٧، وهو فى الخامسة عشرة من عمره؛ فأقسم أن يحتفظ بالمبدأ الجديد. وساعده الحظ على إنفاذ هذه الخطة، بوجود نخبة من الوزراء فى خدمته، كانوا على جانب عظيم من النبوغ والوطنية الصادقة. وقد دُوّنت أُصول السياسة الجديدة فى

مرسوم سنة ١٨٦٨

مرسوم صدر سنة ١٨٦٨ شامل لخمس المواد الآتية :

(١) أن تجتمع جمعية للنظر فى شؤون البلاد، وأن يكون الرأى العام هو الذى يفصل فى كل الأمور

(٢) أن لا فرق بين العظيم والوضيع فى ابداء آرائهما فى سياسة البلاد

(٣) أن لا تحتكر الساموراى عملاً من الأعمال، وأن يُسمح لكل فرد فى البلاد بالعمل وراء ما يسعى اليه

(٤) أن يُقلَع عن العادات والتقاليد القديمة، وأن يتمتع جميع الناس بالعدل والمساواة فى كل شىء

(٥) أن تُطلب العلوم والمعارف فى جميع أنحاء العالم، كما تقام أركان الدولة على أساس مكين

٤ — ﴿ مبدأ الإصلاح ﴾

الاصلاحات الجديدة

بعد أن أقرّت اليابان العملَ بهذه الخطة سارت فى إنفاذها بعزيمة صادقة ؛ فكان الإصلاح يلى الإصلاح ، حتى انتقلت البلاد الى حالة راقية جديدة ، بسرعة لا يكاد يوجد لها مثيل . وقد كان من أعظم أوجه الإصلاح تغيير الحالة الاجتماعية . فقام

الحالة الاجتماعية

الدايميوس من تلقاء أنفسهم، ونزلوا عن حقوقهم الإقطاعية ؛ وضُمت طبقات الأشراف بعضها الى بعض ، فصارت طبقة واحدة ؛ وتألفت من الساموراى طبقة ثانية ، واعتُبر مَن بقى من الأهلين طبقة ثالثة ؛ هى طبقة العامة . وخُلّيت مناصب الحكومة فى وجوه جميع الطبقات على السواء ؛ وسُمح للأشراف بالمهاجرة فى طلب العلم . وأبيح للساموراى أن يضعوا سلاحهم ، و يشتغلوا بالزراعة أو الصناعة أو التجارة ، وصار من حق كل فرد الاشتغال بأى مهنة أرادها . ومُحى كل شرط أو قيد فى ملابس الناس وأزيائهم ؛ وتبع ذلك تكوين جيش أهلى على الطراز الحديث . ففى سنة ١٨٧٢ جُعلت الخدمة العسكرية بجميع مراتبها اجبارية ؛ واستُقدم الضباط الأوربيون لتدريب الجيش

انشاء الاسطول

وشرعت الحكومة فى انشاء أسطول ، وشيدت من أجله الأحواض ودور الصناعة

السكك الحديدية

ولم تهمل السكك الحديدية ؛ فقد أُنشئ أول خط منها بين طوكيو ويوكوهاما عام ١٨٧٠ وبعد ذلك بثلاثين عامًا بلغ طول ما أُنشئ فى اليابان من الخطوط الحديدية ٣٦٠٠ ميل ؛ ويربو الموجود منها الآن على ضعفى ذلك . وأُنشئت مصلحة للبرق وأُخرى للبريد ، وقفا ذلك انشاء (بورصة) وغرفة تجارية بمدينة طكيو ، ومضرب للنقود ، فحسنت سكتها وارتفعت قيمتها

البرق والبريد

التعليم

أما التعليم فجُعل اجباريًا وعلى الطرق الحديثة . وأُنشئت جامعة بمدينة طكيو ، وتلتها أُخرى فى كيوتو ، وأُحضر لها كبار الأساتذة من البلاد الغربية . وقد أقبلت الطلبة كل الاقبال على درس العلوم الحديثة ، فزاد عدد المدارس بسرعة عظيمة ؛ وفى عام ١٨٨٣ بلغ مجموع تلاميذها ٣٠٠٠٠٠٠ . وفى سنة ١٨٨٤ أُدخل فيها تعليم اللغة الانجليزية

الكتب والصحف

وتقدمت اليابان فى التأليف والترجمة وطبع الكتب وتحرير الصحف تقدماً سريعاً: رُخص باول جريدة فيها عام ١٨٦٩، فربا عدد الجرائد عام ١٨٨٢ على المائة

وعُدّلت القوانين المدنية والجنائية، بعد أن دُرست نظائرها عند الأمم الأجنبية دراسة وافية، فتساوى جميع الأهلين أمام القانون. وتُوّجت جميع هذه الاصلاحات

الحكم النيابى

بأن منح الميكادو الشعب حكومة نيابية. وسيأتى ذكر ذلك مفصلاً فيما بعد

٥ — ﴿ تعديل المعاهدات الأجنبية ﴾

اجحاف المعاهدات الاولى

بينما كانت الحكومة تكابد هذه الاصلاحات الداخلية، كانت تشتغل كذلك بمسائل دولية ذات بال تتطلب مهارة سياسية عظيمة. ومن أهم هذه الأمور المعاهدات الدولية. فقد كانت المعاهدات التى أبرمها الشوجن مع الدول الأجنبية نتيجة خضوعه لقوة لا قِبَل له بها. فكانت كلها مجحفة بحقوق اليابان. فاشترطت كل دولة فى تعاهدها أن يكون لها وحدها السيطرة على رعاياها، بحيث لا تجوز محاكمتهم إلا فى محاكمها السفارية؛ وجُعلت مكوس الواردات ٥ ٪، فلم تعد الحكومة تستطيع زيادتها على الرغم من شدة حاجتها الى المال. ولقلة ثقة الدول فى مقدرة الشوجن على المحافظة على رعاياها، أبقت كل من انجلترة وفرنسا حامية فى يوكوهاما لهذا الغرض

مساعى الوفد

كل ذلك أقلق بال الحكومة الجديدة، فأرسلت عام ١٨٧١ وفداً الى أوربا وأمريكا، يطلب موافقة الدول على مساواة رعاياها باليابانيين، وزيادة مكوس الواردات. فقضى الوفد فى مهمته ثلاث سنوات، ولم يحظ طبعاً ببغيته. على أنه نتج من رحلته أمر آخر عظيم الشأن؛ وهو أن أعضاء البعث، لشدة يقظتهم وتفانيهم فى

الوفد يدرس العادات الغربية

خدمة وطنهم، درسوا أثناء رحلتهم العاداتِ والأخلاقَ وأحوال المعيشة الغربية، ودوّنوا آراءهم فى كل ما شاهدوه. فكان ذلك اكبر مساعد على إجراء الاصلاحات العظيمة التى ذكرناها، والاقتراب بوجه عام من الحضارة الغربية

وقد قضت اليابان بعد ذلك السنين الطوال فى مفاوضة الدول، رجاء تخفيف

شروط المعاهدات المبرمة معها . واجتمع لهذا الغرض مؤتمر فى طكيو عام ١٨٨٢ ، وآخر عام ١٨٨٦ ، للبحث فى المبادئ التى يجب أن تكون أساسًا للمعاهدات الجديدة . وكان تقدم التربية والصحافة قد أنار أذهان الأمة ورقى مطامعها السياسية؛ فعند ما اجتمع مجلس النواب كان أول مقاصده حض الحكومة على السعى فى تعديل المعاهدات . ولما يئست اليابان من فائدة المؤتمرات . وأنست من نفسها القوة ، لجئت الى الحيل السياسية ؛ فأخذت تفاوض الدول سراً وعلى انفراد . وإذ كانت مصالح انجلترة فى اليابان تفوق مصلحة أى دولة أخرى ، فضلاً عن أن اليابان أصبحت أقوى دولة شرقية ، بادرت الى عقد معاهدة معها سنة ١٨٩٤ ، سمحت لها فيها بكل ما تريد ؛ فثبتت بذلك مكانة اليابان بين الامم المتمدينة الرشيدة . فلم يسع بقية الدول إلاَّ متابعة انجلترة على التوالى ؛ ولم يأت عام ١٨٩٩ حتى أعلن العاهل (الميكادو) أن قد تمّ التفاهم على ما يرام مع الدول التى أُبرمت معها المعاهدات . ومن ذلك الحين خضع جميع الأجانب الذين فى اليابان للقوانين اليابانية ، وأصبح العاهل ملكاً حقيقيًا فى بلاده . وهذه هى أول مرة فى التاريخ رضى فيها الأوربيون بحكم دولة شرقية بلا شرط ولا قيد . وقد أيّدت الأيام إمكان هذا العمل

طرق باب السياسة لنيل المقصد

المعاهدة مع انجلترة

الفوز بالغرض

٦ — * الحكم النيابى *

يرجع الفضل الأكبر فى تمهيد الطريق للحكم النيابى فى اليابان ورسم خطته الى سياسى عظيم من أبنائها يدعى « الأمير إيتو » . ولع هذا الرجل منذ صباه بالوقوف على أسرار تقدم الغربيين ؛ وفى سنة ١٨٦٣ هاجر سرًّا الى لندن ، لدرس عادات الانجليز وأحوال معيشتهم . وبعد ثلاث سنوات عاد الى بلاده حيث كان له يدٌ فعالة فى الحوادث التى أدّت الى انقلاب سنة ١٨٦٨ . ونُصّب عَقِبَ ذلك حاكماً لميناء « هيوجو » المفتوحة للتجارة الخارجية . وإذ عرف جيداً مزايا الحكم النيابى ، عزم على أن يعمل جهده فى تهيئة مواطنيه له ، وتدريبهم عليه . وقد شاركه فى آرائه

الامير ايتو

غيرُه من الزعماء السياسيين . ولاحت بارقة املهم بصدور الفقرة الأُولى من مرسوم سنة ١٨٦٨

مبادىء الحكم النيابى

وأبتدأت الحكومة تجربتها للحكم النيابى سنة ١٨٦٩ ؛ فعقدت فى طكيو مجلساً شوريًا من الساموراى والأشراف ؛ فاسفر عن الفشل ، لاحتقار أعضائه عامة الشعب وعدم مبالاتهم بحقوقهم ، فحل المجلس. ثم لما ارتقت الأُمة فى آرائها السياسية بعد خمس سنوات ، بتنبيه الصحافيين والسياسيين لها (وكان أكثرهم ممن تربوا فى أمريكا وتشبعوا بالمبادئ الدستورية) ألّفت الحكومة من كبار عمالها لجنة يكون عملها كتمهيد للحكم النيابى ؛ وأُنشئ « مجلس شيوخ » ليسترشد به العاهل ؛ فكان انشاء هاتين الهيئتين خير موصل الى الحكم النيابى ؛ إذ أعلن العاهل سنة ١٨٨٠ وجوبَ انعقاد مجلس أهلى نيابى بعد عشر سنوات (أى عام ١٨٩٠) . وفى إثر ذلك أُوفدت الى

درس الانظمة الاوربية

أوربا لجنة يرأسها « الامير إيتو » (سنة ١٨٨١) لدرس الأنظمة الدستورية ؛ وبعد أن عادت اللجنة الى اليابان ، عُرضت نتائج بحوثها على هيئة خاصة ، فدُرست درسًا دقيقًا. ثم وُضع مشروع قانون للحكومة النيابية ، فبقى موضوعَ البحث والمناقشة

اول اجتماع المجلس النيابى

ثمانية أعوام ، حتى صدر فى شكله النهائى عام ١٨٨٩ . ثم أُجرى الانتخاب العام ، واجتمع المجلس النيابى لأول مرة عام ١٨٩٠

تغيير نظام الحكومة

وفى هذه الأثناء حدث تعديل فى نظام الحكومة . فقد كان على رأس الحكومة وزير واحد مؤاخذ أمام العاهل ، يليه رؤساء دواوين لا وزراء ، وكلهم من الأشراف أو الطبقات العريقة النسب ، رياستهم فى الحقيقة اسمية فقط : ويقوم باعباء العمل رجال من ذوى الكفاءة ممن لم تسعدهم المقادير بشرف الأنساب أو الوجاهة الاجتماعية ؛ وكان الوزير هو الواسطة الوحيدة بين العاهل والأُمة . فأنشئت الآن حكومة على النمط الألمانى ، يرأسها مجلس مؤلف من عشرة وزراء مؤاخَذين أمام العاهل ، رضى عنهم المجلس أم لم يرض ، منهم تسعة يرأسون دواوين رياسةً فعلية ، والعاشر هو رئيس الوزراء . وكان « الأمير إيتو » أول من تربع منصب رياسة

الوزراء . ويتألف المجلس من هيئتين : المجلس الأدنى أو مجلس النواب ، والمجلس الأعلى أو مجلس الأعيان*

النزاع بين المجلسين

على أن السنوات الأولى من عهد الدستور كانت مشهد تشاحّ ونزاع بين المجلس الأدنى وبين الوزراء :

أولاً – لأن الدستور الممنوح لا يجعل الوزراء مؤاخذين أمام المجلس ، فيسقطون بفقد ثقته

ثانياً – لأن مناصب الحكومة كانت محتكرة لطائفة « ساتسوما » وطائفة « شوشين » القويتين، لبذلهما النفس والنفيس فى إسقاط الشوجن وأتباعه . وعظمت الفتنة ، وكاد يتوقف سير الاصلاح ، حتى كان ذلك من اكبر ما أغرى الصينيين على التحامهم باليابان فى حرب عام ١٨٩٤ التى سيأتى ذكرها ، إذ ظنوا أن روح الفتنة القائمة فى البلاد اليابانية يُضعف من قوتها الحربية ويفتّ فى عضدها . ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم ؛ إذ بمجرد إعلان الحرب ، كان اليابانيون يداً واحدة على عدوهم ، وأقلع إذ ذاك أعضاء المجلس الأدنى عن كل معارضة فى أى مشروع تقدمه الحكومة . وقدأبدى اليابانيون هذا الشعور بعينه عند مانشبت الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٤ . وكأنما هذه الشدائد نفحت روح التعاون فى البلاد . والحق ان الحكم النيابى فى اليابان قد صادف نجاحاً وتقدماً لم يكن بالبال ، وأن أعضاء المجلسين ينظرون الآن فى الأمور التى تُعرض عليهم ويفصلون فيها بحزم وعزم ، ولا يضيعون

الخطر الاجنبى يزيل الشقاق

---

* فكان اعضاء المجلس الادنى ينتخبون من بين الرجال الذين لا تقل سنهم عن ٢٥ سنة ، بشرط ان يكونوا ممن يدفعون للحكومة « ضرائب مقررة » لا تقل عن ١٤٠ قرشا تقريبا فى السنة ، وقد خفض قدر هذه الضريبة عام ١٩٠٠ ، فصار يكفى فيها نحو ١٠٠ قرش فى العام . وللاعضاء مرتبات

اما المجلس الاعلى فمعظم اعضائه ايضا يختارون بطريق الانتخاب ، اذ ليس من بينهم من يتولى مركزه بالوراثة سوى ٥٣ عضواً من ٣٢٨ . وقد ضم بين جدرانه منذ نشأته انبغ رجال اليابان واعظمهم شأنا : منهم من يمثل الجيش والاسطول واهل العلم والادب ، ومنهم من كانت لهم يد سياسية فى تكوين اليابان الحديثة . وكان دائما موضع ثقة العناصر الراقية من الامة

الوقت فى الثرثرة من غير جدوى . ولم تظهر بعد « حكومة الأحزاب » فى البلاد ، ولكن الأحوال تنبئ باحتمال ظهورها ، وبتقدم الحكم النيابى فى اليابان بوجه عام فى المستقبل

٧ — ✻ علائق اليابان الأجنبية ✻

اليابان وبيرو

ظهرت للعالم مهارة اليابان فى السياسة الدولية فى عدة حوادث هامة :

أولها — حادثة السفينة التى رست على « يوكاهاما » سنة ١٨٧٢ تحمل أجراء صينيين باعهم البرتقال بمكاو ، ذاهبةً بهم الى البيرو . فردتهم اليابان بإيعاز السفير الانجليزى الى الصين . وكادت الحرب تقع بين البيرو واليابان ، لولا تأييد انجلترة لليابان ، فأُحيلت المشكلة على محكمة دولية قضت لليابان على البيرو

اليابان والصين

ثانيها — انتهاء النزاع الذى قام بين اليابان والصين سنة ١٨٧٥ بانتصار اليابان فى السياسة واستيلائهم على جزائر « ريُوكيُو »

اليابان وكورية

ثالثها — تدخّل اليابان فى سياسة كورية ، بقصد استعادة الإتاوة التى كانت قديماً تدفعها كورية لليابان وقطعتها سنة ١٤٦٠ . وكادت الحرب تقع بينهما مراراً ، ثم انتهت الحالة بعقد معاهدة سياسية مجحفة جداً بحرية كورية . وبمثل ذلك ينتصر العلم والقوة على الجهل وقلة الحيلة الحربية

٨ — ✻ اصلاح الساموراى ✻

الساموراى بعد ابطال حرفتهم

لما مُحى النظام الإقطاعى من اليابان حُرم رؤساء القطائع دخلَهم ، واضطرت الحكومة لإيجاد رزق لاتباعهم الكثيرين من الأجناد (الساموراى) ، الذين بطلت حرفتهم العسكرية . فرتّبت لهم رواتب أبهظت الحكومة . فأرادت بطريق التفاهم أن تستبدلهم بها منَحاً مالية ، تعطى لهم جملةً واحدة ، وان تمنعهم من حمل السلاح ؛ فلم تفلح . فعاودت الأمر ، فثاروا ، فقابلتهم بالقوة ؛ فما وَسعَهم إلاَّ الخضوع . ولكنهم

بعد قليل وقعوا فى مخالب الفقر والجوع ؛ فاضطروا الى الاشتغال بالأعمال الحرة ، والحرف المستجدّة ، وخدمة الحكومة والأسطول والجيش ، والسكك الحديدية .

نبوغهم

ومنهم من سَمَتْ به همته الوراثية الى مزاولة الفنون العالية ، فكانوا من أحسن مظاهر الفضيلة والعرفان ، وأصبح منهم أعاظم رجال الجيش والأسطول والقضاء والمحاماة والهندسة وغيرها . وصار قومهم يوقِّرونهم لفضلهم وكفاءتهم ، فوق توقيرهم لقديم مجدهم . وأخلصوا هم للعاهل ما كانوا يخلصونه لأوليائهم من أرباب القطائع

٩ — ثورة ساتسوما

كبرياء قبيلة ساتسوما

بالجزائر الجنوبية من اليابان قبيلة قوية البأس تُدعى « ساتسوما » ، وكانت لمنعة جزائرها وقوة شكيمتها كحكومة مستقلة . وزادها جَبَروتاً وصلفاً على الحكومة العليا مداهنةُ الحكومة لها ، وإغداقها العطايا على زعمائها ، بعد ان ردّت ساتسوما ولاةَ الحكومة الجدد عقب الانقلاب الحديث . وكان اكبر زعمائها رجل يدعى

سيجو تكامورى

« سيجو تكامورى » ، انتظم فى سلك وزراء الحكومة العليا وبقى يمثل قبيلته فيها الى سنة ١٨٧٣ ، وهى السنة التى تحرشت فيها اليابان بكورية . فكان من رأيه وجوبُ الحرب ؛ وحرّض عليها ، حتى زجره العاهل نفسه . فاعتزل منصبه ، وذهب الى بلاده حاقداً على الحكومة . وأخذ يدرّب قومه على استعمال الأسلحة الجديدة

خروجه على الحكومة

ونظام الحرب الحديث ، تأهباً للخروج على الحكومة . فلما أصدرت الحكومة مرسوم سنة ١٨٧٦ بمنع الساموراى من حمل السلاح . رأى سيجو أن الوقت قد حان للخروج ؛ فخرج فى ١٤ ألف مقاتل ، فأرسلت اليه الحكومة وفداً يفاوضه فى مطالبه ، فلم يُجْد ذلك فتيلاً . واضطرت الحكومة لخوض حرب أهلية فظيعة ، تفانى فيها الفريقان ، وبلغت خسائرهما نحو ٣٥ ألف مقاتل . ولوفرة عدد جيش الحكومة

انتصار جيوش الحكومة

البالغ ٤٠ ألف مقاتل ، انتصرت على الثوار ؛ وقُتل سيجو وغيره من الزعماء . فكانت القاضيةَ على بقايا النظام الإقطاعى والأفكار الرجعية ، وإن كبّدت الحكومة نفقة

ثمانية آلاف ألف جنيه. وأظهرت جنود الحكومة فى هذا القتال ما دلّ على كفاءتهم لخوض أى حرب نظامية ، وأن هذا النصر سيكون فاتحةً لانتصارات عديدة فى غير بلاد الوطن

١٠ — ﴿ الحرب الصينية اليابانية ﴾

مشاكل كورية

نشأت هذه الحرب عن مشاكل تتعلق بشبه جزيرة كورية ، التى كان مثلها فى الشرق الأقصى مثل البلقان فى الشرق الأدنى : مصدراً مستمراً للمشاكل الدولية . وقد أخذت الدول الأوربية تهتم بشؤونها فى العصر الأخير ، ولكن سبقتها فى مضمار التدخل فى أحوالها الدولتان الشرقيتان العظيمتان : الصين واليابان ؛ فصارت كل منهما تريد أن تكون لها الزعامة فيها . ثم رأتا أن مصلحتهما تقضى بأن يسود السلام فى تلك البلاد، وتسير حكومتها هادئة مطمئنة. فاتفقتا عام ١٨٨٤ على ان لا ترسل احداهما جنداً الى كورية الاّ باذن الأخرى

اليابان تطلب الاصلاح

وفى عام ١٨٩٤ رأت اليابان أن الحاجة ماسة الى ادخال بعض الاصلاح فى كورية ، فعرضت على الصين أن تشترك معها فى طلب الاصلاح من حكومة كورية . فأبت ، فأرسلت اليابان الى كورية انذاراً بالحرب بعد ثلاثة أيام ان لم تقبل الاصلاح . ولمّا لم تجبها اجابة مرضية أعلنت عليها الحرب ، ودخلت عاصمتها وأسرت ملِكها . فأغضب ذلك الصين ، واشتبكت مع اليابان فى حرب عظيمة برّاً وبحراً ، ظهر فيها فضل العلم على الجهل . وغزت اليابان منشوريا ، واستولت فيها على ثغر « بورت أرثر » الذى حصّنه على الطراز الحديث مهرةُ المهندسين الفرنسيين . ثم استولت جيوشها على « واى هاى واى » ، وتأهبوا للزحف على « بكين » . فخاف الصينيون على حاضرة بلادهم ؛ واضطروا الى عقد معاهدة « شيمونوزيكى » فى ١٧ ابريل سنة ١٨٩٥ ، وبها نزلوا لليابان عن بورت أرثر وشبه جزيرة «لياوتنج» وجزيرة « فرموزا » وجزائر « بسكادور » ، ورضوا بأن يدفعوا لليابان غرامة حربية

الحرب

فوز اليابان

معاهدة شيمو نوزيكى

قدرها ٠٠٠و٠٠٠و٢٥ جنيه ، وأن يفتحوا للاتجار معها عدة ثغور جديدة ؛ واعترفوا باستقلال كورية استقلالاً تامًا. واتفق الفريقان على أن تحتلّ اليابان « واى هاى واى » الى أن تنفذ هذه الشروط

تدخل اوربا

وبينما اليابان على وشك جنى ثمار هذا الفوز المبين ، اذا بصرخةِ حقدٍ وحسد ، دوَت فى أوربا ، تنادى بانقاذ الصين من شروط هذه المعاهدة المجحفة. وذلك ان الروسيا التى طالما كانت تعمل على إنشاب مخالبها فى الشرق الأقصى، حرضت فرنسا وألمانيا على الانضمام اليها فى مطالبة اليابان بالجلاء عن بورت أرثر وشبه جزيرة لياوتنج ، بحجة ان بقاءها هنالك « يجعل حاضرة الصين فى خطر مستمر ، ويجعل استقلال كورية أمراً صوريًا فقط ، ويتهدد سلام الشرق الأقصى بأسره » . وطلبت اليها « لخدمة الانسانية » أن توافق على اعادة النظر فى المعاهدة وتعديلها . فلم تجد اليابان بداً ، أمام مطالب ثلاث من الدول الحربية العتيدة ، من الخضوع للأمر. فحُرمت من أعزّ ثمرةٍ لانتصارها ، ونزلت عن شبه جزيرة لياوتنج فى مقابل غرامة حربيةٍ أخرى قدرها ٠٠٠و٢٠٠و١ جنيه . إلاّ أن ذلك احفظ اليابان على هذه الدول ؛ وأيقنت أن روسيا هى عدوتهـــا العنيدة ، التى لا بدَّ لها من يوم معها تناقشها فيه الحساب . فعوّلت على الاستمرار فى العمل على توطيد قوتها ، وزيادة جيشها وأسطولها . ولم يمضِ طويل حتى ظهر صدى ذلك فى حرب أخرى ، أعظم من سابقتها ، وهى الحرب الروسية اليابانية

حقد اليابان على روسيا

١١ — ﴿ الحرب الروسية اليابانية ﴾

مآرب اوربا فى الصين

لما تدخلت الدول الأوربية فى المعاهدة التى أُبرمت بين الصين واليابان عام ١٨٩٥ لم تكن كما تزعم مدفوعة بعامل الشفقة على الصينيين ، والمحافظة على كيان دولتهم . فلقد أرتنا الأيام بعدُ* ان هذه الدول عينها أخذت منذ عام ١٨٩٧ تتسابق على

* راجع الكلام على الصين فى الفصل السابق

انتزاع ما تصل اليه أيديها من الصين، وأن الروسيا وضعت يدها (بطريق الكراء)

اليابان وروسيا

على « بورت أرثر » عام ١٨٩٨ متغافلة عن أسباب احتجاجها على فعل اليابان .
وقد كانت اليابان ترقب تقدمَ الروس فى منشوريا بعين ساهرة ، وتخشى أن نفوذهم فى الشرق قد يقوى الى حالة تهدد تجارة اليابان ومصالحها، بل استقلالها فى بلادها، وذلك وسط تغيّظ الشعب اليابانى وهيج عواطفه ، ولم يُمسك بأذيالهم عن خوض غمار الحرب إلاّ حزم سواسهم العظام الذين رأوا من الحكمة أن يُرجأ الحرب ريثما تتم لها العدّة ، فتكون الطعنة نجلاء

تنبه اوربا لاطماع روسيا

وفى هذه الأثناء تنبهت الدول الأوربية الى شدة اطماع الروسيا، وعملها على زيادة نفوذها فى منشوريا بحالٍ ربما يكون مآلها إقفال تجارة ذلك الإقليم فى وجه بقية الممالك. فطلبت الدول (وفى مقدمتها انجلترة والولايات المتحدة) الى الروسيا أن لا تتعدى سياسة « الباب المفتوح* » . فوعدت الروسيا الدول أن تنجلى عن منشوريا « عند ما تتم تهدئة أحوالهـــا » ؛ ولكنها أبت أن تحدّ تاريخ الجلاء، وإن تعهدت لليابان بالجلاء فى معاهدة أُبرمت بينهما عام ١٩٠٢

تحالف اليابان وانجلترة

وفى هذا العام عظمت مكانة اليابان السياسية بأن عقدت مع انجلترة « تحالفاً دفاعياً » ؛ بمعنى أنهُ اذا دخلت احداهما فى حرب مع احدى الدول ، وانضم الى عدوها دولة جديدة ، فانّ حليفتها تدخل الحرب فى جانبها . واتفقتا فى تحالفهما على أن تعملا سوية على حفظ السلم فى الشرق الأقصى، وعلى صون كيان دولتى الصين وكورية ، وجعْل مجال التجارة فيهما واحداً لجميع الدول على السواء

ظهور اطماع روسيا

فلما دلّت أعمال روسيا عام ١٩٠٣ على عدم رغبتها فى الوفاء بوعدها (بأن طلبت من الصين امتيازات جديدة فى منشوريا، وحشدت جيوشها على نهر « يالو » تجاه

احتجاج اليابان

كورية) احتجت اليابان على عملها، وطلبت منها تعيين اليوم الذى تجلو فيه عن منشوريا، موضحة أن أحوال تلك البلاد قد هدأت. وبقيت المفاوضات تجرى بين

* سياسة الباب المفتوح هى ان يفسح مجال التجارة لجميع الدول على السواء



متسو هيتو
(ميكادو اليابان العظيم)

ابتداء الحرب

الدولتين بلا جدوى من أغسطس سنة ١٩٠٣ الى فبراير سنة ١٩٠٤ . ولما لم يعدْ في قوس الجدل منزع ، أيقنت اليابان أن الروسيا إنما تراوغها وتماطلها ، ريثما تنشب مخالبها في منشوريا ، وتحشد فيها الجنود الكافية ، فتميط اللثام عن نياتها . فقطعت معها العلائق السياسية فُجاءة ، وأعلنت الحرب بالعمل لا بالقول ، ففي ليلة ٩ فبراير سنة ١٩٠٤ نسف اليابانيون جزءاً من الأسطول الروسي في ميناء بورت أرثر ، وأنزلوا جيوشهم في كورية . وبذلك ابتدأت الحرب « الروسية اليابانيـة » ، التي بقيت نيرانها مستعرة براً وبحراً الى سبتمبر سنة ١٩٠٥

عمل اليابان اقدام عجيب

وقد وقف العالم ازاء ذلك موقف الدهشة والاستغراب . إذ كانت اليابان منذ ربع قرن أمةً أسيوية صغيرة ، غريبة عن الحضارة الأوربية ، فلم تنشب أن أقدمت على منازلة روسيا ماردِ أوربا المرعب ، الذى وضع احدى قدميه فى الشرق والأخرى فى الغرب ، والذى يرقب العالمُ بأسره شدةَ بطشه وضخامة سلطانه بخوف ووجل .

حال الروسيا واليابان فى الشرق

ولكن اليابان الكيّسة كانت قدرت حقيقة المسألة حق قدرها ، وأدركت كنه المهمة التى أقدمت عليها ، واختارت أحسن الأوقات للقيام بها . فقد كانت قوتها البحرية فى الشرق لا تقلّ عن قوة الروس ؛ وفى البر تستطيع أن تحشد من الجيوش فوق ما لروسيا فى الشرق وقتئذ ؛ كما أدركت صعوبة نقل الجيوش الروسية الى هذا الميدان البعيد ، إذ لم يكن للروس طريق اتصال به الاّ بالسكة الحديدية السيبيرية ، وهى مُنشأة من خط فردى يتخلله فضاء طوله ١٠٠ ميل ، هو بحيرة بيكال * التى تتجمد مياهها طول الشتاء (ولا يكون جليدها سميكاً فيتحمل مرور الأثقال عليه) ، ويستمر ذوبان الثلج بها فى الربيع ، فلا تصلح للملاحة الاّ من شهر مايو

حبس اسطول بورت أرثر

وكان للروس فى المياه الشرقية أسطولان : أحدهما فى «فلادفُستك» ، والآخر فى بورت أرثر . فتمكن اليابانيون منذ افتتاح الحرب من حبس أسطول بورت أرثر فى مياهه ؛ فضمنوا بذلك السيادة فى البحار الأسيوية ، وصاروا ينقلون الجيوش والذخائر الى ميدان القتال بغير خسائر ، الاّ يسيراً مما تصل اليه مجهودات أسطول فلادفستك . وأخذت جيوشهم تحرز النصر تِلوَ النصر

اليابان فى كورية

فتولى أحد جيوشهم اجلاء الروس عن كورية ، واكتسحهم أمامه الى ما وراء نهر « يالو » ، واحتل « سيُول » حاضرة تلك البلاد . ونزل جيش آخر بقيادة (الجنرال) « اوكو » فى شبه جزيرة « لياوتنج » وقطع خط المواصلة بين روسيا

حصار بورت أرثر

وبورت أرثر ، التى هى من اكبر مطامع اليابان فى هذه الحرب . وأراد الجيش أن يفتح المدينة عنوة ؛ فلم يقدر لحسن دفاع قائدها « ستوسِل » ، فألقى الجيش عليها

نوجى واوكو

الحصار بقيادة (الجنرال) « نوجى » . وتفرغ « اوكو » لصد الروس الى مكدِن

أياما

وإذ ذاك عُهد بالقيادة اليابانية العامة (للفيلد مَرْشال) « أُياما » . وسار القائد

كروبتكين

الروسى « كروبَتكين » من مُكدِن الى الجنوب لملاقاة اليابانيين وانقاذ بورت أرثر

واقعة لياوينج

فجرت بين الفريقين مواقع عظيمة أشهرها واقعة « لياويَنج » (٤ سبتمبر سنة ١٩٠٤)

(*) لم يكن أنشىء بعد الخط المحيط الآن بالبحيرة

التي استمرت عدة أيام ، وبلغ عدد المتحاربين فيها نحو ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل. وانتهت الموقعة بانتصار اليابانيين انتصاراً باهراً ، اخذوا بعده يزحفون على مكدن

محو اسطول الروس

وفي هذه الآونة كسر اليابانيون اسطولى بورت أرثر * وفلادفستك كسرة محتهما من الوجود ؛ وواصلوا ضرب بورت أرثر بشدة حتى اضطروها الى التسليم ،

سقوط بورت ارثر

بعد حصار عشرة أشهر (أول يناير سنة ١٩٠٥) . وعندئذ سار الجيش الذي كان يحاصرها نحو مكدن ، لمساعدة الجنرال اوكو . وهنالك جرت وقائع هائلة لم يرَ العالم

واقعة مكدن

مثلها منذ الحرب الفرنسية الألمانية ؛ وكانت نهايتها واقعة « مكدن » الشهيرة (٦ – ١٠ مارس سنة ١٩٠٥) التي بلغ مجموع ما خسره فيها الفريقان ١٢٠,٠٠٠ مقاتل بين قتيل وجريح ، وأسر فيها من الروس ٤٠,٠٠٠ أسير

ولما رأى الروس أن الفشل ملازمهم ، لاستئثار اليابان بالسيادة في البحار الشرقية ،

أسطول البلطيق

أرسلوا اليها اسطول بحر البلطيق ، وعلقوا عليه آمالهم في إحراز النصر . ولكن بعد أن كابد الاسطولُ أعباء الرحلة الطويلة حول رأس الرجاء الصالح ، ودخل المياه اليابانية ،

طوجو

انقضّ عليه اليابانيون بقيادة أمير البحر العظيم « طوجو » ، بطل هذه الحرب ، ومحوه

واقعة تسوشيما

من عالم الوجود في موقعة « تِسوشيما » (٢٧ مايو سنة ١٩٠٥) . وبذلك ضاع كل أمل الروس في النصر . وكادت اليابان أن ترهق روسيا بمطالبها ؛ ولكن الدور في

توسط الولايات المتحدة

صدّها عن غنيمتها هذه المرة كان على الولايات المتحدة ، فتوسطت في الصلح . وكان اليابانيون أيضاً قد سئموا القتال ، وكابدوا فيه خسائر جمة من المال والرجال ؛

الصلح

فتراضى الفريقان ، وقبلا الصلح (٥ سبتمبر سنة ١٩٠٥) على الشروط الآتية :

(١) أن يُعترف بنفوذ اليابان في كورية ، وأن يجلو الروس عن منشوريا

(٢) ان ينزل الروس لليابان عن شبه جزيرة لياوتنج (وفيها بورت أرثر) وكذلك عن النصف الجنوبي من جزيرة سخالين من جزائر الروس

(*) من أعظم النكبات التي لحقت هذا الاسطول ان أمير البحر الروسي « مخاروف » خرج بقسم من الاسطول لمطاردة بعض السفن اليابانية ، واذا باليابانيين قد لغموا طريقه ، فنسفت سفينته بمن فيها ، وفتكت نار العدو ببقية الاسطول

(٣) ان لا يدفع أحد الفريقين غرامة حربية (وقد استاءت لذلك اليابان أشد الاستياء ، اذ خسرت فى هذه الحرب ما يبلغ ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه) . الاَّ أنها تسلّت بعض السلوى عن ذلك باحتلالها مملكة كورية وقهرِها عدوها القديم ، وأمِنت على مستقبلها بعضَ الأمن

عظم شأن الحرب

وتُعدّ الحرب الروسية اليابانية من أكبر الحروب التى شهدها العالم قبل الحرب العظمى . فقد كان لكل من الفريقين فيها نحو ١،٠٠٠،٠٠٠ مقاتل ، وخسر كل منهما نحو ٢٢٥،٠٠٠ رجل ، ما بين قتيل وجريح ومتوفى بالمرض . وقد خرجت اليابان من هذه الحرب سيدة الشرق ، وعلت منزلتها بين الدول الغربية ؛ وهى الآن حليفة بريطانيا العظمى ، لها ما لها وعليها ما عليها . فشتان ما بين ذلك وبين حالتها عام ١٨٦٠ ، حينما كانت تُجبَر على قبول المعاهدات المجحفة الهاضمة لحقوقها . وما ذلك الاَّ بفضل الهمة النادرة ، التى بذلها أبناؤها فى سلوك سبيل الاستضاءة بنور العلم ، والاغتراف من مناهل العرفان

الفصل الثالث

انتهاء الحكم الاستبدادى فى فارس

١ — * بوادر الانقلاب الحديث *

جمال الدين الافغانى

كانت حكومة فارس استبدادية الى عهد قريب جداً ، بحيث لم تظهر العواملُ التى قضت عليه الاَّ منذ ثلاثين عاماً . وأول من نبَّه الأفكار وبذر البذرة الأولى لطرح نير الاستبداد فى فارس هو « السيد جمال الدين الأفغانى » المولودُ قرب كابل حاضرة افغانستان سنة ١٨٣٨ . رُبّى هذا الرجل تربية حسنة ، فنشأ ذكى الفؤاد حازم الرأى واسع الاطلاع ، ضارباً بسهم صائب فى الفلسفة والخطابة والصحافة .

وأعظم من ذلك كله آراؤه الشخصية ومراميه السياسية ؛ فقد قضى حياته ينشد الإصلاح فى معظم البلاد الاسلامية : فعل ذلك فى الهند ومصر وتركيا وفارس .

آراؤه ومراميه

ولما كان على جانب كبير من الفطنة وبعد النظر ، رأى ان اختلال حكومة فارس واضطراب شؤونها الداخلية لا بد أن يفضيا يوماً ما الى تدخل الدول الأوربية فى أمرها . وقد كان له فى فارس مع كراهية الشاه له أشياع كثيرون ، وخصوصاً بين طائفتى المجتهدين والعلماء . وكان اكبر غرض يرمى اليه توحيد كلمة المسلمين فى جميع بقاع الأرض ، ولا سيما الشيعة وأهل السنة ، وتقوية الدولتين الاسلاميتين تركيا وفارس اللتين لا ينقصهما الاّ اصلاح شؤونهما الداخليــة . ومات جمال الدين عام ١٨٩٧ بالقسطنطينية ، وكان أثناء اقامته بها يبعث برسائله الى فارس ، فينتشر فيها مبادئه وتعليماته

أواخر عهد ناصر الدين شاه

وقد ظهرت بوادر الانقلاب الحديث فى فارس فى عهد « ناصر الدين شاه » الذى تولى العرش سنة ١٨٤٨ . وكان حكمه من أنحس أزمان فارس ، ففى عهده كثر الفساد والخلل الذى ينتشر فى البلاد عادة عند ما يقبض على أزمتها حاكم مستبد خائر العزيمة راغب عن الاصلاح . وقد وصف حال البلاد عام ١٨٩٠ صحافى فارسى فقال:

« ان ادارة شؤون الحكومة كلها بيد قوم جهلاء لئام النزعة ، وحقوق الأمة تباع فيها تودداً لساسة الدول الأجنبية ، ومراتب الحكومة ومناصبها أُلعوبة فى يد أصحاب الأغراض السافلة ، وجيشنا اضحوكة العالم ، ومدائننا كلها بؤر قاذورات . والطرقات عندنا أقبح من ممرات الحيوانات »

سوء الحال

والحق ان البلاد كانت وقتئذ فى حال يرثى لها . فقد كان حكام الأقاليم يشترون مناصبهم ، ثم يعودون فيكنزون الأموال الطائلة بابتزازها من الأهالى التعاس . فاضمحلت بذلك التجارة ، وانحط دخل الحكومة ، حتى صار مصروفها السنوى يربو على دخلها

كل هذا وناصر الدين شاه يعيش فى بذخ ، ولا يفتر عن التبذير والتبديد :

تبذير ناصر الدين

ذهب فى ثلاث رحلات الى أوربا تصحبه حاشية كبيرة ؛ فأنفق فيها الأموال الطائلة ومع ذلك لم تعد رحلةٌ منها على البلاد بخير ، بل جلبت الأخيرة منها (سنة ١٨٩٠) على البلاد ضرراً بيّناً ، اذ منح الشاه فيها الأجانب عدة امتيازات ، أصبحت بها موارد البلاد عرضة لنهب الأجنبى وسلبه . وكان أقصى أمانيه فى ذلك اقتراض الأموال ، غير مكترث بما يصيب بلاده من الضرر ما دام هو يحظى بما يريد

وطنية الفرس وشركة التبغ

وقد نشأ عن أحد هذه الامتيازات أمر ذو بال ، كشف الستار عن ميول الشعب الفارسى ومطامحه . ففى سنة ١٨٩٠ منح الشاه لشركة انجليزية احتكار تجارة التبغ (التنباك)، بحيث يكون فى يدها وحدها الحق فى شراء التبغ من المزارعين وبيعه للجمهور وتصديره وتوريده ، جزاء استيلاء الشاه سنويًا على ١٥٫٠٠٠ جنيه وعلى ربع أرباح الشركة . فكان يُظَن ان الشركة تحصل بذلك على أرباح طائلة ، اذ كل أهل فارس يشربون التبغ . ولما كان فى ذلك الامتياز القضاء على رزق صغار

امساكهم عن التبغ

التجار من الفرس ، لارغامهم على التخلى عن تجارتهم ، ثارت خواطر الشعب ، وخصوصًا عندما بدأ انفاذ الاتفاق فى سنة ١٨٩١. ولما كان فى القوم بقية حمية وطنية تذمروا ، وأفتى المجتهدون من علمائهم بتحريم الدخان لهذا السبب ، فأمسكوا عنهُ عن آخرهم ، فأصبح الامتياز بالطبع عديم الفائدة للشركة . وأخذ القوم يحقدون على الشاه ورجال دولته ، وسخطوا على الأجانب ، بل انبعثت فى قلوبهم الكراهية لهم بدرجة جعلت حياتهم فى خطر بضعة أسابيع . فاضطر الشاه الى الغاء الامتياز فى يناير

غرامة الحكومة

سنة ١٨٩٢ ؛ فطالبته الشركة بالتعويض ، واضطُرت الحكومة الفارسية الى غرامة ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه . فكانت خلاصة تصرفات الشاه انه زاد عبء البلاد بدين جديد

وقُتل ناصر الدين شاه غيلةً فى طهران سنة ١٨٩٦ : قتله فاتكٌ فارسىٌّ قال انه لحقته مظلمة من الحكومة

مظفر الدين

وخلفه « مظفَّر الدين شاه »، فكان طيب القلب لين الجانب ، يمقت القسوة وسفك الدماء ، ميَّالاً الى اكتساب مودة الشعب الاَّ انه كان الى ضعفٍ فى جسمه

والتياث فى مزاجه ، خائر العزيمة قليل الحيلة ؛ فبقيت حال البلاد فى عهده آخذة فى الانحطاط . وهو على ذلك لم يتخذ شيئاً من الحزم لاخماد روح السخط فى مبدئه قبل ان ينمو وينقلب الى فتنة ؛ فكانت النتيجة انهُ غُلب على أمره

ضعفه

وقد كان مظفر الدين شاه لاتفرغ له حاجة للمال : اقترض من روسيا عام ١٩٠٠ ديناً قدره ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ، واقترض منهـا عام ١٩٠٢ ديناً آخر قدره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وصرف معظم هذه المبالغ فى رحلتين الى اوربا . وقد حاول اصلاح شؤون الماليـة ؛ فاستخدم لإدارتها ولجمع المكوس والضرائب خبراء من البلجيكيين ، فلم يقابل الأهلون تنصيبهم الاَّ بالاستياء ، وزاد سخطهم على الشاه . كذلك أغضبهم أمر القروض الروسية ، اذ رأوا ان روسيا لابد أن تتخذها ذريعة للتدخل بالقوة فى شؤون فارس أو لاحتلالها بالفعل ، ولاسيما انها ترى فى فارس طريقاً موافقة تؤدى الى البحار المحيطة

تبذيره

الاجانب فى الحكومة

الخوف من الروسيا

٢ — ﴿ منح الدستور ﴾

ولما اشتد سخط القوم عام ١٩٠٦ اجتمع عدد عظيم من التجار والعلماء وغيرهم ، بما يقدر بنحو ١٢٫٠٠٠ ، ثم احتموا فى بيت السفارة الانجليزية ، وطلبوا فى معقلهم هذا ان يَمنح الشاهُ البلاد حكومة نيابية . وكان فحوى مطالبهم : (١) ان تقسم بلاد فارس الى مناطق انتخابية . (٢) ان يُنشأ مجلس نيابى مؤلف من ٢٠٠ عضو تختارهم الأمة . (٣) انه يجوز ان يُنتخب لعضوية المجلس كل فرد من أهل فارس (الذكور) بشرط ان يعرف القراءة والكتابة ، وألاَّ تنقص سنّه عن ٣٠ سنة ولا تزيد على ٧٠

المطالبة بالدستور

وقد اضطُر الشاه بعد أخذٍ وردّ الى اجابة هذه المطالب ، وافتُتح المجلس فى اليوم السابع من شهر اكتوبر سنة ١٩٠٦

منح الدستور

وكانت المشاكل المالية أوَّل ما تناول المجلس البحثَ فيه . فقد كان الشاه

أعمال المجلس

المسائل المالية

ووزراؤه يريدون اقتراض ٤٠٠,٠٠٠ جنيه من انجلترة والروسيا بالاشتراك؛ فعارض العلماء والحزب الوطنى فى ذلك أشد المعارضة، بحجة ان فيه خطراً على استقلال فارس. وأخيراً قرّ الرأى على ان يُجمع المبلغ من سبيل قرض داخلى. فأيد المجلس بذلك مبدأه، وهو أنه لايرضى ان يكون آلةً فى يد الشاه وحزبه

نظام الحكومة

ثم وضع المجلس مشروع قانون أساسى لحكم البلاد. فأخذ الشاه يماطل فى التوقيع عليه، بالرغم من وعوده السابقة (اذ كان شأنه فى كل شىء ألاّ يوافق عليه إلاّ مضطراً). فلم يوقّع عليه الاّ يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٦، قبل موته بخمسة أيام. ووعد إذ ذاك ألاّ يحلّ ذلك المجلس الاّ بعد عامين على الأقل

بعض اصلاحات أخرى

ثم وجّه المجلس همهُ الى عدة شؤون أخرى منها:

(ا) منع اقتراض ديون جديدة من روسيا وانجلترة

(ب) حدّ نفقات الشاه (راتبه) وانقاصها الى أصغر قدر ممكن

(ح) انشاء مصرف وطنى

(ى) ابطال ابتزاز الأموال من الاهلين بطرق غير شرعية، ولا سيما فى جباية الضرائب

(ه) عزل البلجيكيين وغيرهم من الأجانب، ممن أتى بهم فى أوّل الأمر لاصلاح الجمارك، بحجة انهم أصبحوا ذوى نفوذ يُخشى منه، وانهم فضلاً عن عدم عملهم على التقليل من اسراف الشاه ساعدوه على ذلك

محمد على مرزا

ولما تولى عرش فارس الشاه الجديد «محمد على مِرْزا» فى يناير سنة ١٩٠٧ تظاهر بالميل الى الحكم النيابى والعطف على المجلس؛ ولكنه كان فى الباطن يمقت

مقته الدستور

المجلس والحزب الدستورى، ولا يدخر وسعاً فى القضاء عليهما. فلما لم يكن له جيش يؤيّده، واعيته الحيل فى داخل فارس، أخذ يتطلع الى المعونة من خارجها. وقد أدّته أغراضه الشخصية وخيانتهُ لوطنه الى أن يفكر فى الاستعانة بسيوف الأجانب فى

دسائسه

اعادة الحكم الاستبدادى، الذى اضطرُ أبوه الى محوه. ومع انه كان يدسّ الدسائس

استمرار الاصلاح

للمجلس سراً ، بتشجيع الفتن والقلاقل الداخلية ، كى ينسب الى المجلس الفشل والارتباك ، سارت البلاد فى سبيل الاصلاح سيراً حثيثاً ، وأنشئت مجالس المديريات بالأقاليم لتقييد سلطان الحكّام الذى لم يكن له حدّ . وكان من عادات الشاه أن يمنح انصاره دخل قطائع بأكملها ، فأُعيدت هذه القطائع الى الحكومة . وأُصلح نظام الضرائب ، ومُهدت الطريق لالغاء الجرايات (المعاشات) الدائمة التى كانت تُجرَى على الكثيرين بدون عمل يفيدونه

روسيا وتركيا تكيدان للدستوريين

وكانت الروسيا تمقت المجلس وتعمل فى الخفاء على النكاية به ، فأمدّت الشاه بالمال ليستعين على بذر بذور الفتن والشحناء فى البلاد . كذلك كانت حكومة تركيا تناصبه العداء ، لشدة كراهيتها (حينئذٍ) لكل الهيئات النيابية ؛ فأرسلت جيشاً الى الحدود الفارسية ، بدعوى أنها تريد تسكين القلاقل . فأرسل الفرس جيشاً لزجر الترك ؛ فكان نصيبه الانهزام

مقتل أمين السلطان

وفى أثناء ذلك كانت الحاجة الى المال تزداد يوماً بعد يوم . وكان كبير الوزراء (أمين السلطان) ، الذى لم يترك الشاهُ مسألة الاّ استشاره فيها ، يميل الى اقتراض دين من روسيا ويأمل منهـا اجابة مطلبه . فقتله أحد الفتاك يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧ على إثر مناقشة فى المجلس ، كاد فيها يحمل الأعضاء على الموافقة على رأيه . فخلفه فى منصب رياسة الوزارة « ناصر الملك » من خريجى جامعة اكسفُرْد وأحدُ أعضاء الحزب النيابي

٣ — ✱ ثورة عام ١٩٠٩ ✱

تمويه الشاه على المجلس

قد رأينا كيف كان الشاه لا يفتر عن العمل فى الخفاء على النكاية بالمجلس وإلغاء الحكم النيابي . ثم رأى أن يموّه على الأعضاء ، فدخل يوماً على المجلس وحلف بالمصحف الشريف أن يحافظ على الدستور . ولكن لم يمض أكثر من ستة أسابيع

ناصر الملك

على هذه اليمين حتى استدعى ناصر الملك (وكان قد اعتزل منصبه قبيل ذلك)

الشاه يستعين بالجنود المأجورة

وزجّ به فى السجن مكبلاً بالأغلال . ثم رهن الشاه جواهره وجواهر زوجته، واستأجر بالمال جنداً من القوزاق وبعض رعاع المدينة ، ليقبض بهم على النواب فى دار المجلس . ولما علم أهلُ المدينة بذلك ، بقوا يوماً من غير أن يحرّكوا ساكناً . ثم رأوا أن الشاه لم يقدم على العمل (خوفاً منه على ما يظهر) ، فقاموا ليناضلوا عن حقوقهم الحديثة العهد ، فاضطر الشاه الى العدول عن مأربه . وتوسطت السفارة الانجليزية فى اخلاء سبيل ناصر الملك ، ففر الى أوربا . كذلك أفلح السفراء فى استصدار الأمر بعزل السفهاء من الوزراء وعقاب الثوار (مع أن الشاه نفسه هو الذى أغراهم) (ديسمبر سنة ١٩٠٧)

توسط السفراء

الشاه والمجلس

وبعد هذه الحوادث بذل أعضاء المجلس كل جهدهم فى تحسين علاقاتهم مع الشاه ، ولكنهم لم يفلحوا فى مسعاهم ، وصار الشاه يشكو من كثرة تنديد الصحافة والخطباء به ؛ وطالب الى المجلس أن يبطل ذلك . فشُكلت لجنة من ذوى المكانة فى البلاد للنظر فى الأمر ، فوُفّقت الى حمل الكتّاب والخطباء على الاعتدال فى كلامهم

على أنه من جهة أخرى كان المجلس يكرر رجاءه كل يوم الى الشاه أن يعزل من حاشيته بعض أفراد كان لهم أقبح أثر فى حمل الشاه على النكاية بالحكم الدستورى فلم يجب مطلبهم . وفى اليوم الثالث من شهر يونيه سنة ١٩٠٨ فرّ الشاه فجاءة الى ضاحية خارج أسوار طهران . تُدعَى « باغى شاه » (حديقة الشاه) ، بدعوى أنه خائف على حياته من دسائس الحزب الوطنى . وكان يبعث من مكانه هذا بالرسائل لرئيس وزرائه ، يخبره أنه إنما يقيم هنالك طلباً للراحة وتغيير الهواء ؛ وخفيةُ الأمر أنه كان طول الوقت يشتغل بجمع الجيوش والاستيلاء على الأسلاك البرقية ، كى يمنع المجلس من التخاطب مع الأقاليم . ثم أعلن الأحكام العسكرية ، وجعل على الجيش الذى ألّفه قائداً روسياً يُدعى « الكُلونِل ليخوف »

فرار الشاه

جيشه

وقد بقيت الرسائل تتبادل بين الشاه والمجلس عدة أيام ، وأعدت المؤتمرات للبحث فى العلاقات بينهما واختصاص كل منهما ؛ فلم يكن لكل ذلك أثر ؛ وانتهى الأمر بأن دخلت جنود القوزاق ورجال المدفعية المدينة بقيادة الضابط الروسى ، وأطلقوا

القضاء على الحكم الدستورى

النار على جموع الناس أمام المجلس وعلى دار المجلس ذاتها (٢٣ يونيه) . فهدم بناء المجلس وقتل كثير من أعضائه ، وبعضهم أخذ أسيراً ، فأعدم أو أذيق فى السجن أمرّ العذاب . وبقى رجال الشاه ينقّبون فى المدينة عدة أيام عن كل من لحقتهم كراهيته أو غضبه ، ونُصّب «الكلونل ليخوف» حاكماً حربيًا على طهران . وبذلك عادت فارس الى ما كانت عليه من الحكم الاستبدادى ، بعد أن رشفت كأسَ الحرية زمنًا قصيراً

ثبات الدستوريين

ولما قامت الثورة بتركيا فى يوليه سنة ١٩٠٨ ، رأى من بقى من زعماء الحزب النيابى فى فارس من ذلك مُشجّعًا ، وعزموا على مواصلة مسعاهم . وكانت أقاليم فارس على اختلافها لم تخضع لحكم الشاه الاستبدادى ؛ وفى مقدمتها « تبريز » التى جاهرت منذ ابتداء الانقلاب بولائها للدستور وأنصاره ، وقام أهلها وطردوا أنصار الشاه منها ، فاستهدفوا لحصار طويل . ولم يحلّ شهر مارس سنة ١٩٠٩ حتى صارت أصفهان وَ « رشْت » و « لار » كلها فى يد أنصار الدستور ، وتبعهـا من مدن الساحل « بندر عباس » و « بشير » و « مَشْهد » ؛ واسعرت نار الفتنة فى ارجاء البلاد

الاتفاق الروسى الانجليزى عام ١٩٠٧

وكان اضطراب أحوال فارس ، ومركزُ روسيا السياسى على إثر الحرب الروسية اليابانية ، قد دعيا انجلترة وروسيا ، على ما بينهما من التنافس ، الى ابرام اتفاق بينهما عام ١٩٠٧ على تقسيم فارس الى «منطقة نفوذ» للروسيا ، تمتد شمالى خط يمرّ « بقصرِ شرين ، فاصفهان ، فيزْد ، فكاخ : حتى ملتقى الحدود الروسية والفارسية والأفغانية ، و «منطقة نفوذ» انجليزية جنوبى خط من الحدود الأفغانية الى « جزيق » فبرْجنْد ، فكرمان ، فبندر عباس . واتفقتا على الاّ تسعى أحداهما وراء نيل امتيازات تجارية أو سياسية فى منطقة الأخرى . وتبقى المنطقة التى بين الخطين « على الحياد » ، بحيث يجوز لكل منهما أن تنال فيها ما تيسر لها من الامتيازات . واذا عجزت فارس عن القيام بدفع أقساط الديون التى اقترضت قبل المعاهدة ، كان للدولتين الحق فى مراقبة دخل الحكومة الفارسية

انجلترة وروسيا تريدان التدخل

فلما استفحل أمر هذه الثورة رأت حكومة انجلترة وروسيا أن تتوسطا بين الشاه وشعبه ، فأوضحتا للشاه أن بقاء هذه الحال من المحال ، ونصحتا له أن يعيد الحكم النيابى ، ويعزل أصفياءه ويقوم بعدة اصلاحات عامة . ووعدتاه جزاء ذلك بإقراض

فارس ديناً بعد موافقة المجلس عليه . فلما بلغ هذا الخبر مسامع زعماء الحزب الوطنى لم يستبشروا به ، بل ازدادوا قلقاً وسخطاً . لخوفهم من السياسة الروسية وعاقبة الاستسلام لتدخّل الأجانب فى شؤونهم . وعند ذلك ساقوا على العاصمة جيشين : جيشاً من اصفهان فى الجنوب ، وآخر من رشت فى الشمال ، يريدون إجابتهم الى المطالب الآتية :

زحف الثوار على العاصمة

(١) جلاء الجنود الروسية (وكانوا قد احتلوا تبريز وغيرها من مدن فارس)

(٢) اعادة الحكم النيابى

(٣) صرْف الجنود غير المنظمة التى جمعها الشاه

(٤) إبعاد الرجعيين عن حاشية الشاه

وبعد أن التقوا بجيوش الشاه فى بضع ملاحم ، وصلوا الى ظهران يوم ١٦ يوليه سنة ١٩٠٩ ، ودخلوها فى غلس الليل ، من غير أن تراهم جنود الشاه . ثم ساروا فى الصباح الى دار المجلس القديم ، واتخذوها معسكراً لهم ، ففرّ الشاه من وجههم ، والتجأ الى دار السفارة الروسية . وفى المساء اجتمع زعماء الوطنيين فى مجمع حافل لم يسبق له مثيل : حضره رؤساء الجيش والمجتهدين والأعيان وكل من تيسر جمعه من أعضاء المجلس القديم . فأعلنوا عزل الشاه رسمياً . واختاروا خلفاً له ابنه « السلطان احمد مرْزا » وكان فى الثانية عشرة من عمره ، فأقيم عليه شيخ حائز لثقة الأمة ، وهو « أسد الملْك » رأس قبيلة قَجار

خلع الشاه واعادة الدستور

وبذلك انتهت ثورة تشبه ثورة تركيا التى انتهت فى مثل ذلك الوقت من العام الذى قبله

احمد مرزا

ومما تقدم يعلم أن حكم « أحمد مرزا » ابتدأ بالحكم الدستورى ، الذى لم يلق بعدَ مقاومة من العرش . وستظهر الأيام إن كان الشعب الفارسى يحزم أمره ويدرج فى مسالك التقدم ، مع تقسيم بلاده الى منطقتى نفوذ بل احتلال بين انجلترة وروسيا ، أولا . ولا شك أن الصعوبات التى فى سبيله كثيرة ؛ ولكن الرجاء معقود فى أنه يعمل بجدّ نحو تحقيق أمنيته القومية العظيمة

الباب الخامس

الممالك الجديدة بأمريكا

الفصل الأول

نمو الولايات المتحدة وارتقاؤها

سرعة نمو الولايات

يُعتبر نموّ الولايات المتحدة واتساع رقعتها من أروع وأعجب حوادث التاريخ الحديث . فبعد أن كانت مؤلفة وقت اعلان استقلالها فى سنة ١٧٨٣ من ثلاث عشرة ولاية بين شاطئ الأطلنطى وجبال أليجانى ، أصبحت الآن تمتد من المحيط الأطلنطى شرقاً الى المحيط الهادى غرباً ، ومن البحيرات العظمى شمالاً الى خليج المكسيك جنوباً ، ويسكنها نحو خمسة وتسعين ألف ألف نفس . وقد كان اتساع رقعتها بوسائل عـدة ؛ بعضها التوغل فى بطون الأودية الفسيحة القليلة السكان ، وبعضها الغزو ، وبعضها الضمّ أو الشراء . وسيأتى ذكر كل من ذلك فى مكانه

وسائل النمو

نزول انجلترة عن املاكها

وكان أول اتساعها فى سنة ١٧٨٣ ، حينما اعترفت انجلترة للولايات المتحـدة باستقلالها ؛ فنزلت لها إذ ذاك عن الأقاليم التى تمتد غربى الولايات من جبال أليجانى الى نهر المسيسيبى ؛ فكان ذلك أول معبر يسهل منه على أهل الولايات توسيع رقعة بلادهم . وردّت انجلترة إذ ذاك أيضاً مقاطعة فلوريدا الى اسبانيا ؛ وبذلك توارت عن هذا الميدان جملة

ولم تنته الولايات من وضع نظام حكومتهـا وتعيين العلائق التى تربط بعضها

تمام الاتحاد

ببعض الآَّ سنة ١٧٨٩ ، تلك السنة التى تم فيها اتحادها النهائى وتشكلت حكومتها بشكلها الحالى تقريباً

رياسة وشنطون

وأول من تربّع على أريكة رياسة هذه الجمهورية بطلُ استقلالها ورجلهـا الفذّ « جورج وَشِنطون » (١٧٨٩ - ١٧٩٧) : تولى الرياسة فى ابريل سنة ١٧٨٩ ، ولما انقضت مدة الأربع السنوات التى حدّها القانون لكل من يتولى الرياسة أُعيد انتخابه . وعند ما قاربت مدته الثانيةُ الانتهاء أعلن أنه لا يقبل كرسى الرياسة مرة ثالثة ؛ فصار العرف فى البلاد منذ ذلك التاريخ أن لا يتولى أحـد رياستها أكثر من مرتين متتاليتين . وفى أثناء حكمِهِ أدار خيزرانة البلاد بحزم وحكمة ؛ فتحسنت حال الجمهورية ، وعظمت مكانتها بين الأمم الأخرى . ومن أعظم المبادئ السياسية التى وضعها للأمريكيين الابتعادُ عن التحالف مع دول أوربا ما أمكن ذلك

الاتحاديون وأنصار الحكومات الفردية

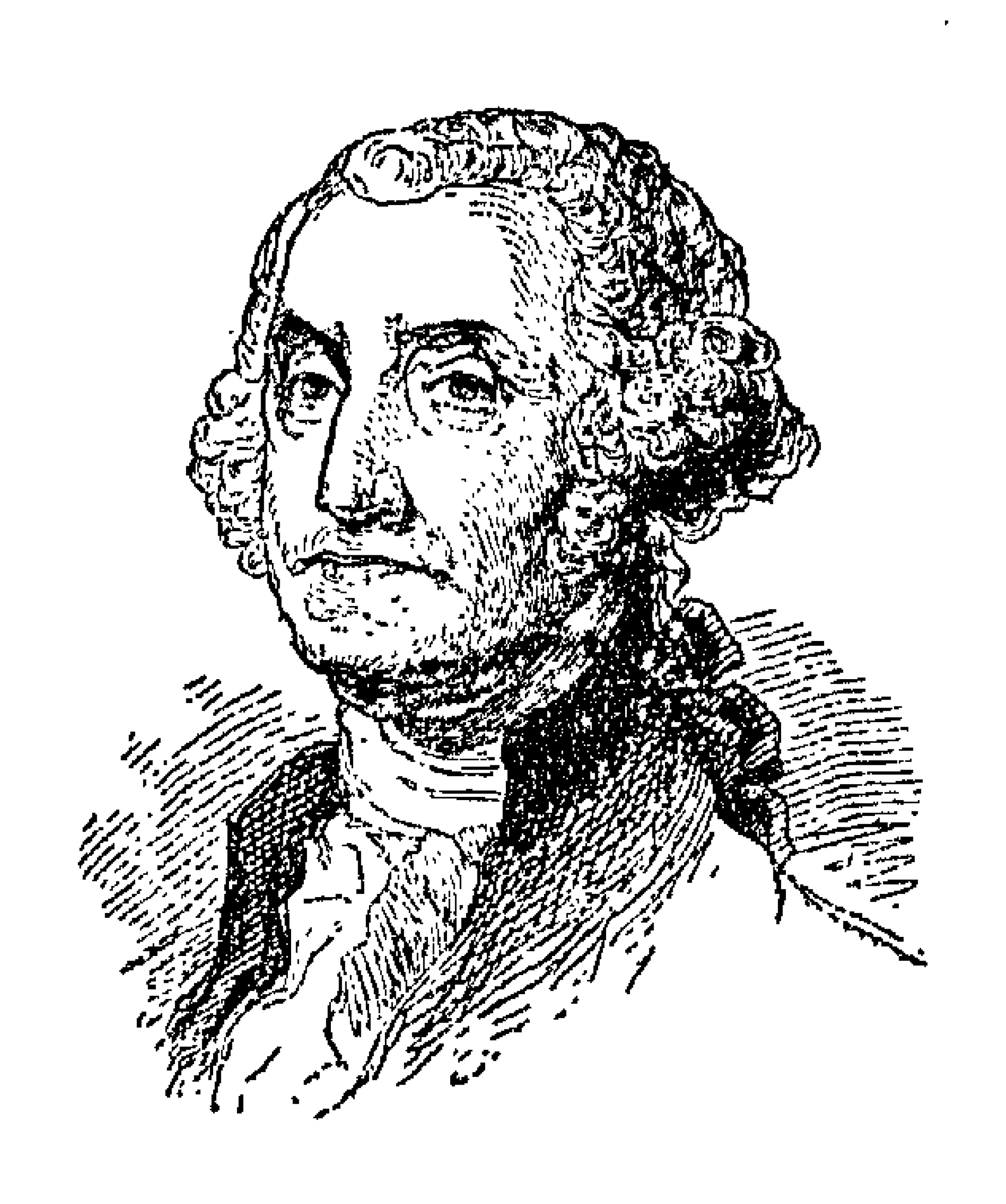
وفى مدته كان فى البلاد حزبان عظيمان : وهما حزب الاتحاديين ، الراغبين فى توحيد الحكومة وجعلها عامة لكل البلاد ؛ وحزب أنصار الحكومات الفردية ، المدافعين عن حقوق كل ولاية على انفرادها ، والقائلين ان لكل منها حقاً فى أن تنفصل عن الاتحاد إن أراد ذلك أهلها . وقد كان النزاع بينهما شديداً ؛ ولولا حزم وشنطون وكياسته لقُضى على الاتحاد وهو فى مهده

جيفرسن

ومن أعظم أخلاف وشنطون « تومس جيفَرْسُنْ » (١٨٠١ - ١٨٠٩) ، وهو من أكبر الرجال الذين تمّ على أيديهم استقلال أمريكا . وفى مدته اشترت

شراء لويزيانا

الولايات المتحدة مقاطعة « لويزيانا » من فرنسا سنة ١٨٠٣ ؛ باعها لها نابليون بمبلغ ١٥،٠٠٠،٠٠٠ دولار (ريال) ، لخوفه عليهـا من غارة الانجليز ، ولحاجته للمال وقتئذٍ ؛ فأصبحت الولايات المتحدة بذلك صاحبة السلطان على حوض المسيسبى . ومن أهم الاختراعات العلمية التى ظهرت فى هذا العهد أنّ « روبرْت فُلْتون » صنع أول قارب بخارى ، فأصبح يجرى فى نهر هَدْسُن ، وبقى الوحيدَ من نوعه فى العالم عدة أعوام



جورج وشنطون

مادسن

ثم خلفه « جيمس مادِسُن » (١٨٠٩-١٨١٧) ، وكان من أنصار الحكومات الفردية . وفى مدته قامت الحرب بين الولايات المتحدة وانجلترة (١٨١٢-١٨١٤) ؛ لتعطيل انجلترة التجارة الأمريكية ، بسبب الحرب الاقتصادية القائمة وقتئذ بينها وبين فرنسا ؛ ولاشتطاط سفنها فى تفتيش المراكب الأمريكية * . وقد كسبت هذه الحرب الولايات شهرة عظيمة ، ورفعت مكانتها بين الأمم

الحرب بين انجلترة والولايات

منرو

وتربّع فى دست رياسة الجمهورية بعده رجل حازم شديد الغيرة على بلاده يدعى « جيمس منْرو » ، انتُخب مرتين للرياسة (١٨١٧ - ١٨٢٥) وتُعتبر مدته عصر فلاح وتقدم عام فى تاريخ أمريكا . وأصبح لمسألة الرقيق منذ عهده شأن عظيم فى سياسة البلاد . ففى الجهات الشمالية حيث كثرت الصناعات وصارت أكبر مورد للرزق ، أصبحت الحاجة الى الرقيق تكاد تُعَدّ معدومة ، ولذلك استغنى أهلها عنه جملة . أما فى الجهات الجنوبية الزراعية فكانت الحاجة اليه ماسة ، وخصوصاً لمّا كثرت زراعة قصب السكر والتبغ ، وزادت زراعة القطن باختراع « إِيلى وِتْنى » سنة ١٧٩٣ آلة لحلج القطن ، بعد أن كان حلجه باليد يتطلب نفقات باهظة . وفى

منشأ مسألة الرقيق

(*) للبحث عن الجنود الانجليزية الفارين من الاسطول البرطانى

حسم النزاع على ضم مسورى

هذه الآونة حدث شقاق فى أمر ضم ولاية المسّورى الى الاتحاد ؛ وكان أهل الجنوب يريدون إباحة الرقيق فيها ؛ فضُمت الى الاتحاد وأبيح فيها الرقيق ؛ على أن لا يسمح بهِ فى أى جهة أخرى من لويزيانا تتجاوز شمالاً خط العرض ٣٦° ، الذى هو الحد الجنوبى لولاية مسورى . فأرضى ذلك أهل الشمال والجنوب معاً

شراء فلوريدا

وفى عام ١٨١٩ اشترت الولايات المتحدة مقاطعة فلوريدا من اسبانيا

وفى عصر هذا الرئيس ظهر المبدأ السياسى العظيم الذى وضعه لأمريكا عامة ،

مذهب منرو

ويُعرف « بمذهب منُرو » . وذلك أنه أرسل رسالة الى المجمع الأمريكى* ، معلناً فيها أن كل أُمة أوربية تسعى لاستعمار أى بقعة من قارة أمريكا يعدّ ذلك منها عملاً عدائياً نحو الولايات المتحدة . وقد كان ذلك المبدأ هو الذى دعا أمريكا الى تحذير فرنسا وإرغامها على نفض يدها من مسألة المكسيك سنة ١٨٦٦

كونسى وجكسن

وفى عصر خلفه « يوحنا كونسى » (١٨٢٥ – ١٨٢٩) أخذت البلاد فى سبيل الفلاح المستمر ؛ فمُدَّ فيها أول خط حديدى ، وحُفرت قناة إيرى ، وخفّت ديون البلاد ، وأصبح دخلُها يربو على منصرفها . وفى مدة خلفه « أندرو جَكْسُن »

مبدأ كاهون

قام رجل يدعى « كَلْهون » ينادى بمبدأ « حقوق الولاية » ، قائلاً إن لكل ولاية الحق فى نبذ قرار المجمع متى أرادت

معاهدة اشبرتن

وفى عصر رياسة « يوحنا تيلر » (١٨٤١ – ١٨٤٥) أُبرمت معاهدة «أشْبرتُن» بين الولايات والجلترة ؛ وبها عُيّنت الحدود الشمالية الشرقية بين ولاية « مين » ونيوبرَنْزويك ؛ فحُسم النزاع بين الدولتين من تلك الجهة . وفى عام ١٨٤٥ انضمت

ضم تكساس

مقاطعة « تكساس » الى الاتحاد بعد أن ثارت على المكسيك وألّفت جمهورية قائمة بذاتها . وفى هذا العهد أيضاً استُعمل فى أمريكا البرق (التلغراف) الكهربائى لأول

(*) المجمع هو السلطة التشريعية فى الولايات المتحدة ، ويتألف من مجلس الشيوخ الذى يتكون من عضوين من كل ولاية لمدة ست سنوات ، ومجلس النواب ويتألف من نحو ٣٥٠ عضواً تنتخبهم الولايات كل سنتين . على ان كل ولاية فى ذاتها لها نظام داخلى يدير شئونه حاكم ومجلس تشريعى ، وينتخب كليهما اهل الولاية

مرّة فى تاريخ العالم : اخترعه « صَموِيل مُرْس » وأرسل بهِ أوّل رسالة برقية عام ١٨٤٤

الحرب مع المكسيك

وفى عصر خلفه « جيمس بُلْك » نشبت الحرب بين المكسيك والولايات (١٨٤٦ - ١٨٤٧) لخلاف قام بينهما على تعيين حدود تكساس ؛ وفيها انتصرت الولايات على المكسيك فى عدّة ملاحم ، واحتلت العاصمة نفسها ؛ و بسقوط مدينة المكسيك وضعت الحرب أوزارها ، وأُبرم الصلح فى شهر فبراير سنة ١٨٤٨ على أن تستولى الولايات على جميع الأراضى الواقعة شمالى خط العرض ٣٣° شمالاً وتمتد غربًا الى المحيط الهادى . وكذلك اعترفت المكسيك بضم مقاطعة تكساس الى الولايات . ثم تجدد الخلاف على الحدود مرةً اخرى ، فحُسم عام ١٨٥٣ بمعاهدة أُبرمت بين الدولتين ، ضمت بها الولايات اليها بطريق الشراء الإقليم الذى بين نهر ريوجراند وخليج كليفرنيا ، ويسمى «مشترى جادِزْدِن» نسبة الى المندوب الامريكى الذى تمت على يديه مفاوضات الشراء

مشترى جادزدن

الرقيق فى تكساس

وقد ثارت مناقشات عنيفة فى المجمع من جراء مسألة الرقيق فى تكساس ، والولايات التى يُنتظر أن تُضم الى الاتحاد . واحتدم النزاع فى عهد الرئيس « فِلمور » (١٨٤٩ - ١٨٥٣) وقت أن عُثر على الذهب فى اقليم كليفُرْنيا : اهتدى اليه أحد العمَّال وهو يحفر فى نهر سَكْرَمِنْتو ، فهبّ الناس ينسلون الى هذه الجهة من كل حدب وصوب ، حتى مُلئت البرارى المؤدية اليها بأشلاء الموتى الذين قُضى عليهم فى طريقهم ؛ ونشأت فرنسسكو بهذه الحركة من قرية حقيرة الى مدينة من اكبر مدن العالم واضخمها

الذهب فى كليفرنيا

الرقيق فى كليفرنيا

وكان أهل الجنوب يظنون أن الاتفاق الذى أُبرم يوم ضم مسورى لايمنع إباحة الرقيق فى كليفرنيا . فخاب ظنّهم ، إذ سمعوا أن كليفرنيا نفسها تريد أن تنضم الى الاتحاد كولاية حرة . فازدادت المناقشات حتى كانت خطراً على كيان الاتحاد ، الى أن سُوِّى الخلاف فى اتفاق سنة ١٨٥٠ ، و به جُعلت ولاية كليفرنيا ولاية حرة واستُرضى أهل الجنوب بوضع قانون يسمى « قانون الأرقاء الآبقين » ؛ وهو يقضى

قانون الارقاء الآبقين

بارجاع الأرقّاء الى ملاّكهم اذا أبقوا منهم الى أى ولاية حرة . على أن ذلك لم يكن حاسماً للنزاع ؛ ففى مدة « فرنكلين بيرس » (١٨٥٣ – ١٨٥٧) اشتدّ الشغب من جراء هذه المسألة ، فتنحّى الرئيس عن مناوأة أنصار الاسترقاق ؛ وفى سنة ١٨٥٤ سنّ قانوناً لنظام مقاطعتى كنساس ونبرَسْكا ، منح به أهل كل ولاية

استفحال مسألة الرقيق

الحق فى الانضمام الى الاتحاد ، إما كولاية « حرّة » وإما كولاية تبيح الرقيق حسبما يشاؤون ؛ فعُزز بذلك جانب أنصار الاسترقاق . وقدأصبحت مقاطعة كنساس مسرحاً لانتهاك حرمة القوانين عدة أعوام ، لاشتداد النزاع فيها بين حزب أنصار الاسترقاق وأعدائه ، حتى صارت مسألة الرقيق أم المسائل السياسية

الجمهوريون والديمقراطيون

وفى هذه الآونة ظهر فى البلاد حزبان عظيمان متميز أحدهما عن الآخر ؛ وهما « الجمهوريون » و « الديمقراطيون » . فالجمهوريون هم الذين يؤيدون حكومة الجمهورية العليا ، ويعملون على مناوأة كل ما يدعو الى انحلال عُرا الاتحاد ، ولذلك كانوا أعداء الاسترقاق . والديمقراطيون هم الذين يؤيدون حق كل ولاية فى التصرف فى شؤونها . وكان جلّ غرضهم وقتئذٍ أن يباح الرقيق فى كل ولاية تريده . ومن ذلك العهد صار لهذين الحزبين شأن عظيم فى السياسة الأمريكية ، وإن اختلفت مراميهما بعض الشيء بمضى الزمان

درد اسكت

وخلف « بيرس » فى كرسى الرياسة « جيمس بُوكَنَن » (١٨٥٧ – ١٨٦١) ؛ وفى مدته قامت مشكلة « دِرِدْاسكُت » التى زادت فى النزاع القائم فى البلاد من جراء الرقيق . وذلك أن رجلاً يدعى « درِداسكُت » كان هو وزوجه رقيقين لأحد ضباط الجيش . فانتقل بهما مدة الى ولاية إلينيوس الحرة . فلما عاد بهما الى ولاية المسورى وعاملهما معاملة الارقاء ، ادّعيا انهما هما وذريتهما أحرار لأنهما عاشا زمناً فى ولاية حرة . فلما عُرض الأمر على محكمة الولايات المتحدة العليا لم تقرّ هذا الادعاء ، وأعلنت أن كل من يملك أرقاء يحقّ له أن يذهب بهم الى أى ولاية فى البلاد دون أن يفقد سلطانه عليهم . فأثار هذا الحكم غضب أعداء الاسترقاق فى

الولايات الشمالية ، إذ رأوا أنه يفضى الى جعل الاسترقاق عاماً فى جميع الاتحاد . أما ملاّك الأرقاء فى الولايات الجنوبية فانهم فرحوا بذلك وعدّوه حقًّا من حقوقهم الدستورية فى كل الولايات . ومن جهة اخرى كان قانون الأرقاء الآبقين يقضى على كل فرد أن يساعد فى القبض على الآبق من الأرقاء ؛ فجاء ذلك ضِغثًا على إبَّالة ، وأفضى تنفيذه الى إثارة غضب أعداء الرقيق . وفى اكتوبر سنة **١٨٥٩** حدثت غارة « يوحنا بَرَوُن » الشهيرة ، فزادت فى العداء بين الحزبين . وذلك أن أحد أعداء الاسترقاق وهو « الكبتن يوحنا برون » من ولاية كنساس عزم على غزو الاسترقاق فى عقر داره ، فشيد حصناً للآبقين من الأرقاء فى جبال فرجنيا . ثم سار بثلة من الفرسان (٢٢ فارساً فقط) ودخل مدينة « هَرْبَرْزفرِى » من أعمال فرجنيا ، وهجم على دار صناعة الحكومة ، ابتغاء الحصول على السلاح والذخيرة لأعوانه . ففشل فى مقصده وأُعدم شنقاً . وقد دعا ذلك الحادث الى استفحال العداء بين الولايات الجنوبية والولايات الشمالية

استياء اعداء الرقيق

يوحنا برون

الحرب الأهلية (١٨٦١ — ١٨٦٥)

بعد انتهاء مدة بوكنَن حدث تنافس عظيم بين ولايات الشمال وولايات الجنوب فى انتخاب الرئيس الجديد ؛ فنال « أبراهام لِنكُن » أغلبية عظمى ؛ وكان من الجمهوريين ؛ ومن رأيه أن ينحصر الاسترقاق فى الولايات التى هو فيها ، بحيث لا ينبغى أن يتعداها بحال من الأحوال الى الولايات الحرة . لذلك سخط زعماء الجنوب وتوعّدوا الحكومة بالانفصال عن الاتحاد اذا تربع لِنكُن على كرسى الرياسة

استياء انصار الرقيق من ترؤس لنكن

على أن موضع الخلاف بين الشمال والجنوب لم ينحصر فى مسأله الرقيق ؛ فان أهالى الجنوب كانوا متمسكين بمبدأ كانوا أشد التمسك ، وهو الاحتفاظ « بحقوق الولاية » . وقد كانت بذور العداوة والبغضاء بين الفريقين أخذت فى الازدياد شيئًا فشيئًا منذ أربعين عاماً ؛ وساعد على نموها تباين الجوّ والأخلاق والعادات

الخلاف بين الشمال والجنوب

والمآرب فى الاقليمين . يضاف الى ذلك الاعتبارات المالية ؛ فقد كان أهل الجنوب ينشدون التجارة الحرة ؛ وأهل الشمال يعاضدون حماية التجارة ، ليحموا صناعتهم من المزاحمة الأجنبية * . واصبح انتصار حزب أعداء الاسترقاق فى الانتخاب الأخير بترؤّس « لِنكُن » الداعىَ الأخير لجعل الولايات الجنوبية تعزم كل العزم على الانفصال عن الاتحاد

غرور الفريقين

وقد أقدم كل من الحزبين على تلك المعركة الهائلة وهو مخدوع بقوته ، مستهين بعدوّه . فكان أهل الجنوب يعتقدون أن أهل الشمال الذين لا همّ لهم الاّ جمع المال سيسوقون الى ميادين القتال جنوداً مأجورة ، فلا يلبثون أن يُهزموا ؛ ومنّى أهل الجنوب أنفسهم بمساعدة انجلترة وفرنسا لهم اذا شعر أهلهما بقلة ورود القطن الى مصانعهما . ومن جهة اخرى اعتقد الشماليون أن الجنوبيين لا يجسرون على خوض غمار الحرب ، لوجود عدد عظيم بينهم من الأرقّاء . فلما حانت ساعة الحرب أرسل الشماليون كل شبانهم الى ساحة الوغى ؛ وبقيت كل من انجلترة وفرنسا ملازمة الحيدة ؛ ولم يقتصر الجنوبيون على شن الغارة ، بل حاربوا بكل شجاعة وإقدام . فوجد كل من الفريقين انه خاض غمار معركة دموية هائلة

اهمية الحرب الاهلية

وتعرف هذه الحرب « بالحرب الامريكية الأهلية » ، وتُعَدّ من اكبر المعارك التى دوّنها التاريخ ، لكثرة عدد الجنود الذين التحموا فى مواقعها ، واتساع رقعة ميادينها ، وكثرة ضحاياها ، وما أظهره المتحاربون فيها من الشجاعة وصدق العزيمة

مقدمات الحرب

وظهرت مقدمات الحرب فى شهر ديسمبر سنة ١٨٦٠ ، اذ انفصلت « كرولينا الجنوبية » عن الاتحاد رسمياً ، وقفت اثرها ولايات المسيسيبى و « فلوريدا » و « ألباما » و « جُرْجيا » و « لويزيانا » و « تكساس » ، وبقى فى الاتحاد ست عشرة ولاية شمالية . أما الولايات التى بين الاقليمين مثل فِرْجِنْيا وأُهْيُو وكنتكى وغيرها فبقيت مذبذبة فى عواطفها ، وإن كان هوى معظم أهلها مع الجنوب . وما

* راجع باب تقدم الصناعة والتجارة

الولايات المتحالفة

حل شهر فبراير سنة ١٨٦١ حتى ألّفت الولايات المنفصلة حكومة لها أطلقت عليها « الولايات الأمريكية المتحالفة » ، وانتُخب رئيساً عليها « جيفرسُن دافيز » من أهالى ولاية المسيسپى . وتأهبت للقتال بالاستيلاء على كل الحصون ودور الصناعة والسفن التى فى بلادهم . وفى شهر ابريل من تلك السنة شنّوا الغارة باطلاق المدافع على حصن « سَمْتَر » بثغر شارلستوُن بولاية كرولينا الجنوبيــة ، فسلّم لهم . وقد أحدث هذا الخبر ضجة هائلة فى طول البلاد وعرضها ، واعتبر إيذاناً باعلان الحرب وعند ذلك انفصلت عن الاتحاد ولايات « فرجنيا » و « اركنساس » و « كرولينا الشمالية » و « تِنِسّى » وانضمت الى الجنوب . وجُعل مقر حكومة « الولايات المتحالفة » رِتْشمُنْد من أعمال فرجنيا .

سقوط سمتر

ابتداء الحرب

وكان « لِنكن » قد أُعان رئيساً على الاتحــاد فى وشنطون فى ٤ مارس . فلما استولى الجنوبيون على حصن « سمتر » نادى بالتطوّع ، فاجتمع تحت لواء الاتحاد نحو ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل . وفى هذه الأثناء استولت جيوش الجنوب على مخازن أسلحة الحكومة فى مدينــة « هَرْبَرْزفِرى » وعلى دار صناعة نُرفوك ؛ فأصبح فى أيديهم الكثير من المسابك والمصانع وأحواض السفن والمدافع والبارود والقنابل وغير ذلك من آلات القتال ومعداته

فوز الشماليين

وقد جرى بين الفريقين من الوقائع ما تضيق به المجلدات الضخمة ؛ وليس من مقاصد هذا الكتاب الخوض فى موضوعها . لذلك نضرب عنها صفحاً . وانما نقول ان هذه الحروب الشعواء قد خُتمت بفوز الشماليين بعد أن استولوا على « رِتْشمُنْد » عاصمة الجنوبيين ؛ وقد كانت جلّ مقصدهم طول الحرب ، حتى خسروا فى الاستيلاء عليها من الجنود ما لم يُسمع بمثله من قبل ؛ إذ استُخدم فى ذلك نحو ٧٥٠,٠٠٠ جندى ، وبلغ من مات أو جرح فى الهجوم عليها ما يقدّر بنحو ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل

تسليم لى الى جرنت

وبعد سقوط « رتشمند » اضطر « لى » قائد الولايات الجنوبيــة الى التسليم بجيشه الى « جرَنْت » قائد جيوش الشمال فى ٩ ابريل سنة ١٨٦٥ بالقرب من

الصلح

« لِنكبُرْج » . وقد أظهر « جرنت » للمقهورين تسامحاً كبيراً ومنحهم شروطاً شريفة ؛ فأباح للأجناد والضباط أن يعودوا الى أوطانهم بلا قيد ولا شرط ، وسمح لمن كان معهم خيل أن يأخذوها معهم الى أوطانهم ، ليستعملوها (كما قال جرنت) « فى المستقبل فى مزارعهم » . فافترق المتحاربان على أحسن ما يكون من الصداقة والمحبة والمودة ، فكان ذلك أحسن بشير بختام هذه الحروب الداخلية وحلول عصر يسود فيه السلام وتلتئم بهِ أطراف البلاد تحت وِحْدَة واحدة لا تنحلّ عراها مدى الدهور . ولا غرو ، فان ما أظهره القاهرون من اللين لأعدائهم فى هذه المعركة الهائلة يُعدّ من أمجد الصفحات فى تاريخ هذه الجمهورية العظيمة

الخسائر

ويقدر ما كابدته البلاد بهذه الحروب من القتلى والجرحى والعجزة بنحو ألف ألف من الأشداء . وبلغ دين الاتحاد نحو ستمائة ألف ألف جنيه

نتائج الحرب

وأهم نتائج هذه الحروب محو الرقيق من البلاد جملة ، وقد كان اكبر سبب قامت من أجله . وكذلك استقر المبدأ القائل بأن الولايات المتحدة أُمة واحدة ، وليست بتحالف مؤلف من عدة أُمم مستقلة

مقتل لنكن

ومما يؤسف له أنهُ بعد تسليم القائد « لى » بخمسة أيام (١٤ ابريل سنة ١٨٦٥) ارتكب أحد الغلاة جريمة شنيعة قلبت سرور الشماليين حزناً ، إذ رُمى لنكن وهو فى أحد ملاهى وشنطون بطلقة نارية كانت القاضية على حياته . وقد بقى فاقد الشعور حتى اليوم التالى ، ثم فارق الحياة والأمة تذوب عليه أسى وتحسراً

شأن لنكن فى التاريخ

ومما لا جدال فيه أنهُ لم ينبت بين أهل الولايات المتحدة رجل سار ببلاده فى الأوقات العصيبة ورجع بها ظافراً ونال حبّ أهل بلاده وألّف حوله قلوبهم مثل « ابراهام لنكن » ؛ اللهمَّ الاّ اذا استثنينا وشنطون . وُلد هذا العصامى العظيم فى كنتَكى سنة ١٨٠٩ ، ولم يمكث فى دور التعليم الأ عاماً واحداً ؛ ثم تقلّب فى بعض الحرَف ؛ فكان فى أول أمره بحاراً ، ثم كاتباً ، ثم ضابطاً لبعض المتطوعين لمحاربة هنود أمريكا ، وغير ذلك من الحرَف . ثم جدَّ فى تعلم القانون حتى احترف بالمحاماة

فلم يلبث أن أصبح من زعماء الساسة . وقد حببه الى الأمة ما فُطر عليه من الحذق وبعد النظر والاستقامة ؛ وهو لا يزال فى ذاكرة مواطنيه حيًا بكبير أعماله

بعد الحرب

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بستة أشهر سُرّحت كل الجيوش ، وعادت الجنود الى أشغالهم العادية بطُمأنينة أدهشت بعض الأوربيين ، الذين كانوا يتوهمون أن الثورات ستنتشر فى طول البلاد وعرضها على إثر ختام هذه الحروب . وقد صفحت الحكومة عن الولايات الخارجة عنها ؛ فانضمت اليها ثانية ، وحلف أهلها اليمين بالولاء والاعتراف بمحو الرقيق ، وبحرية جميع طبقات الأمة ، فى ديسمبر سنة ١٨٦٥ ، وأصبح ذلك يعتبر جزءًا من دستور البلاد . أما الديون التى اقتُرضت من أجل الحرب ، فانها أخذت فى النقصان بسرعة ، بفضل الضرائب الثقيلة التى رضى الأهلون بدفعها عن طيب خاطر . وقد انضم فى هذا العصر وما قبله ولايات جديدة الى الاتحاد . ففى سنة ١٨٦٣ انضمت اليه فرجنيا الغربية ، وتلاها «نِفَادَا» سنة ١٨٦٤ ونِبْرَسْكا سنة ١٨٦٧ . وفى تلك السنة اشترت الولايات المتحدة مقاطعة « أَلَسْكا » من الروسيا

سكة حديد المحيط الهادى

وخلف لنكن فى رياسة البلاد « انْدِرو جُنْسون » (١٨٦٥ – ١٨٦٩) . وفى مدة « عولص جرَنْت » الذى خلفه (١٨٦٩ – ١٨٧٧) جرت عدة حوادث عظيمة ؛ منها افتتاح « سكة حديد المحيط الهادى » التى تربط المحيطين الاطلنطى والهادى ممتدة من سان فرنسسكو الى نيو يورك ؛ وارجاع كل الولايات المنفصلة الى الاتحاد ، وانتعاش الولايات الجنوبية مما حلّ بها من المصائب وما فعلته فيها يد التخريب ؛ ثم حريق شيكاغو الهائل سنة ١٨٧١ الذى ترك نحو ٣٠٠٠ فدان قاعًا صفصفًا ونحو ١٠٠٠٠٠ نفس بلا مأوى . ثم معاهدة وشنطون التى أُبرمت فى العام نفسه بين الولايات وبين انجلترة وحُسمت بها المشكلة التى نشأت من جرّاء مساعدة الانجليز لأهل الجنوب ببناء ما احتاجوا اليه من السفن

حريق شيكاغو

معاهدة وشنطون

وأعقب جرنت فى ترؤس الاتحاد « هيز » (١٨٧٧ – ٨١) فلم يحدث فى أيامه

ما يستحق الذكر، وخلفه عدة رؤساء أظهروا مقدرة فائقة فى ادارة خيزرانة الملك، وتقدمت البلاد على أيديهم تقدماً حثيثاً. ففى مقدمتهم «كليفلند» (١٨٨٤ – ٨٨) و (١٨٩٢ – ٩٦). ومن أهم ما حدث فى مدته الأولى أن وضعت الحكومة قيوداً لتقليل هجرة الصينيين الى البلاد حينما شعر العمال الأمريكيون بمزاحمتهم لهم. وفى مدته الثانية وقع نزاع بين انجلترة وفنزويلا على تعيين حدود غويانة الانجليزية؛ فأصر على تدخّل الولايات المتحدة فى الأمر، لما لها من المكانة فى أمريكا، وتأييداً لمبدأ منرو، واضطرت انجلترة الى قبول تحكيم الولايات المتحدة سنة ١٨٩٥

كليفلند

انجلترة وفنزويلا

ومنهم «مَكِنْلى» الذى فى عصره وقعت الحرب بين أمريكا واسبانيا بسبب سوء الحكم الاسبانى فى جزيرة «كوبا» واضطراب الأحوال فيهـا حتى أضرَّت بالمصالح الأمريكية. وقد كُسرت اسبانيا فى هذه المعركة شر كسرة براً وبحراً؛ حتى اضطرت عام ١٨٩٨ الى ابرام «صلح باريس»، فنزلت فيه عن كوبا و «بُرتوريكو» و «جزر الفلبيّن»؛ ففقدت بذلك آخر أملاكها فى الدنيا الجديدة*. وقد أبقت الولايات المتحدة بيدها كلاً من برتوريكو والفلبين؛ أما كوبا فانها بعد أن استولت عليها أخذت ترقى فى شؤونها حتى أعلنت استقلالها سنة ١٩٠٣؛ فأُسست بها حكومة جمهورية

مكنلى

نزول اسبانيا عن كوبا وبرتوريكو والفلبين

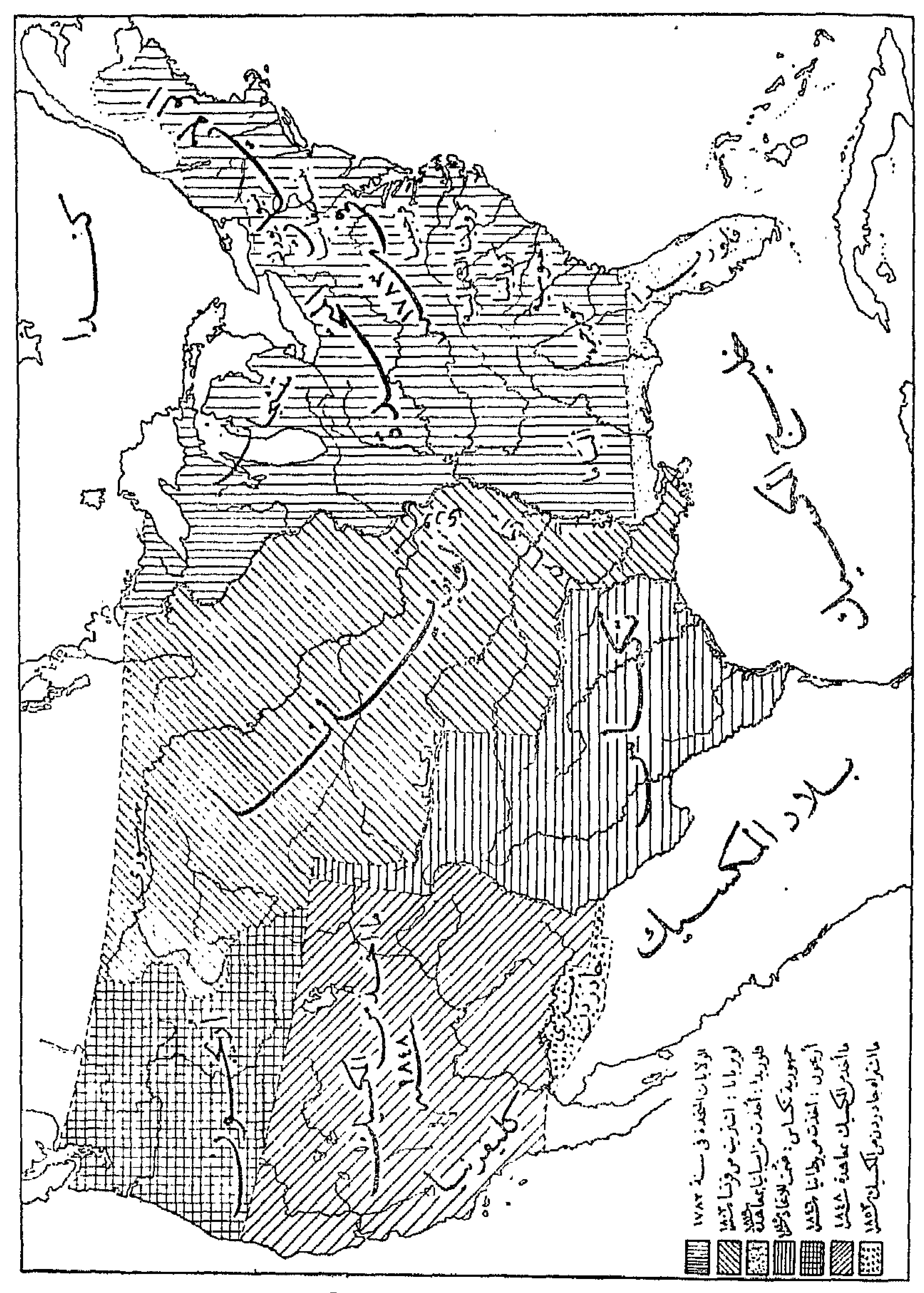
ومنهم «رُزْفِلت» (١٩٠٠ – ١٩٠٨) الذى يعدّ من أكبر من تربعوا فى دست رياسة الولايات المتحدة. وفى عهده تمت اصلاحات كثيرة. فكاد يقضى على الاحتكار فى أصناف التجارة؛ وخفّت وطأة الاعتصاب فى المناجم؛ وأحيي مشروع قناة «بَنَما» بعد أن كادت تقضى عليه المشكلات الدولية، فتقرر تنفيذه باشراف الولايات المتحدة بعد أن نزلت «شركة بنما الفرنسية» عن كل حقوقها فيهِ ونزلت جمهورية بنما عن سلخة من شبه الجزيرة يبلغ عرضها نحو عشرة أميال جزاء

رزفلت

قناة بنما

---

* انظر استقلال امريكا الجنوبية فى الفصل التالى



مصوّر لبيان اتساع نطاق الولايات المتحدة

٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وإتاوة سنوية . وقد ابتدأ العمل فى حفر الترعة سنة ١٩٠٣ ، واحتفل بافتتاحها سنة ١٩١٤

التوسط بين روسيا واليابان

وفى عام ١٩٠٥ ظهر الرئيس رُزفلت فى عالم السياسة الدولية بأن توسط فى أمر الصلح بين روسيا واليابان ، بما أخرج اليابان قليلة الاستفادة المادية من الحرب . ولما كثرت الهجرة من اليابان الى ولايات المحيط الهادى بعد انتهاء الحرب . قلق بال الأمريكيين لدرجة أن حرّمت حكومتهم أطفال اليابان من التعلم فى مدارس كالفرنيا ؛ فزاد ذلك من توتّر العلاقات بين الدولتين . ثم أخذت الحكومة الأمريكية تشدّد فى أمر هجرة الأوربيين أيضاً الى بلادها ، فقلّ عددهم بسرعة عظيمة . وفى أواخر أيام هذا الرئيس اظلم جوّ البلاد ، فانتابتها كارثة زلزال (سان فرنسسكو) سنة ١٩٠٦ وتلتها أزمة ١٩٠٧ المالية التى عطلت فيها معظم المصارف الأمريكية عدة أسابيع ، وكثرت أسباب النزاع بين الرئيس و بين الشركات وأصحاب المصانع الكبيرة . وغير ذلك من الأمور التى عقّدت أحوال البلاد المالية

أمريكا والاجانب

بعض كوارث

تفت

وخلف رزفلت صديقه « تَفْت »، فبقى الى عام١٩١٢ ، ثم خلفه « وُدْرووِلْسن » (١٩١٢ – ٢٠) الذى جعل لأمريكا فى العالم شأناً سياسياً لم يسبق له مثيل

ولسن

الفصل الثانى

امريكا الجنوبية فى القرن التاسع عشر

الاسبان فى أمريكا الجنوبية

بقيت أسبانيا صاحبــة السيادة على مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية الشاسعة الأطراف حتى أوائل القرن التاسع عشر ، اذ انفجرت فى تلك المستعمرات عدة ثورات بين عامى ١٨١٠ و ١٨٢٦ كان من جرائهــا القضاء على سلطان اسبانيا فى قارة أمريكا .

وطالما كان نزلاء الاسبان فى الدنيا الجديدة يشعرون بجور الحكومة الاسبانية التى

كانت وقتئذ تحارب حرية الفكر والعمل فى بلادها ومستعمراتها ؛ فى حين أنهم ورثوا عن اسبانيا وقت ارتحالهم الى هذه الأنحاء حبّ الاستقلال والسلطة . ونمت فيهم هذه العاطفة بتأثير بيئتهم الجديدة . الاّ أن أحوال المستعمرات الاجتماعية لم تساعدهم على القيام لنيل استقلالهم ؛ فقد كان من بينهم عدد عظيم من الموالين لحكومة اسبانيا ، فضلاً عن أن السواد الأعظم من الاجناس الهندية والمولدين منها لم يعيروا الأمر جانباً من اهتمامهم . لذلك بقيت فكرة الاستقلال نائمة الى أن جاء الموقظ الأكبر لها من خارج أمريكا

استياء النزلاء من جور الحكومة

العقبة فى سبيل الاستقلال

فقد كان لماجريات الأحوال فى أوربا أثر بيّن فى استقلال هذه البلاد . فانه مع سهر أولى الأمر فى المستعمرات الاسبانية وتحفظهم الشديد ، كانت تتواتر الى النزلاء الأخبارُ بما يحدث فى أوربا فى خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فوصلت الى أيديهم كتابات الفلاسفة والمؤرخين أمثال مُنتسكيو وروسو وفلتير وغيرهم ، فانكبوا على قراءتها . كذلك كانت تصل الى أيديهم الصحف ملفوفاً فيها الجبن والسمك والمواد الأخرى وتُهرب الى البلاد على مرأى من رجال محكمة التفتيش وعمالهم . وعلى أثر اعلان استقلال الولايات المتحدة وصل الى أمريكا الجنوبية ترجمات منها بالفرنسية ، فضلاً عن أن السيّاح الذين تجولوا وقتئذ فى أوربا وفى أولى جمهوريات الدنيا الجديدة رجعوا الى بلادهم وأخذوا يقصون على قومهم ما رأوا وما سمعوا

تأثير احوال اوربا

تأثير استقلال الولايات المتحدة

ويضاف الى ما تركه استقلال الولايات المتحدة من الأثر فى نفوس أهل هذه البلاد ما أحدثته الثورة الفرنسية من التأثير العظيم فى عقول سكان المستعمرات الاسبانية ، ولا سيما أن الحكومة التى قضت عليها الثورة فى فرنسا كانت شبيهة بالتى كانت وقتئذ فى اسبانيا . فلما أخذت حركة الاستقلال فى الظهور اتخذ الثوار فى أمريكا كلمات الحرية والمساواة والإخاء شعاراً لهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل قلدوا الثوار فى فرنسا فى كثير من تقلباتهم السياسية والاجتماعية

تأثير الثورة الفرنسية

تأثير نابليون

وفى عام ١٨٠٨ ضربت فرنسا اسبانيا الضربة التى كان من جرائها تحقيق استقلال المستعمرات الاسبانية فى الجزء القارى من أمريكا. وذلك ان نابليون حينما أجبر ملك اسبانيا على النزول عن عرش بلاده ، ووضع أخاه يوسف على أريكتها وانتشرت جيوشه فى البلاد ، أصبحت اسبانيا ومستعمراتها فى مأزق غريب فى بابه. ففى اسبانيا أبى الأهلون أن يعترفوا بسلطان ذلك المغتصب وألّفوا لجاناً ثورية ، لتسترجع استقلالهم ولتحكم البلاد باسم فردنند السابع المخلوع . أما فى المستعمرات فكان الأمر أعقد من ذنب الضب ، إذ أن الحكام الاسبان فى هذه البلاد كان الأمرُ بتنصيبهم فى مناصبهم قد صدر من ملك لم يعُدْ له سلطان على البلاد ، فأصبحوا وليس لهم حق شرعى فى المناصب التى يشغلونها ، اللهمّ الاَّ اذا اعترفوا بسلطان يوسف بونابارت وقبلوا أن ينصّبوا من قبله . الاَّ أن معظمهم لم يقبلوا ذلك ، بل منعوا من أرسلهم الملك ليتقلدوا زمام الأمور فى هذه البلاد عن عملهم ، وفضلوا أن يظلوا حاكمين البلاد باسم فردنند السابع ، فاعترفوا بحكومة اللجان (الجُنتا) وبحكومة الوصاية من بعدها . أما سائر النزلاء فان بعضهم خضع لهذا النظام وبعضهم رأى تعديله حسب ماتقتضيه حال البلاد ، فأخذوا يديرون شؤونهم بأنفسهم . لذلك لما عاد فردنند السابع الى عرش بلاده سنة ١٨١٤ ، بعد أن ذاق القوم لذة الحكم الذاتى ، وقبض على البلاد بيد من حديد كما هى سايقة أسرته ، من غير أن ينظر الى تغير الأحوال ، ثارت عليه المستعمرات ، وانقلبت الحركة فيها من المطالبة بحكومة دستورية الى المناداة بطلب الاستقلال

ابتداء التدرب على الحكم الذاتى

المطالبة بالاستقلال

نصرة انجلترة للحركة

وكان من أكبر أنصار هذه الحركة فى أوربا انجلترة ، إذ كانت منذ زمن بعيد تبذل أقصى مجهوداتها للقضاء على احتكار اسبانيا لتجارة الدنيا الجديدة . فلما قامت نار الفتنة فى هذه المستعمرات ، رأت انجلترة فى ذلك فرصة سانحة للحصول على أسواق لمصنوعاتها ، ومواد غفل تجلبها لمصانعها ، وحمولة لسفنها ، ومع أن الحكومة الانجليزية كانت فى ظاهر الأمر تعلن الحيدة ، كانت فى الحقيقة ترحب بممثلي الزعماء

فى بلادها وتمد الثوار بالمال والسفن والذخيرة ، وانخرط فى سلك جيش الثوار كثير من الجنود المتطوعة الانجليزية

أهم مراكز الثورة

وكانت أهم المراكز التى انتشرت منها الثورة فى جنوبى أمريكا وأواسطها فنزويلا والأرجنتين والمكسيك الحالية. ومع ما لموقع هذه المقاطعات من التأثير فى ذلك ، ربما كان السبب الأكبر فى سبقها غيرَها أن فنزويلا هى مسقط رأس «فرنسسكو ميرنْدا» (١٧٥٢ – ١٨١٦) أول زعيم لحركة الاستقلال ، و « سيمون بُليفار » (١٧٨٣ – ١٨٣٠) « محرر البلاد » والذى ، فوق نجاحه فى نيل استقلال بلاده حقق تلك الأمنية أيضًا لكلمبيا وإكوادور وبوليفيا. ومهّد معظم الطريق لنيل بيرو حرّيتها واستقلالها. كذلك فى الأرجنتين نشأ أكبر وطنى فى المستعمرات الجنوبية وهو « جوزى دى سان مرتين » (١٧٧٨ – ١٨٥٠) الذى خلع عن شيلى نير الحكم الاسبانى وساق الحرب الى بيرو أيضًا. ولا شك أن تاريخ الحروب التى نشبت لاستقلال جنوبى أمريكا ينحصر معظمه فى سيَر هؤلاء الأبطال الثلاثة. أما فى شمالى امريكا فكان انبعاث الثورة من المكسيك ، اذ كانت هى مقر الحكم الاسبانى فى تلك الجهات ، ولذلك كانت الأولى فى الشعور بثقل نيره

فرنسسكو ميرندا
بليفار
جوزى دى سان مرتين

ظهور ٨ ممالك مستقلة

ولما انقضى حكم اسبانيا فى هذه القارة سنة ١٨٢٦ ظهر فيها ثمانى ممالك مستقلة وهى: برجواى وولايات نهر بلاتا المتحدة وشيلى وكلمبيا العظمى وبيرو والمكسيك واتحاد أمريكا الوسطى وبوليفيا. ولم يبق على الولاء لاسبانيا فى كل القارة الّا جزيرتا كوبا وبرتوريكو؛ على أن كوبا فى الحقيقة كان خضوعها لاسبانيا خوفًا من قوتها اكثر من ولائها لها

عطف الولايات المتحدة

وفى خلال تلك المعركة كان أهل الولايات المتحدة يعطفون جهاراً على أهل أمريكا الاسبانية ، ويعاضدونهم فى مساعيهم لنيل استقلالهم. أما حكومة الولايات المتحدة نفسها فانها على الرغم من مجاهرتها بلزوم الحيدة كانت من وقت لآخر تسمح للسفن بمغادرة شواطئها محملة بالمتطوعين والذخيرة. ولما تحقق لديها سنة ١٨٢٢ أن

استرجاع اسبانيا لمستعمراتها أصبح ضرباً من المحال، قررت الاعتراف بالجمهوريات الأمريكية الاسبانية الجديدة. وكانت النمسا والروسيا وبروسيا (باعتبارها أعضاء الحلف المقدس) تميل الى الأخذ بناصر اسبانيا. فعزمت الولايات المتحدة بالاتفاق مع انجلترة أن تحبط خطة هذه الممالك، فنشرت فى عام ١٨٢٣ « مبدأ منرو »، محذّرة ممالك أوربا أن لا تعتبر أمريكا فى المستقبل ميداناً للاستعمار، وأن لا تبث مبدأ حكوماتها الاستبدادى فيها، وأن تحجم عن التدخل بوجه عام فى نموّ الجمهوريات الحديثة. ثم تبع ذلك اعتراف انجلترة رسمياً باستقلال أمريكا الاسبانية سنة ١٨٢٥. ولكن اسبانيا نفسها بقيت مصرة على عنادها، ولم تذعن للحقيقة المرة حتى سنة ١٨٣٦

مقاومتها للحلف المقدس

مبدأ منرو

اعتراف انجلترة بالجمهوريات

البرازيل

وقد كانت الأسباب التى دعت الى انفصال البرازيل عن البرتقال شبيهة بالأسباب التى ذُكرت آنفاً عن المستعمرات الاسبانية؛ غير أن الوسائل التى اتخذت لجلاء البرتقال ونتائجها كانت مختلفة تمام الاختلاف عن نظائرها فى المستعمرات الاسبانية. وذلك ان نابليون لما غزا البرتقال سنة ١٨٠٨ عرضت الحكومة الانجليزية على الاسرة المالكة فى هذه البلاد أن تنقلها الى البرازيل فى سفن انجليزية، فعملت بمشورتها. كذلك عمل الامير جوآو (وكان وصياً على العرش) بنصيحة انجلترة، وأخذ يفتح ثغور هذه المستعمرة للتجارة الأجنبية، وخفف بعض القيود الموضوعة على الصناعة، وشجع الهجرة، وأسس بها مطبعة، وأدخل بعض اصلاحات تنم عن روح دستورية. وفى سنة ١٨١٥ رُفع شأن البرازيل بأن جُعلت هى والبرتقال دولة واحدة. ولكن مع استحسان الأهالى لهذه الاصلاحات لم تكن كافية لجعل البرازيليين يرضون بسيادة البرتقاليين عليهم؛ ولم يقلّ انفجار الثورات من حين الى حين، اذ كان معظم سكان البرازيل يعتقدون أن بلاداً واسعة الأرجاء قابلة للتقدم والعمران مثل البرازيل لا ينبغى أن تكون تحت سيطرة أمة ضعيفة فى أوربا. وقد زادهم تذمراً ما أظهره البرتقاليون الذين وفدوا عليها إثرَ انتقال الحكومة اليها

الاسرة البرتقالية المالكة فى البرازيل

توحيد البرازيل والبرتقال

اسباب السخط

من الصلف والكبرياء والغطرسة وتردد جوآو (وقد صار ملكاً على البرتقال) في ابقاء الاصلاحات التي قام بها هو نفسه

تقرير الانفصال

فقد رأى معظم الأهلين على الانفصال عن البرتقال ؛ غير أنهم اختلفوا كثيراً في نوع هذا الانفصال ونوع الحكومة التي تتخذها البلاد بعد انفصالها . ففريق قال بتكوين اتحاد جمهوري ؛ وهذا الرأي لم يصادف قبولاً عظيماً لما كان يشاهد وقتئذ من الصعوبات التي تعترض الجمهوريات التي نشأت حديثاً في أمريكا الجنوبية

الآراء في الانفصال

بدرو يغتنم الفرصة

وقد كان الأمير « بدرو » الذي تركه والده حين عودته الى البرتقال والياً على هذه البلاد يقظاً لوقائع الأحوال . فلم يترك الفرصة تفلت من يده ؛ فعزم على أن يرأس بنفسه الحركة التي قامت تنادي بتحرير البرازيل . ففي عام ١٨٢٢ أعلن استقلال البرازيل ولقب نفسه بعاهل (امبراطور) عليها . وبعد انقضاء عامين على هذا الحادث منح البلاد دستوراً حراً ، ولم يكن يقصد به فائدة البلاد الحقيقية ، بل ارضاء الذين كانوا يلحون في نيله . فحدث هذا الانقلاب دون أن تراق نقطة دم واحدة . وبذلك ابتدأت البرازيل حياة جديدة من غير أن تنغمس في مثل تلك الحروب التي كانت اذ ذاك تمزق ممالك امريكا الاسبانية . وكانت البرتقال طبعاً لا تقدر على القيام بأي عمل عدائي نحو البرازيل ، اللهم الا توعدها لها . أما دول الحلف المقدس فكانت تفكر في التدخل في هذا الأمر في جانب البرتقال ، ولكنها احجمت عن ذلك لمعارضة انجلترة والولايات المتحدة لها . هذا الى أن انجلترة أقنعت البرتقال بقبول ما لا بد من نفاذه . فاعترفت سنة ١٨٢٥ باستقلال البرازيل

توليه عاهلا مستقلا

اعتراف البرتقال

وفي هذه الأثناء كانت تؤلف دولة جديدة في جزيرة هايتي التابعة وقتئذ لفرنسا وذلك ان العنصرين الأسود و « المولتو » كانا يفوقان العنصر الأبيض عدداً في سان دومنيك ، فقاما بثورة بزعامة رجل يدعى « توسان » ، فنجحوا عام ١٨٠١ في تأسيس جمهورية يرأسها توسان ، فارسل عليها نابليون حملة كانت عاقبتها الفشل التام ، وما زالت هـذه البلاد في تقلبات حتى وافقت فرنسا على استقلالها أخيراً عام ١٨٢٥

استقلال هايتي عن فرنسا

تقدم جمهوريات أمريكا الجنوبية

قلة السكان

كان عدد سكان الجمهوريات التى خلعت عن بلادها نير حكم اسبانيا صغيراً جداً بالإضافة الى اتساع مساحتها. ومع ما بذل من الجهد العظيم لتحبيب الأوربيين فى الهجرة الى هذه الأقطار واستثمار أموالهم فيها ، ومحو بيع الرقيق عقب تكوين الجمهوريات، ظلت ممالك أمريكا الاسبانية محرومة من وفرة السكان أعواماً عديدة

اسباب ذلك

والسبب فى ذلك يرجع الى حالة هذه الأقطار من الوجهتين الجغرافية والجوية؛ وأنها أقل جاذبية للمهاجرين من الجمهوريات التى فى أمريكا الشمالية ؛ ووسائل النقل اليها كانت قليلة تتطلب نفقات باهظـة ؛ والهجرة الى الولايات المتحدة ابتدأت فى وقت كانت فيه أمريكا الاسبانية إما لا تزال تنوء تحت عبء نظام منع الاتجار مع الممالك الاجنبية، وإما فى وسط معمعة الثورات على اسبانيا . فكان ذلك داعياً الى تنفير الأجانب الذين يريدون أن يعيشوا عيشة هادئة. هـذا الى أن المهاجرين الأوّلين كانوا من الجزر البرطانية أو ألمانيا ، ولم يرغبوا أن يطلبوا أرزاقهم بين أُناس يختلفون عنهم فى الفكر والدين والتقاليد القومية . كما أنهُ لم يكن أحد منهم ليخاطر بماله فى بلاد كانت لاتزال فى اضطرابات سياسية

التخبط فى السياسة

ولما كان سكان أمريكا الاسبانية قليلى الخبرة بالشؤون السياسية ، ولم ينالوا حظاً وافراً من العلم ، وقعوا فى أول الأمر فى تخبط شديد فى ادارة بلادهم. وزاد الطين بلة أن طول عهدهم بالحروب أوجد بينهم طائفة من الزعماء الفخورين الذين كان كل منهم يسعى بما له من الصيت فى القتال الى التسلط على البلاد ؛ بدعوى ان ليس فى مقدور غيره الأخذ بخطامها . فكانوا بذلك لا يعبئون بأى سلطة ؛ فانتشرت الفوضى فى البلاد

عصران فى تاريخ الجمهوريات

ويمكن تقسيم تاريخ هذه الجمهوريات فى نصف القرن الذى تلا استقلالها الى عصرين : الأول منهما يمتد الى سنة ١٨٥٢ ، وينطبق على عهد « الحكام

عصر الحكام المفوضين

المفوّضين » (الدكتاتورين) . وكان فى مبدئه ينحصر فى المباحث السياسية والتدرب على الأنظمة الحكومية وتأهيل حالة البلاد الاجتماعية لذلك النظام الجديد ؛ فكانت تُستعار فيه الأسماء والأنظمة الرومانية والألقاب والاصطلاحات التى سادت فى عهد نابليون مثل « القنصلية » و « الديركتوار » ؛ وبلغ الحدّ بالمكسيك أن اتخذت لها عاهلاً مدة تسعة أشهر . وفى هذه المدة أيضاً بذل القوم جهدهم لاستمالة بعض الأمراء الأوربيين أن يتولوا عروش هذه الممالك ؛ وقد حبّذ بُليفار نفسُه هذه الفكرة فى أواخر أيامه . ولما خاب رجاؤهم من جعل حكومات بلادهم ملكية مقيدة ، عادوا الى اتباع النظام الجمهورى فى جميع تلك الممالك

ازدياد نفوذ الرؤساء

وفى هذا الطور ازداد نفوذ رؤساء الحكومات حتى صار حكمهم مطلقاً . وكانت حالة البلاد وقتئذٍ تتطلب ذلك حتى أن بُليفار ، على تحمّسه للحرية ، كان يعتقد أن أهالى جمهوريات أمريكا الاسبانية لا يصلحون وقتئذٍ لحكم أنفسهم بأنفسهم ؛ وكان يرى أن أحسن وسيلة لتربيتهم تربية سياسية أن يخضعوا لحاكم مفوّض (دكتاتور) شفيق قوى الشكيمة ، يستمدّ سلطانه ظاهراً من دستور ، وفى الواقع يدير الأمور بنفسه حسب ما تقتضيه أحوال البلاد وما فيه صالحها ، وأن تكون مدة حكمه طويلة (ويفضل أن تكون مدة حياته)

تضارب الاراء

وقد كان الجو الذى يحيط بالمفوّض (الدكتاتور) عابساً ، بتنافس رؤساء الطوائف وتضارب آراء الأحزاب العديدة فيها ، فمن ذلك أن « حزب المركزية » كان يرمى الى تشكيل حكومة كالحكومة الفرنسية وقتئذٍ ، على أن لا يكون فيها ملك ، أى أنهم كانوا يريدون أن يوحّدوا السلطة بحيث تصير جميع المقاطعات أشبه بمراكز ادارية ينصَّب حاكم كل منها من قبل الحكومة المركزية ؛ و « الحزب الاتحادى » يميل الى نظام حكومة الولايات المتحدة ؛ فى حين أن أعضاء حزبى المحافظين ورجال الدين كانوا يرون مصلحة البلاد فى أن لا ينتجعها أحد من الأجانب المغايرين لهم فى الدين والعقيدة ، وسعوا جهد طاقتهم فى معاضدة المذهب الكاتوليكى . وكان يحاربهم فى ذلك

اعاقة التقدم

جزب الأحرار ، وبخاصة فى قبضهم على التعليم العام وغير ذلك من الأمور الحيوية العظيمة الشأن . ولا شك أنه كان من المستحيل فى مثل هذه الأحوال أن تنمو البلاد وتوطد أركان السلم فيها . لذلك كانت حكومة « المفوض » أمراً لا بدَّ منه . وقد برهن بعضهم أنهم أكفاء ذوو أخلاق عالية وقدرة عظيمة

بعض الحوادث السياسية

وحدث فى خلال هذا العصر الأول الذى ينتهى سنة ١٨٥٢ حوادث سياسية جديرة بالذكر . ففى عام ١٨٢٥ تغير اسم « مقاطعات نهر بلاتا المتحدة » الى «اتحاد الأرجنتين» ؛ و بعد ثلاثة أعوام انفصلت جمهورية أُورجواى عن البرازيل . و بين عامى ١٨٢٩ و ١٨٣١ انقسمت « كُلُمبيا العظمى » الى ثلاث جمهوريات ؛ وهى فنزويلا و إكوادور وغرناطة الجديدة . وفى سنة ١٨٧٣ شذّت « شيلى » عن سائر هذه الممالك . فاتّبعت نظام حكومة خالياً من «المفوض» . و بين عامى ١٨٣٨ و ١٨٤٧ تمزق اتحاد أمريكا الوسطى، وتكونت منه جمهوريات جَوَاتيمالا وهُندوراس ونيكارَجْوا وسَلفادور وكُستاريكا

العصر الثانى

والعصر الثانى من تاريخ تقدم أمريكا الاسبانية يمتد على وجه التقريب من سنة ١٨٥٢ الى سنة ١٨٧٦ ؛ وهو العصر الذى أخذت تستقر فيه أحوال البلاد وتتوطد أركان السلم فيها ؛ فانه على الرغم من وقوع بعض الاضطرابات التى كانت تحدث من مشاحنة بعض الأحزاب لبعض ، وقف أهل البلاد فى هذه المدة على معنى الأنظمة الدستورية وكيفية السير عليها ، وأدركوا ضرورة نشر التعليم بينهم . وقد كان القدح المعلى فى ذلك لأمهات المدن التى عظم فيها نفوذ الجنس الأوربى ، مثل «بينوس أيرس» و « منتفديو » و «ليما» . وساعد ادخال السكك الحديدية وانتشار السفن البخارية ومد الأسلاك البرقية وازدياد ورود الأموال الأوربية الى البلاد على ارجاع الأمن الى نصابه وتحقيق تقدم البلاد وفلاحها . ويمكن تلخيص نتائج هذا العصر على وجه عام فى ظهور أحزاب الأحرار والاتحاديين ومن شاكلهم على الأحزاب الرجعية الباقية

توطد السلم

انهزام الاحزاب الرجعية

وفى خلال هــذه الأربعة والعشرين عاماً غيّرت « غرناطة الجديدة » نظام

بعض التغييرات

حكومتها من نظام الوحدة الى نظام الاتحاد، وغيرت اسمها ثلاث مرات على التوالى، فكان الأخير منها «ولايات كلمبيا المتحدة». كذلك غيرت فنزويلا لقبها، وتسمت «بولايات فنزويلا المتحدة». وفى ممالك الجنوب تغير اسم « اتحاد الارجنتين » سنة ١٨٥٣، وأصبح يطلق عليه اسم « جمهورية الأرجنتين » وقد أخذت هذه الجمهورية تعنى هى وأورجواى بتربية الماشية والزراعة. ولم يحل عام ١٨٧٤ حتى اختفت معالم الثورات الشديدة من الأرجنتين وأصبحت آمنة مطمئنة : أما بلاد المكسيك فسارت الى طريق السلم والأمن تحت حكم « بنيتو جواريز » الهندى المجتهد. وقد مهّد لها ذلك الحاكمُ القادر سبيلَ التقدم والفلاح

البرازيل

وقبل الكلام على العصر الثالث من تاريخ هذه الممالك نقول كلمة فى البرازيل. بينما كانت الحروب الداخلية وحكومة « المفوّض » تعرقل نمو أمريكا الاسبانية، وتولّد فيها الاضطرابات السياسية التى أقلقت راحتها الى عام ١٨٧٦، كانت البرازيل هادئة مطمئنة : فان أهل هـذه البلاد عرفوا انهم لا يقدرون على القيام باعباء الأنظمة الجمهورية التى كانت تتخبط فيها جاراتها، فاتّخذوا لهم حكومة ملكية مقيدة ذات مجلس نواب؛ فكان ذلك اكبر تدريب لهم على الأنظمة الحكمية، ومهّد لهم الطريق للنجاح فى الحكم الجمهورى بعد أن تعلموا كيف يحكمون أنفسهم بأنفسهم. لذلك لم يحدث فى بلادهم قلاقل أو فتن تستحق الذكر مدة حكم «دُم بِدور الثانى» الطويل (١٨٤٠ — ١٨٨٩)، فكان كله عصر سكينة وتقدم

سهولة التقدم

تقدم أمريكا اللاتينية بعد ١٨٧٦

أما العصر الذى يمتد من سنة ١٨٧٦ الى وقتنا هذا فيمتاز بما حـدث فيه من التقدم الفائق الوصف فى مُعظم ممالك امريكا اللاتينية*. ويرجع الفضل الاكبر فى ذلك الى تدفق المال والمهاجرين الى هذه البلاد من أوربا والولايات المتحدة، مما أدى الى استثمار مواردها وتنميتها، وتحسين طرق النقل والمواصلات فيها بدرجة لم تعهد من قبل. وبهذه التغيرات العظيمة تقدمت حالتها الاجتماعية؛ فثبتت فيها

* سميت كذلك لان الاسبان والبرتقال أول من نزلوها وهم لاتينيو العنصر

قدم الأنظمة الدستورية ، وأخمدت أنفاس الروح العسكرية . فانتظمت أحوال الحكومة ونمت الصناعة وراجت التجارة ، وانتشرت التربية والتعليم ، وازدانت البلاد بالفنون . وفى هذا العصر ظهرت بعض الممالك على غيرها وفاقتها بمراحل .

مراتب الممالك

ويرجع ذلك الى اتساع رقعتها وطبيعة أرضها ، والى حسن جوّها ووفرة مواردها ، والى أخلاق سكانها ومقدار ازدياد عددهم . وقد قارن الباحثون مقدار استتباب الأمن فى كل من العشرين مملكة التى تتكوّن منها الآن امريكا اللاتينية وما بلغته من التقدم والقوة ، سواء أكان ذلك ماديًا أم خلقيًا أم علميًا ؛ فقسموها بنسبة ذلك كله الى ثلاث مراتب . فممالك المرتبة الأولى تشمل جمهورية الأرجنتين والبرازيل وشيلى وأورجواى وكُستاريكا . والثانية تشمل المكسيك وبيرو وبوليفيا وكوبا وسلفادور وكلمبيا وفنزويلا وبنما . وتشمل الثالثة جواتيمالا وإكوادور وبارجواى وجمهورية دومنيك وهاييتى ونيكارجوا وهندوراس

بعض الحوادث

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير الى بعض الحوادث الهامة التى وقعت فى بعض هذه الممالك . ففى المكسيك تولى حكم البلاد من سنة ١٨٧٦ الى ١٨٨٠ (ثم من ١٨٨٤ الى ١٩١١) رجل من أعظم رجال العصور الحديثة فى حسن الادارة وقوة الشكيمة ، وذلك هو « بُرْفِرْيوديان » . وفى مدته ساد السلام وأخذت تنفتح كنوز البلاد العظيمة وموارد ثروتها للعالم . ثم ثارت عليه البلاد وخلعته سنة ١٩١١ . ومن ذلك العهد أخذت المكسيك تتقهقر ورجعت الى سيرتها الأولى من الفوضى وسوء النظام

وفى عام ١٨٨٦ غيرت ولايات كلمبيا المتحدة شكل حكومتها من الطراز الذى يشمل عدة حكومات متحدة الى حكومة واحدة مركزية ، وتسمت «بجمهورية كلمبيا»

وفى البرازيل كان أعظم حادث محو الاتجار بالرقيق سنة ١٨٨٨ وتأسيس حكومة اتحادية باسم «ولايات البرازيل المتحدة» ، وذلك بطرد الأُسرة المالكة سنة ١٨٨٩

وفى سنة ١٨٩٨ نالت جزيرة كوبا استقلالها من اسبانيا بتدخُّل الولايات المتحدة فى الأمر . وبعد ذلك الحادث بخمس سنوات انفصلت بنما عن كلمبيا ، فأصبح عدد جمهوريات أمريكا الجنوبية عشرين

الباب السادس

الاستعمار الاوربى

الفصل الاول

املاك الانجليز فى امريكا الشمالية

املاك الانجليز سنة ١٨١٥

كان لانجلترة فى أمريكا الشمالية عام ١٨١٥ ست مستعمرات وهى : كندا العليا وكندا السفلى وبرنزويك الجديدة ونوفا اسكوشيا وجزيرة البرنس إدورد ونيوفَوندلَندة. يضاف الى ذلك أملاك شركة خليج هَدْسُن التى كانت تمتد الى الشمال والشمال الغربى بلا حدود معينة تحصرها . وكان عدد سكان هــذه المستعمرات وقتئذ ٤٦٠،٠٠٠ نفس ، وكانت كل مستعمرة منها منفصلة عن الأخرى فى الحكم، وعلاقتها مع انجلترة رأساً . ولم تطمح انجلترة فى خلال القرن التاسع عشر الى زيادة أملاكها فى هذه القارة ، بل اقتصرت أثناءه على توطيد ملكها فى هذه الجهات . وكان أهم الوسائل التى شغلت بالها وقتئذ الوصول الى الطريقة القويمة التى يجب اتباعها فى حكمها . ولقد وصلت انجلترة أثناء حل هذه المشكلة الى تلك المبادئ والأنظمة التى شيدت عليها سياستها الاستعمارية وأمكنها بها حكم أملاكها الشاسعة فى أنحاء المعمورة

السعى لتوطيد الملك فيها

كندا السفلى

وكانت أقدم مستعمرات انجلترة فى هذه القارة وأكثرها سكاناً هى « كندا السفلى » وتشمل منتريال وكويبك وحوض نهر سان لوران . وقد كانت فى الأصل مستعمرة فرنسية ، فتحها الانجليز سنة ١٧٦٣ . لذلك كان أهلها يتكلمون الفرنسية ، ويدينون بالمذهب الكاثوليكى . وكانت هــذه المستعمرة هى وكندا العليا أهم المستعمرات

دستور سنه ١٧٩١

الانجليزية . منحت انجلترة كلاً منهما دستوراً عام ١٧٩١ على النمط الانجليزى ؛ فكان لكل منهما حاكم عام ولجنة تنفيذية تشبه « الكابنت » الانجليزى ، ومجلس تشريعى يبقى أعضاؤه فى مناصبهم طول حياتهم (مثل مجلس اللوردات) ، وكل هذه الهيئات يعينها ملك انجلترة نفسه ؛ ومجلس عام شبيه بمجلس العموم الانجليزى يختار أعضاءه الأهلون . غير أن هذا النظام لم يترك للشعب سلطة حقيقية ولم يمكن السير عليه فى تينك المستعمرتين . ففى كندا العليا كانت المشاحات لا تنقطع بين

لا يرضى الاهلين

المجلسين والحاكم العام ، اذ كان من سلطة هذا أن يلغى أعمال السلطة التشريعية ، وكان يعتبر نفسه مؤاخذاً عن أعماله أمام الحكومة الانجليزية لا أمام أهل المستعمرة وقلما كان يستشير اللجنة التنفيذية ، ولا يعمل برأيها الاَّ اذا اختار ذلك

اختلاف العنصرين الفرنسي والانجليزى

وفى كندا السفلى جرّ هذا النظام المشاحات عينها . وزاد الشقاقَ ما كان بين الأهلين من التقاطع والتباغض الجنسى . ففى حين أن الغلبة فى المجلس العام كانت للفرنسيين ، لكثرة عددهم فى تلك المستعمرة ، استحوذ الانجليز على السلطة فيما عدا ذلك حيث لم يكن اختيار الأعضاء بأصوات القوم بل بالتنصيب من قبل الملك . فطلب الفرنسيون أن يكون المجلس التشريعى بالانتخاب حتى تكون لهم فيه الأغلبية ، وأن تكون اللجنة التنفيذية (عدا الحاكم العام) مؤاخذة أمام المجلس التشريعى . ولما أعيتهم الحيلة فى الفوز بشىء من ذلك عزموا على استعمال نفوذهم فى المجلس العام لنيل مآربهم ، فأبوا أن يقروا صرف المال اللازم لقيام الحكومة بأعبائها

ثورة ١٨٣٧

وقد بقى الأهلون يشكون من تلك الحال حتى بلغ النزاع أقصاه عام ١٨٣٧ ، فانفجرت الثورة فى كلتا المستعمرتين ؛ ولم تلق الحكومة المحلية صعوبة كبيرة فى اخمادها من غير أن تستمد المعونة من انجلترة . ولكن المظالم التى كانت تئن منها البلاد بقيت كما هى حتى تنبهت الحكومة الانجليزية الى الخطر الذى كان يتهددها ، وخشيت أن تفلت هذه الأرجاء الشاسعة من يدها ، كما أفلتت الولايات المتحدة من قبل ؛

تنبه انجلترة

فأرسلت مندوباً الى تلك المستعمرات ليقف على مظالم أهلها . وقد انتُخب لهذا

بعث اللورد درهام

الأمر الخطير « اللورد دِرْهام » الذى كان له شأن عظيم بانجلترة فى حركة إصلاح سنة ١٨٣٢ . فمكث درهام فى كندا خمسة شهور يدرس فيهما شؤونها ويتخذ التدابير لتهدئة أحوالها . فلم ترق بعض تصرفاته مجلس النواب الانجليزى ؛ فانهال عليه باللوم ، وتخاذلت الوزارة عن نصرته مع أنه لم يخرج فى مهمته الاّ بالحاح منها . فرجع الى انجلترة مخذولاً مغضوباً عليه

تقريره

على أنه عند عودته الى انجلترة رفع الى المجلس تقريراً وافياً عن حالة كندا أظهر فيه من الكياسة وبُعد النظر ما يجعله فى مصاف كبار السواس الاستعماريين الذين ظهروا فى تاريخ انجلترة . فبعد أن أفاض الكلام فى بيان معايب النظام المتبع وقتئذٍ فى حكم كندا، وأوضح أنه رأس كل بلاء، وأن السير عليه ضرب من المستحيل، اذ لا يتسنى الجمع بين الحكم النيابى ووزارة غير مؤاخذة أمام مجالس الأمة ، بيّن أن أضمن طريق لبقاء مثل تلك المستعمرات النائية أن تُمنح حكومة مؤاخذة أمام أهلها تدير شؤون البلاد الداخلية بنفسها . ثم أوصى بتوحيد المستعمرات الانجليزية فى شمالى أمريكا، بحيث يُبدأُ أولاً بكندا العليا وكندا السفلى . وبيّن أن ذلك يذهب بالأغلبية التى للفرنسيين فى حكومة كندا السفلى ويمنعهم من اساءة استعمال هذه السلطة؛ ذلك الى ما ينجم عن الاتحاد من المزايا للولايات نفسها ، اذ به يسهل عليها الفصل فى كثير من المسائل الهامة المشتركة بينها ، كالعلاقات المالية ونظام المكوس ، فضلاً عن قيامها بالأشغال العامة النافعة وإعدادها جيشاً وطنياً مشتركاً للدفاع عنها

اهميته فى تاريخ الاستعمار

هذا هو أهم ما جاء فى التقرير الشهير الذى وضعه اللورد درهام . ومنه يتضح أنهُ رمى الى قلب نظام حكومة انجلترة الاستعمارية ، ولذلك يُعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ حكم المستعمرات . وقد قدم درهام هذا التقرير الى مجلس العموم الانجليزى فى فبراير سنة ١٨٣٩ ، فكان له تأثير عظيم فى قلب الرأى العام فى انجلترة قلباً تاماً، حتى بطلت كل مقاومة للمشروع من جانب المجلس، ثم عُرِض أمر الاتحاد على مجالس كندا السفلى وكندا العليا، فوافقا عليهِ . وفى إثر ذلك صدّق المجلس الانجليزى على

قانون الوحدة سنة ١٨٤٠

قانون الوحدة بأغلبية كبيرة سنة ١٨٤٠ . وقد جاء فيه أن تؤلف من الولايتين ولاية واحدة تسمى كندا ، تديرها حكومة واحدة ومجلس نواب واحد يشمل مجلسين : مجلس تشريعى يكون أعضاؤه دائمين منصَّبين من قبَل الملك ، ومجلس أدنى (المجلس العام) يختار أعضاءه الأهلون كل أربعة أعوام . أما مسألة الحكومة المؤاخذة فلم يرد عنها شيء فى القانون ، اذ كانت تُعَدّ وقتئذٍ فكرة ثورية ، ولم تكن الحكومة الانجليزية لتقبلها بحذافيرها دفعة واحدة . وقد ساعد على عدم ايقاظ هذه المسألة أن المجلس العام فى أول انعقاده كانت أغلبيته من المشايعين للحكومة . لذلك لم يكن لهذه الفكرة شأن هام الاَّ فى عهد ولاية اللورد إلجن (١٨٤٧ — ١٨٥٤) الذى برهن بحزمه وحسن سياسته فى حكم البلاد أنهُ من الممكن أن تنال المستعمرة حكومة مؤاخذة أمام أهلها من غير أن تنحل الروابط التى تربطها بالدولة التى لها السيادة عليها . واذ ذاك نالت كندا هذا الحق ، وبقيت تتمتع بالحكم النيابى الصحيح منذ ذلك الحين

الوحدة العامة

على أن اللورد درهام كان قد اقترح فوق ما تقدم تكوينَ اتحاد واحد من جميع المستعمرات الانجليزية فى شمالى أمريكا . ومع أن تنفيذ ذلك وقف مدة من الزمان لأسباب عدة ، أهمها سوء طرق المواصلات بين الولايات المختلفة ، كان الميل الى الوحدة العامة يزداد يومًا فيومًا . فأصبح ازدياد عدد السكان وتحسين طرق المواصلات بانشاء السكك الحديدية ومشاهدة نجاح وحدة الولايات المتحدة فى حكومتها وخوف الكنديين من هجومها عليهم ، كلها أسبابًا جعلت الرأى العام فى كندا يظهر ميله الشديد الى الاتحاد العام . ولم يلبث مجلس النواب الانجليزى أن حقق هذه الرغبة ، فأصدر فى عام ١٨٦٧ قانونًا بتوحيد أمريكا الشمالية . وبهِ انضمت ولايات كندا العليا وكندا السفلى ونوفا اسكوشيا وبرنزويك الجديدة بعضها الى بعض وتألفت منها وحدة تدعى «ولايات كندا» ، لها مجلس نواب عام يُنتخب من جميع الولايات ومركزه «أُتاوة»

قانون سنة ١٨٦٧

نظام الحكومة

ولكل ولاية منها مجلس تشريعى خاص يدير شؤونها المحلية . أما المسائل التى لها مساس بالولايات جميعاً فيفصل فيها مجلس نواب الولايات العام ؛ وهو يشمل مجلسين ؛ مجلساً

للشيوخ وآخر للعموم . ويتألف الأول من سبعين عضواً دائمين يعينهم الوالى الذى ينصّبه الملك على البلاد . أما مجلس العموم فينتخب أعضاءه الأهلون

توسيع الاتحاد

ابتدأ هذا الاتحاد بأربع ولايات ؛ ولكن لم يمض طويل زمن حتى أخذت الولايات الأخرى تنضم اليــه ؛ فدخلت منيتوبا فى زمرته سنة ١٨٧٠ ، وكلمبيا الانجليزية سنة ١٨٧١ ، وجزيرة البرنس ادورد سنة ١٨٧٣

مشكلة اريجون

وكان قد حدث نزاع فى سنة ١٨٤٦ بين الولايات المتحدة وانجلترة على اقليم « أريجون » فى الجهــة الغربية ، فانتهى بمد الخط الفاصل بين الولايات المتحدة والأملاك الانجليزية الى المحيط الأعظم الهادى . وفى عام ١٨٦٩ اشترت ولايات

اصقاع خليج هدسن

كندا كل الاصقاع الفسيحة التى كانت فى قبضة شركة خليج هَدْسُن بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ جنيه ، فتكوّنت منها ولايتا البرتا وسَسْكتشوان ، وضُمتا الى الاتحاد عام ١٩٠٥ ، وبذلك أصبحت الولايات تشمل كل الأملاك الانجليزية فى أمريكا الشمالية عدا جزيرة « نيوفوندلندة » (الأرض الجديدة) التى ثبتت فى امتناعها عن الانضمام الى هذا الاتحاد . فأصبحت تلك الولايات الشاسعة تمتد من محيط الى محيط

علاقة كندا بانجلترة

وتُعتبر كندا فى الحقيقة فى صف الممالك المستقلة ، ولا يميزها عنها سوى تنصيب حاكم عام عليها من قبل انجلترة ، وأن ليس من حقها عقد المعاهدات مع الدول . فهى تدير كل شؤونها بنفسها وتضع المكوس على السلع التى تدخل بلادها ولو كان ذلك فى غير مصلحة انجلترة نفسها . ومع ذلك فانها متمسكة بالولاء لدولتها ، لا تدّخر وسعاً فى الذود عن حياضها : ظهر ذلك أولاً وقت أن قامت بمساعدة انجلترة فى حرب جنوبى افريقيــة ، وثانياً فى الحرب العظمى حيث وفد على ميادين القتال الألوف من أبطال كندا للدفاع عن عاهليتهم العظيمة

تأثير الوحدة

وقد كان لتأسيس هذا الاتحاد الذى تم سنة ١٨٦٧ أثر حسن فى تقدم البلاد فبين عامى ١٨٨١ و ١٨٨٥ مُدّ خط « سكة حديد كندا » الهائل الذى يخترق القارة من الشرق الى الغرب ؛ فوثق ربط الولايات بعضها ببعض ، ونمت به الأقاليم الغربية

ودرجت فى مراقى التقدم والثراء . وأخذت الولايات بعدُ تنشئ خطاً آخر شبيهاً بذلك فى شمالى القارة. وظلت ثروة البلاد تزداد ازدياداً مطرداً ، وتنوعت مواردها الاقتصادية ، وزاد عدد سكانها من ٥٠٠,٠٠٠ فى سنة ١٨١٥ الى أكثر من ٥,٠٠٠,٠٠٠ نفس الآن

الفصل الثانى

الهند فى القرن التاسع عشر

نابليون والهند

لما قامت الحرب بين نابليون وانجلترة والقرنُ الثامن عشر فى شيخوخته ، هدد نابليون كيان المستعمرات الانجليزية وكاد يقضى عليها أكثر من مرة ، لولا نبوغ نلسن أمير البحر الانجليزى العظيم الذى ضمن لها بقاءها بانتصاراته البحرية الباهرة . وكانت الهند وقتئذٍ أعظم جهة تُهدَّد منها انجلترة ، وقد جاهر نابليون أن الغرض الذى يرمى اليه من حملته على مصر هو هدم مجد انجلترة فى الهند. وكان «بت الأصغر»

تنصيب ولزلى

عالمًا بالخطر الذى يتهدد دولته من هذه الناحية ، فنصَّب عليهـــا حاكماً عاماً قوى الشكيمة وهو « رِتشرد وِلزلى إرل مُرْنِنجتون » الذى صار فيما بعد « المركيز ولزلى» وهو أخو ولنجتون بطل وترلو العظيم . ويعتبره الانجليز فى صف كليف وهيستنجز فى توطيد حكم الانجليز فى بلاد الهند وزيادة نفوذهم فيها

الفرنسيون فى الهند

وكان الفرنسيون قد ابتدءوا يدسون الدسائس على الانجليز مع الأمراء الوطنيين قبل أن تطأ قدم ولزلى أديم الهند . فكان للحزب الفرنسى عند « تبّو صاحب » حاكم « ميسور » و « نظام » حيدر أباد الكلمة النافذة والنفوذ الأعظم ، وكان فى كلتا المملكتين جيش فرنسى قوى . فعزم ولزلى أن يكافح هذا الخطر قبل كل شىء .

كيد الانجليز لهم

ولحسن حظ الانجليز كان « النظام » وقتئذٍ يهدده أمراء المهراتا ، وكان وزيره يميل الى محالفـة الانجليز لمقاومة المهراتا ، فأفاتح مرننجتون بما لهذا الوزير من النفوذ فى

ابرام معاهدة مع النظام ، على أن يعزل الضباط والجنود الفرنسية ويستعيض بهم جيشاً من « السيبوى » تحت امرة ضباط انجليز ، ووعده أن يحمى بلاده من هجوم العدو بشد أزره بعشرة آلاف من جنود شركة الهند الشرقية . وبذلك قضى على نفوذ الفرنسيين فى هذه الجهة من غير أن تراق قطرة دم

قهر تبو صاحب

ولما ذهب عن مرنجتون الروع واطمأن خاطره من هذه الجهة ، ولى وجهه شطر « تبو صاحب » . فدخلت الجنود الانجليزية ميسور عام ١٧٩٩ واستولوا عنوة على « سِرِنْجاپتام » حاضرة بلاده ، وفى هذه المعركة قُتل تبّو نفسه . ثم أعقب ذلك انسحاب الأجناد الفرنسية ، وأصبحت ميسور تحت حماية الشركة ، وتربعت على عرشها الأسرة الهندية التى كانت تحكمها من قبل . ويُعدّ فتح ميسور أعظم فوز ناله الانجليز فى الهند من الوجهة الحربية والمالية منذ عهد كليف ، اذ لم يبقَ بعده منازع يذكر للنفوذ الانجليزى فى كل شبه الجزيرة ، الَّا المهراتا الذين كانت قوتهم وقتئذٍ مفككة العرا . وقد نال الانجليز هذا الفوز فى الوقت الذى حطم فيه نلسن قوة نابليون البحرية فى موقعة بوقير ، التى قطعت متن رجائه فى الهجوم على الهند من جهة البحر

أهمية فتح ميسور

زيادة توطيد النفوذ الانجليزى

وقد كافأت الحكومة الانجليزية مرنجتون على خدماته الجليلة بمنحه لقب « المركيز ولزلى » ولم يمضِ طويل زمن حتى سنحت الفرصة ثانيةً لتوطيد سلطان الانجليز فى الهند . وذلك أنه لما مات نوّاب الكرنات (وكانت تحت سيادة الشركة) عام ١٨٠١ وُجدت لديه رسائل تدل على دسه الدسائس مع « تبّو » والفرنسيين على الانجليز . فانتزع الانجليز من يد خلفه السلطة السياسية والحربية فى الكرنات ليأمنوا غائلة هذا الخطر . وأُعطيت هذه السلطة الى عمّال الشركة . وفى هذا الوقت نفسه نحا الانجليز هذا النحو فى « سورات » و « تَنْجور » وتبعتهما « أُوده » بعد قليل ، اذا أبرم الانجليز معاهدة مع أميرها سنة ١٨٠١ ، على أن يحموه من خطر غزو الأفغان لبلاده ، وبها قَبِل أن يكون له حرس من الجنود الانجليزية وينزل عن جزء عظيم من تخوم بلاده للشركة

مكافحة المهراتا — وبعد أن وطد ولزلى سلطان انجلترة فى هذه الجهة وجه أنظاره نحو ولايات المهراتا وكان الرئيس الاسمىّ لهذه الولايات يسمى « البِشْوَا » ، وكانت حاضرته « بونة » ؛ غير أنه لم يكن صاحب الشأن فى البلاد بل كان النفوذ الحقيقى فى يد ثلاثة من أمراء المهراتا ، وهم سِنْدِيا و بُنْسلا وهُلْكار . ففى عام ١٨٠٢ تمكن « هلكار » من

الانجليز والبشوا — هزيمة البشوَا وسِنْدِيا ، ونصّب من قبله رئيساً على البلاد بدلاً من البشوا . فانتهز ولزلى هذه الفرصة وأبرم معاهدة مع الرئيس المخلوع على أن ينزل البشوا عن بعض أملاكه للانجليز فى مقابل مساعدته بجيش انجليزى . فأعيد البشوا الى مقر حكمه فى

سنديا — بونة تعززه قوة انجليزية . غير أن ذلك أدّى الى اعلان سنديا الحرب على الانجليز ، فكان ذلك أشق عمل صادف ولزلى مدة حكمه فى الهند . وكان سنديا قد فتح بمؤازرة الفرنسيين له اقليماً عظيماً يشمل البَنْجاب وأجرا ودِهلى على الحدود الشمالية الغربية ، التى كانت اكثر الجهات تعرضاً لهجمات الروسيا (وكانت وقتئذٍ تعمل مع

ارثر ولزلى — نابليون على غزو الهند براً) . فسير ولزلى أخاه « ارثر ولزلى » ، وهو الذى لقب فيما بعد بدوق ولنجتون » لمهاجمة سنديا و بنسلا فى الدكان . فأظهر أرثر لأول مرة مهارته الحربية التى خلدت له حسن الأحدوثة ، اذ هزم جيوش سنديا هزيمة منكرة عند

هزيمة بنسلا — « اساى » فى سبتمبر سنة ١٨٠٣ . وبعد هذه الهزيمة بشهرين انهزم بنسلا شر هزيمة وأبرم معاهدة مع الانجليز على أن يعزل ما عنده من الأجناد الفرنسية و يتخذ له وزيراً انجليزياً . وكذلك فى الهندستان كان النصر حليف الانجليز ، إذ استولوا على أجرا وشتتوا شمل جيش سنديا فى واقعة «اَسْوَارى» ، وتسلموا حصن «جواليور» الذى كان على رابية ، وقد وصفه هيستنجز بأنه مفتاح الهندستان

مكافحة هلكار — ولم يبق بعد ذلك أمام الانجليز مكافح الاّ هلكار ، فانهُ لم يشترك فى الحروب السابقة ، إذكان من اكبر أعداء سنديا ، وكان ينظر الى هزماته بعين السرور والارتياح . فلما سارت على هلكار الجيوش الانجليزية شتت شملها ، فكان ذلك اكبر ضربة على سيادة الانجليز فى شمالى الهند ، وبه تشجع بعض الأمراء الوطنيين

فثاروا على الانجليز . وبقى هلكار صاحب السلطان فى الهندستان مدة سبعة شهور حتى هزمه الانجليز فى موقعتين عظيمتين ، وبهما قضى على سلطانه جملة

السعى لضم الاجناس الهندية

وبعد أن وسع ولزلى دائرة نفوذ الانجليز فى الهند بهذه الوقائع العظيمة فكر فى وضع خطة للم شعث تلك الجهات وتوطيد سلطانهم فيها . فوضع نظاماً جديداً لادارة البلاد به تُضم الأجناس المختلفة والأمم المتضاربة فى جميع انحاء شبه الجزيرة . ورأى ان جهل الكثيرين من عمال الشركة وقلة كفاءتهم عقبة في سبيل مشروعه ، فعزم على فتح كلية فى « فُرت وليم » للرفع من مستواهم . كذلك أدخل اصلاحات عدة فى القضاء . أما فى الأمور التجارية فانه كان مثل بت يميل الى جعل التجارة حرة ؛ فألّب ذلك عليه مديرى الشركة الذين كانوا يخافون على ما لديهم من امتياز احتكار التجارة . وقد حدثت مشاحّات أُخرى بين ولزلى ومديرى الشركة أدت الى وقوف مشروعات اصلاحاته ، ثم الى اعتزاله منصبه فى سنة ١٨٠٥ . ومع ما اعترضه من العقبات يُعتبر ما قام به من مد نفوذ الانجليز فى الهند وتوطيد سلطانهم فيها أمراً لم يضارعه فيه أحد قبله حتى هيستنجز وكليف

النزاع بين ولزلى والشركة

ولزلى ومرامى نابليون

ولم تقتصر مجهوداته العظيمة على ما جاء به فى داخل الهند ، بل كان لحسن سياسته وبعد نظره أثر هام فى توطيد العلائق مع الدول المجاورة لها . وذلك أنه لما أصبح من المشهور سنة ١٨٠٠ أن نابليون وقيصر الروس اتفقا معاً على غزو الهند براً بجيش روسى وآخر فرنسى من طريق الأفغانستان ، بادر ولزلى الى مكافحة هذا الخطر بحزم وعزم ، فأبرم معاهدة مع شاه العجم على أن يساعد الانجليز فى درء هذا الخطر . على انه قد زال الخطر من هذه الجهة فترة ؛ إذ قُتل قيصر الروس ، وبقتله مات هذا المشروع ، فضلاً عن أن احتلال مصر بالأجناد الانجليزية وقتئذٍ قد ذهب بكل خوف من إحياء خطة نابليون فى غزو الهند من طريق مصر . ومع كل ذلك فان ذهن نابليون لم ينصرف عن غزو تلك البلاد ، فانه بعد معاهدة أميان كان لا يزال يمنّى نفسه بالهجوم عليها ؛ ففى عام ١٨٠٥ أفلح فى استمالة الفرس والتحالف معهم على أمل أن يفتحوا له طريقاً لغزو الهند

وقد تناقش نابليون فى هـذا الموضوع وقت ابرام معاهدة تلست مع القيصر عام ١٨٠٧ ، فظهر لنابليون وقتئذ أن الفرصة سانحة أيما سنوح لنيل مأربه ، الاَّ أن قيام اسبانيا عليه واشتجاره مع قيصر الروسيا قضى القضاء المبرم على آماله فى الشرق ، فتركها الى الروسيا التى أصبحت منذ ذلك العهد أعظم خطر يتهدد الانجليز على حدود الهند الشمالية . ومما سبق يتضح أن نابليون ، بدلاً من أن يهدم مجد الانجليز فى الهند ، كان عاملاً خفيًا (بالواسطة لا بالذات) على ازدياد سلطانهم و بسط نفوذهم فيها . فان مشروعات نابليون كانت أكبر وازع دفع اللورد ولزلى أثناء ولايته على تلك البلاد الى توجيه عنايته نحو الأصقاع الداخلية الشاسعة ، مما أدى الى اخضاع كل الولايات الاسلامية وولايات المهراتا أو التحالف معها ، ولاسيما التى كانت تقف فى سبيل بسط سلطان الانجليز المطلق فى الهند

تأثير مرامى نابليون فى خفظ الهند

الثورة الهندية

ضم املاك جديدة

أخذت أملاك شركة الهند الشرقية تزداد ازدياداً عظيماً فى السنين التى أعقبت حكومة ولزلى ، وذلك بضم ولايات عدة من الولايات الوطنية اليها . ففى عام ١٨٢٦ استولت الشركة على ولايات آسام و « اراكان » و « تِنِسّرِم » بإبرام معاهدة مع ملك برما . ثم رأت الشركة من الواجب عليها تسهيلاً للتجارة أن تفتح نهر السند ، وانه لا يتسنى لها انفاذ هذا المشروع الاَّ بضم ولايات السند الى أملاكها . ولما أبى حكامها فى عام ١٨٤٣ أن ينزلوا عنها للشركة ، سار « السير شارل نِپير » على رأس جيش جرار وأخذها عنوة . وتلا ذلك فتح ولاية « جلوار » التى كانت فى قبضة المهراتا . وقد برر الانجليز اغتصابهم لهذه الولاية بأنها أصبحت ضرورية لحفظ الأمن والسلام فى الأصقاع المجاورة لها ، إذ كانت دائماً فى فوضى واضطراب فى حكم أمرائها الوطنيين . وفى عام ١٨٤٥ سار جيش من « السيخ » الذين كانوا يقطنون البنجاب ، وكانوا أقوى قبيلة حربية دينيــة تسكن الشمال الغربى من بلاد الهند ،

الانجليز والسيخ

وعبر نهر الستلج ودخل الأصقاع الانجليزية . فانتصر عليهم الانجليز فى حربين منفصلتين كانت نتائجهما ان أصبحت بلاد البنجاب ولاية انجليزية

دلهوزى

ولما تولى «دَلْهُوزى» حكم الهند عام ١٨٤٨ رأى آثار الفوضى وسوء النظام فاشية فى كثير من بقاع الهند . فلم يتوان بما فطر عليه من القدرة والنشاط فى الاستيلاء على الولايات المختلة الحكومة ووضعها تحت نظام حكومة الشركة . ففى عام ١٨٥٢ ضم اليها برما السفلى ، حيث كان تجار الانجليز يعاملون معاملة سيئة بدون ترضية من مليكها « أوَا ». وكذلك ضمت الشركة ولاية «أوده» سنة ١٨٥٦. وكانت حكومة هذه البلاد ظالمة غاشمة، حتى صارت فى منتهى الفوضى والارتباك . ولا شك أن كل هذه الفتوح أثارت القلق فى نفوس الولايات الأخرى ، التى كانت لا تزال فى يد حكامها الوطنيين ، وشعر أهلها بالخطر الذى كان يهدد استقلالهم

قلق الهنود

سخط جنود السيبوى

وانضم الى ذلك، وإلى سخط الأمراء المخلوعين، الاستياء الذى عمّ الأجناد الذين انخرطوا من ولاية «أوده» فى جيش الشركة ؛ فكان جانب عظيم من جنود السيبوى من أهل تلك الولاية ، وكانوا قبل ضم أوده للانجليز يتمتعون بميزة عرض مظالمهم على النائب الانجليزى فى مدينة لكنو. فلما ضُمت أوده الى أملاك الشركة مُحى هذا الامتياز، وبذلك قلت رغبة الأهالي فى الانخراط فى سلك الجيش

منشور كريه

وقد زاد خوف أهل البلاد وحكامها عندما أعلن الحاكم العام فى منشور عجيب أنه اذا مات أمير أى ولاية وطنية وليس له وارث يعقبه أصبحت ولايته حقًا للشركة. وقد كان هذا العمل منافيًا للقوانين الهندية التى كانت تبيح وراثة العرش والألقاب لأى فرد يتبناه أو يعهد اليه الحاكم . ومما زاد سخط الأهالى وتألبهم على الانجليز جلب المخترعات الأوربية الحديثة الى الهند واستعمالها، مثل السكك الحديدية والأسلاك البرقية التى كانت تعتبرها الأهالى اعتداء على دياناتهم القديمة . يضاف الى ذلك أحفاظ رجال الدين والمتعصبين بتحريم حرق الأرامل ووأد البنات، وتمسك الحكومة بمعاملة البراهمة معاملة غيرهم اذا اقترفوا ذنبًا من الذنوب. ولا شك أن هذه الأعمال

تأثير المخترعات الحديثة ونحوها

الشعور الديني

كان لها مساس حقيقي بعادات القوم وتقاليدهم الدينية ، وقد كانت الأهالى تنظر شزراً وتفرق هلعاً لانتشار التربية والتعليم الأوربي ولنشر الدين المسيحي فى البلاد، وأيقنوا أن الأوربيين انما يقصدون القضاء على دينهم

تأثير المحرضين

وكانت البلاد مملوءة بالمحرضين على الثورة الذين يجسمون للأهالى عظم مظالمهم. واشتهر من بين هؤلاء «مولوى فيزاباد»، وكان رجلاً ذا مقدرة عظيمة شجاعاً قوى الارادة لا يثنى عزمه شيء . طاف قبيل انفجار الثورة فى الولايات الشمالية الغربية ، معرجاً على دِهلي وميروت وأَجْرا وبَتْنا وكلكتة . فكان أينما حل يبث روح الفتنة بين الأهلين . وفى ابريل سنة ١٨٥٧ نشر مولوى هـذا اعلانات ثورية فى جميع انحاء « أوده » ، فاعتقل وحكم عليه بالاعدام ، ولكنه لما شبت نار الثورة تمكن من الفرار وصار من اكبر زعمائها

على أنه ربما كان من الممكن درء خطر الأهالى اذا لم يسىء الانجليز الى الأجناد الوطنيين ، أو كان لهم فى البلاد جيش يركن اليه من الأوربيين. فانه أثناء الفتوح الحديثة فى الهند ازداد عدد جنود السيبوى زيادة عظيمة ، وذهب الكثير من الأجناد الأوربية لتحارب فى القرم والصين ، حتى انه لما شبت نار الثورة كان عدد جيش السيبوى يبلغ نحو ٢٥٠،٠٠٠ ، فى حين أن الانجليز لم يبلغوا سدس هذا العدد . وكان نظام الجيش فى بنغالة فى حالة لا تبعث على الرضى؛ اذ كان معظم الجنود من البراهمة ، وغيرهم ممن كانوا يأنفون الخضوع الى ضباطهم الوطنيين احتقاراً لهم لأنهم من طبقة أدنى منهم؛ فضلاً عن أن الضباط الانجليز لم يكونوا كلهم مهرة ، بل كانوا يرقون على حسب مدة خدمتهم؛ كذلك انحطت قوة الجيش الانجليزى المعنوية بما ناله من الهزائم فى حروبه مع الافغان . يضاف الى ذلك ان زعماء الثورة وقتئذ كانوا ينشرون الاشاعات الكاذبة عن انهزام الانجليز فى حرب القرم

حال الجيش الاوربي فى الهند

سخط جنود اوده

وكان جيش بنغالة هذا وقتئذٍ من الأجناد الذين جندتهم الانجليز من ولاية «اوده»؛ وقد علمنا ما نال هؤلاء من ضم هذه الولاية الى الانجليز . فلما قامت الحرب فى برما أمر الحاكم العام للهند أن تسير فرقة من هؤلاء الجنود الى الحرب فى تلك الولاية ،

ارغامهم على الخدمة وراء البحار

وذلك مناقض للعهود المبرمة معهم . فامتنعوا عن السير واضطرت الحكومة ان تغضى عن ذلك . ولما تولى « اللورد كاننج » حُكمَ الهند عام ١٨٥٦ أصدر منشوراً أعلن فيه أنه أصبح محتماً على كل من يريد من الوطنيين الانخراط فى الجيش أن يتعهد بخدمة الشركة وراء البحار ، سواء أكان ذلك داخل ممتلكات الشركة أم خارجها ؛ فجاء ذلك ضِغثاً على إبَّالة

بندقيات انفيلد

وحدث بعدئذٍ ما أثار عواطف الجنود الدينية . وذلك أنه فى ربيع سنة ١٨٥٧ أخذ الانجليز يستعملون فى الهند بندقيات « إنفيلد » بدلاً من البندقيات القديمة الطراز . وقد أُشيع وقتئذٍ ان الشحم الذى تطلى به طلقات (خراطيش) تلك البندقيات هو مزيج منْ دهن البقر ، الذى كانت الهنود تقدسه ، ومن شحم الخنزير الذى هو نجس عند المسلمين * . فظن جنود السيبوى ذلك مكراً من الانجليز يريدون القضاء به على تقاليد الهنود وتدنيس المسلمين منهم . وقد نشرت الحكومة تحليلاً كيمياويًا للشحم الذى تُدلك به الخراطيش ، لتثبت للقوم أنه خال من هذين العنصرين ، ولكن عساكر السيبوى أساءوا الظن بضباطهم ، فلم يصدّقوا لهم قولاً

تنبؤ بانتهاء حكم الانجليز

وفى عام ١٨٥٧ كانت دلائل الثورة تنذر بقرب انفجارها . فقد انتشر فى الاسواق تنبّؤ يدلّ على أن حكم الانجليز سينتهى بعد مائة عام ، فرسخ فى ذهن الأهلين أن هذه النبوة ستحقق لا محالة ، وامتنع الكثير من عساكر السيبوى عن استعمال الطلق (الخرطوش) الجديد ، بل أهان بعضهم ضباطهم ، حتى دعا الأمر الى نزع سلاح فرق بأكملها من هؤلاء العصاة وحلّهم

انفجار الثورة

وقد انفجرت نار الثورة علنًا فى مايو سنة ١٨٥٧ فى « ميرات » ، وهى مركز حربى على بُعد ٤٠ ميلاً من « دِهلى » . وكان بهـا فرقتان من السيبوى وبعض الأجناد الانجليزية بقيادة « هوَيت » . وذلك أن ٨٥ جنديًا من الهنود أبوا أن يتسلموا بعض طلقات قُدمت لهم ، مع أنها كانت من النوع القديم . فحوكموا أمام

* من شأن هذه الخراطيش ان تعضها الجنود بأنيابهم قبل وضعها فى البندقيات

مجلس عسكرى ، وحكم عليهم بالسجن مُدداً مختلفة . فاعتبر الجنود الآخرون زملاءهم شهداء وثاروا ، فذبحوا ضباطهم وأطلقوا سراح اخوانهم . وتلت ذلك مذبحة فى

زحف الثوار على دهلى

السكان الانجليز اشترك فيها كثير من الأهلين . وسار الثوار من ميرات زاحفين على « دهلى » ، فلم يبذل القائد هويت أى مجهود للضرب على أيديهم أو اقتفاء أثرهم . ولم يكن فى دهلى وقتئذٍ جنود انجليزية ، بل كان يحميها ثلاث فرق من السيبوى ؛ فبادروا بالانضمام الى الثوار وفتكوا بالسكان الانجليز فتكاً ذريعاً فى الطرقات . ولاذ من هؤلاء فريق بالفرار ، فتحصنوا بربوة بالقرب من المدينة ، ونسف الانجليز مخازن البارود مخافة أن تقع فى يد السيبوى ، اذ كانوا على وشك الاستيلاء عليها

انتشار الثورة

وانتشرت الثورة فى شمالى الهند ؛ فصار أهم مراكزها دهلى وكونبور ولكنو وبنجاب والأصقاع الزراعية من ولاية اوده . ثم سرت عدواها الى أواسط الهند وبنغالة . على ان الامراء الوطنيين لم يكد ينضم منهم أحد الى الثوار ، اللهمَّ الاَّ أمراء المغول فى دهلى و « نانا صاحب » فى كونبور . أما السيخ فانهم بقوا على ولائهم للانجليز .

خلاص البنجاب

وسرعان ما تمّ خلاص البنجاب من الثوار بفضل بُعد نظر قائدها « السيرجون لورنس » وصدْق عزيمته ، فانه نزع السلاح من جنود السيبوى المذبذبين ونظم جيشاً صغيراً من الأجناد الاوربية

وفى هذه الآونة كان الحاكم العام يعمل بعزم وحزم ؛ فكانت النجدات تنزل الى الشاطئ بسرعة وتسير توًّا الى ميادين القتال . فسارت النجدة الى دهلى على جناحى نعامة ، غير أن صعوبة النقل ورداءة الطرق والهجمات التى كانت تتوالى من

نكبة كونبور

العصاة خيّبت أول هجوم على المدينة . وفى كونبور وضع القائد الانجليزى ثقته العمياء فى أجناده الوطنيين وفى نانا صاحب ، فكان فى ذلك الطامة الكبرى ؛ اذ تألبوا عليه ، وبعد أن حاصروه مدة ثلاثة أسابيع اضطروه الى التسليم ، فأبرم معاهدة مع نانا صاحب على أن يحمل ما بقى من الأوربيين بأمانٍ فى النهر الى مدينة الله أباد . فلما تم إنزال هؤلاء التعاس أُضرمت النار فى القوارب التى تحملهم فأفنت معظمهم ،

غدر نانا صاحب

ومن نجا منهم من الموت حُمل الى كونبور ثانية ، حيث أُعدم الرجال رمياً بالرصاص وزج النساء والأطفال فى أعماق السجون القذرة . ولما علم نانا صاحب فيما بعد بقرب وصول المدد لتخليص هؤلاء البائسين أمر بقتلهم جميعاً وألقى برممهم فى بئر . وكان على رأس الجيش الذى أتى للنجدة «هنرى هفلوك» . وكان جندياً محنكاً ، فأخذ يعمل بكل سرعة وحزم . فهاجم الأعداء ببسالة ؛ وكان يشجع جنوده بقوله : « فكّروا فى النساء والأطفال الذين فى قبضة هؤلاء الشياطين » . فلم يمضِ ان هُزم نانا صاحب وجنود السيبوى وولوا هاربين

خلاص كونبور

نجدة لكنو

وبعد أن تم له فتح كونبور طار بجيشه لنجدة لكنو ، لعلمه أنها كانت فى أزمة شديدة . الاّ أنه قد فتكت الأمراض بجيشه ؛ فكان يضطر الى التراجع به من حين لآخر . وفى سبتمبر جاء القائد « أوترام » ليتولى منه قيادة الجيش ، غير أنه أبى الاّ أن تكون القيادة فى يد هفلوك ، ووضع نفسه موضع المتطوع فى هذا الجيش . وكان الأوربيون فى هذه المدينة قد احتموا فى دار الحماية الانجليزية بعد أن حصنوها . فدافعت عنهم هذه الدار مدة ثلاثة أشهر دفاعاً مجيداً حتى أتى لنجدتهم أوترام وهفلوك . غير أن جيشهما كان صغيراً ، فلم يكن الاّ بمثابة مدد لهذه الحامية . ولم يكن فى قدرتهم جميعاً أن يبرزوا لمطاردة جيوش الثوار التى كان يقودها « مولوى فيزاباد » ذلك القائد الماهر . فبقوا كذلك يدافعون عن أنفسهم حتى أتتهم النجدات العظيمة بقيادة السير «كولن كمْبل» ، فسقطت المدينة فى أيديهم فى ٢١ مارس سنة ١٨٥٨

أوترام وهفلوك

الهجوم على دهلى

وفى هذه الآونة كانت الجيوش الانجليزية الأخرى قد هاجمت «دهلى» واستولت عليها . وذلك أن القائد جون نِكِلْسون على رأس جيش عظيم كان قد أعده السير جون لورنس فى البنجاب سار لنجدة القوة الصغيرة التى كانت مخندقة على الرابية الآنفة الذكر . فهاجم نكلسون المدينة من جميع نواحيها الأربع ، وتمكن بهذه الخطة من دخول البلد من ثلاث جهات ، الاّ الرابعة فانه رُد على أعقابهِ فيها . فهاجم هذه الجهة من داخل البلد ، حيث كانت النيران الكثيفة تنهال عليه من نوافذ البيوت ،

سقوط دهلى

وجُرح هو أثناء ذلك جرحاً مميتاً. ولكن بعد ذلك بخمسة أيام خضعت تلك الجهة، وصارت كل دهلى فى قبضة الانجليز.

سقوط أوده

أما أوده فانها قاومت مدة قبل أن تسلم. ويرجع الفضل فى الاستيلاء عليها لمهارة السير كولن كمبل. وفى أواسط الهند كانت الجنود الانجليزية تكافح الثائرين، وما زالوا بهم حتى أخمدوهم. وبذلك قُضى على كل أركان الفتنة فى الهند

اخماد الفتنة

ومع أن الانجليز تمكنوا بهذه الكيفية من الضرب على أيدى الثائرين، لم يستتب النظام ويرجع الأمن تماماً الى نصابه الا فى أواخر عام ١٨٥٩، وذلك بعد أن تغير نظام حكومة الهند تغيراً كلياً. فانتهى حكم شركة الهند الشرقية لبلاد الهند عام ١٨٥٨، وأصبحت هذه البلاد عمالة انجليزية تحت سلطان الملك ذاتاً، وأصدر مجلس النواب الانجليزى قانوناً خاصاً بحكمها. وهو أن توضع ادارة الهند فى يد هيئة مشكّلة من وزير ومجلس مكوّن من خمسة عشر عضواً، يختار سبعة منهم مديرو الشركة، والثمانية الباقون تعيّنهم حكومة انجلترة. أما الحاكم العام فانه صار والياً، واندمج العساكر الذين كانوا فى خدمة الشركة فى جيش الملكة. وفى أول نوفمبر سنة ١٨٥٨ أصدرت الملكة فكتوريا منشوراً الى جميع أمراء الهند ورؤسائها أعلنت فيه أنها تحافظ كل المحافظة على ما بينها وبينهم من عقود الودّ والمهادنة، وأنها ستحافظ على حقوقهم وهيبتهم وشرفهم كأنهم شخصها، وأنها لا تسمح بالتعدى على حقوق أى واحدٍ منهم، وأن الروابط التى تربطها برعاياها الآخرين وما يجب عليها لهم يكون لهم مثلها. وكذلك وعدت سكان الهند بوجه عام أن تمنحهم الحرية التامة فى معتقداتهم الدينية، وأن يدخلوا خدمة الحكومة بدون مراعاة لدينهم اذا برهنوا بتربيتهم وتعلّمهم واستعدادهم وقدرتهم واستقامتهم أنهم أهل لذلك. وأعلنت جلالتها فوق ذلك أنها ستراعى فى تنفيذ القوانين تقاليد البلاد القديمة وعاداتها. وأنها كذلك ستستعمل الرأفة مع كل المذنبين (فى هذه الثورة)، الاّ من ثبت عليهم الاشتراك فى قتل الرعايا الانجليز، وأنها ستحلّ محل الاعتبار أمر كل من خرجوا عن الولاء للانجليز وقاموا مع الثائرين

تغيير نظام الحكومة

منشور الملكة فكتوريا

مخدوعين بما كان ينشره ذوو الأغراض من الأراجيف ، وأن من يخضع لسلطانها قبل حلول أول يناير سنة ١٨٥٩ يُمنح عفواً تاماً بلا شرط ولا قيد

ولم يحاول سكان الهند منذ اخماد هذه الثورة أن ينزعوا عنهم حكم الانجليز . فلم يحدث فيها من الأمور ما يستحق الذكر ، فوق أنها سُميت « عاهلية » (امبراطورية) عام ١٨٧٦ (وذلك من أعظم أعمال اللورد بيكنزفيلد) ؛ وتُوّجت الملكة فكتوريا عاهلة (امبراطورة) عليها فى أول يناير سنة ١٨٧٦ . وقد قام باعلان هذا النبأ رسمياً حاكم الهند العام اللورد « ليتون » بين جم غفير من أمراء الهند القابضين على زمام الأمور فيها ، فى اجتماع شائق أقيم احتفالاً بهذا الأمر الخطير . ولا غرابة أن يطلق هذا اللقب على هذه الأراضى الفسيحة الأرجاء ، التى تضم بين جوانحها نحو ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس ، منهم نحو ٢٢٠ ألف ألف تحت سلطان الانجليز المطلق ، ونحو ٦٧ ألف ألف يقطنون الولايات الوطنيـة يحكمهم حكام وطنيون تحت حماية الانجليز . وهؤلاء خاضعون فى عظام الأمور لنصائح العمّال الانجليز المقيمين فى حاضرات تلك الولايات

تتويج فكتوريا عاهلة على الهند

على أن مجهودات انجلترة فى تلك الجهات أثناء القرن التاسع عشر لم تقتصر على اتمام اخضاع الهند نفسها ، بل استولت على بعض البلاد المجاورة للهند . فضمت اليها برما فى الجهة الشرقية ، وبلوخستان من جهة الغرب ، الآ جزءاً منها وُضع تحت حمايتها . وكذلك أصبح لها شبه حماية على بلاد الأفغان ، وكان ذلك نتيجة حربين قامت بينهما : الأولى من ١٨٣٩ الى ١٨٤٢ ، والثانية من عام ١٨٧٨ الى ١٨٨٠

الانجليز والبلاد المجاورة للهند

الفصل الثالث

استراليا وزيلندة الجديدة

ضخامة استراليا

يعتبر المؤرخون أن أكبر عمل قامت به دولة برطانيا فى القرن التاسع عشر هو تكوين دولة عظيمة لها فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية تدعى أستراليا. وهذه الدولة تكاد تضارع الولايات المتحدة فى اتساع رقعتها ، وتمتاز عنها بأن كل سكانها تقريباً من العنصر الانجليزى

الهولنديون فى استراليا

على أن أول من طرق شواطئ هذه البلاد من الأوربيين هم الهولنديون . وقد اوضحنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب كيف أفضى بهم عدم اهتدائهم الى الجهات الخصبة منها الى انصرافهم عنها . وفى عام ١٦٩٩ طاف الملاّح الانجليزى « دَمبير »

دمبير

حول الشاطئ الغربى ، فلم يقع نظره إلاّ على بقاع رملية مجدبة . فكانت نتيجة هذه الرحلة كسابقاتها من الرحلات الهولندية ؛ وبقيت أستراليا مهجورة الى أن طرق أرضها المستكشف الانجليزى العظيم « الكبتن كوك » عام ١٧٦٨

الكبتن كوك

وذلك أنه نيط به فى ذلك العـام الاقلاع مع جماعة من العلماء الى جزيرة « تهيتى » لرصد انتقال نجم الزُّهرَة ، وفى أثناء عودته الى انجلترة شرع فى رحلة استكشافية كان يرمى بها الى الوصول الى آخر حدود تلك القارة الجديدة . فساح حوالى جزيرتى زيلندة الجديدة ، ثم اتجه نحو طسمانيا . فهبت عليه عاصفة رمت به الى الشاطئ الجنوبى الشرقى من أستراليا . فرسا عند خليج « بُتَنِى » (وسُمى

خليج بتنى

بذلك الاسم نسبة الى ما جمعه العلماء هنالك من أنواع النبات الكثيرة) . ثم استقصى الاستكشاف عن كل الساحل الشرقى الى الشمال الأقصى ، واستولى على جزيرة الشمال باسم انجلترة . وقد أحدثت رحلته هذه ضجة عظيمة فى انجلترة ، غير أن الحروب الأمريكية ألهت البلاد مدة عن الالتفات الى هذه القارة

يوسف بنكس

وكان أول من فكر من الانجليز فى استعمار هذه الجهات هو السير « يوسف بَنْكس » أحد العلماء الذين خرجوا فى رحلة كوك . فأشار على الحكومة سنة ١٧٧٩ أن تتخذ خليج بتنى موطناً للمجرمين الذين تريد نفيهم ، وكانت السجون الانجليزية وقتئذ مكتظة بهم . فقامت أول سفينة تحمل الزمرة الأولى من هؤلاء المجرمين سنة ١٧٨٦ بقيادة « الكبتن فليب » . وكانت وجهته خليج بتنى ، ولكنه لما وصل اليه وجد أن المكان غير ملائم ، فتحوّل بمن معه الى موضع مدينة سِدْنى الحالية ، حيث الماء غزير وحيث يكوّن الشاطئ ثغراً من أجمل ثغور العالم . ثم أعلن أن جميع ذلك الشاطئ الشرقى أصبح ملكاً لانجلترة ، لكى لايسبقها أحد الى ذلك ، وسماه « ويلز الجنوبية الجديدة » ، لما رآه من الشبه بينه وبين جنوبى بلاد الغالة بالجزر البرطانية

ويلز الجنوبية الجديدة

المصاعب الاولى

وكانت بوادر هذا الاستعمار لا تبشر بحسن المستقبل ، اذ لم يجد المستعمرون فى الأرض التى نزلوها الخصب المنتظر . فماتت ماشيتهم ، وأصبحوا على هاوية الهلاك . وقد كان «الجبل الأزرق» الذى يبعد نحو ٦٠ ميلاً من «سِدنى» عائقاً للمستعمرين عن التوغل فى الداخل ، ما لم تتكبد الحكومة نفقات جمة فى هذا السبيل . ولم تكترث الحكومة الانجليزية وقتئذ بأمر هذه المستعمرة الجديدة ، لغلّ يديهـا فى الحرب مع فرنسا

اقدام الكبتن فليب

اعترضت « الكبتن فليب » (أول حاكم لهؤلاء النزال) هذه المصاعب ، فلم ييئس من التغلب عليها . إلاّ أنه تحقق أن هذه الأصقاع لايرجى لها النجاح أو القيام بحاجة النازلين فيها ما دامت مجرد مهبط للمجرمين . فأشار على الحكومة الانجليزية أن ترسل اليها نزلاء أحراراً يستخدمون المجرمين فى أشغالهم مدة سنتين أو ثلاث ، حتى اذا استقرت حالتهم المالية دفعوا للحكومة ضرائب بها تتمكن من استيفاد مجرمين آخرين

عدم قصر المستعمرة على المجرمين

ومع أنه ترك البلاد عام ١٧٩٣ قبل أن يبرز مشروعه الى حيز الفعل ، لم تلبث الحكومة الانجليزية أن عملت برأيه ؛ وفى العام التالى وصل الى أُستراليا أول وفد من النزلاء الأحرار . وبعد أن ترك فليب أُستراليا ارتبكت أحوال المستعمرة كثيراً ؛ إذ أخذ

الاضطراب بعد فليب

الجنود الذين أرسلتهم الحكومة لحفظ الأمن يحتكرون التجارة ويعيثون فى الأرض فساداً. فلم يكن للحكام الذين أتوا على اثر فليب همّ الاّ السعى فى وقف تلك الرذائل

على أنه حدث فى هذه المدة أمرٌ كان له اكبر أثر فى تقدم هذه البلاد وثرائها بعدُ. وذلك أن « الكبتن جون مَكارْثَر » أحد ضباط هذه الفصيلة اهتم بتربية الأغنام فى هذه البلاد ، فأثمر عمله أيّما إثمار ، وقفا اثره الكثيرون . فأينعت هذه المهنة . وصارت منذ ذلك الحين من أعظم موارد الثروة فى ويلز الجنوبية الجديدة

مكارثر وتربية الاغنام

وفى مدة حكم بلاى (١٨٠٦ – ١٨٠٨) حدث شحناء بينه وبين بعض ضباط الفصيلة ، فانضم الأجناد الى جانب الضباط ووثبوا بالحاكم ، وبعد أن سجنوه مدة سيروا به سفينة الى انجلترة . وعند ذلك اهتمت الحكومة الانجليزية بالأمر ، فأعادته الى منصبه وحلت هذه الفصيلة . ثم تولى الأمور فى البلاد « لاشلان مكْوارى » الذى حكم من ١٨١٠ الى ١٨٢١ . ويعتبر حكمه فاتحة لعصر جديد فى تاريخ تلك المستعمرة

مكوارى

النزلاء الاحرار

فمن وقتئذٍ شرعت الحكومة فى جعل المستعمرة موطناً للنزلاء الأحرار ، فانتهى بذلك دور المجرمين . وتفرغ مكوارى (شيخ المستعمرين فى هذه القارة) لتوسيع نطاق المستعمرة وتنميتها . وكان الحكام من قبله فى الحقيقة يعوّقون ذلك ، بحجة أنهم لم يأتوا الى هـــذه البلاد الاّ لرقابة المجرمين . ومن أهم أعمال مكوارى اتباعه سياسة جديدة مع المجرمين ، فبدلاً من أن يعاملهم معاملة الأرقاء ، رأى أن يحررهم فى أقرب زمن ممكن ، وأن يشجعهم على استيطان هذه البلاد بعد انتهاء مدتهم ، ويساعدهم على أن يرفعوا من شأنهم بمــا يظهرونه من الجد فى حياتهم الجديدة ، وبذلك وُجدت بالبلاد طبقة جديدة تدعى « المعتوقين » . وقد أحْفظت هذه السياسة المستعمرين الأحرار الذين هاجروا من انجلترة ، اذ كانوا يحتقرون المعتوقين ، وانكروا ما أظهره الحاكم من الميل اليهم . وسنعود الى ذكر القلاقل التى نشأت من ذلك

اصلاح حال المجرمين

غضب الاحرار

وفى مدة مكوارى اتسع كذلك نطاق المستعمرة بتوغل المستعمرين فى الداخل ؛

التوغل فى الداخل

فانه أرسل فى عام ١٨١٣ بعثاً للاستكشاف عن ممر فى الجبل الأزرق ، وكان يعتقد ان وراءه المراعى النضرة لتربية الأغنام . وقد تحققت آماله ؛ فبعد انقضاء ١٧ يوماً كلها تعب ونصب عبر رجال البعث هذا الجبل ، ووجدوا وراءه مراعى خصيبة واسعة الارجاء سُميت « سهول باثورسِت » ، وفيها أُسست مدينة باثورست . ثم جاءت الاستكشافات تترى ، فتم فى هذه المدة كشف وادى نهر لاشلان ونهر مكوارى واقليمى برّيما وجُنْبِرن حتى منابع « نهر الثلج »

بعض الاصلاحات

وفى عصره أيضاً تمت بعض اصلاحات داخلية ذات بال ؛ فأُلغيت الاحتكارات التجارية ، وزيد فى الأراضى المزروعة ، وأُسس مصرف ويلز الجنوبية الجديدة . غير أن ما تطلبته هذه الاصلاحات وغيرها ، وما أظهره الحاكم للمعتوقين من الميل ، دعا الى رفع الأحرار من المستعمرين شكايتهم الى الحكومة الانجليزية . فاستدعته سنة ١٨٢٢؛ فغادر المستعمرة ، وقد تضاعف عدد سكانها أربعة أضعاف ، ومساحة رقعتها عشرين مرة .

التقدم والسكينة

وتلا عهد مكوارى عصر تقدم وسكينة واتساع عظيم فى أرجاء المستعمرة ، يمتد من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٤٠ ، ويتميز بعدة أمور ، من أهمها ازدياد الهجرة الى هذه البلاد ، ومناهضة المعتوقين والنزلاء الجدَد لأحرار النزلاء الأقدمين ، وسرعة انتشار تربية الأغنام وانتاج الصوف ، وتأسيس مستعمرات جديدة ، وتغيير نظام الحكومة بحيث يلائم الأحوال التى نشأت عن تلك النهضة الجديدة . ففى عهد الحاكمين « برِسْبِين » (١٨٢٢ - ١٨٢٥) و « السير رَلْف دَرْلنج » (١٨٢٥ - ١٨٣١)

زيادة المهاجرين

ازداد عدد المهاجرين ازدياداً عظيماً ، لِمَا حدث فى انجلترة من قلة العمل . فأخذ العمال يفدون الى هذه المستعمرة التى كانت الحاجة فيها ماسة الى العمال لنمو صناعة انتاج الصوف . فانحاز المهاجرون الجدد الى جانب المعتوقين ، وأخذوا يناهضون الأقدمين من النزلاء الأحرار الذين كانوا يرغبون فى القبض على زمام الحكومة والاستئثار بالأراضى . وقد ساعد على تقدم صناعة انتاج الصوف فى هذه المدة الاستكشافات

استكشافات جديدة

الجديدة التى أفسحت للقوم مراعى واسعة ، ففى عام ١٨٢٧ كُشفت جهات خليج مورتون فى الشمال ، ثم نجاد «دَرْلنج دَوْنز ». فكان ذلك مبدأ مستعمرة « كوينزلندة » .

مبدأ كوينزلندة

أما جهات الجنوب فقد كُشف فيها نهر المرّى والسهل العظيم الذى صار فيما بعد مستعمرة فكتوريا . وكذلك فى الغرب كَشف « استِرت » نهر الدرلنج ونقطة تلاقيه « بالمرّى » . فساعدت كل هذه الكشوف نموّ صناعة انتاج الصوف الذى كان يلاقى رواجاً عظيماً فى أسواق انجلترة . ولما رأى درلنج الحاكم وقتئذ اقبال القوم على الأرض أخذ يبيعها لهم بالمال ، بعد أن كانت تعطى لهم منحاً ، وخصص ثمنها للانفاق على جلب العمال والصناع الى المستعمرة

انتاج الصوف

مبادىء الحكم الدستورى

وبعد أن خطت المستعمرة هذه الخطوات الواسعة فى سبيل التقدم وازدياد النزلاء بها ، أصبح من المستحيل أن تبقى محكومة كمنفىً للمجرمين ، وصار من الواجب التخفيف من سلطان الحاكم المطلق . فحدث أول تغيير فى ذلك عام ١٨٢٣ ، اذ تألف مجلس تشريعى من خمسة أعضاء الى سبعة ، ينصبهم الملك ويستشيرهم الحاكم العام فى حكم البلاد . وفى عام ١٨٢٨ وُسع نطاق هذا النظام ، فزيد فى عدد أعضاء المجلس ، وأصبح لا يقل عن عشرة ولا يزيد على خمسة عشر ، على أن يكون فى يدهم مراقبة كل دخل البلاد من المكوس ، وزيد من نفوذهم فى الأمور الأخرى

الولايات الجديدة المستقلة

على أن أهم مظاهر هذا العصر فى تاريخ أستراليا هو تأسيس ولايات جديدة فى هذه القارة ونموّها مستقلة عن المستعمرة الأصلية . وكانت أول ولاية فُصلت عن ويلز الجنوبية الجديدة هى جزيرة «طسمانيا» : خَوّل لها ذلك قانون سنة ١٨٢٣ ومنحها مجلساً تشريعياً خاصاً بها . وكانت تسمى وقتئذ أرض « فان ديمن » ، ومعظم نزلائها من المجرمين ، ولذلك عند ما مُنحت أستراليا حكومة نيابية سنة ١٨٤٢ لم تنل أرض فان ديمن حظها من الدستور . وفى القارة نفسها أُسست مستعمرتان جديدتان فى عهد الحاكم « بورك » . ففى عام ١٨٣٧ وسّع نطاق « بُرْت فليب » (موضع مدينة ملبورن الحالية) لما رآه من كثرة الوافدين على ويلز الجنوبية الجديدة ، وجعلها عمالة

طسمانيا

فكتوريا

منفصلة ، وهى التى سميت فيما بعد « فكتوريا » باسم الملكة فكتوريا التى اعتلت عرش العاهلية الانجليزية فى نفس العام الذى أسست فيه . وسميت حاضرتها ملبورن باسم رئيس الوزارة الانجليزية وقتئذ

استراليا الجنوبية

أما ثالث مستعمرة منفصلة فهى «أستراليا الجنوبية» أسست سنة ١٨٣٦ وسميت عاصمتها « أدليد » باسم الملكة زوج وليم الرابع . وكان العامل على انشائها رجل يدعى « ويكفيلد » أراد أن يوجد فى أستراليا طبقة تسيطيرية (أرستقراطية) ، اذ رأى أن النزلاء يكادون يكونون جميعًا من عامة القوم . وكانت خطته أن تبيع الحكومة الأراضى للأغنياء بأثمان عالية وتجلب بما تحصّله من ذلك عمالاً فقراء . فأسست شركة لهذا الغرض ، وبعد أن كاد المشروع يحتضر ، لوقوع الشركة فى أزمة مالية شديدة ، ثبتت قدمه ثانيةً بفضل حاكم المستعمرة « جورج غراى »

استراليا الغربية

وكذلك أنشئت مستعمرة أُخرى غربى أستراليا أُطلق عليها اسم «أستراليا الغربية» وقد لاقى نزلاء هذه المستعمرة صعوبة فى أول الأمر لقلة العمال ، فأخذوا يتركونها وهاجروا الى المستعمرات الأخرى ، فبادرت الحكومة الى ارسال المجرمين اليها ، فأخذت المستعمرة تتقدم شيئًا فشيئًا حتى أصبحت غنية مثمرة . ولم ينقطع ارسال المجرمين اليها حتى سنة ١٨٦٥ ، اذ كان لا غنى لها عنهم للقيام بالأعمال الزراعية وغيرها

زيلندة الجديدة

أما زيلندة الجديدة فاستوطنها فى بادئ الأمر عصابة من العارين من المجرمين ولصوص البحر ، فنزلوا «الجزيرة الشمالية» . وكان يسكن هذه الجهات قوم متوحشون من أكلة الانسان يقال لهم « الماورى » . فعاق ذلك وفود النزلاء الى هـذه الأصقاع ، حتى قام مبشر من ويلز الجديدة فى عام ١٨١٤ وأسس محطة تبشير فى « خليج الجزائر » ، فلم يصادف نجاحًا بادئ بدء ، ولم تساعده الحكومة الانجليزية حتى عام ١٨٣٣ ، اذ أرسلت حاكمين من قبلها لحفظ النظام هناك . وكانت انجلترة وقتئذ تخشى فرنسا لئلاَّ تستولى على زيلندة ، ولذلك أسرعت الى تأسيس « شركة زيلندة الجديدة » سنة ١٨٣٩ ، فأخذت تشترى الأراضى من رؤساء الماورى . وفى

عام ١٨٤١ أصبحت زيلندة الجديدة مستعمرة قائمة بذاتها ، وحاضرتها اوكلندة .

النزاع مع السكان الاصليين

وقد قام النزاع طبعاً بين الشركة والسكان الأصليين من جراء امتلاك الأراضى وأدى ذلك الى نشوب حرب ، كادت تكون عامة لولا حزم الحاكم « غراى » (١٨٤٥ — ١٨٥٣) ، فانه أخمد نار الفتن فى الجزيرة الشمالية وأرضى أهل البلاد، وحماهم من عسف الشركة. أما فى جزيرة الجنوب فلم يكن النزاع شديداً، لقلة الأهالى فأثرت البلاد وأُسست فيها المدارس والكنائس ، وازداد وفود المهاجرين اليها

الدور الثالث لاستراليا

وعندئذٍ يبتدئ الدور الثالث من تاريخ هذه القارة (١٨٤٠ — ١٨٥٥) وهو يمتاز بأربعة أمور عظيمة. أولها إبطال ارسال المجرمين الى القارة نفسها من سنة ١٨٤٠ ؛ وثانيها منح الحكم النيابى أولاً فى ويلز الجنوبية الجديدة عام ١٨٤٢، ثم فى مستعمرات فكتوريا وأستراليا الجنوبية وأستراليا الغربية ؛ وثالثها العثور على الذهب فى ويلز الجديدة وفكتوريا : مما سبب زيادة الوفود الى هذه البلاد ، ورابعها منح أستراليا حكومة مؤاخذة عام ١٨٥٣

٤ حوادث عظيمة

ارتباطها

وكل هذه الأمور مرتبطة بعضها ببعض تمام الارتباط؛ فمثلاً نيل أستراليا حكومة ذاتية يستدعى أن تقف الحكومة الانجليزية عند حد فى ارسال المجرمين اليها ، ومن جهة أخرى اذا كفّت الحكومة يدها عن ارسال هؤلاء المجرمين فمن أين يؤتى بالعمال للقيام بالعمل فى هذه الجهات. من أجل ذلك عينت الحكومة لجنة للنظر فى هذه الأمور ، فبقيت منعقدة من سنة ١٨٣٧ الى ١٨٣٨؛ ثم أشارت على الحكومة بإبطال ارسال المجرمين الى ويلز الجنوبية الجديدة فى أقرب فرصة ، فوافقت انجلترة على هذا الرأى وقصرت ارسال المجرمين على أرض « فان ديمن » وجزيرة «نُرفوك » ؛ فأصبحت طسمانيا مهبط المجرمين من سنة ١٨٤٠، الى أن حُرّم ذلك فيها عام ١٨٥٢، فابتدأت هى أيضاً طوراً جديداً فى تاريخها *

١ — ابطال ارسال المجرمين

٢ — الحكم النيابى

وأما الحكم النيابى فقد أُدخل مبدؤه فى أستراليا لأول مرة عام ١٨٤٢ على إثر

* وقد ذكرنا آنفا أن وفود المجرمين الى استراليا الغربية بقى مباحا الى سنة ١٨٦٥ ، ولكن ذلك كان برغبة النزلاء ولشدة احتياجهم اليه

في ويلز الجنوبية الجديدة

ابطال ارسال المجرمين الى ويلز الجنوبية الجديدة ؛ فتألف في ويلز الجديدة مجلس تشريعي لم تكن كل أعضائه منصبة من قبل الحكومة البرطانية ، بل كان مكوناً من ٣٦ عضواً ، ينصب ملك انجلترة منهم اثنى عشر ، ويختار النزلاء ٢٤ ، على شرط أن لا يكون أكثر من نصف الأعضاء المنصبين من عمال الحكومة . وقد قُصر حق التصويت لاختيار الأعضاء على الملاك الذين يبلغ دخلهم ٢٠٠ جنيه في السنة ، وعلى الذين يقطنون منازل لا يقل أجرها عن ٢٠ جنيهاً في العام ، وجُعل من حق هذا المجلس أن يشرع القوانين ويراقب دخل المستعمرة عدا خراج الأرض . وبقي لحاكم المستعمرة الحق في حفظ مبلغ سنوي يتصرف فيه في شؤون الحكومة المحلية ، كما بقي الأعضاء لا يملكون عزل الوزراء من مناصبهم . وقد أسفر هذا النظام عن النجاح . ثم سرى عام ١٨٥٠ الى طسمانيا وجنوبي أستراليا وفكتوريا بمقتضى قانون جديد ؛ وصار بالبلاد أربع ولايات مستقلة بذاتها تتمتع بالحكم النيابي . وتلتها أستراليا الغربية ، إذ نالت هذا الامتياز السياسي سنة ١٨٧٠

سريانه الى غيرها

حكومة زيلندة الجديدة

أما زيلندة الجديدة فكانت تُعدّ منذ نشأتها خارجة عن دائرة أُستراليا : أُدخل فيها الحكم النيابي سنة ١٨٥٢ ، وأُلف فيها اتحاد مركب من ست مقاطعات ، وجُعلت لها جمعية عمومية تشمل مجلسين بدلاً من واحد كما في ويلز الجنوبية الجديدة . فكان المجلس التشريعي يتألف من أعضاء دائمين ينصبهم الحاكم ، ومجلس النواب ينتخبه الأهالي كل خمسة أعوام . وكان للجمعية حق النظر في دخل البلاد بأجمعه ، عدا مبلغ يُحفظ في يد الحاكم لينفق منه على شؤون الحكومة الملكية ؛ وكان لكل مقاطعة حكومة محلية تفصل في أُمورها الخاصة . وقد بقي هذا النظام مرعياً حتى سنة ١٨٧٥ حينما أُلغيت مجالس الاقطاعات وأُسست حكومة واحدة في زيلندة الجديدة

٣ — كشف الذهب

وأما كشف الذهب في أستراليا عام ١٨٥١ فقد كان له في تاريخ هذه القارة أهمية عظمى . وقد كانت الاشاعات تتوالى منذ سنين عدة بوجود الذهب في أستراليا . وكان العثور عليه وقتئذٍ في كليفُرنيا بمقادير وافرة قد دعا المعدّنين الى البحث عن هذا

المعدن فى أستراليا ، لتشابه تركيب تربتها بأرض كاليفرنيا . وعُثر على بعض الذهب فى طينة نهر مكوارى ؛ فلما انتشر هـذا الخبر هرعت الناس الى البحث عن هذا المعدن ، ولم ينسلخ عام ١٨٥١ حتى صار عدد المشتغلين باستخراج الذهب فى اقليم بنديجو وحده يتراوح بين ٤٠٫٠٠٠ و ٦٠٫٠٠٠

تأثيره وحوادثه

وقد ظهر تأثير ذلك بسرعة فى سائر أنحاء البلاد ، فنقص عدد السكان فى أستراليا الجنوبية وطسمانيا نقصاً فاحشاً . وازداد شغف الناس بالبحث عن هذا المعدن حتى ان عمال الحكومة أنفسهم تركوا أعمالهم ابتغاء البحث عنـه . فاختل نظام الحكومة وعطلت الصناعات الأخرى ، واضطرت الحكومة محافظةً على النظام الى زيادة عدد رجال الشرطة ، كما اضطرت الى مضاعفة مرتبات العمال لتستميلهم الى البقاء فى أعمالهم . وقد غلت أسعار الحاجيات ، فلم يعُد دخل الحكومة (على الرغم من زيادته) يكفى للقيام بنفقاتها ، فرأت أن تفرض ضريبة فادحة على استخراج الذهب . فأبى المعدّنون أن تُضرب عليهم الضرائب من غير أن يكون لهم صوت فى حكومة البلاد . وقد اشتد النزاع بينهم وبين الحكومة ، حتى أدى ذلك الى قيام ثورة فى سنة ١٨٥٤ ؛ فأُعلنت القوانين العرفية فى البلاد ، وأخمدت الثورة من غير كبير عناء . ثم عينت الحكومة الانجليزية لجنة للنظر فى مظالم عمال المناجم ؛ فكان من نتائج بحوثها ان نصحت بالغاء المكوس على الترخيص بالتعدين ، على أن يُسدّ نقص دخل البلاد بوضع مكوس على تصدير الذهب الى الخارج . وقد نفـذ معظم هذه الاقتراحات سنة ١٨٥٥ ، وكان من نتائجها ان سادت السكينة فى أراضى الذهب

نتائجه الحسنة

على أن كشف الذهب فى استراليا عاد على البلاد فى آخر الأمر بأحسن النتائج ؛ فان اختلال ميزان الصناعات لم يكن إلاَّ مؤقتاً ؛ ثم أدت كثرة وفود النزلاء الى زيادة الانتاج فى كافة أنواع الصناعات ؛ وأخذت الأموال تنصَبّ الى تلك المستعمرات لترويج المشروعات الجديدة . فمُدت السكك الحديدية لأول مرة (١٨٥٤ — ٥٥) فى ويلز الجنوبية الجديدة وفكتوريا

٤ - الحكومة المؤاخذة

وأما مسئلة الحكومة المؤاخَذَة فكان القوم يسعون اليها من زمن . وخول لهم قانون سنة ١٨٥٠ أن تضع كل مستعمرة مشروع قانون لنظام حكومتها ، على أن يسرى فيها بعد موافقة انجلترة عليه . وقد انصرف الناس عن ذلك مدة عند ما اندفعوا فى تيار البحث عن الذهب . فلما هدءوا بعدُ ، قدّمت كل من المستعمرات الأربع (ويلز الجنوبية الجديدة وفكتوريا وأستراليا الجنوبية وطسمانيا) مشروعها بذلك للحكومة الانجليزية ؛ فوافقت عليها جميعاً عام ١٨٥٥ ، وبها أمّحت القيود التى قُيدت بها الحكومات المحلية عام ١٨٥٠ ، وصارت البلاد تتمتع بحكومات تامة المؤاخذة أمام الأهلين . وفى عام ١٨٥٩ فُصلت «كوينزلندة» عن ويلز الجنوبية الجديدة، وصارت ولايةً قائمة بذاتها على النمط عينه . ونالت أستراليا الغربية هذا الحق سنة ١٨٩٠

اتحاد استراليا

أما مسألة اتحاد كل البلاد تحت حكومة واحدة فلم تلق نجاحاً وقتئذٍ ؛ فسارت المستعمرات على انفراد فى سبيل الرقى ، حتى سُنَّ اتحاد سنة ١٩٠٠

الاسباب التى دعت اليه

وهذا يُعتبر أكبر حادث سياسى فى تاريخ تلك القارة . فقد كانت هذه المستعمرات فى الحقيقة الى هذا الوقت غير مرتبطة بعضها ببعض ، اللهمّ الاّ بتلك الرابطة الواهية التى تجمعهم تحت لواء عرش واحد . على أن المناقشات فى أمر اتحادها اتحاداً متيناً كانت جارية منذ زمن بعيد . وقد كان ثمة من الأسباب القوية ما يحدو بسكان هذه القارة الى الوحدة : منها رواج تجارتها واتساع نطاقها بمحو ما يؤخذ من المكوس على حدود كل مستعمرة ، وحاجة البلاد الى نظام حربى عام لحماية الوطن وما تستفيده البلاد من توحيد القوانين لتنظيم السكك الحديدية وتقرير أجورها ، ومراقبة الملاحة فى الأنهار ورى الأراضى منها ، والفصل فى كثير من المسائل التجارية والصناعية ، فضلاً عن حاجتها الى سلطة عامة تقرّ معاشات للطاعنين فى السنّ ، وتحسم النزاع القائم بشأن مسائل العمال فى أنحاء البلاد . هذا الى أن البلاد كانت تنزع الى الروح القومى الذى أحدثت انقلاباً عظيماً فى دول أوربا خلال القرن التاسع عشر . ولا شك أن هذا الروح كان قد ترعرع فى استراليا ونما ،

فصار الاستراليون يرغبون فى جعل بلادهم صاحبة السيادة فى نصف الكرة الجنوبية .
وقد تمّ لهم مرغوبهم بعد أن احتدمت نار المجادلات فى هذا الصدد مدة عشرة

موافقة انجلترة

أعوام (١٨٩٠ الى ١٩٠٠) دُرست أثناءها الأنظمة الاتحادية المتّبعة فى البلاد الأخرى ، وبخاصة نظام الولايات المتحدة ونظام كندا . فتم الاتفاق على نظامٍ عُرض على مجلس النواب الانجليزى للموافقة عليه ، فأقره فى سنة ١٩٠٠ . وهذا النظام من عمل الاستراليين أنفسهم ، وليس لانجلترة فيه شيء الاّ الموافقة عليه ، اللهمّ الاّ بعض تغييرات ثانوية لم تحتّم انجلترة تنفيذها اذا لم توافق استراليا عليها

نظام الحكومة

وبهذا النظام صارت استراليا اتحاداً مكوناً من ست ولايات ، يدير شؤونها مجلس مؤلف من مجلسين ، وهما مجلس الشيوخ ، ويتألف من ستة أعضاء من كل ولاية ومجلس نواب تنتخب أعضاؤه بنسبة عدد سكان كل ولاية . وقد حُدّت سلطة الحكومة الاتحادية على نحو النمط الذى اتبع فى كندا . وابتدأ العمل بهذا النظام الجديد من أول يناير سنة ١٩٠١

زيلندة الجديدة

ولم تدخل فى هذا الاتحاد مجموعة الجزر العظيمة المعروفة بزيلندة الجديدة . فان هذه البلاد نالت كما أسلفنا حكومة نيابية سنة ١٨٥٢ . وقد ازداد عدد سكانها بعدُ وأخذت تدرج فى معارج الرقى السياسى ، حتى أصبحت أرقى مستعمرة فى المبادئ الديمقراطية فى الدولة الانجليزية .

نظامها يسترعى الانظار

وهذه البلاد بوجه خاص تسترعى الآن أنظار العالم ، لسبقها سائر بلاد الدنيا فى تجريب كثير من مسائل الاجتماع الراقى الذى ينشده معتدلو الاشتراكيين ؛ كالتشريع فى المسائل الخاصة بالعمال ورأس المال وامتلاك الأراضى والتجارة . فأصبحت الحكومة فيها هى التى تدير حركة السكك الحديدية والبرق والمسرة وصناديق التوفير ومحال التأمين على الحياة ، وليس لها غرض فى كل ذلك سوى منفعة الأهلين . وفى عام ١٩٠٣ شرعت فى حفر بعض مناجم الفحم بنفسها ، وهى تراعى فى تمليك الأراضى أن لا تكون الأرض فى يد طائفة صغيرة . كذلك يرمى نظام ضرائبها الى تخفيف

مصالح العمال

العبء على من قلّ دخلهم ، بحيث ترتفع نسبة الضريبة على الفرد كلما زاد دخله ، كذلك فاقت فى قوانينها الخاصة بالصناعة والعمل غيرها من الأمم ؛ فانها عند قيام النزاع بين العمال تحتم التحكيم اذا طلبه أحد الفريقين ، وتجعل قرار اللجنة المحكّمة فاصلاً فى ذلك . ووضعت القوانين الشديدة لمنع أصحاب المصانع من إرهاق العمال ، وخصصت للعمال مصلحة يرأسها أحد أعضاء مجلس الوزراء . واهم واجبات هذه المصلحة أن تجد عملاً للعاطلين ، وتبذل كل مجهود فى أن تزحزح سكان المدن الى سكنى القرى ؛ وسنت الحكومة قانونًا للمعاش سنة ١٨٩٨ (عُدّل سنة ١٩٠٥) على أن يكون لكل رجل أو امرأة يبلغ الخامسة والستين من عمره ويقل دخله عن ستة (ريالات) فى الأسبوع نفقة من الحكومة

الحكم النيابى

وفى مسائل الحكم النيابى نراها فى قمة الحكومات الديمقراطية : لا فرق فيها فى أمر التصويت لانتخاب الهيئات النيابية بين الغنى والفقير ، بل ولا بين الرجال والنساء

الفصل الرابع

فرنسا وهولندة وروسيا فى آسيا

١ — ﴿ الأملاك الفرنسية والهولندية فى آسيا ﴾

نهضة فرنسا الاستعمارية

لما أخذت فرنسا تجدّ فى القرن التاسع عشر فى تكوين دولة استعمارية جديدة لها ، تستعيض بها ما فقدته فى القرن الثامن عشر ، نال آسيا نصيب من هذه الحركة ؛ فكان أفسح مجال لها بلاد « الهند الصينية » . وذلك أن نابليون الثالث تذرّع باضطهاد ملك أنام للمسيحيين من أهل بلاده ، وبقتل بعض المبشرين الفرنسيين فيها ، فشنّ عليه الغارة . وبعد قتال متقطع دام ثمانية أعوام (١٨٥٨ — ٦٧) انتزع الفرنسيون من ملك أنام جميع إقليم « كُشان شين » ، وأعلنوا الحماية على مملكة « كمبوديا » التى فى شماليه

فرنسا فى كشان شين وكمبوديا

وفى أواخر القرن ضاعف الفرنسيون جهدهم فى هذه الجهات؛ فأعلنوا الحماية على أنام نفسها سنة ١٨٨٣؛ وانتزعوا اقليم «طُنكين» من الصين بعد قتال عنيف سنة ١٨٨٥ . ثم تحرشوا بسيام سنة ١٨٩٣؛ فنزلت لهم عن جزء كبير من الأراضى المجاورة لمنطقة نفوذهم ، حتى دخل فيها نهر الميكُنج . وبالاتفاق مع انجلترة عام ١٨٩٦ قسمت بلاد سيام الى ثلاث مناطق نفوذ : الغربية منها للانجليز ، والوسطى حرة ، والشرقية للفرنسيين ، فأصبح لفرنسا بذلك مستعمرة لا يقل عدد سكانها عن عشرين ألف ألف نفس

انام وطنكين

مناطق النفوذ فى سيام

أما الهولنديون فكان مجهودهم فى آسيا فى القرن التاسع عشر مقصوراً على توطيد ملكهم وتوسيع نطاق نفوذهم فى البلاد التى نزلوها أواخر القرن السادس عشر . وأهم هذه الأملاك « جاوة » و « سُومطرة » ؛ وكلاهما كانت قد احتلته انجلترة أثناء حروب نابليون (اذ كانت هولندة حليفته) . فلما أخلاهما الانجليز بعد الحرب تفرغت هولندة لاخضاع جميع أراضيهما؛ ولم تكن قبلُ قد أخضعت من ذلك الاّ بعض جهات . وقد لاقت فى ذلك مقاومة شديدة من أمراء هذه الجهات وسلاطينها من العرب وغيرهم؛ ولكن لم ينتهِ القرن الاّ ولها النفوذ الأعظم فى أرجاء الجزيرتين

الهولنديون فى جاوة وسومطرة

٢ — ﴿ الروسيا فى الشرق ﴾

اتسعت أملاك الروسيا فى آسيا أثناء القرن التاسع عشر اتساعًا لا يكاد يكون له مثيل فى عظمه وأهميته من الوجهتين السياسية والاقتصادية . ويسهل علينا أن نتتبع سير هذا التقدم اذا لاحظنا الأغراض الأصلية التى رمت اليها الروسيا فى آسيا ، وهى ثلاثة : (١) ايجاد منفذ لها على الخليج الفارسى : (٢) فتح طريق برية الى الهند . (٣) امتلاك موان على المحيط الهادى تكون خالية من الجليد طول أيام السنة

شدة اتساع املاك روسيا

اغراض روسيا

فلتحقيق الغرض الأول غزت بلاد القفجاق (القوقاز) العليا والسفلى وضمتها الى أملاكها . ثم بسطت نفوذها على شمالى فارس ، ويقال انها كانت اتفقت سرًّا مع

الغرض الاول

الحكومة الفارسية على أن تستأجر منها مرفأ بندر عباس على الخليج الفارسى ، وتمدّ اليه خطًا حديديًا من شواطئ بحر قزوين مخترقًا بلاد فارس . وقد أشرنا الى مآرب روسيا هذه عند الكلام على التقدم السياسى فى فارس . وقد نالت الروسيا بتقدمها فى هذه الجهاتَ مكانة عظمى فى غربى آسيا ، تجعلها منافساً خطيراً لألمانيا وانجلترة فى مآربهما السياسية والاقتصادية فى آسيا الصغرى والعراق وفارس

الغرض الثانى

وأما الغرض الثانى فلتحقيقه واصلت الروسيا الزحف فى أواسط آسيـا طوالَ النصف الثانى من القرن التاسع عشر: فضمت اليها بلاد التركستان*، ثم توغلت جنوباً حتى بلغت حدودُ أملاكها هضبة البامير، وصارت المسافة بينها وبين الأملاك الانجليزية لا تتجاوز عشرين ميلاً . وهذا ما جعل لبلاد الأفغان أهمية سياسية عظمى ، وحدا بانجلترة الى بذل مجهودات كبيرة فى سبيل تخليص هذه البلاد من النفوذ الروسى وجعلها اقليماً حرًّا يسدُّ ما بين انجلترة والروسيا . وقد وقعت انجلترة من جراء تخوفها من الروسيا فى حرب مع الأفغان نفسها (١٨٣٨ – ١٨٤٢) . ومن أشهر حوادث هذه الحرب وأحزنها ذكرى لدى الانجليز فقدهم جيشاً مؤلفاً من ١٦٫٠٠٠ مقاتل فى أحد الشعاب الموصلة من الهند الى بلاد الأفغان، اذ باد الجيش عن آخره. ولهذا السبب بعينه وقعت انجلترة مع الأفغان فى حرب أخرى (١٨٧٩ – ١٨٨٠)

اهمية الافغان

الغرض الثالث

وأما الغرض الثالث فيرجع تاريخه الى عهد بعيد ، وقت أن احتلت روسيا بلاد سيبيريا الشاسعة . ذلك بأنه فى سنة ١٥٨٠ حسّنت اسرة «سترُوجانوف» الثرية لرئيس عصابة من قوزاق الدون يدعى «جِرماك» الإغارة على البلاد التى شرقى جبال أُورال، وهوّنت عليه أمرها ، مبينـةً ما يناله من الخير الجزيل من فراء تلك البلاد النفيسة ومواردها الكثيرة. فراق جرماك ذلك، وسار بجماعته فى النهر من مدينة «بِرم»

القوزاق فى سيبيريا

---

* كان عدد سكان هذه البلاد وقتئذ نحو ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ بعضهم أقوام رحل وبعضهم مستقرون فى مدن شهيرة مثل سمر قند وبخارى وطشقند . فكان الرحل كثيراً ما يغيرون على سيبيريا ويقطعون على روسيا المواصلة بينها وبين بلادهم . فقامت عليهم . وما زالت بهم حتى أخضعتهم (١٨٤٥ — ١٨٨٥) ، ثم شرعت تصل هذه البلاد باوربا بخط حديدى

حتى بلغوا جبال أورال . وعندئذ تسلقوا هذه الجبال من أحد شعابها الهينة، فوجدوا أنفسهم أمام أحد روافد نهر «أوبى» . فلما رآهم أقوام التتار التى تقطن هذه الجهات ذُعروا منهم، وصاروا يفرون أمامهم كلما سمعوا طلقات بندقياتهم . فهان على القوزاق الأمر، ولم يلقوا صعوبة فى الاستيلاء على بلدة «سيبير» حاضرة التتار (سنة ١٥٨١) ومع أنهم نقلوا حاضرتهم فيما بعد الى مدينة جديدة تسمى «طوبولسك» قد أُطلق على هذه البلاد اسم «سيبيريا» تذكاراً للاستيلاء على حاضرتها الأولى

فرار التتار

ومن ذلك الحين أخذ القوزاق يمعنون فى هذه الانحاء مستعينين بمهارتهم المعروفة فى استعمال القوارب ومزاولة الحرب حتى انهم تمكنوا فى مدة لا تتجاوز عشر سنين من غزو نصف سيبيريا بالرغم من موت قائدهم جرماك فى ساحة الوغى . والتتار فى كل ذلك لم يجدوا الى مقاومتهم سبيلاً . فمنهم من قدَّم لهم الطاعة؛ ومنهم من فرَّ الى الفلوات وانضم الى القبائل الرحّل التى تسكن أواسط آسيا وشمالى الصين . وواصل القوزاق تقدمهم حتى بلغوا نهر لينا سنة ١٦٣٠؛ ووصلوا الى شاطئ المحيط الهادى سنة ١٦٣٣، وأنشأوا مدينة «أُخُتْسك» سنة ١٦٤٨

وصول القوزاق الى المحيط

وفى أثناء ذلك أغار بعض القوزاق على حوض نهر العمور . فوقف الصينيون فى وجوههم، بحجة أن هذه الأرض من أملاكهم . وقد كانت الغلبة للروس فى بادئ الأمر؛ ولكنهم غلبوا على أمرهم سنة ١٦٨٩ على اثر اهتمام حكومة بكين بالأمر، وانصرف القيصر بطرس الأكبر عن هذه الجهات بأطماعه فى غربى روسيا وجنوبيها.

الروس والصينيون على العمور

فتخلى الروس عما احتلوه من وادى العمور سنة ١٦٨٩، ومن ذلك الحين لم يبذلوا مجهوداً جديداً فى هذه الجهة مدة قرن ونصف من الزمان، لم تعمد الحكومة الروسية أثناءها الى استثمار سيبيريا من الوجهة الاقتصادية، واكتفت باعتبارها منفى للمذنبين.

رجوع الروس

سيبيريا منفى

وقبيل منتصف القرن التاسع عشر عادت روسيا الى الاهتمام بالشرق الأقصى على اثر ما لحقها فى أوربا من الفشل فى حوز مرفأ على البحار المطلقة خال من الجليد طول السنة . فأخذت تتطلع الى أن تحرز فى الشرق الأقصى ما لم تحظ به فى اوربا،

تجدد الهمة

وعوّلت على مدّ أملاكها هنالك نحو الجنوب ، حتى تصل الى المنطقة التى تخلو مياهها من الجليد على الدوام . وانتهزت لذلك فرصة نشوب الحرب الانجليزية الصينية (١٨٤٠ – ٤٢)* التى انتهت بنزول الصين لانجلترة عن « هُنج كُنج » وفتح خمسة مرافئ صينية لتجارتها . فتظاهرت روسيا بمظهر الحامية للصين ، وانتزعت منها بعض نقط على حدود منشوريا

مورافييف

وإذ ذاك صمم القيصر على الخطة التى يجب اتّباعها فى توسيع نطاق الأملاك الروسية فى الشرق الأقصى ، وعهد بانفاذ هذه الخطة الى حاكم قادر يدعى « مورافييف » سنة ١٨٤٧ . وفى اثر ذلك أصدر القيصر أمره (سنة ١٨٥١) بأن يخضع جميع الروس النازلين شرقى بحيرة بيكال لنظام القوزاق ، وهو الذى يقضى عليهم بالقيام بالخدمة العسكرية فى مقابل استيلائهم على الأرض . وبعد ثلاثة أعوام أمر « مورافييف »

مجهوداته على حدود منشوريا

ستة آلاف من القوزاق أن يهاجروا من اقليم بحيرة بيكال الى الأصقاع التى أُخذت حديثًا من الصين على حدود منشوريا . وفى هذا العام أنشأ بلدة على مصب نهر العمور ؛ فلم يلق فى ذلك مقاومة من قبائل تلك الجهات . وحاول الانجليز والفرنسيون أن يزعزعوا مركز الروس فيها ، بهجوم أساطيلهم على « بِتْرو بولوفِسك » أحد موانى « كَمْشَتْكا » (أغسطس سنة ١٨٥٤) ، فباءوا بالفشل

ضم شمالى العمور

وبات مورافييف يرقب أحوال الصين ، حتى اذا اشتدت أزمتها باشتباكها مع الانجليز والفرنسيين وقيام الثورة فيها ، حضّ حكومته على أن تطلب من الصين جميع الأراضى التى فى شمالى العمور . فلم تجد الصين بدًّا من اجابتها الى هذا المطلب (مايو سنة ١٨٥٨) ، ورضيت بأن تنظر معها بعدُ فى مصير الأقاليم التى بين مصب العمور وبين الخليج الذى عليه مدينة « فلادِفستُك » الحالية . وقد جدد هذا الاتفاق الأخير نشاط مورافييف وشدّ عزمه ؛ فحشد أقوامًا من القوزاق على نهر « أُسورى » أحد روافد العمور الجنوبية ، وشدد الزحف تدريجًا على الصينيين (وكانوا وقتئذٍ أيضًا

الزحف جنوبا

---

* يرى ذلك مفصلا فى الكلام على تقدم الصين

فلاد فستك

فى حرب مع الانجليز والفرنسيين) حتى اضطرهم الى النزول عن هذه الجهات الجنوبية، التى صارت تُعرف « بالإقليم البحرى »، وفى الطرف الجنوبى من هذا الاقليم شيدت الروسيا ثغر « فلادفستك [1] »، وجعلتهُ قاعدةً لأعمال أساطيلها فى الشرق . وفى أواخر سنة ١٨٦٠ استولى مورافييف على ساحل منشوريا الى حدود كورية . فكأنّ الروسيا قد أحاطت منشوريا بذراعيها، وبقيت ترقب الفرص لابتلاعها

اهمية هذا الاتساع

فيُرى مما تقدم أن الروسيا ضمت اليها هذه الارجاء الفسيحة، من جبال الأورال الى بحر اليابان، بطريقة لا يكاد يكون لها مثيل فى قلة نفقاتها وندرة الدماء التى أريقت فى سبيلها . ولا ننسى أن الفضل كل الفضل فى ذلك راجع الى مورافييف، الذى يُعتبر من اكبر مؤسسى مجد الدولة الروسية الحديثة؛ فقد كان يعرف الوقت الذى

حزم مورافييف

يضايق فيه الضعيف، والحدّ الذى تقف عنده أطماعه : مدّ الشواطئ الروسية حتى بلغت المنطقة الخالية من الجليد، فوقف ثمة ولم يجد من الحكمة الزحف على كورية، خشية أن يثير غضب اليابان فتدخُلَ مع الروس فى حرب لا داعى لها؛ وهو ما حصل بعدُ وأدى الى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ [2]

بعد عهد مورافييف

أما ما بقى من أخبار روسيا فى الشرق بعد عهد مورافييف فيكاد يندمج فى تاريخ تقدم الصين واليابان فى السنين الأخيرة . فليُراجع فى الفصلين الخاصين بهما . ويكفى هنا أن نقول إن الروسيا أخذت منذ سنة ١٨٩١ تنشئ السكة الحديدية الهائلة الشهيرة بسكة حديد سيبيريا، لتصل بين الروسيا وفلادفستك . فلما وقعت الحرب بين الصين واليابان وخرجت منها اليابان ظافرة، منعتها الدول الأوربية بزعامة روسيا من الاستيلاء على بورت أرثر بعد أن نزلت لها الصين عنها . وبعد قليل نالت الروسيا

سكة حديد سيبيريا وفرع خربين

من الصين اذناً بمد فرع لسكة حديد سيبيريا من « خربين » الى بورت أرثر، مخترقاً منشوريا، وسمحت لها الحكومة الصينية بارسال الجنود الى منشوريا لحراسة الخط .

---

(١) ومعناه « المسيطر على الشرق »

(٢) راجع فصل تقدم اليابان

قلق اليابان

فكان ذلك مبدأ النفوذ الروسى فى منشوريا ، ومنشأ قلق اليابان من هذه الوجهة ، وخصوصاً عند ما أخذت روسيا تحشد آلاف الجنود فى هذا الاقليم وتتصرف فى موارده الاقتصادية كأنه ولاية روسية . وزاد حقدها بعد أن استأجرت روسيا من الصين ثغر بورت أرثر (١٨٩٨) الذى حُرمت هى منه بزعم أن وجود أجنبى فيه يهدد سلامة الصين والشرق عامة

تنبه الدول الى اطماع روسيا

وفى هذه الأثناء تنبّهت الدول الأوربية الى شدة نشاط الروسيا وكثرة استعداداتها فى منشوريا ، وأيقنت أنها تنوى ضمها اليها ، فطلبت اليها حدّ أجل للجلاء عنها ، فلم تجب بجواب شاف . فاغتنمت اليابان الفرصة وتشددت عليها فى طلب الجلاء ، ثم أعلنت الحرب عليها . وقد أوضحنا ذلك مفصَّلاً فى فصل تقدم اليابان

الفصل الخامس

« اقتسام » افريقية

تأخر كشف الاوربيين لافريقية

لم يعرف الأوربيون فى قديم الزمان من هذه القارة الواسعة الأرجاء الاّ سواحلها الشمالية . وظل الحال كذلك حتى القرن الخامس عشر ، الذى اتسع فى خلاله نطاق الاستكشافات الأوربية أيّما اتساع . وقد كان من المنتظر أن تكون افريقية دون غيرها من القارات محطّ رحال الكشّاف والفاتحين فى ذلك العصر ، لقربها من أوربا ولكن الأمرَ كان على عكس ذلك ، إذ كان جلّ ما تسعى وراءه أوربا وقتئذٍ هو المال وكنوز الذهب والفضة ، التى وجد الأوربيون منها فى بيرو والمكسيك والهند ما صرفهم عن تلك القارة العظيمة ، التى كانت منهم قاب قوسين أو أدنى ، اللهمَّ الاَّ اذا استثنينا بعض أنزال على السواحل جذبهم اليها كسب المال من طريق اقتناص الرقيق والاتّجار به . وقد ساعد على بقاء افريقية، مجهولة الداخل قلة الأنهار الصالحة للملاحة عند مصابّها ، ممَّا يجعل التوغل فى داخلها وتعرّف مجاهلها من الأمور الشاقة ،

ولا سيما فى عصر لم تتوافر فيه الوسائل العلمية التى بها يمكن التغلب على هذه المصاعب

حالة افريقية سنة ١٨١٥

ولما فرغت دول أوربا عام ١٨١٥ من مشاحناتها العديدة التى عاقت مجهوداتها الضئيلة فى هذا السبيل ، كانت حال افريقية أمامها كما يأتى : جميع الساحل الشمالى الى مراكش (مصر وطرابلس وتونس والجزائر) خاضع لسيادة الدولة العثمانية اسمًا أو فعلاً ؛ ومراكش مستقلة بسلطانها ؛ وعلى الساحل الغربى انزال مبعثرة تخفق عليها الأعلام الانجليزية أو الفرنسية أو الدانمرقية أو الهولندية أو الاسبانية أو البرتقالية ؛ وكانت لدولة البرتقال السيادة على بعض أراضى الساحل الشرقى تجاه جزيرة مدغشقر أما الانجليز فكانت قد استولت على مستعمرة الرأس الهولندية (أثناء حروب نابليون) ومنها أخذت فتوحها تمتد الى الداخل . فكل ما عدا ذلك كان مجهولاً للأوربيين ، وفيه رأوا ميدانًا جديداً واسعًا للاستعمار

توقف الفهم على الكشف

ولما كان الاستيلاء على أنحاء تلك « القارة المظلمة » (كما سمّاها الأوربيون) موقوفًا على كشف مجاهلها ، بقى الاستعمار الأوربى فيها ضئيل السير الى أن مضى على سنة ١٨١٥ نحو ٦٠ عامًا . وأهم ما حدث من ذلك فى هذه المدة مداومة الانجليز مدّ سلطانهم فى جنوبى افريقية ، وتأسيس البوير لجمهوريتهم فى تلك الجهات ، وأستيلاء فرنسا على بلاد الجزائر بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٤٧

فرنسا فى الجزائر

وبيان هذا الحادث أن نفوذ الدولة العثمانية فى تلك البلاد كان قد اضمحلّ منذ أواسط القرن السابع عشر ، فلم يبق لها فيها الاَّ السيادة الاسمية . وفى سنة ١٦٦٩ استبدّ مغيرة البحار (القرصان) بالأمر فى البلاد فطردوا منها الوالى العثمانى وصاروا يولّون عليها رئيسًا من بينهم يقال له «الداى» . ثم كثرت إغارتهم على متاجر الأوربيين وسفنهم فى البحر الأبيض حتى همَّ هؤلاء بالضرب على أيديهم بغزو تلك البلاد . وقد عُرضت هذه المسئلة على ساسة أوربا فى مؤتمر ويانة سنة ١٨١٥ ومؤتمر إكس لاشبل سنة ١٨١٨ ؛ ولكن لم تكن لذلك نتيجة فعلية . ثم حدث ما جعل فرنسا تقدم على الأمر وحدها . وذلك أنه وقع خلاف بين الحكومة الفرنسية وداى الجزائر على بعض

مسائل مالية . أفضى الى اتساع الخرق عنـد ما ثار غضب الداى أثناء مناقشته مع السفير الفرنسى ، فضربه على وجهه بمنشة ذباب فى يده (ابريل سنة ١٨٢٧) . فاتخذت الحكومة الفرنسية من ذلك ومن بعض حوادث أخرى تافهة ذريعة للإغارة على الجزائر ، فسيرت عليها حملة صيف عام ١٨٣٠ . فأخضعت البلاد فى مدة وجيزة وأبعد الفرنسيون منها الداى ومعظم جند الانكشارية

مقاومة عبد القادر

ثم نشبت ثورة يولية فى فرنسا، فوقف تقدم الفرنسيين فى الجزائر فترة، اكتفوا أثناءها باحتلال بعض مدن الساحل . ولمـا عادوا الى فتوحهم عام ١٨٣٣ قام فى وجههم زعيم وطنى يدعى الأمير « عبد القادر » ألّف بين القبائل وجمع كلمتهم على طرد الفرنسيين من البلاد . وقد عظم شأنه فى الجزائر ، وصار صاحب الكلمة فى أنحائها الخارجة عن المنطقة الصغيرة التى يحتلها الفرنسيون . فبقى الفرنسيون معه فى كفاح عنيف نحو خمسة عشر عاماً، الى أن القى سلاحه فى موقعة « سيدى ابراهيم » سنة ١٨٤٧ . ولم يلق الفرنسيون بعد ذلك صعوبة تذكر فى تثبيت قدمهم فى البلاد ، فبقيت من أملاكهم الى الآن

دور الاستكشاف العظيم

أما الاستكشافات التى أخذت ترفع الظلمة عن مجاهل القارة الداخلة فدخلت فى أعظم أطوارها أواسط القرن التاسع عشر ، اذ أخذ الروّاد يمعنون فى مجاهلها ، ويجوبون فلواتها ، مُخترقين لها من عدة جهات ، فأماطوا اللثام للعالم عن بقاع لم يُعرف عنها شىء من قبل . وان المقام ليضيق بنا عن ذكر الأعمال العجيبة التى أتى بها أولئك الكشّاف العظام فى سبْر غَوْر تلك الأصقاع النائية من انجليز وفرنسيين وغيرهم ، وانما نقتصر على الاشارة الى بعض الحوادث الهامة التى كان لها أثر خالد فى تاريخ افريقية

كان أول ما تاقت اليه نفس الأوربى وقتئذ بطبيعة الحال أن يتطلع الى الوقوف على منابع النيل ، ذلك النهر العريق فى الشهرة الذى بقى أمر منبعـه سرًّا غامضاً طول الأزمان السالفة . ففى عام ١٨٥٨ كشف الرحالة الانجليزى العظيم « اسبيك » أحدَ منابعه ، وهو تلك البحيرة العظيمة التى فى جنوبى خط الاستواء ، فأطلق عليها

منابع النيل

اسبيك

اسم « ڤكتوريا نيَنزا » ؛ وبعد ستة أعوام أرسل اسماعيل باشا خديو مصر

صمويل بيكر

« السير صَمويل بيكَر » لكشف هذه الجهات ، فعثر على بحيرة أخرى من منابع النيل سماها بحيرة « ألبرت نينزا »

وأهم من ضرب بسهم صائب ونال شهرة واسعة فى هذا المضمار اثنان . وهما

لفنجستون

« لفِنْجِسْتون » و « استَنلى » . أما الأول فهو مبشر ورحالة عظيم ايقوسى المحتد ، ابتدأ حياته الاستكشافية فى افريقية سنة ١٨٤٠ ، وبقى يكافح مجاهلها حتى لاقى حمامه سنة ١٨٧٣ عند قرية « شيتَمبو » القريبة من شواطئ بحيرة « بَنْجويلو » التى كان قد كشفها من قبل . وكان أهم أعماله أنه تعرّف كل مجرى نهر الزمبيزى وأعالى نهر الكنغو والأصقاع التى حول بحيرتى تنجانيقا ونياسًا ، مخترقًا فى تجواله افريقية من بحر الى بحر ، فى جهات لم يسبقه اليها أحد، فحسر للعالم القناع عن أرجاء جديدة شاسعة الأطراف . وقد استرعى أنظار أُوربا ما قام به هذا الفذ من الكشوف العظيمة ولذلك عندما انقطعت أخباره أثناء احدى رحلاته ، وأُرسل بعث للبحث عنه خشية أن يكون قد ضلّ أو مات ، لفت هذا البعث أنظار أُوربا اكثر من أى بعث قبله فى تاريخ افريقية

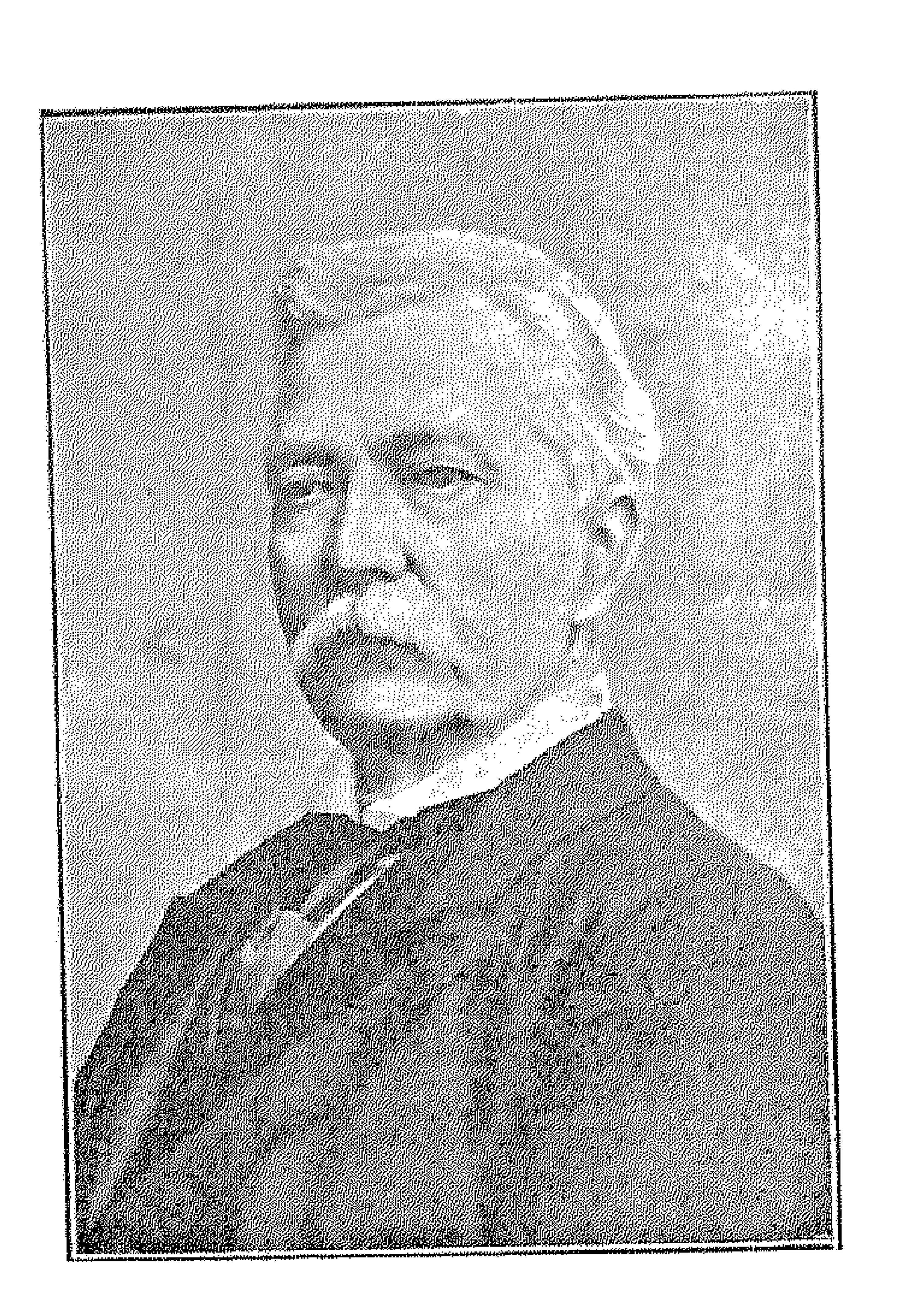
ستنلى وبحثه عن لفنجستون

وقد قام بأعباء هذا البعث « هنرى استنلى » ، أرسلته جريدة « نيو يورك هِرَلْد » فعثر عليه عند « يوجيجى » على بحيرة تنجنيقا (نوفمبر سنة ١٨٧١) وتركه يزاول استكشافه عن أهالى نهر الكنغو . ولما عاد استنلى تهافت الناس على قراءة ما كتبه عن كيفية عثوره على لفنجستون ، وازداد شغفهم بالتزود من أنباء هذه القارة العظيمة . وقضى لفنجستون (شيخ المستكشفين الافريقيين) نحبه سنة ١٨٧٣ قبل أَن يتم بحوثه ، فنقلت جثته بكل حفاوة واجلال الى انجلترة ، حيث احتفل بجنازته ودُفن بين أبطال أُمته فى « وِستمِنستر »

ستنلى فى الكنغو

أما استنلى فانه خرج عام ١٨٧٤ فى رحلة أُخرى ، كان لها اكبر أثر فى تاريخ كشف افريقية : استوعب فيها كشف أقاليم البحيرات الاستوائية ، وتتبع مجرى

الكنغو من أعاليه الى مصبه ، فبلغ المحيط الأطلنطى فى أغسطس سنة ١٨٧٧ ، مبرهناً برحلته أن هذا النهر من أطول أنهار العالم وأعظمها حجماً



استنلى

كمرون

وكان قد سبق استنلى الى افريقية مستكشف انجليزى عظيم يدعى « كمرون » ، أرسلته الجمعية الجغرافية الملوكية لنجدة لفنجستون ، فمات هذا قبل ان يصل اليه . فلما سمع كمرون بذلك أسرع الى موضع وفاته ، وحصل على مصوراته ، على أمل مواصلة كشوفه . الاّ أنه لم يستطع تتبع مجرى الكنغو ، وسار نحو المحيط بطريق جنوبى النهر ؛ فبلغ الشاطئ بعد أن وقف على كثير من أحوال تلك الأقاليم

تنبه اوربا الى افريقية

وفى هذه الأثناء توجهت أنظار علماء أوربا جمعاء الى افريقية ، ورأى فيها المبشرون مجالاً فسيحاً لنشر مذاهبهم الدينية ، وانجذب اليها كذلك أولئك القوم الذين يبغون خدمة الانسانية بالسعى وراء منع الرقيق وتمدين الأمم الفطرية التى لم تمسها نفحات الحضارة . فاتسع نطاق الاستكشاف فى افريقية على أيدى هذه الطوائف ؛ وأخذ

مارب الملوك والسواس

الملوك والسواس يتطلعون الى استخدام مجهوداتهم فى تنفيذ أغراضهم السياسية ؛ إذ رأوا فى افريقية مجالاً فسيحاً للاستعمار ، خصوصاً بعـد أن قطعوا كل رجاء فى استعمار أمريكا الجنوبية التى أصبحت كلها دولاً صغيرة مستقلة تحميها الولايات المتحدة بمبدأ « مُنرو » وبعد أن صارت أستراليا كلها يخفق عليها العلم البرطانى . وقويت آمالهم هذه بفتح قناة السويس ، التي سهّلت لأوربا الوصول الى سواحل افريقية الشرقية

مبدأ التنافس الاوربى

لذلك لم يمض طويل زمن حتى تحولت حركة الاستكشاف الى دور تنافس بين الدول الأوربية فى الاستيلاء على الأصقاع الافريقية ؛ بل اقتسامها بينهم . وتمتاز هذه الحركة الاستعمارية عن سوابقها فى تاريخ الاستعمار بأنها لم تكن مقرونة بالحروب بين بعض الدول وبعض ، بل كان أساسها المفاوضات والمعاهدات التى حُدّت بها دائرة نفوذ كل دولة . وقد جرى امتلاك الأوربيين لافريقية بسرعة عجيبة . فى حين أنه لم يكن لهم فيها منذ ثلث قرن سوى انزال ساحلية ضيقة ، أصبحت هذه القارة الآن وليس فيها من الدول المستقلة سوى الحبشة وليبيريا ومراكش ، وهذه الأخيرة فى حيز المستعمرات الفرنسية

سرعة الضم واختلافه عما سبقه

ليوبلد يفتح باب اقتسام افريقية

وكان أول من فتح للأوربيين باب «اقتسام» افريقية هو « ليوبُلد الثانى » ملك البلجيك ؛ فانه كان يتتبع أخبار كشوف لفنجستون وستنلى وغيرهما بشغف عظيم ؛ وأخذ يعمل على الانتفاع بأمثال هؤلاء الرحّالين فى تكوين دولة له فى الاقطاع الاستوائية . فلما رأى أن الدول الأوربية تنبهت الى مراميه ؛ دعا الى مؤتمر عقده فى بركسل أعضاء يمثّلون فيه انجلترة وفرنسا وبلجيكا وألمانيا والنمسا وايطاليا والروسيا ، لينظروا فى «أحسن الوسائل لكشف افريقية وتمدينها وفتح أبوابها للتجارة والصناعة » (سبتمبر سنة ١٨٧٦) . ولم تكن للمؤتمر صبغة رسمية ، بحيث لم يكن الأعضاء ينطقون بآراء حكوماتهم . وبعد أن تفاوضوا ثلاثة أيام قرّ رأيهم على تأسيس جمعية لهذا الغرض تسمى « الجمعية الافريقية الدولية » ، مقرها بركسل ، ولها لجان فرعية فى

مؤتمر بركسل

الجمعية الافريقية الدولية

تلك الممالك ، تجمع للجمعية ما يلزم لها من المال، وتمدّها بالأعضاء وسائر أنواع المعونة

تحولها الى جمعية بلجيكية

على أن اللجان الفرعية ما لبثت ان أخذت تعمل على انفراد ، كل لتحقيق آمال حكومتها ، وتحوّلت الجمعية الأصلية تدريجًا الى جمعية بلجيكية بحتة . ولم يكد استنلى يرجع من رحلته التى كشف بها مجرى الكنغو عام ١٨٧٨ حتى وجّه ليوبلد كل همه الى الاستيلاء على تلك الأصقاع ، فدعا استنلى لزيارته فى بركسل ، وأسس لجنة لفحص أعالى الكنغو. وفى السنة التالية خرج استنلى الى هذه الأصقاع ، بحجة أنه يساعد تلك اللجنة فى زيادة كشف تلك الأنحاء ؛ والحقيقة أنه ذهب للاستيلاء على حوض الكنغو باسم الملك ليوبلد [1]

تنبه فرنسا

وقد أثار ذلك حسد الدول الأخرى ولا سيما فرنسا ؛ فانها بادرت الى ارسال بعث الى تلك الجهات برياسة « دِى برَزّا » بحجة الاستكشاف عن الجهات التى بين نهر الجابون وبحيرة شاد ، ومقصدها الحقيقى مناوأة ستنلى فى حوض الكنغو [2]

رحلة دى برزا

مطامع فرنسا

وكانت غاية الفرنسيين فى هذه الانحاء الاستيلاء على الأقاليم التى فى شمال نهر الكنغو من جهة ؛ ومن جهة أخرى تحقيق أطماعهم فى مد أملاكهم التى على سواحل البحر الأبيض المتوسط ووصلها بمستعمراتهم التى فى غربى افريقية حتى نهر الكنغو ، فضلاً عن اطماعهم فى مدغشقر. وكانوا قد أعلنوا حمايتهم على تونس سنة ١٨٨١ [3]

ضم تونس

---

(١) ولد استنلى فى بلاد الغالة ببرطانيا العظمى ، ثم ذهب الى أمريكا فى السابعة عشرة من عمره فبقيت وطنا له الى ابتداء حياته الاستكشافية

(٢) كانت فرنسا فى هذه الآونة تجد فى تكوين أملاك جديدة تستعيض بها ما فقدته من مستعمراتها ولتزيل عنها ما لحقها من جراء حرب السبعين التى ذهبت بجانب كبير من مكانتها بين الدول الاوربية

(٣) كانت تونس وقتئذ خاضعة لسيادة الترك الاسمية ، وكان الأمر فيها بيد حاكم من أهلها يقال له « باى تونس » . وطالما طمعت فرنسا فى الاستيلاء عليها ، ولفتت نظر الدول الى الفوضى السائدة فيها ، تمهيداً لضمها اليها . وقد اتفقت سراً مع انجلترة فى مؤتمر برلين الشهير سنة ١٨٧٨ على أن تطلق يدها فيها مقابل موافقة فرنسا على ضم قبرس الى الاملاك الانجليزية . ففى عام ١٨٨١ عبرت الجيوش الفرنسية حدود الجزائر فجاءة بدعوى أنها تريد تأديب احدى القبائل المستقلة عن الباى ، ولكنها زحفت على الحاضرة وارغمت باى تونس على قبول بسط الحماية الفرنسية على البلاد . ولم تعارضها الدول ، الا ايطاليا فانها لم توافق على ذلك الا فى آخر القرن

فكأنهم كانوا بذلك يرمون الى بسط نفوذهم على كل الشطر الشمالى الغربى من القارة

مطامع البرتقال

كذلك قامت البرتقال تنادى بحقوقها القديمة على سواحل غانة واقليم انجولا فى الغرب، وعلى مزنبيق (شرقى افريقية البرتقالى) فى الشرق، وأرادت وصل الاقليمين الأخيرين، حتى يصير لها بذلك نطاق واسع يمتد من شرقى القارة الى غربيها

مطامع انجلترة

وفى هذه الآونة كانت برطانيا العظمى قد صارت صاحبة الأمر والنهى فى مصر (على أثر الثورة العرابية سنة ١٨٨٢)، وامتد سلطانها فى جنوبى افريقية؛ فأخذت وقتئذٍ تسعى قبل كل شيء وراء إحراز منطقة نفوذ لها، تمتد من جنوبى القارة الى شماليها، أى من مستعمرة الرأس الى مصر

مطامع المانيا

أما ألمانيا فبعد أن وطدت دعائم ملكها فى بلادها على اثر حرب السبعين أخذت تدخل مضمار الاستعمار بتلهف الظمآن، وجدّت فى نيل كل ما يمكنها احرازه فى افريقية

مطامع ايطاليا

ولا ننسى ايطاليا، فانها طالما فغرت فاها لطرابلس؛ ولمّا رأت أنها لا تنال ذلك إلا بالحرب، قصرت آمالها مؤقتاً على الركن الشمالى الشرقى من افريقية، حيث كانت ترمى الى بسط نفوذها على بلاد الحبشة

تصادم أغراض الدول

ولما كانت أغراض هذه الدول تتصادم فى كثير من البقاع، عُقد فى برلين مؤتمر دولى سنة ١٨٨٤ للاتفاق على القواعد التى يجب اتباعها فى «اقتسام» افريقية. وكان ملك البلجيك قد بسط نفوذه فى وادى الكنغو، وأعلن الدول أن هذا الاقليم صار مملكة مستقلة حرة تحت رياسته الشخصية (دون حكومة بلجيكا). وكان قد اعترف بذلك بعض الدول. فأقر المؤتمر ذلك، وسُميت هذه المملكة «الكنغو الحرة».

مؤتمر برلين ١٨٨٤

ومن أهم المبادئ التى أقرها المؤتمر ان كل دولة تستحوذ بعد ذلك التاريخ على جزء جديد من افريقية، أو تجعله فى منطقة نفوذها، يجب عليها أن تعلن الدول الأخرى بذلك، وأن لا يُعترف لدولة بالسيادة على جهة من الجهات الاَّ اذا احتلتها احتلالاً فعلياً ذا أثر ظاهر

وأخذت الدول منذ عام ١٨٨٥ تجدّ فى اقتسام افريقية بينها على النمط الذى

أقره المؤتمر؛ حتى أنه لم ينتهِ القرن التاسع عشر إلاَّ وقد فرغت من عملها ، ولم يبق منه الاَّ أمور ثانوية . وكان يقع بينها بالطبع أثناء ذلك شيء من الخلاف ؛ ولكن الفريقين المتنازعين كانا دائمًا يفصلان بينهما بابرام المعاهدات والمراضاة . وان المقام ليضيق بنا عن تتبع تلك الحوادث والمفاوضات سنة بعد سنة ؛ وانما نكتفي هنا بتعيين دائرة نفوذ كل دولة مع ذكر أهم الحوادث التي وقعت أثناء بسطها ذلك النفوذ

مراضاة الدول

الأملاك الفرنسية

فقدت فرنسا ما كان لها من الامتياز في مصر باحتلال الانجليز لها ، ولكنها تمكنت من التسيطر على الشطر الشمالي الغربي من افريقية . ففضلاً عن استيلائها على بلاد الجزائر (التي لا تزال بمشاغبة أهلها عيالاً عليها) وعلى تونس ، نالت بمقتضى الاتفاق المبرم بينهـا وبين انجلترة عام ١٩٠٤ ، وبمقتضى معاهدة « الجزيرة » من بعده عام ١٩٠٦ بعض امتيازات خاصة في بلاد مراكش . وقد حدث في هذه البلاد بعض قلاقل أفضت في سنة ١٩٠٧ الى احتلال « أُوجَة » القريبـة من حدود الجزائر و « كَزابَلَنْكا » (الدار البيضاء) ومقاطعة « شاوة » على ساحل الأطلنطي

اتفاق ١٩٠٤ ومعاهدة الجزيرة ١٩٠٦

وفي عام ١٩١١ اشتد هياج بعض القبائل على سلطان مراكش ، فسارت الجيوش الفرنسية الى مدينة فاس لتأييد نفوذه . وقد أدى ذلك الى معارضة من جانب ألمانيا واسبانيا ، فأرضتهما فرنسا بنزولها لهما عن بعض جهات أُخرى . ثم وضعت حمايتها عليها ، وشرعت تشتغل لتهدئة أحوالها وصبغها بالصبغة الحديثة

فرنسا في مراكش

وقد كانت فرنسا قبلئذٍ أخذت تزحف الى قلب افريقية من جهة السنغال في عهد العاهلية (الامبراطورية) الثانية على يد الحاكم « فيضَرْب » الذي اشتهر فيما بعد في حرب السبعين ، ووالت زحفها عام ١٨٨٠ الى أعالي نهر النيجر ؛ ومع ذلك لم تستول على تمبكتو الاَّ عام ١٩٠٣ . ولما أخذت دول أوربا تنكبّ على استعمار افريقية عزمت فرنسا على توطيد قدمها في ساحل غانة ، فضمت الى أملاكها ساحل

فرنسا على النيجر

على ساحل غانة

العاج عام ١٨٩١ ، ثم فتحت مملكة دَهومى سنة ١٨٩٢ . وفى هذه الأثناء أفلحت فرنسا فى نيل اعتراف من انجلترة بامتداد النفوذ الفرنسى الى بحيرة شاد ؛ فضمنت بذلك أن لا يكون لدولة أخرى نفوذ فى الأراضى التى بين دولتها الجديدة التى على نهر النيجر وبين مستعمراتها التى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط

فرنسا بين النيجر والبحر الابيض

وفى جنوبى ذلك كان لفرنسا بعض أنزال على ساحل الكنغو أُسست منذ عهد لويس فيليب . وفى أوائل عهد الجمهورية الثالثة توغل « دى برزَّا » كما أسلفنا فى داخل هذه الجهات فى الوقت الذى كان فيه استنلى يبسط فيها نفوذ ملك البلجيك، مقتصراً فى معظم رحلاته على الانحاء التى على شواطئ الكنغو الشمالية . ولما اعترف مؤتمر برلين بتكوين ولاية الكنغو الحرة ، أصرت فرنسا على أن تضمّ الى أملاكها جزءاً كبيراً من حوض هذا النهر من الغرب والشمال ؛ فأصبح بذلك سلطانها يمتد من نهر الكنغو الى البحر الأبيض المتوسط . ثم اعترفت انجلترة بنفوذ فرنسا على مقاطعة «واداى» بمقتضى اتفاق أُبرم بين الدولتين سنة ١٨٩٩ * . وبذلك أصبح كل الجهات الشمالية الغربية من قارة افريقية من تونس الى نهر الكنغو، ومن السنغال الى بحيرة شاد ، تحت النفوذ الفرنسى، ذلك اذا استثنينا جمهورية ليبريا والمستعمرات الأوربية الصغيرة التى على الساحل. ولا مشاحة فى أن فرنسا قد أصبحت أُولى الممالك الأوربية فى ضخامة أملاكها الافريقية؛ غير أن معظم مستعمراتها لم يخضع لها بعد، بل لم تقف على مجاهله ، وأن الصحراء الشاسعة الأطراف التى تحت نفوذها لا تُعدّ فى الحقيقة أملاكاً تذكر. وفوق ذلك فان سلطانها مهدّد من السلاطين الاسلامية الذين يحكمون ممالك أواسط افريقية ، وبخاصة السنوسية

فرنسا على الكنغو

فرنسا فى واداى

ضخامة أملاك فرنسا

مسألة فاشودة

* وقبل الوصول الى هذا الاتفاق اشتد الخلاف بين الدولتين على مسألة « فاشودة » الشهيرة . وذلك ان الفرنسيين كانوا يطمعون فى بسط نفوذهم بنطاق يمتد من الكنغو الى ساحل افريقية الشرقى . فسعوا فى الاستيلاء على أعالى النيل ، فخرجت لذلك حملة من برزافيل وسارت شرقا حتى بلغت فاشودة واستولت عليها. وكانت انجلترة تعد هذه البقعة من منطقة نفوذها فغضبت، وكادت الدولتان تمتشقان الحسام ، وأخيراً أبرمتا اتفاق سنة ١٨٩٩ على أن تأخذ فرنسا اقليم واداى وتجلو عن فاشودة

ضم مدغشقر

وقد ضمت فرنسا فى الجهة الشرقية من هذه القارة جزيرة مدغشقر، فانها أعلنت عليها الحماية سنة ١٨٨٥ بعد حرب عنيفة. ولكن الأهالى أبوا أن يدينوا لذلك الحكم، فسيرت فرنسا عليهم جيشًا سنة ١٨٩٥ استولى على حاضرة البلاد «أنتناناريفو»، ثم خُلعت ملكة الجزيرة عن عرشها، وأصبحت هذه البلاد منذ سنة ١٨٩٦ مستعمرة فرنسية

الكنغو الحرة

الكنغو ومؤتمر برلين

ومن أهمّ الولايات التى أُسست فى ذلك العصر فى افريقية الوسطى ولاية الكنغو الحرة، أقرّ مؤتمر برلين (١٨٨٤-٨٥) وجودها على أن تكون مملكة مستقلة تحت رياسة ليوُبلد الثانى ملك البلجيك، وأن تشمل مساحتها معظم حوض نهر الكنغو، وأن تكون دولة حرة، بحيث يكون الاتجار فيها مباحًا لجميع الدول على السواء، وأن لا يضرب فيها من الضرائب الاّ ما تحتاج اليه الحالة لتسهيل التجارة، وأن لا تحظى دولة دون أُخرى باحتكار أى صنف من التجارة فيها. غير أن المؤتمر لم يتخذ العدة لتنفيذ قراراته. لذلك لم تلبث هذه الولاية طويلاً حتى فقدت تلك المميزات؛ وكثرت فيها أنواع الاحتكار، وأصبحت التجارة فى نهر الكنغو مقيدة بقيود قضت على ما كان لها من الحرية الموهومة. وما لبثت أن صارت هـذه المملكة الجديدة بلجيكية محضة. تولى ليو بُلد الثانى مُلك هذه البلاد سنة ١٨٨٥ بموافقة الدول، معلنًا أن الرابطة التى تربط البلجيك بولاية الكنغو مرتبطة بشخصه «اذ هو الحاكم على كليهما»، وأنهما منفصلتان تمام الانفصال. فاستبد بحكمها. ثم أخذ يدير شؤونها كأنما هى ضيعته الخاصة. وفى عام ١٨٨٩ أعلن أنه أوصى بأن ماله فى بلاد الكنغو من السلطان أصبح إرثًا لبلاد البلجيك بعد مماته. ومع أن ذلك كان «يُعدّ انتهاكاً لحرمة العهود التى أُبرمت فى برلين سنة ١٨٨٥ بينه وبين الدول» لم تحتجّ الدول على ذلك؛ وربما دعا الى سكوتها ما كانت عليه مملكة الكنغو من الافلاس، وأن الدول لم تكن مستعدة وقتئذ لمدها بالمال اللازم لحفظ كيانها وتقدمها

افتيات ليوبلد على حريتها

عدم احتجاج الدول

الظلم في الكنغو

وقد كانت سياسة ليوبلد في الكنغو الحرة وقتئذ تدعو الى الاستياء ؛ اذ ساد فيها احتكار الحكومة والشركات الخاصة للسلع والمحصولات ، واستعبد الأهلون استعباداً فظيعاً في استثمار موارد البلاد ، ولا سيما في جمع المطاط ومد السكك الحديدية . وقد توالت الأقاصيص والحكايات التي تطير لها النفوس شعاعاً وتنفطر منها الاكباد جزعاً ، بما كانت تقاسيه النساء والأطفال والرجال من ألوان العذاب الدائم في تسخيرهم في الأعمال ، وتحميلهم مالاطاقة لهم به ، وتقتيلهم وتعذيبهم بالسياط ، حتى كان ذلك سبباً قوياً في نقص عددهم بدرجة عظيمة . وقد حقق انتشارَ هذه الفظائع لجنة ناط بها الملك نفسه فحص هذه المسألة الخطيرة ؛ فدل تقريرها الذى نُشر في اكتوبر سنة ١٩٠٥ دلالة واضحة على أن أولى الأمر في هذه البلاد لم يكن لهم همّ الاّ جمع المال منها بأى طريقة كانت ، دون مراعاة لراحة سكانها . ولما اشتد

تنبه الدول

الكرب في هذه البلاد وتفاقم الخطب ، أخذت بعض الدول العظام تنظر في الأمر ولا سيما انجلترة والولايات المتحدة ، وطلبت الى البلجيك اصلاح حال ولاية الكنغو الحرة . فاضطرت الوزارة البلجيكية و (البرلمان) البلجيكى ، إرضاء للرأى العام في العالم بأسره ، الى الاهتمام بالمسألة . وبعد مفاوضات طويلة ضُمت ولاية الكنغو الى

الكنغو مستعمرة بلجيكية

حكومة البلجيك ؛ فصارت مستعمرة بلجيكية محضة ، خاضعة (للبرلمان) ، لا للحكم الملك كما كانت من قبل

الكنغو وبحر الغزال

ومن المسائل الهامة في تاريخ الكنغو الحرة ما بذله ليوبلد الثانى من المساعى في توسيع رقعتها ، وبخاصة من جهة الشرق ، حيث أرادت أن تستولى على اقليم بحر الغزال وتمد حدودها الى النيل؛ فأوقعها ذلك في نزاع مع فرنسا وانجلترة . فقد كانت فرنسا كما رأينا ترمى الى ضم هذه الجهات ، كما ظهر ذلك بعدُ وقت أن احتلت فاشودة . ومن جهة أخرى كانت انجلترة تعدّ هذه الأصقاع من دائرة نفوذها . فلما احتلت الكنغو الحرة اقليم بحر الغزال عام ١٨٩٠ كان الطريق الى هذه الجهة من مصر مسدوداً في وجه انجلترة ، اذ كان السودان وقتئذ في يد التعايشي . فرأت .

انجلترة أن تعترف لليوبلد باحتلال بحر الغزال مؤقتاً (١٨٩٤) ، ريثما يقضى على آمال فرنسا فى هذه الأقطاع . فلما سُوى الخلاف بين فرنسا وانجلترة على اثر حل مسألة فاشودة سنة ١٨٩٩ ، عادت انجلترة سنة ١٩٠٦ فألغت اتفاق سنة ١٨٩٤ ، وبذلك دخل اقليم بحر الغزال نهائياً ضمن السودان . ولمثل هذه الاعتبارات ضمت انجلترة الى السودان الانجليزى المصرى مقاطعة « لادو » بعد ممات ليوبلد الثانى ، وكانت له السيادة فيها مدة حياته

انجلترة والكنغو

الأملاك الألمانية

مبدأ الاستعمار الالمانى

يرجع ابتداء الاستعمار الألمانى فى افريقية الى عهد السباق الذى قام بين دول أوربا لاستعمار هذه القارة . ففى عام ١٨٧٨ أُسس فرع ألمانى من الجمعية الافريقية الدولية، فقام بكشف ماوراء ساحل زنجبار وجنوبى نهر الكنغو . ولكن أول خطوة خطاها الألمان فى سبيل الاستعمار الحقيقى كانت فى الجنوب الغربى من افريقية ، حيث بقى المبشرون الألمان يعملون سنين عدة بين قبائل « الدمارة » و « الهريرو » ، الى أن أسس « لودَرِتْز » أحد تجار « برِمِن » محطة تجارية عند « أنجرابكينا » فى « دمارالندة » سنة ١٨٨٣. وأعقب ذلك أن أعلن بسمارك وضع الساحل من انجولا الى مستعمرة الرأس تحت الحماية الألمانية سنة ١٨٨٤ . وفى صيف هذا العام أعلن كذلك ضم « توجولندة » (وهى ولاية صغيرة فى شرقى مستعمرة ساحل الذهب الانجليزية) والكمرون ، وهو اقليم كبير فى حِنية خليج غانة ؛ وقد امتد هذا الاقليم بعدُ الى الداخل ، حتى وصلت حدوده الى بحيرة شاد . وفى خريف ذلك العام نزل الدكتور بطرس (اكبر المستعمرين الألمان) فى زنجبار ؛ فتوغل فى داخل البلاد ، وأمضى المعاهدات مع رؤساء القبائل . ثم أسس « شركة افريقية الشرقية الألمانية » ، فأقرتها الحكومة الألمانية غير مكترثة باحتجاجات سلطان زنجبار الشديدة . وفى سنة ١٨٨٦ حُدّدت منطقة نفوذ كل من ألمانيا وانجلترة وزنجبار فى هذه الجهة .

لودرتز

افريقية الجنوبية الغربية

توجولندة الكمرون

الدكتور بطرس فى شرقى افريقية

تقسيم زنجبار

ولما لم تكن الشركة الألمانية ذات سطوة كافية لقمع ثورة قام بها العرب فى تلك الأنحاء سنة ١٨٨٨ ، أرسلت الحكومة مندوباً من قبلها ليتولى ادارة الشؤون فى هذه الجهات . وفى عام ١٨٩٠ اعترفت ألمانيا ببسط الحماية الانجليزية على بلاد زنجبار ، جزاء النزول لها عن جزيرة « هليجولند » فى أوربا ، ومد حدودها غرباً الى ولاية الكنغو. ومن ذلك العهد أخذت مستعمرة افريقية الشرقية الألمانية تتقدم فى سبيل العمران . أما مستعمراتها فى افريقية الجنوبية الغربية فقد عاق تقدمها ما كان يقوم به الهوتنتوت من المشاحّات المستمرة مدة العشرة الأعوام الأُوَل من استعمار تلك الجهات. وبعد انقضاء زمن سادت فيه السكينة انفجرت نار ثورة شديدة سنة ١٩٠٣ قام بها « الهريرو » فى الشمال، فلم يُخمد لهيبها الا سنة ١٩٠٨

حالة الاملاك الالمانية

أملاك البرتقال

القضاء على آمال البرتقال

أما البرتقاليون فانهم مع ما لهم من الأولية فى استعمار افريقية ، لم يتمكنوا من مناهضة الدول الكبرى فى مد سلطانهم فيها . فلما هبّوا لضم الأراضى التى تمكنهم من وصل مزنبيق بمستعمرة انجولا، دعا ذلك الى تحرّش انجلترة بهم؛ فأرسلت الى البرتقال بلاغاً نهائياً تنذرها فيه بالحرب ، اذا لم تقلع عن غيّها سنة ١٨٩٠ . ولكن على الرغم من هذه الصدمة العنيفة، قد أثرت مستعمراتها فى هذه الجهة بمدّ السكك الحديدية فيها الى الداخل ، ولا سيما ان خليج دلاجوة هو المنفذ الى الترنسفال ، وبيرة هى الباب المؤدى الى روديسيا

ثراء أملاكهم فى الشرق

الأملاك الانجليزية فى افريقية الوسطى

ضم أشنتى

نمت المستعمرات الانجليزية فى افريقية الوسطى بسرعة لا تقل عن مثلها فى شمالى القارة أو جنوبيها. ففى عام ١٨٩٦ خُلع « برِمْبه » ملك بلاد أشنتى التى على الساحل الغربى، وضُمت بلاده الى أملاك انجلترة . وتلا ذلك اخماد الفتن وتهدئة الأحوال

في « بنين » و « سيّراليُون » في عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ . وأعظم أعمال انجلترة في هذه الجهات هو تأسيس ولاية نيجيريا الشاسعة الأطراف ، التى تمتد الآن في الداخل الى شواطئ بحيرة شاد . ففى عام ١٨٧٩ ضم « السير جورج جولدي » جميع الشركات التجارية التى كانت تتجر على النيجر ، وكوّن منها « شركة افريقية المتحدة » وفى هذه الآونة رأى التجار الفرنسيون تقدم التجارة الانجليزية في هذه الجهات ؛ فدعا ذلك الى تكوين شركتين فرنسيتين ، ولكن الانجليز اشتروهما قبل اجتماع مؤتمر برلين ؛ ووافق المؤتمر على اعلان الحماية الانجليزية على هذه الجهات . وفى سنة ١٨٨٥ أُبرمت محالفة مع سلطان « سُقُوطو » خوّل بها للشركة حق الاتجار مع أهل هذه البلاد العظيمة السكان ، وأن تأخذ في يدها ادارة شؤونها الخارجية

نيجيريا

وفى عام ١٨٨٦ أقرت الحكومة الانجليزية شركة النيجر الملوكية ، وخوّل لها حق السلطة على شاطئ النهر . أما الأنحاء النائية من النهر شرقًا وغربًا فأعلنت عليها الحماية الانجليزية ، وجُعلت تحت اشراف الحكومة الانجليزية نفسها سنة ١٨٩٣ . وقد بقى التنافس عظيمًا بين انجلترة وفرنسا على امتلاك اصقاع النيجر ، حتى حُدّت دائرة نفوذ كل منهما سنة ١٨٩٨ . وفى عام ١٨٩٩ شعرت شركة النيجر الملوكية بعدم مقدرتها على تحمّل اعباء ادارة هذه البلاد ؛ فاشترتها الحكومة الانجليزية منها ، وصار يطلق عليها « نيجيريا الشمالية » . ثم حُوّلت حماية ساحل النيجر الى « نيجيريا الجنوبية » وضُمت الى « لاغوس » سنة ١٩٠٦ . وفى سنة ١٩١١ وصلت السكة الحديدية في هذه الاصقاع الى « كانو » التى تبعد عن البحر نحو تسعمائة ميل

تنافس انجلترة وفرنسا

نيجيريا الشمالية والجنوبية

أما في الساحل الشرقى فلم تكن اتفاقية شرقى افريقية التى أُبرمت بين بريطانيا العظمى وألمانيا سنة ١٨٨٦ قاطعة للمشاحات بين الدولتين في الاصقاع الداخلية . ففى سنة ١٨٩٠ توغل الدكتور بطرس في أوغندة ، واستمال ملكها حتى وضع نفسه تحت الحماية الألمانية . لكن المفاوضات التى أعقبت ذلك بين الدولتين أفضت الى نزول ألمانيا في العام نفسه عن حقوقها في هذه الجهة . ومع ذلك فان شركة افريقية الشرقية

انجلترة وألمانيا في شرقى افريقية

أوغندة

الانجليزية التى رُخص بها سنة ١٨٨٧ وجدت أنها لا تقدر على تحمل اعباء هذه الارجاء الجديدة ، وأعلنت أنها ستنجلى عنها سنة ١٨٩٢. فأرسلت الحكومة الانجليزية مندوباً من قبلها سنة ١٨٩٣ ليفحص أحوال البلاد ؛ وقد قبلت الحكومة نصيحته ، فأبقت أوغندة فى يدها ، وأعلنت عليها الحماية سنة ١٨٩٤ . أما الشركة فانها باعت باقى حقوقها الى الحكومة ؛ فتأسست بذلك « حماية شرقى افريقية الانجليزية » .

شرق أفريقية الانجليزية

وقد شرعت الحكومة فى مد سكة حديد أوغندة سنة ١٨٩٦ ، فبلغت بحيرة فكتوريا سنة ١٩٠٩

جنوبى افريقية

عظم الاملاك الانجليزية

مما لا ريب فيه ان تكوين دولة عظيمة فى جنوبى افريقية يخفق عليها العلم البرطانى يعدُّ أكبر حادث فى تاريخ « القارة المظلمة » . لذلك يجدر بنا أن نقول كلمة مختصرة عن نشأة هذه الدولة ، وكيف أسسها الانجليز وبنوا مجدهم فيها .

مبدأ الحكم الانجليزى

استولت انجلترة أثناء حروب نابليون على كثير من مستعمرات هولندة التى كانت وقتئذٍ حليفة فرنسا . ومن ذلك أملاكها فى « جنوبى افريقية » ، أى مستعمرة الرأس ولما أُبرم الصلح فى عام ١٨١٤ بقيت هذه المستعمرة وبعضُ مستعمرات هولندية فى أمريكا الجنوبية فى قبضة انجلترة ، على أن تعوَّض هولنـدة عن ذلك مبلغ ٦،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . وقد أسس الهولنديون هذه المستعمرة لتكون محطة لتزويد سفنهم التى تتجر مع الشرق (راجع الجزء الأول من هذا الكتاب) ؛ فكان غرض الانجليز منهـا نفس غرض الهولنديين ، لأن التجارة الانجليزية مع الهند كانت تسلك هذه الطريق ، اذ لم تكن حُفرت قناة السويس بعدُ . وعند استيلاء الانجليز عليها كان عدد سكانها لا يزيد على ٢٧،٠٠٠ أوربى ، معظمهم من الهولنديين ، و ٣٠،٠٠٠ من العبيد الزنوج والملايو ، ونحو ١٧،٠٠٠ من الهوتنتوت . وعلى اثر ذلك أخذ المهاجرون الانجليز يفدون اليها ويستوطنونها

الشقاق بين الانجليز والبوير

ولم يمض طويل حتى أخذت أسباب الشقاق تنمو بين الانجليز والسكان الهولنديين (البوير*) ، فإن الانجليز بدّلوا بأنظمة الحكومة التى اعتادها البوير غيرها ، وجعلوا اللغة الانجليزية اللغة الوحيدة فى المحاكم ؛ فثارت نفوس البوير ، وازداد سخطهم بمحو الانجليز بيع الرقيق سنة ١٨٣٤ . فقد كان الاسترقاق فى عرف البوير مألوفاً ؛ وعظُم استياء القوم حينما رأوا أنهم غبنوا فى سلعهم ، اذ منحتهم انجلترة نحو ٣،٠٠٠،٠٠٠ جنيه تعويضاً لهم عن أرقائهم ، فاعتبروا أن هذا المبلغ لا يوازى ثلث ما فقدوه بتحرير عبيدهم ، وزعم الكثيرون منهم أن منع الرقيق فيه الخراب العاجل عليهم

هجرة البوير الى الداخل

لذلك عزم البوير أن يغادروا تلك المستعمرة ، ويتوغلوا فى الداخل ، حيث يتخذون لأنفسهم موطناً جديداً لا يسلب حريتهم فيه أحد . وقد ابتدأت هذه الهجرة منذ سنة ١٨٣٦ ، واستمرت عدة أعوام ، وبذلك جلا عن مستعمرة الرأس نحو ١٠،٠٠٠ من البوير . وكانوا فى رحلاتهم هذه يستعملون العجلات الخشنة التى تجرها الثيران ، لنقل أسرهم وأمتعتهم الى الفلوات المقفرة فى الداخل . فاتّجه بعضهم نحو الشمال واستوطن «ناتال» ؛ ولكن أتعابهم ضاعت سدى ، اذ وجدوا أن الانجليز هنالك أيضاً حجر عثرة فى سبيل حريتهم ، فقد أرسلت الحكومة الانجليزية بعض الجنود الى ناتال عام ١٨٤٠ . وفى السنة التالية أعلنت الحماية عليها . عند ذلك هاجر الكثير من البوير ثانية لينضموا الى إخوانهم الذين نزلوا حوض نهر الأورنج ؛ فكان ذلك مبدأ تأسيس «ولاية الأورنج الحرة» . ولكن الانجليز قفوا أثرهم الى هنالك أيضاً ، وأعلنوا سنة ١٨٤٨ ان هذه الجهات جزء من الدولة البرطانية . وأطلقوا عليها اسم « مستعمرة نهر الأورنج » . ولم يقبل كثير من بوير نهر الأورنج الخضوع للحكم البرطانى ، فهاجروا ثالثةً لينضموا الى من اتجه منهم فى الهجرة الأولى الى الشمال . فعبروا نهر الفال وألقوا عصا الترحال . وهنالك كونوا ولاية عرفت فيما بعد «بالترنسفال»

البوير فى ناتال

فى حوض الاورنج

الانجليز تتبعهم

البوير فى الفال

---

* الكلمة معناها الفلاحون ، ولعلها أطلقت عليهم لاشتغالهم بالزراعة

الترنسفال

أو « جمهورية جنوبي افريقية » فبقوا مدة يتمتعون بالاستقلال المحبوب الذى طالما كانوا ينشدونه

استقلال الاورنج الحرة والترنسفال

وذلك أن انجلترة لما رأت سنة ١٨٥٢ أنها لا تنال فائدة تذكر من ضم الترنسفال الى مستعمراتها ، أعلنت استقلالها رسمياً ، وخولت لها الحق المطلق فى ادارة شؤون حكومتها ، وذلك بمقتضى « اتفاقية نهر سَند » . وبعد سنتين أعلنت نزولها عن السيادة التى لها على مستعمرة نهر الأورنج بمقتضى « اتفاقية بلُمفنتين » . ومن ذلك العهد ابتدأ تاريخ جمهوريتى البوير فى جنوبى افريقية (بلاد نهر الأورنج الحرة والترنسفال)

بقاء الاورنج الحرة

وقد بقيت جمهورية نهر الأورنج منذ سنة ١٨٥٤ تتمتع باستقلالها . لا يناهضها فيه أحد حتى عام ١٨٩٩ . أما الترنسفال فتمتعت بتلك النعمة الى سنة ١٨٧٧ ، اذ

ضم الترنسفال

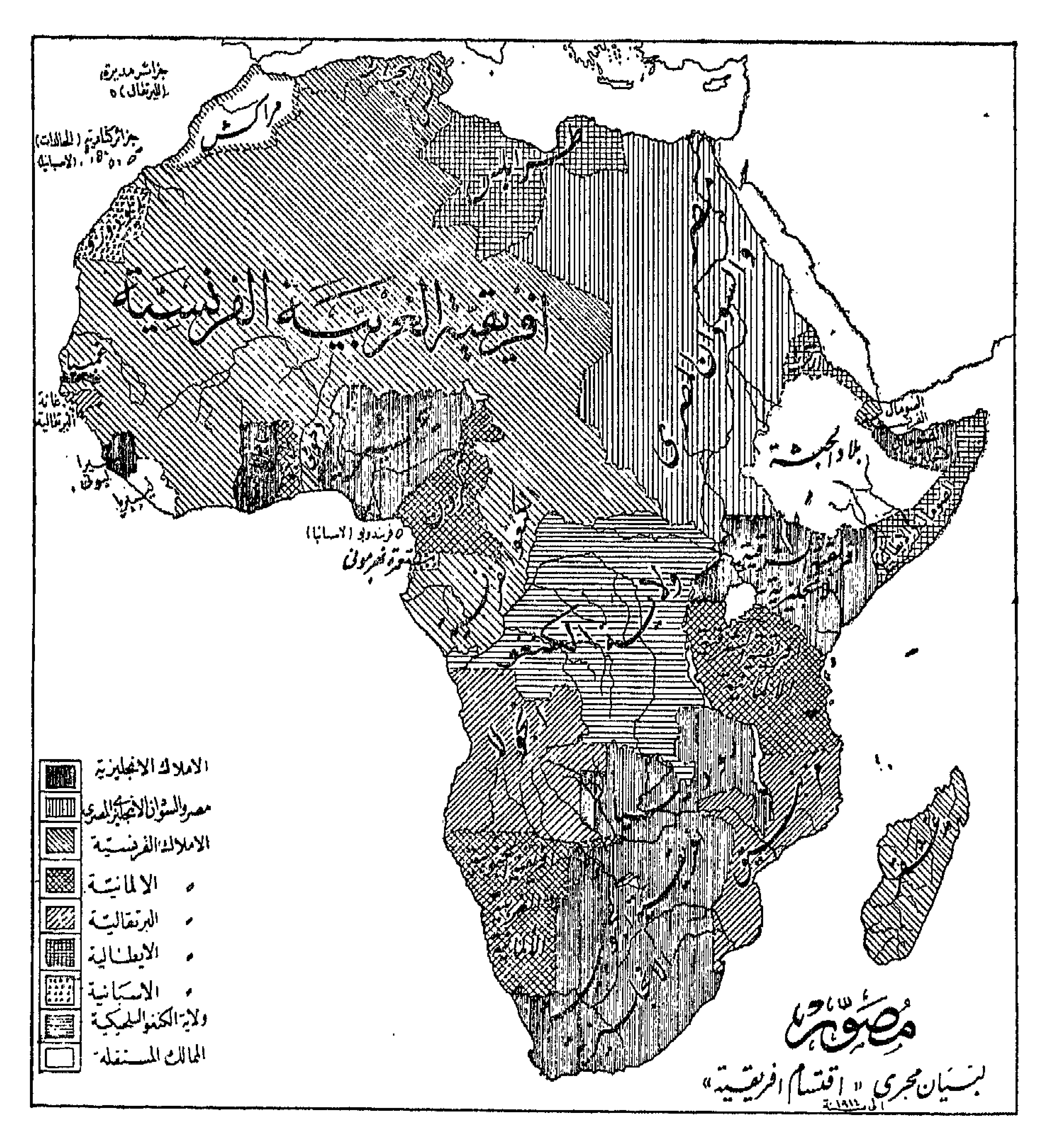
أعلن اللورد « بيكنز فيلد » ضمها الى الدولة البرطانية بحجة أن استقلالها أصبح خطراً يهدد أملاك انجلترة الأخرى فى جنوبى افريقية ، اذ كان البوير من حين الى حين يتشاحّون مع الأهالى بحالة قد تفضى الى هياجهم واضطراب الأحوال فى جنوبى افريقية . عنـد ذلك قام وفد من البوير الى انجلترة ليحتج على ذلك ، ويطلب اعادة الاستقلال الى البلاد . وكان من بين هذا الوفد « بولس كروجَر » الذى صار له بعدُ شأن كبير فى حرب البوير . فأفهمت الحكومة الانجليزية رجال الوفد أن ارجاع استقلالهم أصبح ضرباً من المحال . فازداد لذلك حقد البوير على الانجليز ، وأخذوا يدبّرون لهم المكايد للمستقبل

غلادستون ينصر البوير

وفى سنة ١٨٨٠ سقطت وزارة اللورد بيكنز فيلد ، وتولى رآسة الوزارة غلادستون وقد كان لا يعتقد فى فائدة ضم هذه البلاد ، ففتح باب المفاوضات مع زعماء البوير مؤملاً أن يصل الى حل يرضى الطرفين . غير أن البوير أنفسهم عقّدوا المسألة ،

ثورة البوير

إذ ثاروا فى ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، وهزموا قوة صغيرة من الأجناد الانجليزية عند تل « ماجوبا » فى شهر فبراير سنة ١٨٨١ . ومع أن هذه الواقعة لم تكن شيئاً مذكوراً من الوجهة الحربية ، كان تأثيرها عظيماً فى نفوس الانجليز والبوير . الاّ أن



غلادستون لم يعبأ بها ، واستمر فى مفاوضة البوير حتى أعاد اليهم استقلالهم ، مع إبقاء حق «السيادة» عليهم للتاج الانجليزى . وقد أنكر الانجليز سياسة غلادستون فى هذه المسألة ، وعدّوها مضرة بمصلحة المستعمرات الانجليزية فى جنوبى افريقية ، ومذهبة بمكانة العاهلية البرطانية. غير أن غلادستون ضرب بكل ذلك عرض الحائط ، وأبرم « اتفاقية بريتوريا » مع البوير سنة ١٨٨١ ؛ وبها منحهم استقلالهم مع بقاء كلمة «السيادة» الغامضة فى نص المعاهدة . على أن هذه الاتفاقية لم تكن حلاً مرضياً للمسألة، لاستياء البوير من كلمة « السيادة » ؛ فأبرمت بين الطرفين اتفاقية جديدة

غلادستون يمنحهم الاستقلال

السيادة الانجليزية

اتفاقية لندن

سنة ١٨٨٤ تعرف باتفاقية « لندن » أُعيد بهـا للترنسفال لقبها القديم « جمهورية جنوبي افريقية » ومُحيت كلمة «السيادة» ، وأضيف بدلها شرط آخر كان له أثر عظيم فيما بعد ، وهو « أن يكون للمهاجرين من الجنس الأبيض الحرية التامة لأن يقيموا أو يتجروا فى أى جهة من الجمهورية ، وأن لا يؤخذ منهم من الضرائب فوق ما يؤخذ من أهل الجمهورية أنفسهم »

بذور الشقاق

وقد عد البوير اتفاقية « لندن » انتصاراً عظيماً لهم ، وأطمعتهم فى الوصول يوماً ما الى خلع ذلك القيد الذى تحتويه. والحقيقة انهم لم يُمنحوا بها الاستقلال التام؛ اذ بقيت علاقاتهم الخارجية فى يد انجلترة ، فضلاً عن أن مسألة الهجرة كانت تحتوى بذور شقاق استفحل فى المستقبل ، حتى كان من ورائه هدم الجمهورية وضياع ما لدى البوير من الاستقلال. وذلك انه فى سنة ١٨٨٤ عُثر على مقادير كبيرة من الذهب فى اقليم « الرّند » بالترنسفال ؛ وكان البوير لايميلون الاّ الى الاشتغال بالزراعة ورعى الماشية؛ فتدفق جم غفير من الأوربيين الى بلادهم ، ونشأت فى جوف اقليم

معاملة الاجانب

المناجم مدينة عظيمة تدعى «جوهنّسبرج» بلغ عدد سكانها فى بضع سنوات نحو مائة ألف نفس ، جلهم من غير البوير. ولما خاف البوير من صبغ المهاجرين بلادهم بصبغة أجنبية ، حرموهم من كل اشتراك فى شؤون البلاد السياسية . وقد كان من الممكن تلافى الأمر ووقوفه عند هذا الحد ، غير أن سياسة كروجر رئيس الجمهورية وقتئذ كانت عقيمة استبدادية . وقد حاولت الحكومة الانجليزية أن تقنع كروجر

سياسة كروجر

بأن ينزل لهؤلاء المهاجرين عن بعض الحقوق ، فلم يزدد الاّ تمادياً : ففى سنة ١٨٩٥ رفعت « شركة سكة حديد الأراضى المنخفضة » بالترنسفال أجورها حتى اضطر تجار الكاب الى نقل بضائعهم على عجل يعبر نهر الفال : فقابل كروجر ذلك بسد المعابر المؤدية الى بلاده ، ولم يرجع عن هذا المنهج الاّ بعد أن أرسلت له انجلترة انذاراً نهائياً

سسل رودس

وبينما كان كروجر واقفاً موقف بطل البوير المحافظين ، كان فى المستعمرات

الانجليزية بجنوبى افريقية رجل أخـذ يظهر شيئاً فشيئاً ، حتى تمثلت فيه السياسة الانجليزية ومراميها فى تلك الأرجاء . ذلك هو « سِسِل رودِس » . نزل هذا المدبّر العظيم جنوبى افريقية سنة ١٨٧٠ ، فجمع له ثروة طائلة من مناجم الماس فى كمبرلى . ولما انخرط فى سلك أعضاء برلمان الرأس سنة ١٨٨٤ صار له صوت عظيم فيه ، وأخذ يضم اليه الأعوان لتنفيذ خطته ، التى ترمى الى توسيع نطاق المستعمرات الانجليزية .

مراميه

وما لبثت الحكومة الانجليزية ان عملت بمشورته ، وجدّت فى ابقاء الطريق المؤدية الى الشمال مفتوحة بارسال حملة بإمرة « وَرِن » سنة ١٨٨٤ لطرد بوير الترنسفال الذين استوطنوا « بتشوانالندة » . فنجحت الحملة فى الوجه الذى خرجت له ، وفى اثر ذلك صارت بتشوانالندة الجنوبية مستعمرة صرفة ، وأُعلنت على الشمالية الحماية الانجليزية . وفى سنة ١٨٨٨ منح ملك « المتابيل » لعمال رودس حق التعدين فى بلاده . وتلا ذلك تأسيس رودس « شركة افريقية الجنوبية الانجليزية » سنة ١٨٨٩ لاستغلال داخل هذه الجهات ، وعلى أمل أن يمد سلطان انجلترة الى نهر الزمبيزى وما وراءه من الأصقاع . وقد ابتدأت أول رحلة لهـذا الغرض سنة ١٨٩٠ بقيادة «المستر سيلوس» الصياد الشهير؛ فأسست معقلاً عند«سَالِسْبُرِى» فى«مشونالندة»، ولم تلبث الترنسفال أن نزلت عن حقوقها فى الأصقاع التى شمالىّ نهر لمبوبو . وفى عام ١٨٩١ ثبتت قدم الانجليز فى هذه الجهات بأن أبرموا معاهدة مع البرتغال ، على أن تمتلك البرتغال الأراضى الساحلية من حوض الزمبيزى ، وتبسط انجلترة سلطانها على مَتبلّيلَنْدَة ومشونالندة والأصقاع التى وراء نهر الزمبيزى . وعند ذلك أقرت الحكومة شركة سسل رودس ، وضمت اليها جزءاً من الأقاليم الأخيرة باسم «روديسيا الشمالية» وكذلك أعلنت الحماية على نيَسّالندة ، وفى سنة ١٩٠٧ أُطلق عليها اسم « حماية نيسّالندة» . على أن الشركة ما لبثت أن لاقت صعوبات كثيرة لقيام قبائل المتابيل عليها مراراً . وقد أُطفئت آخر هذه الثورات سنة ١٨٩٦ ، حينما ذهب رودس بنفسه وزار معسكر المتابيل . و بعد ذلك بعام امتدت السكة الحديدية الى بُولاوايُو ؛ وكذلك

الانجليز فى بتشوانالندة

شركة افريقية الجنوبية الانجليزية

الانجليز شمالى لمبوبو

روديسيا الشمالية

نيسالندة

أصبحت البلاد تطل على البحر بمد خط حديدى من «سلسبرى» الى « بيرة ». وقد تطلبت هذه الولاية الجديدة نفقات باهظة ، ادّت الى عجز كبير فى ماليتها . وازداد الأمر ارتباكاً بقيام المشاغبات بين النزلاء والشركة . ولكن المصاعب أخذت تنفسح تدريجاً ؛ وفى عام ١٩٠٥ امتدت السكة الحديدية حتى عبرت نهر الزمبيزي ، وقُسمت الأراضي الشاسعة الأطراف القليلة السكان التى وراء ذلك النهر الى « روديسيا الشمالية الغربية » و « روديسيا الشمالية الشرقية » ؛ وتمتد الأولى الى ولاية الكنغو ، والثانية الى افريقية الشرقية الألمانية وبحيرة « تنجنيقا »

حالة روديسيا

خطأ سسل رودس

بلغ رودس فى عام ١٨٩٥ من علو المنزلة والسطوة ما لم يبلغه غيره فى جنوبى افريقية : فانه كان المسيطر على مدينة كمبرلى والوزير الأول لمستعمرة الرأس ومؤسس روديسيا وزعيم الحركة فى مناجم الرند ، فضلاً عن كونه رائد الوفاق بين الانجليز والأهلين . ولكنه هدم ذلك المجد الأثيل بغلطة واحدة أعاد بها ما كان بين الانجليز والبوير من الأحقاد . ومجمل ذلك أن الأجانب فى الترنسفال لمّا يئسوا من نيل مطالبهم والنظر فى مظالمهم فى بريتوريا ، عزموا على الخروج على البوير ووضع السلطة فى أيديهم ، إذ لم يكن لهم نصيب قط فى حكومة البلاد ، حتى ولا حق التصويت فى الانتخاب ، وذلك على الرغم من أنهم كانوا فى بعض بقاع البلاد اكثر عدداً من البوير أنفسهم ويتحملون الشطر الأعظم من الضرائب ، ويُجبرون على الخدمة العسكرية ؛ فرفعوا ظلامتهم الى الحكومة الانجليزية ، لتدخل فى الأمر وتطلب الى حكومة بريتوريا القيام بالاصلاح . وكان البوير يعتقدون أنهم بمنع هؤلاء الأجانب من التصويت فى انتخاب أفراد الحكومة ، يمكنهم المحافظة على كيان بلادهم التى لاقوا الأهوال فى تأسيسها فى وسط الفضاء المقفر

استياء الاجانب فى الترنسفال

ولما أراد هؤلاء الاجانب القيام على البوير لنيل حقوقهم ، وعدهم رودس بإنجادهم برجال شرطة الشركة ، الذين كانوا وقتئذٍ على تمام الأهبة على الحدود الغربية . فأرسل الأجانب رسالة الى « جمسون » قائد هذه الجنود ادّعوا فيها أن النساء والأطفال

نصرة رودس لهم

غارة انجلترة على البوير

فى مدينة جوهنسبرج أصبح يتهددهم الخطر ، وطلبوا اليه أن يذود عنهم. فأغار على الحدود فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٩٥ ، ولكنه اضطر الى التسليم عند ما دهمه البوير بجيش عظيم . فاهتزت لهذا الحادث أركان افريقية الجنوبية ؛ ورأى الهولنديون (البوير) وجوب تكاتفهم . ومن ذلك الحين أصبح الرئيس « كروجر » بطل حركة الاستقلال . فعقد تحالفاً حربياً مع مستعمرة نهر الأورنج سنة ١٨٩٧ ؛ وأخذت الترنسفال تستحضر من أوربا مقادير وافرة من الأسلحة والذخيرة ، استعداداً لما عساه أن يحدث

كروجر بطل حركة الاستقلال

تقاعد الحكومة الانجليزية

وكانت حكومة الترنسفال بعد تلك الغزوة تنتظر من الحكومة الانجليزية أن تعاقب المدبّرين لها ، وبخاصة سسل رودس الذى كانت البوير تعتقد أنهُ سبب الغارة فامتنعت انجلترة عن فعل شيء من هذا ؛ وزاد سخط البوير أنهم كانوا يعتقدون أن وزارة المستعمرات الانجليزية تعلم أمر هذه الحملة . ومن ذلك الحين أصبح كل من الفريقين يتحدث باعلان الحرب لاحراز السيادة على جنوبى افريقية . وقد زاد الطين بلة أن انجلترة أرسلت « السير ألفرد ملنر » سنة ١٨٩٧ لفحص حالة البلاد ؛ فقدم تقريره فى أوائل عام ١٨٩٩ ، فأظهر فيه مظالم الرعايا الانجليز ، وما هم عليه من سوء الحال ، وأن عدم اجابة الأمة الانجليزية الى نداء رعاياها المضطهدين مما ينزل من كرامة الحكومة الانجليزية ، ويضعف نفوذها ويحط من قدرها . واوضح أن البوير يرمون الى بسط نفوذهم على كل افريقية الجنوبية وطرد الانجليز منها جملة . وقد رأى أن لا شيء يوقف البوير عند حدهم ويقضى على تلك الدعوة ، الاّ إقامة الأمة الانجليزية البرهان القاطع على أنها لا تسمح لأحد أن يزعزع سلطانها فى جنوبى افريقية

الفرد ملنر فى جنوبى افريقية

تقريره فى جانب الانجليز

تفاوض مجدب

وفى أوائل سنة ١٨٩٩ أرسلت الأجانب فى الترنسفال تظلماً لانجلترة ، فوعدتهم بالتدخل فى الأمر . وعند ذلك اجتمع المندوب العالى الانجليزى بالرئيس كروجر فى مدينة بلمفنتين فى مايو ، ولكنهما لم يصلا الى حل المشكلة . فاستمرت المناقشة بلا جدوى فى أمر تجنس الأجانب بالجنسية البويرية ومنحهم حق التصويت فى انتخاب

أعضاء الحكومة ، الى الصيف . وفى شهر سبتمبر أخذت الجنود تفد من انجلترة والهند ؛ وفى اكتوبر أرسلت الترنسفال بلاغها الأخير لانجلترة . وعلى إثر ذلك نشبت « حرب جنوبى افريقية » الشهيرة التى حملت الفريقين خسائر فادحة

حرب جنوبى افريقية

بدأ الحرب بغزو البوير بلاد ناتال حيث فاز الانجليز أولاً فى موقعة تل «تالانا» وغيرها ؛ ثم رُدّوا على أعقابهم أمام قوات العدو العظيمة الى « ايديسمِث » ، وفى

الطور الاول

هذا الوقت طوقت قوات من البوير مدينتى مفكنج وكمبرلى ، وغزوا مستعمرة الكاب . ولما وصلت النجدات الانجليزية بقيادة « بُلَر » أخذ الانجليز خطة الهجوم

الطور الثانى

وبذلك ابتدأ الطور الثانى من الحرب . فسار مِثْوِن لتخليص كمبرلى ؛ فرُد على أعقابه وكسر عند « ميجُر سفُنْتين » فى العاشر من شهر ديسمبر . وهُزم جيش انجليزى آخر عند ستُرِبْرج . وخاب بلر فى عبور نهر توجيلا ، اذ صده «بوثا» القائد البويرى الشهير . عند ذلك شعرت انجلترة بخطورة الحرب ، فنصّبت « اللورد رُبَرْتس » قائداً عاماً للجيوش الانجليزية ، يعاضده فى ذلك « اللورد كتشنر » . وقد ابتدأ

الطور الثالث

الطور الثالث من الحرب عند ما طوق القائد الانجليزى « فرِنْش » بخيالته معسكر البوير ، وخاص مدينة كمبرلى ، واضطر القائد البويرى « كرُنْج » الى التسليم بجيشه عند « باردِبرج » . فكان تسليم كرُنْج محور نجاح الانجليز ، اذ بعده غزوا ولاية نهر الاورنج الحرة ، واحتلوا مدينة بلمفنتين . وكذلك خلص « بُلر » ليديسمث بعد جهاد عظيم ، وطرد العدو جملة من ناتال . وتبع ذلك خلاص مفكنج التى كانت لاتزال مطوقة ؛ واستولى اللورد ربرتس على مدينتى جوهنّسبرج وبريتوريا ؛ فلم يرَ كروجر عندئذٍ مخرجاً له من هذا المأزق الاَّ الهرب الى أوربا . وبذلك دخلت

الطور الرابع

الحرب فى طورها الرابع ، وهو طور الختام . ولم يَعدْ البوير يطمحون فيه الى النصر ، بل صاروا يدافعون عن شرفهم . وقد أبدى قائدهم « دويت » وقتئذٍ مهارة فائقة فى حرب الكر والفر ، كان لها اكبر أثر فى عرقلة حركات الانجليز فى هذه الانحاء . على أن امتداد أمد الحرب لم يُنل الانجليز مرامهم ؛ فان كثرة عددهم وتخريبهم البلاد يميناً وشمالاً وكثرة الوفيات بين العدو، لم يفت فى عضد البوير حتى يسلموا للانجليز

بلا قيد ولا شرط . وبقى الحال كذلك الى أن تضاءل عدد البوير وضعفت حيلتهم فرضوا بالصلح وأبرموا مع الانجليز معاهدة « فرينِنْج » فى مايو سنة ١٩٠٢ . وبها فقدت الترنسفال وولاية نهر الأورنج الحرة استقلالها ، وأصبحتا مستعمرتين انجليزيتين وفيما عدا ذلك روعى فى المعاهدة مصلحة البوير . فتكفلت انجلترة بمنح الأهالى المال لإصلاح بلادهم التى خرّبتها يد الحروب ، وباحترام لغتهم كما سمحت بذلك الأحوال

الصلح

وقد سارت الحكومة الانجليزية فى ترضية البوير وتهدئتهم بسرعة عظيمة ، فانها منحت الترنسفال حكومة مسؤلة سنة ١٩٠٦ ، ومنحت مثل ذلك لمستعمرة نهر الأورنج سنة ١٩٠٧ . وقد أدى سلوك الحكومة الانجليزية هذه الخطة الديمقراطية الى نتائج حسنة جداً ، ظهرت بأجلى بيان فى تلك الحركة العظيمة التى قامت لتوحيد جنوبى أفريقية وخُتمت فى سنة ١٩٠٩ بتكوين أمة قوية جديدة خاضعة للدولة الانجليزية . ففى عام ١٩٠٨ عُقد اجتماع سرى لهذا الغرض فى مدينة « دِرْبان » ثم فى مدينة الرأس ، فكانت نتيجة ابحاثه سن نظام حكومة لوحدة جنوبى افريقية . وقد عُرض هذا النظام على المستعمرات الأربع (الرأس وناتال ونهر الأورنج والترنسفال) ، فلم ينقض شهر يونيه حتى صادقت عليه جميعاً . ثم قُدم الى البرلمان الانجليزى، فوافق عليه وأصبح قانوناً فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٩

ترضية البوير

وحدة جنوبى افريقية

على أن اتحاد جنوبى افريقية لا يشمل فى الحقيقة عدة حكومات متحدة كما هو الحال فى كندا واستراليا ، بل يتألف من حكومة موحّدة . فانه على الرغم من بقاء كل مقاطعة على انفرادها جُعلت سلطة كل منها محدودة . وتتألف الحكومة الرئيسية من حاكم عام منصب من قبل الملك ، ومن مجلس تنفيذى ، ومجلس شيوخ مؤلف من أربعين عضواً ، ثمانية من كل مستعمرة وثمانية ينصبهم الحاكم ، وتبقى مدة عملهم عشر سنين . ثم مجلس النواب ويتكون من ١٢١ عضواً ، منهم ٥١ عضواً يمثلون مقاطعة رأس الرجاء الصالح و٣٦ ينوبون عن الترنسفال و١٧ عن ولاية نهر الأورنج و١٧ عن مقاطعة ناتال . وأصبحت كلتا اللغتين الانجليزية والهولندية رسميتين لا تمتاز أحداهما عن الأخرى فى شىء

نظام الحكومة

الحاضرة

وقد قامت فى بادئ الأمر منافسة عظيمة بين الولايات على انتخاب حاضرة البلاد ، الى أن تم الاتفاق على أن تكون بريتوريا مركز الحكومة التنفيذية . ومدينة الرأس مركز الحكومة التشريعية . ودعى القائد بوثا لتكوين الوزارة . وقد افتتح برلمان الاتحاد لأول مرة فى مدينة الرأس سنة ١٩١٠ بحضور دوق كونوت

الأملاك الايطالية

وقبل أن نختم الكلام على تقسيم افريقية نقول كلمة عما نال ايطاليا من تلك الغنيمة :

أساب

أول بقعة نزلها الايطاليون فى افريقية منطقة صغيرة حول خليج « أسَّاب » على البحر الأحمر ، نزلوها سنة ١٨٧٠ وأخذوا يمدونها بعد سنة ١٨٨٢ حتى وصلت الى مستعمرة « أُبُوك » الفرنسية ، فتكونت من ذلك مستعمرة « إرِتْريا » ودخلت فيها « مصوّع » وغيرها من السواحل التى كانت فى يد مصر واضطرت الحكومة المصرية الى الانصراف عنها أيام الحروب السودانية ، فضمتها ايطاليا اليها بموافقة انجلترة . وحاول الايطاليون بسط نفوذهم على الحبشة ؛ فباءوا بالفشل وفتك الأحباش بجيوشهم فتكاً ذريعاً (١٨٨٧ و ١٨٩٦) . ولما تخلت الحكومة المصرية عن نفوذها فى سواحل الصومال اقتسمت انجلترة وايطاليا تلك الجهات بينهما ؛ فأعلنت انجلترة الحماية على الجزء الشمالى سنة ١٨٨٤ ، وضمت ايطاليا اليها الجزء الشرقى سنة ١٨٨٩

ارتريا

الصومال

طرابلس

وقد أشرنا آنفاً الى اطماع ايطاليا فى طرابلس منذ زمن بعيد . فلما رأت ان انجلترة وفرنسا صارتا صاحبتى النفوذ فى مصر وتونس ، حنقت لذلك ، وقويت اطماعها فى طرابلس . وبعد مفاوضات طويلة تم التفاهم بين ايطاليا وفرنسا على مصالح كل منهما فى شمالى افريقية ؛ وأعلن وزير الخارجية الايطالية فى البرلمان سنة ١٩٠٢ (وقد سئل عن مصير طرابلس) « انه عند حدوث ما يغيّر الأحوال الحاضرة فى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، لن تجد ايطاليا أحداً يقف بينها وبين آمالها المشروعة » . وقد رأينا نحن أيها الأحياء بأعيننا كيف أغارت ايطاليا على طرابلس فجاءة وانتزعتها من تركيا عام ١٩١٢ ؛ فلم يكن عملها وقتئذٍ الاّ نتيجة أمل قديم وتربص طويل


Bibliotheca Alexandrina
04429069